

بسم الله الرحمن الرحيم

## دراسات منهجية من فيض الأصلين: الكتاب والسنة

بقلم: أ.د. محمد رفعت أحمد زنجير

## الإهداء

إلى الكاتب الإسلامي الكبير..

سماحة الشيخ السيد أبي الحسن علي الحسيني الندوي رحمه الله تعالى!

لقد كان علم الإسلام في الهند، وعلم الهند في العالم الإسلامي!

طيب الله ثراه..

وجعل الجنة مثواه..

إلى روحه الطاهرة .. أهدي هذا الكتاب

المؤلف

## المقدمة

الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على هادي الأمم، وخير مبعوث للعالمين، اللهم صل عليه وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين إلى يوم الدين.

وبعد: فهذه مجموعة أبحاث تدور حول القرآن الكريم، كنا نشرنا معظمها بحوثاً محكمة، ورأينا جمعها الآن في كتاب واحد، ابتغاء الأجر والثواب، ولتكون صوى للباحثين والدارسين، ونوراً لي في قبري إلى يوم الدين، نكتبها ونحن نقترّب من خريف العمر، سائلين الله عز وجل حسن الخاتمة وواسع المغفرة.

إنْ كان غيري وراء اللهو متعته  
فمتعتي البحث عن علمٍ وعن قيمٍ  
وجهت وجهي للرحمن أعبده  
ورحمت أقصده في الحلّ والحرم  
فأكرم من نزل في القبر يا سندي  
أنت الملائد لنا وخير مُعتصم  
جنناك في كبدٍ وشرٌّ مخصصة  
ولا يلوذ الفتى إلا بذِي كرم  
وفرجن عن بلاد العُرب كربتها  
والمسلمين جميعاً داعي الأُمم  
ووحدن أمة التوحيد قاطبةً  
بالعز أكرمها من سائر الأمم  
فإن أمتنا لو أخفقت فلهنا  
من ربها مرشدٌ في أحلك الظلم

وقد رأينا تسميتها بـ: (دراسات منهجية من فيض الأصليين: الكتاب والسنة).

والشكر لكل من يساعد على نشره، والله حسبنا ونعم الوكيل، ورحم الله امرأً أسدى إلينا نصيحة، أو دلنا على عيب نتلافاه.

## وهذه البحوث مرتبة في الكتاب كالآتي:

- 1- أكبر الكبائر: الشرك بالله تعالى! أنواعه - أسبابه - نتائجه - الوقاية منه. (دراسة قرآنية موضوعية).
- 2- منهجية القرآن الكريم في التعامل مع آراء معارضييه
- 3- وسائل القرآن في حوار الآخر
- 4- أدبيات الجمال في الكتاب والسنة بعد غائب في منهاج الدعوة في العصر الحديث
- 5- الأنبياء والرسل عليهم السلام ضحايا الظلم والعدوان!! (دراسة قرآنية)
- 6- معركة القرآن مع الجمود والتخلف
- 7- القيم الحضارية العليافي الدعوة الإسلامية
- 8- دراسات في الإعجاز الخالد
- 9- مبادئ العملية الإعلامية في خطاب الهدد

وينتظم بين هذه البحوث خيط واحد، وهو إظهار الوجه الحضاري الأصيل للدين الحنيف، بعيداً عن التشويه الذي أصابه بسبب جهل بعض أبنائه، وعجز أكثر علمائه، وحقد معظم أعدائه.

فالتوحيد هو أساس البناء الإسلامي، وقاعدة الدين، وبضده الشرك الذي هو أساس الشر في الدنيا والآخرة، حيث يدين الإنسان بالعبودية لمخلوق مثله، سواء كان بشراً أو حجراً أو بقرراً أو قمرراً... ومن ثم يفقد الإنسان حريته وكرامته أمام مخلوقات مثله يدين لها بالعبودية، لذا كان أول تحرير للإنسان ينبغي أن يبدأ من عقله وقلبه، باقتلاع العبودية لأي مخلوق كان، وجعلها خالصة لله الأحد، وهذا هو غاية السمو الفكري والتحرر العقلي والانعقاد من رق العبودية لغير الواحد الأحد سبحانه وتعالى!

والتعامل بمنهجية مع المعارضين، وعرض أقوالهم وحججهم والرد عليها بكل موضوعية وشفافية، دليل على أن هذا الدين لا يخشى الآخرين، فهو الدين الحق، الذي يقوم على الحوار والحجة وليس على القهر والإرهاب!

وقد عرضنا وسائل القرآن في حوار الآخر، وهي وسائل متعددة، تدل عظمة هذا الدين، واستيعابه شتى طرق الحوار والإقناع من أجل إحقاق الحق، وإلزام الخصوم بالحجة البالغة والبرهان الساطع!

وتمتزج دعوة الحق والخير بأدبيات الجمال في الكتاب والسنة، فلا ينفك جمال المضمون عن جمال الشكل، والقرآن فضلا عن كونه حقاً، فهو كتاب غاية في الإمتاع والجمال، ويمتزج من خلاله الدين كله بالجمال الخالد، مما يجذب النفوس السوية إلى هذا الدين.

والأنبياء والرسل عليهم السلام هم جميعاً ضحايا الظلم والعدوان!، حيث مارس الكافرون ضدهم مختلف أساليب القبح من التعذيب والتنكيل المادي والمعنوي، مما يكشف

عن الوجه البشع لأعدائهم الذين يرفضون التعايش مع أهل الإيمان، ويريدون المجتمع أحادي الفكر والعقيدة، ومن خالفهم قتلوه أو أخرجوه!

وما كانت معركة القرآن الفكرية مع أفراد وجماعات، وإنما كانت معركته مع الجمود والتخلف الذي يحملونه!، فقد أراد أن ينفذهم من التخلف بمختلف صورته الفكرية والعقدية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وليست صور الكفر التي عرضها للأقوام السابقين المتمردين على أنبيائهم إلا حالات من التخبط العقلي والتوتر النفسي والضياع الأخلاقي، وعليه: فالدعوة القرآنية هي مشروع إنقاذ حضاري للإنسانية قاطبة، وليست دعوة عنف وتسلط وإرهاب، ولما كانت كذلك اقتضى هذا البحث في القيم الحضارية العليافية الدعوة الإسلامية، وهي قيم ثابتة في كل الحضارات، ومتجسدة في ديننا كتاباً وسنة، مما يعني أن الإسلام هو رسالة حضارية سامية للبشرية جمعاء!

ومن أجل إثبات صدق هذه الرسالة، كان لا بد أن نعرض على موضع الإعجاز، وأن نتناول بعض الدراسات في الإعجاز الخالد، وهذه الدراسة تكمل الغرض من الحوار مع الآخرين المعاندين لتلزمهم بحجية هذا الدين!

ولأن هذا الدين يقوم أساساً على الحوار، فقد جاء بحث مبادئ العملية الإعلامية في خطاب الهدى لتعلم منه قواعد العملية الإعلامية في الدعوة الإسلامية! وهي قواعد تنسجم مع آخر ما توصلت إليه نظريات الإعلام والتواصل مع الآخرين في العصر الحديث!

وعليه فهذه البحوث وإن كانت تبدو وكأنها متباعدة، فإنها في الحقيقة ليست إلا كأصابع الكف في اليد الواحدة، فهي متكاملة فيما بينها، وتؤدي غرضاً واحداً ورسالة واحدة، وهي عرض الدين بأسلوب عصري ميسر، يجعل كل ذي لب سليم وفهم سوي يقف له بالإعجاز والعظمة والخلود، ويعلم أن القرآن يهدي إلى التي هي أقوم في كل موضوع، ويقدم الحضارة الإنسانية المتوازنة المتكاملة المتطورة السوية، فيقبل عليه طائعاً ليجد في رحابه حلاوة الإيمان، وبرد اليقين، فيتفياً ظلاله طرفى النهار! وتتجافى عيونه عن مضجعه ليكون من القائمين في الليل والمستغفرين بالأسحار!

وقد أعدنا النظر في هذه البحوث، وعدلنا فيها بعض الأشياء، والتزمنا فيها الموضوعية وقواعد البحث العلمي، ونأمل أن نكون قد وفقنا في ذلك، ومن الله نستمد العون والتوفيق.

المؤلف



**البحث الأول:**

**أكبر الكبائر: الشرك بالله تعالى!**

**أنواعه - أسبابه - نتائجه - الوقاية منه.**

**(دراسة قرآنية موضوعية).**

## المقدمة

الحمد لله الأبدى الأبد، الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يتخذ صاحبةً ولا ولداً، والذي رفع السماء بلا عمد، وبسط الأرض على ماء جمد، سبحانه (لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ). (الاخلاص:3-4).

والصلاة والسلام على نبيه الكريم محمد سيد ولد عدنان، وأشرف إنسان، جاء داعياً إلى التوحيد، بالوعد والوعيد، ومحذراً من الشرك وأسبابه ونتائجه، وموجهاً لإخلاص العبادة لله تعالى!، فهي سبيل صلاح الفرد والأسرة والمجتمع، وهي عنوان الحضارة والرقي، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله الأطهار، وصحابته الأبرار، ما جن ليل وشعثت شمس في رابعة النهار، وسلم تسليمًا كثيراً.

### التحذير من الشرك

وبعد: آيات الوعيد كثيرة!، ولعل أعظم آيتين في الوعيد هما: قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا). (النساء:48). وقوله تعالى أيضاً: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا). (النساء:116). فقد دلت الآيتان دلالة يقينية صريحة، بلا لبس ولا غموض، على أن جريمة الشرك بالله مستثناة من دائرة الغفران، فقد يغفر لعبده كل ذنب!، ويتجاوز عن كل سوء وتقصير وسهو وغفلة مما قد يقع من العبد في حياته!، ولكنه سبحانه حاشاه أن يغفر الشرك، لما في الشرك من آثام بحق الله وحق العبد نفسه، ولا تطهر هذه الآثام إلا لظى جهنم والعياذ بالله منها!.

### توحيد الله تعالى، و التحذير من الشرك، أهم موضوعات القرآن الكريم

وعليه "فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم"<sup>1</sup>، وفي الاتجاه نفسه تسير السنة النبوية، ولذلك ورد التحذير من الشرك في صدارة وصايا الرسول - صلى الله عليه وسلم - لأصحابه، فعن معاذ، قال: أوصاني رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بعشر كلمات، قال: (لا تشرك بالله شيئاً، وإن قُتلت أو حُرِّقت) ... ثم ذكر باقي الوصايا<sup>2</sup>. وعن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: قال رجل: يا رسول الله! أي الذنب أكبر عند الله؟! قال: (أن تدعو الله

<sup>1</sup> - شرح العقيدة الطحاوية، بتخريج الألباني، ص (89).

<sup>2</sup> - من حديث رواه أحمد، انظر: مشكاة المصابيح، للتبريزي، بتحقيق الألباني، (1419/3). الحديث (5131).

ندأ وهو خلقك<sup>1</sup>، وبالمقابل وعد الرسول - صلى الله عليه وسلم - الموحدين بالجنة، ففي الحديث: (من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة)<sup>2</sup>.

### أسباب كتابة البحث

وقد تعلق خاطر بالبحث عن الشرك، وصوره الفظيعة التي ذكرها القرآن الكريم، حتى يتجنبها المرء فينجو بنفسه من العذاب الخالد يوم القيامة!

وسبب آخر دفعني لكتابة هذا البحث، وهو قول النبي المعصوم - صلى الله عليه وسلم - : (إنما بعثت لأتمم صالح - وفي رواية: مكارم - الأخلاق)<sup>3</sup>، فهذا يعني أن العقيدة الإسلامية قائمة على قواعد الخلق، وهذا ما دفعني لاستنباط الأسس الأخلاقية لعقيدة التوحيد، فالتوحيد قائم على العدل والحق والصدق والصواب، وبضده الشرك الذي هو قائم على الظلم والباطل والكذب والضلال في التصور والمنهج.

وسبب ثالث: أن العالم اليوم يموج بالفتن والاضطرابات والحروب، وهي جميعاً أثر من آثار الشرك بالله تعالى والإعراض عن دينه وتحكيم شرعه، فكان لا بد من توضيح مخاطر الشرك وآثاره؛ حتى تنجو الإنسانية من العذاب النسبي الذي تعانيه الشعوب بسبب الشرك في حياتهم الدنيا، فالأنظمة التشريعية الوضعية سواء انتسبت إلى الديكتاتورية أو نقيضها الديمقراطية.. كلها تمت إلى الشرك بسبب، وقانا الله من الشرك وأسبابه.

وسبب رابع: هو اختلاط كثير من الشعائر الدينية ببعض المظاهر الشركية، فكان لا بد من التحذير من هذا الشرك ليكون الدين كله خالصاً لله تعالى.

### الخطة في البحث

لهذه الأسباب جاء هذا البحث الموسوم بـ: (أكبر الكبائر: الشرك بالله تعالى! أنواعه - أسبابه - نتائجه - الوقاية منه - دراسة قرآنية موضوعية). وهو موزع وفق الخطة الآتية:

<sup>1</sup> - من حديث متفق عليه، انظر: مشكاة المصابيح، (22/1)، الحديث (49).

<sup>2</sup> - رواه مسلم عن عثمان رضي الله عنه، انظر: مشكاة المصابيح، (17/1)، الحديث (37).

<sup>3</sup> - رواه البخاري في الأدب المفرد، والحاكم، والبيهقي في شعب الإيمان، وأحمد، وابن سعد في الطبقات، عن أبي هريرة، انظر: الجامع الصغير، (572/3)، الحديث (2584).

تمهيد: في تحرير بعض المصطلحات.

الفصل الأول: أنواع الشرك وصوره.

الفصل الثاني: أسباب الشرك وبواعثه.

الفصل الثالث: آثار الشرك ونتائجه.

الفصل الرابع: الوقاية من الشرك بالله العظيم.

الخاتمة: ونوجز فيها البحث وأهم التوصيات.

وقد قسمنا كل فصل إلى مباحث جانبية، وقسمنا المباحث إلى فقرات فرعية، بما يخدم فكرة البحث والغرض منه!.

## المنهج المتبع

وأما المنهج المتبع فهو:

- 1- عرض الآيات القرآنية عرضاً موضوعياً مباشراً.
- 2- الربط بين الآيات المتعلقة بالموضوع الواحد.
- 3- تقديم نماذج لكل موضوع بعد محاولة التتبع والاستقصاء.
- 4- الابتعاد عن التكرار قدر الإمكان، فلا يتم تكرير ذكر الآية في أكثر من موضع إلا للضرورة.
- 5- الإيجاز في الشرح والتحليل.
- 6- توثيق بعض الأحاديث النبوية والشواهد العلمية والآثار المروية في مظانها الأساسية.
- 7- ذكر النتائج في آخر البحث من غير تكلف ولا تعمل.

أسأل الله عز وجل أن يتقبل مني هذا العمل، وينفع به، ويجعلني والقارئ الكريم ممن يُقال له يوم القيامة: (كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ). (الحاقة:24).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

## تمهيد

لا بد في البداية من تحرير المصطلحات الآتية: (الرب - الإله - الدين - العبادة - الكفر - الشرك)، لنعرف بعد ذلك كيف يتطرق إلى بعضها معنى الشرك، وفيما يأتي جدول يوضح معانيها:

المصطلح	المعنى اللغوي والشرعي
الرب	"الرَّبُّ في الأصل: التربيّة، وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام... ولا يقال الربُّ مطلقاً إلا لله تعالى المتكفل بمصلحة الموجودات" <sup>1</sup> . "ورب كل شيء: مالكة ومستحقه، أو صاحبه" <sup>2</sup> .
الإله	الإله: المعبود، وأله فلانٌ يألهُ: عبد ... وإله حقه أن لا يجمع، إذ لا معبود سواه، لكن العربُ لاعتقادهم أن هاهنا معبودات جمعه فقالوا: الآلهة <sup>3</sup> .
الدين	قال الراغب: "والدِّينُ يقال: للطاعة والجزاء، واستعير للشرعية، والدين كالملة، لكنه يقال باعتبار الطاعة والانقياد للشرعية" <sup>4</sup> .
العبادة	العبادة في اللغة: الطاعة <sup>5</sup> . قال الراغب: "العبودية إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها، لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى" <sup>6</sup> .
الكفر	الكُفْر في اللغة: ستر الشيء، ووُصفَ الليل بالكافر: لستره الأشخاص، والزَّرَاع لستره البذر في الأرض، وليس ذلك باسم لهما <sup>7</sup> . وقال الفيروز آبادي: "الكفر ضد الإيمان" <sup>8</sup> . وقال الراغب: "وأعظم الكفر: جحود الوحدانية أو الشرعية أو النبوة... والكافر على الإطلاق: متعارف فيمن يجحد الوحدانية أو النبوة أو الشرعية أو ثلاثتها، وقد

<sup>1</sup> - المفردات في غريب القرآن، مادة (رب).

<sup>2</sup> - القاموس المحيط، مادة (رب).

<sup>3</sup> - انظر: المفردات في غريب القرآن، مادة (أله).

<sup>4</sup> - المفردات في غريب القرآن، مادة (دين).

<sup>5</sup> - القاموس المحيط، مادة (عبد).

<sup>6</sup> - المفردات في غريب القرآن، مادة (عبد).

<sup>7</sup> - المفردات في غريب القرآن، مادة (كفر).

<sup>8</sup> - القاموس المحيط، مادة (كفر).

يقال كفر لمن أحل بالشرعية وترك ما لزمه من شكر الله عليه". <sup>1</sup>	
<p>الشرك في اللغة: النصيب، ويجمع على أشراك، واعتقاد تعدد الآلهة<sup>2</sup></p> <p>قال الراغب: "وشرك الإنسان في الدين ضربان: أحدهما: الشرك العظيم، وهو إثبات شريك لله تعالى، يقال: أشرك فلان بالله، وذلك أعظم كفر، قال: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ). (سورة النساء: من الآية 116). وقال: ( وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا). (سورة النساء: من الآية 116). ( مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ). (سورة المائدة: من الآية 72).... والثاني: الشرك الصغير، وهو مراعاة غير الله معه في بعض الأمور، وهو الرياء والنفاق المشار إليه بقوله: ( شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ). (سورة الأعراف: من الآية 190).... وقوله تعالى: ( وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا). (سورة الكهف: من الآية 110). محمول على الشركين".<sup>3</sup></p>	الشرك

### تعقيب:

- 1- يكون الشرك في الربوبية عند اعتقاد أن ثمة خالق أو مالك يشارك الله في عملية الخلق والرزق، والإحياء والإماتة، وإنزال الغيث ونحو ذلك... مما لا يقدر عليه إلا الله تعالى!
- 2- يكون الشرك في الألوهية عند صرف العبادة أو جزء منها لما سوى الله تعالى، من حجر أو بشر، أو ملائكة، أو أجرام سماوية ونحوها، على أساس أنها تضر وتنفع، أو أن لها واسطة عند الله تعالى!
- 3- يكون الشرك في الربوبية والألوهية معاً عند: التشويه والإساءة والتحريف والزيادة والنقصان في أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، فهو الكمال والجمال المطلق في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.
- 4- كلمة (رب) أوسع دلالة لغوية من كلمة (إله)، ولكن في لفظ: (لا إله إلا الله) فإن كلمة إله هنا تعني المعبود بحق<sup>4</sup>، فهي تشتمل معنى الرب أيضاً<sup>5</sup>، لأن المعبود بحق لا بد أن يكون رباً،

<sup>1</sup> - المفردات في غريب القرآن، مادة (كفر).

<sup>2</sup> - المعجم الوسيط، مادة (شرك).

<sup>3</sup> - المفردات في غريب القرآن، مادة (شرك).

<sup>4</sup> - انظر: شرح العقيدة الطحاوية، بتخريج الألباني، ص (107-108).

<sup>5</sup> - يفسر المفسرون أحياناً لفظ الرب بالإله والعكس، انظر مثلاً تفسير الآية (163) من سورة البقرة، في مختصر تفسير البغوي، للدكتور عبد الله الزيد، ص (58). وتفسير الآية (39) من سورة يوسف، ص (452). من مختصر البغوي، وانظر تفسير الآية (39) من سورة يوسف، في مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني، (250).

وعليه قالوا: "توحيد الإلهية متضمن لتوحيد الربوبية دون العكس"<sup>1</sup>، وكثيراً ما تنوب إحدى الكلمتين عن الأخرى فتتضمن معناها، وهذا كثير في الكتاب والسنة. ومن ثم فإن: (لا إله إلا الله) هي أفضل كلمة تدل على التوحيد، وقد تضمنت أيضاً لفظ (الله) الذي هو الاسم الأعظم على رأي الجمهور<sup>2</sup>، ولذلك فهي أفضل الذكر، وخير كلمة قالتها الأنبياء عليهم السلام<sup>3</sup>.

5- يكون الشرك في الدين عندما ينبذ الناس تشريعه في شئون حياتهم، ويشرعون لأنفسهم، أو عندما يحرفون نصوصه ابتغاء مصلحة ما، وكأنهم أدري بمصالحهم من الله تعالى!.

6- يكون الشرك في العبادة إذا خالطها أدعية أو طقوس تتناقض مع التوحيد، أو عند صرفها لغير الله تعالى.

7- الكفر ما أخرج من الملة، والشرك هو الكفر الأكبر، ويفترض في كل كافر أن يكون مشركاً، وذلك أن الكافر ليس له علم شرعي بالذات الإلهية، فيما أن يجهل بعض الصفات أو ينكرها أو يصف الله بما ليس هو أهله، أو ينقاد لشريعة جاهلية أو وضعية، وهذا كله شرك بالله تعالى، وأما ما ورد عن بعضهم مثل أبي سفيان<sup>4</sup> أو زوجته هند<sup>5</sup> من أنها لم تشرك في الجاهلية شيئاً، أو أنها توصلت إلى التوحيد بفطرتها، فالمراد أنها لم تؤمن بتعدد الآلهة، وهو أسوأ أنواع الشرك، ولكن لا يعني هذا - بالضرورة - أنه لم يقع منها شرك في أمور أخرى، إذ لا سبيل لمعرفة التوحيد والبراءة من الشرك إلا بتصديقه واتباعه - صلى الله عليه وسلم -.

8- الشرك الأصغر هو الرياء، وهو مرض نفسي، يعمل الإنسان الصدقة مثلاً حتى يقال إنه كريم، وليس خالصاً لوجه الله تعالى، وهذا الشرك يحبط العمل، ولكن لا يُخرج من الملة<sup>6</sup>.

9- يطلق لفظ الشرك أو المشركين في أنواع ثلاثة:

الأول: خاص بعبدة الأوثان، وهم أسوأ المشركين وأحطهم قدراً ومقداراً، قال تعالى: (لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ). (سورة البينة: 1).

1 - شرح العقيدة الطحاوية، بتخريج الألباني، ص (88).

2 - انظر: مرقاة المفاتيح، للقاري، (6/1).

3 - انظر: مشكاة المصابيح، للتبريزي، بتحقيق الألباني، (797/2). الحديث (2598).

4 - انظر: السيرة النبوية، لابن هشام، (90/4).

5 - انظر: الروض الأنف، للسيهلي، (114/4).

6 - قال ابن القيم: "وهذا حال أكثر الناس، وهو الشرك الذي قال فيه النبي - صلى الله عليه وسلم - فيما رواه ابن حبان في صحيحه: (الشرك في هذه الأمة أخف من دبيب النملة). قالوا: كيف ننجو منه يا رسول الله؟ قال: (قل اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم). الداء والدواء أو الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، تحقيق عصام الدين الصبابطي، ص (133).

الثاني: يعم كل من عبد مع الله إلهاً آخر، أو انتقص من كمال الله المقدس بتعطيل أسمائه وأوصافه وأفعاله<sup>1</sup>، ويندرج فيه أهل الكتاب مع أهل الوثنية وغيرهم، قال تعالى: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ). (سورة آل عمران: 64). ومعلوم أن الإشراف لم يقع من المسلمين؛ وإنما من أهل الكتاب، ولذلك دعاهم المولى تعالى إلى نبد الشرك وعبادته وحده.

وفي السياق ذاته قال تعالى مفنداً ومنهدداً بعقيدة التثليث، وأنها تتناقض مع التوحيد: (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثَةٌ وَوَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ). (سورة المائدة: 73).

وقال أيضاً يبين ضعف عيسى عليه السلام، وضعف أمه الصديقة مريم، وضعف من في الأرض جميعاً أمام هيئته وجبروته؛ ومن كان ضعيفاً لا يكون شريكاً للمليك المقنن: (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ). (سورة المائدة: 17).

الثالث: أهل الرياء، وهو الشرك الأصغر، ففي الحديث: (قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه). وفي رواية: (فأنا منه بريء، هو للذي عمله)<sup>2</sup>.

### فائدة

يظن بعض أهل الكتاب وغيرهم أن لفظ الكفر اخترعه المسلمون ليسفهاوا غيرهم، وهذا وهم خاطئ، فاللفظ موجود في اللغة، ومعناه الستر، فلما كان الإيمان هو الفطرة، كان الكفر سترًا للإيمان، وأمرًا طارئاً على قلب الإنسان، جعله يحجب الإيمان الذي هو أصل فيه، ويعلن الكفر وهو أمر طارئ عليه، هذا من جهة ومن جهة أخرى، فكل من جحد شيئاً فهو كافر به، وعليه فالمؤمن كافر بالطاغوت وباللات والعزى، كما أن الكافر يكفر بالله أو بالرسالة، ولكن شتان بين الكافرين!، فمن شعر بمعرفة الكفر بالله والرسالة وأراد أن يمحو عن نفسه خزي الكفر في الدنيا والآخرة، فما عليه سوى أن ينطق بالشهادتين، ويدخل في جنة الإيمان وبستان المعرفة واليقين.

\* \* \*

1 - انظر: الداء والدواء أو الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ص (131).

2 - رواه مسلم عن أبي هريرة، انظر: مشكاة المصابيح، للتبريزي، بتحقيق الألباني، (1462/3)، الحديث (5315).

## الفصل الأول:

### أنواع الشرك وصوره

التوحيد هو جوهر الوجود، وحاء السماء والأرض، ونشيد الكون غيبه وشهادته: من الذرة حتى المجرة، ومن الصخور الصماء إلى القلوب التي تنبض بالدماء!، وهو أصل الحقائق كلها، وأعظمها وأهمها وأغلاها، وهو أيضاً معدن العلم ونبع الجمال، وشعار كل خير، ومصدر للسعادة النفسية والإنسانية، ونبع لكل القيم الجميلة العليا من عدل وحرية ومساواة ونحو ذلك!

وهو أيضاً القاعدة الأساسية السوية للدين الحنيف، وقد بشرت به جميع الأنبياء والمرسلين كما قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ). (سورة الأنبياء: 25).

وبضده الشرك، فهو رأس كل بلاء، وسبب كل شقاء، وأصل الفساد والإفساد، ولذلك فهو يذهب بحسنات سيد الخلق لو وقع في شيء منه - وحاشاه أن يقع! - فكيف بحسنات من سواه؟! قال تعالى: (وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ). (سورة الزمر: 65).

وسبب فظاعة جريمة الشرك أنه يمثل أسوأ صورة من صور التخلف المعرفي بحق الذات الإلهية العظمى، فالله سبحانه وتعالى في التصور الإسلامي هو: الربُّ الإله المالك المعبود الموصوف بصفات الجمال والكمال، الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية، له الأسماء الحسنى، بديع السماوات والأرض، يسبح كل شيء بحمده، ولا يشبهه شيء من خلقه، قال تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ). (الشورى: من الآية 11). فكيف يكون له بعد هذا كله ند يشبهه، أو شريك من خلقه؟!.

ولكن غالبية البشر بسبب ضعف من عقولهم، وقلة خبرتهم، وميلهم للخضوع والخنوع، وتشبثهم بالعادات والتقاليد الفاسدة، وقعوا بالشرك، فنسب لربه من آمن منهم بالله ما ينسب إلى البشر من الأقرباء والأولاد، ومنهم من عبد المظاهر الطبيعية والقوى الكونية، ومنهم من شغل بعبادة الطاغوت، ومنهم من ألد في الأسماء والصفات والأفعال، ومنهم من مارس التشريع بمعزل عن الشريعة، وهو ما سنوضحه في مباحث هذا الفصل.

## المبحث الأول:

### نسبة الأقرباء لله تعالى

ينطلق التصور الإسلامي للذات الإلهية من أن الله تعالى هو: مصدرُ الخير والسلطات كلها، بائنٌ عن خلقه، وغنيٌّ عنهم، ليس كمثل شيء... ويمكن التخلف المعرفي في عدم تنزيه ذات العلي القدير عن مشابهة خلقه ضمن صور عدة، في مقدمتها: الشرك بالله، وهو أكبر الكبائر وأسوأ الذنوب، ويأتي في مقدمة الشرك نسبة الأبناء والزوجة ونحو ذلك من الأقرباء إليه سبحانه وتعالى، وهو ما نفته بشدة آيات القرآن وسوره، ومن ذلك ما جاء في سورة الإخلاص التي خصصت لتنزيه الإله عما لا يليق به من العلاقات البشرية والأحوال الإنسانية.

ومما وقعت به البشرية من صور الشرك الآتي:

#### أ- نسبة الولد

وذلك كأن ينسب الله ولد تعالى الله عن ذلك!، فكيف يكون له ولد وليس له زوجة ولا صاحبة؟!، ولو كان له ولد لكان ولده إلهاً، والإله لا يكون مخلوقاً محدثاً، وإنما هو حي قيوم أزلي هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الشراكة في الألوهية تقتضي الصراع بين المتشاركين، ويؤدي هذا إلى فساد الكون بالضرورة، ولما كانت قوانين الكون في منتهى التوحد والانسجام فهذا ينفي الصراع، فالشراكة التي هي سببه<sup>1</sup>، قال تعالى: (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وُلْدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ). (المؤمنون:91).

#### ب- نسبة الزوجة

مثلما نفى الله سبحانه عن نفسه الولد، فقد نفى الزوجة أيضاً، قال تعالى: (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ). (الأنعام:101). فالله تعالى الذي أبدع كل شيء، وأوجد كل شيء، ويعلم كل شيء، هو الغني عن كل شيء، فلا ولد له ولا صاحبة، لأن الإنسان يطلب الزوجة لتؤنسه، والولد ليرثه، والله غني بذاته عن غيره، وهو يرث ولا يورث وهو خير الوارثين، لذا فهو أكبر من أن يكون له زوجة أو ولد، أدركت الجن هذا بفطرتها فأمنت به سبحانه رباً مالكا لا رب سواه ولا شيء يعدله، وهتفت معلنة بالتوحيد كما قال تعالى يحكي عنها: (وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا). (الجن:3).

#### ت- نسبة البنات

<sup>1</sup> - انظر: مجلة الحكمة، العدد (30). المنشور في محرم 1426، مانشستر، بريطانيا، ص (470).

وقد نسب المشركون الملائكة إلى الله تعالى، وكان زعمهم أن الملائكة بنات الله، وأن الله تزوج بالجن فولدت الملائكة تعالى الله عن ذلك!<sup>1</sup>، قال تعالى: (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسْبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ). (الصفات:158).

وقد أنكر الله دعواهم بأن الملائكة بناته سبحانه، فهو ادعاء لا دليل عليه، إذ لم يحضروا خلق الملائكة، ولم يطلعوا على الغيب، قال تعالى: (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَانَا أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ سَنُكْتَبُ شَهَادَتَهُمْ وَيُسْأَلُونَ). (الزخرف:19). وقال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةً الْأُنثَى). (النجم:27). . وقال أيضاً: (أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَانَا إِنَّكُمْ لَقَوْلُونَ قَوْلًا عَظِيمًا). (الإسراء:40).

والحق أن الملائكة عباد الله تعالى، وجنده المكرمون، خلقهم من نور، وميزهم بالجمال، وقد أمرهم الله بالسجود لآدم فامتثلوا طائعين، ولهم أشكال كثيرة، وصفات متعددة، ووظائف متنوعة كما أثبتت ذلك نصوص الوحي من الكتاب والسنة.

### ث- نسبة الأنبياء والصالحين إليه تعالى

ومن الأخطاء البشعة التي وقع بها بعض البشر نسبة بعض الأنبياء والصالحين إلى الله تعالى، قال تعالى: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ). (التوبة:30). والله أجل وأعظم من أن يكون له ولد سبحانه وتعالى!

والصواب أن يُنسبوا إلى آبائهم، باستثناء آدم لأنه أول البشر، والسيد المسيح الذي خلقه الله مباشرة من دون أب، فكان خلقه ونطقه في المهد، وحياته وخاتمة برفعه إلى السماء، سلسلة من المعجزات، ولذلك تبرأ المسيح ممن يعبدونه مع الله، قال تعالى: (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ، لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ). (المائدة:72-73). لقد "حذرهم المسيح - عليه السلام - فلم يحذروا، ووقعوا بعد وفاته عنهم فيما حذرهم من الوقوع فيه، وما أذرهم عليه الحرمان من الجنة والانتهاه إلى النار.. ونسوا قول المسيح - عليه السلام -: (يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربِّي وَرَبَّكُمْ). حيث أعلن لهم أنه هو وهم في العبودية سواء لربوبية الله الواحد الذي ليس له من شركاء. ويستوفي القرآن الحكم على سائر مقولاتهم الكافرة: (لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ).. ويقرر الحقيقة التي تقوم عليها كل عقيدة جاء بها رسول من عند الله: (وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ).. ويهددهم بسوء عاقبة الكفر الذي ينطقون به ويعتقدونه: (وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

<sup>1</sup> - انظر: مختصر تفسير البغوي، للدكتور عبد الله الزيد، ص (801). وتفسير الكشاف، (64/4)، ومختصر تفسير ابن كثير، للصابوني (193/3).

مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ).. والكافرون هم الذين لا ينتهون عن هذه المقولات التي حكم عليها الله بالكفر الصراح"<sup>1</sup>.

### ج- نسبة بعض الأمم والشعوب إلى الله تعالى

يحلو لبعض الأمم والشعوب أن تعلن قرابتها من الله تعالى، وأن لها عنده منزلة ومقام، وقد ادعى هذا كل من اليهود والنصارى!، قال تعالى: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ). (المائدة:18).

وهذا الادعاء يدل على سفاهة رأي، وضلال فكر، فكيف يميز الله بعض عباده على بعض؟، والكل عنده سواء!، وقد وضع قوانين الحساب والجزاء للكل على حد سواء، فلا نسب بينه وبينهم إلا الطاعة، ومصيرهم جميعاً بين يديه سبحانه!.

\* \* \*

<sup>1</sup> - في ظلال القرآن، (945/2).

## المبحث الثاني:

### عبادة المظاهر الطبيعية والقوى الكونية

ومن الشرك صرف العبادة لبعض مظاهر الطبيعة المختلفة<sup>1</sup>، حيث يقف الإنسان مبهوراً في محراب الطبيعة البديع، فيظن أن بعض أجزائها آلهة له تهبه الحياة والاستمرار، فيعبدها من دون الله، ويسجد لها ويتقرب، من ذلك:

#### أ - السجود للشمس

هذا النجم المضيء أسر جماله أنظار البشر، فعبدته بعضهم من دون الله، وكان هذا فعل قوم سبأ باليمن، قال تعالى مخبراً عن هدهد سليمان عليه السلام الذي نقل لسليمان بأمانة صورة ما شاهده: (إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ، وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ). (النمل:23-24).

فالشمس بما تحمله من وهج وضوء ودفء وجمال لهذا العالم ليست سوى جرم مسخر بأمر الله تعالى، وعبادتها من دونه سبحانه هو بتزيين الشيطان وإغوائه، وإلا فإن العقل الراشد لا يعبد إلهاً يحضر ويأفل!، فهو محتاج إلى إله حاضر شاهد في كل الأوقات يمد الإنسان من فيضه وعطائه، وهو الله رب العالمين!.

#### ب - عبادة الشمس أو القمر

وكما عُبِدَت الشمس الأسرة بحسنها، عُبِدَ القمر الذي يأخذ الأبواب بسحره ونوره الأخاذ، فهو رمز التآلق بين النجوم المتناثرة في أديم السماء!، قال تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ). (فصلت:37).

والقمر يأفل مثل الشمس، فهو لا يستحق العبادة، ولكن يبدو أن أقواماً من المشركين "كانوا يسجدون للشمس والقمر كالصابئين في عبادتهم الكواكب"<sup>2</sup>.

#### ت - عبادة الكواكب

<sup>1</sup> - انظر: الداء والدواء أو الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ص (131).  
<sup>2</sup> - تفسير الكشاف، (201/4).

هذه الكواكب المشعة التي تزين أديم السماء، وجد قوم فيها ضالتهم فعبدوها من دون الله تعالى!، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ). (البقرة:62).

وقد ذكر الزمخشري الصابئين في أكثر من موضع في تفسيره، فنسبهم لعبادة الملائكة في تفسير هذه الآية، ولعبادة الكواكب في آية أخرى<sup>1</sup>، وقد اختار الرازي "أن الصابئين قوم يعبدون الكواكب، بمعنى أن الله جعلها قبلة للعباد والدعاء"<sup>2</sup>.

### ث - الشعري

اتخذ فريق من المشركين بعض الكواكب آلهة دون سواها، فالشعري هو : "كوكب خلف الجوزاء كانت خزاعة تعبدها"<sup>3</sup>، ولذلك قال تعالى: (وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشُّعْرَى). (سورة النجم: 49). فلا ينبغي أن تكون العبادة إلا له سبحانه، وليس الشعري سوى كوكب يسبح في السماء مسبحاً لله رب العالمين!.

### ج - عبادة النار

النار هذه الشعلة المتوهجة بالدفء والضوء من جهة، والدخان والموت من جهة أخرى، وجد فيها قوم ضالتهم فعبدوها من دون الله تعالى!، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ). (الحج:17).

والمجوس المذكورون في الآية هم عبدة النيران<sup>4</sup>، وعبادتها عمل وثني، فالنار لا تملك لنفسها ضرراً ولا نفعاً، وقد صيرها الله برداً وسلاماً على نبيه إبراهيم الخليل عليه السلام، وإنما الذي يُعبد هو الله خالق الكون كله بما في ذلك الماء والنار معاً.

### ح - بعض مظاهر الطبيعة الصامتة كالأشجار ونحوها

دأب بعض المشركين على عبادة الأشجار، وذلك كما في شجرة ذات أنواط، ورد عن الحارث بن مالك قال: "خرجنا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى حنين، ونحن حديثو عهد بالجاهلية، وكانت كفار قريش ومن سواهم من العرب لهم شجرة عظيمة خضراء، يقال لها: ذات أنواط، يأتونها كل سنة؛ فيعلقون عليها أسلحتهم ويذبحون عندها، يعكفون عليها يوماً . قال:

1 - انظر: تفسير الكشاف (1/146)، و(201/4)..

2 - مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني (1/72).

3 - مختصر تفسير البغوي، للدكتور عبد الله الزيد، ص (910).

4 - انظر: صفوة التفاسير، للصابوني (2/284).

فرأينا ونحن نسير مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سدرة خضراء عظيمة. قال: ففتنادينا من جنبات الطريق: يا رسول الله! اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: الله أكبر، قلت - والذي نفس محمد بيده - كما قال قوم موسى لموسى: (اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ). (سورة الأعراف: بعض الآية 138). إنها السنن، لتركيبن سنن من كان قبلكم " <sup>1</sup>.

يلاحظ أن البشر يميلون إلى تقليد بعضهم بعضاً حتى في الدين والعبادة!، فقد كاد فريق من المسلمين ينزلقون وراء المشركين في عبادة الأشجار!، ولكن الله حفظهم من هذا المنزلق بفضل توجيه نبيه - صلى الله عليه وسلم - لهم، ولا تكاد تجد شيئاً في الطبيعة لم يعبد الوثنيون من العرب والهند والصين وغيرهم، وإنما اكتفينا بما ورد في القرآن الكريم كنماذج على ضلال من ابتغى غير الله رباً، والعياذ بالله من الشرك والمشركين!.

\* \* \*

<sup>1</sup> - السيرة النبوية، لابن هشام، (123/4). وانظر: مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني (47/2).

## المبحث الثالث:

## عبادة الطاغوت

الطاغوت: الشيطان، أو كل ما عبد من دون الله<sup>1</sup>، قال تعالى: (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ). (البقرة:257).

وصرف العبادة لغير الله تعالى شرك<sup>2</sup>، ويدخل في عبادة الطاغوت: صرفُ العبادة لبعض مظاهر الطبيعة المختلفة التي تقدم الحديث عنها في المبحث السابق، كما تشمل عبادة الطاغوت أصنافاً أخرى تعبد من دون الله تعالى، مثل:

## أ - عبادة الأصنام

الأصنام حجارة لا تضر ولا تنفع، عبدها الناس وعظموها من دون الله تعالى، ابتدأت قصتها من قوم نوح، ففي البداية كانت مجرد صور وتماتيل للصالحين، أحاطها الناس بهالة من التعظيم والتقدیس حتى صارت مقصودة في العبادة وحدها من دون الله تعالى، لذا كان جهد الأنبياء والمرسلين عليهم السلام نصباً لتحرير البشرية من عبادة هذه الحجارة الصماء، ومن ثم عبادة كل ما سوى الله تعالى بعد ذلك . فهذا إبراهيم عليه السلام يحذر أباه من عبادتها، وقد قال له بحنان الولد المشفق مستهجنًا تلك العبادة: (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا). (مريم:42).

وقد استنكر الله عبادة حجارة لا تضر ولا تنفع، فهي جامدة عمياء صماء لا تدري ماذا يدور حولها، ولا تمشي ولا تبصر ولا تحس ولا تتحرك، فقال عز وجل: (إِنَّ الَّذِينَ نَدَعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَلُكُمْ فَأَدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُون). (لأعراف:194-195).

وكان المشركون يخوفون الرسل - عليهم السلام - من الأوثان التي يعبدونها، ويزعمون لها الضر والنفع، قال تعالى: ( وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضَلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ). (الزمر: من الآية36). ولو أنها كانت تضر وتنفع لحمت نفسها ممن يريد أن يسيء إليها!، وهذا معلوم لكل ذي بصيرة، ولكن التخلف الفكري هو الذي يدفع لعبادتها!.

<sup>1</sup> - سيأتي قول صاحب الكشف في تفسير الطاغوت بالشيطان، وقال الراغب: (والطاغوت: عبارة عن كل متعبد وكل معبود من دون الله، ويستعمل في الواحد والجمع...). انظر المفردات في غريب القرآن، مادة (طغى).

<sup>2</sup> - انظر: الداء والدواء أو الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ص (131).

ومن السخرية أن يقوم العاقل بصناعة صنم ثم يسجد لما صنعه ويقدم له القرابين، ومثل هذا العمل يدل على فقدان حاسة الوعي والإدراك عند صاحبه<sup>1</sup>، ولا بد من مساعدته للتخلص من عقدة الوهم الذي يحمله على عبادة تلك الأصنام، ولذلك نجد إبراهيم عليه السلام يهرع لتحطيمها، ليحرر قومه من عقدة الوهم والاعتقاد بالخرافة والجهل، ولكنهم بدلاً من أن ينتبهوا استمروا في سكرتهم!، شأن المدمن على التخدير الذي لا يصحو أبداً، وهنا ينتصر الله عز وجل لخليله، وينقذه من النار التي قذفوه فيها، قال تعالى: (فَرَاغَ إِلَى إِلِهِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ، ما لكم لا تنطقون، فراغ عليهم ضرباً باليمين، فأقبلوا إليه يرفون، قال أتعبدون ما نتحتون، والله خلقكم وما تعملون، قالوا فابنوا له بنياناً فألقوه في الجحيم، وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين). (الصافات: 91-98).

وأول من ابتدع عبادة الأصنام قوم نوح، فقد عبدوا: وَدًّا وَسُوعًا وَيَعُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا كما سيأتي في هذا المبحث.

ومن أسماء الأصنام المذكورة في الذكر الحكيم: (بعل). الذي عبده قوم إلياس عليه السلام، قال تعالى: (أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ). (سورة الصافات: 125). وبعل "هو اسم صنم لهم كانوا يعبدونه، ولذلك سمت مدينتهم بعلبك، قال مجاهد وعكرمة وقتادة: البعل: الرب بلغة أهل اليمن"<sup>2</sup>.

ومن الأصنام التي عبدها العرب في الجاهلية: اللات والعزى ومناة، قال تعالى: (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى، أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى، تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى). (سورة النجم: 19-22). ومعنى الآية: "أفرأيتم: أخبرونا أيها الزاعمون أن اللات والعزى ومناة بنات الله، تعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً"<sup>3</sup>.

يبقى أن نشير إلى أن هذه الأوثان هي جزء من لحمة المجتمع الجاهلي ونظامه الاجتماعي، فالمساس بها مساس ببنية المجتمع الأساسية، قال تعالى على لسان نبيه إبراهيم عليه السلام: (وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ

<sup>1</sup> - ذكر ابن الجوزي في كتاب (تلبس إبليس)، ص (52) كلاماً نفيساً بين كيفية تسويق إبليس لعبادة الأصنام، فقال طيب الله ثراه: "كل محنة لبس بها إبليس على الناس فسببها الميل إلى الحس، والإعراض عن مقتضى العقل، ولما كان الحس يأنس بالمثل؛ دعا إبليس - لعنه الله - خلقاً كثيراً إلى عبادة الصور، وأبطل عند هؤلاء العقل بالمرّة، فمنهم من حسّن له أنها الآلهة وحدها، ومنهم من وجد فيه قليل فطنة، فعلم أنه لا يوافق على هذا، فزين له أن عبادة هذه تقرب إلى الخالق، فقالوا: (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى). (الزمر: 3)".

<sup>2</sup> - مختصر تفسير البغوي، للدكتور عبد الله الزيد، ص (799).

<sup>3</sup> - المرجع السابق، ص (907).

بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ). (العنكبوت:25). فهذه الأوثان كانت سبب مودتهم وتواصلهم فيما بينهم، جمعهم حبها، وصارت رمزاً لوحدتهم وإفترسهم.<sup>1</sup>

### ب - ومن الشرك الأمر بعبادة غير الله

يعمد المشركون إلى عبادة غير الله تعالى، وحث الناس على ذلك، قال تعالى: (قُلْ أَغْيِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ). (الزمر:64).، ومعلوم بالضرورة أنه لا تنبغي العبادة لأحد غيره عز وجل، حتى ولو كان ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلًا، قال تعالى: (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ، وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ). (آل عمران:79-80).

ويروج المشركون لعبادة الطاغوت، وهو الشيطان، أو كل ما عبد من دون الله، قال تعالى: (وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبَشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ). (الزمر:17). وعِبَاد الطاغوت أسوأ الناس منزلة عند الله تعالى، فهم مستعدون لعبادة أي شيء من دونه سبحانه!، قال تعالى: (قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ). (المائدة:60).

### ت - عبادة الحيوانات والبهائم

تعتبر عبادة الحيوان ديدن كثير من المشركين قديماً وحديثاً، قال تعالى حكاية عن بني إسرائيل: (وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ). (سورة الأعراف: 138). قال ابن جرير: "وكانوا يعبدون أصناماً على صور البقر، فلهذا أثار ذلك شبهة لهم في عبادتهم للعجل بعد ذلك"<sup>2</sup>.

ومعلوم أن السامري هو الذي أضل قوم موسى بعد ذلك، حيث صنع لهم عجلاً يعبدونه من دون الله تعالى حين ذهب موسى - عليه السلام - لمناجاة ربه، قال تعالى: (فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌّ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ، أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا). (طه:88-89). ولم يدر هؤلاء أنهم يعبدون صورة حيوان ميت لا ينفع ولا يضر، وهذا دأب كل من عبد الحيوان في الماضي والحاضر، فقد انحدر في عقله وتفكيره دون هذا الحيوان الذي يعبد، ولذلك استساغ عبادة الحيوان بعد أن فقد آخر ذرة من عقله وتفكيره!<sup>1</sup>

<sup>1</sup> - انظر: تفسير الكشاف، (450/3).

<sup>2</sup> - مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني (47/2).

### ث- عبادة الشيطان

أشارت آيات عدة في القرآن الكريم إلى عبادة الشيطان، من ذلك قول تعالى مؤنباً البشرية على عبادتهم إبليس من دونه: (الْمَ أَعْهَدُ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ). (سورة يس: 60). وهذا إبراهيم عليه السلام يدعو أباه لنبذ عبادة الشيطان، قال تعالى: (يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا). (سورة مريم: 44).

والشيطان رأس الفتنة والفساد، وهو زعيم العصاة والمتمردين على الله رب العالمين، وهو يطمح للتشبه بالإله ابتداءً من وضع عرشه على الماء<sup>1</sup>، ومروراً بالأمر بالشرك والضلال، وانتهاءً بدعوته الناس لعبادته، وقد زعم المشركون أن الله والشيطان أخوان تعالى الله عن ذلك<sup>2</sup>.

### والمراد بعبادة الشيطان أحد الأمور الآتية:

أولاً: طاعته من دون الله، وقد تقدم أن العبادة هي الطاعة<sup>3</sup>.

ثانياً: عبادته على الحقيقة<sup>4</sup>، وهناك من الفرق الباطنية من تعبده ولها طقوس خاصة.

ثالثاً: عبادة الصنم، وجعلت عبادة الصنم عبادة للشيطان لأنه الأمر بهاء<sup>5</sup>، فقد أطلق السبب وأريد المسبب.

### ج - عبادة الهوى

من الناس من لا يعبد الأصنام، ولكن يعبد أهواءه وشهواته، كما هو شأن الملاحدة في كل زمان ومكان<sup>6</sup>، حيث لم يتعبوا أنفسهم بعبادة الأوثان، فعبدوا أهواءهم، قال تعالى: (أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا). (سورة الفرقان: 43).

<sup>1</sup> - روى مسلم، عن جابر، قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : (إن إبليس يضع عرشه على الماء، ثم يبعث سراياه يفتنون الناس، فأدناهم منه منزلة أعظمهم فتنةً. يجيء أحدهم فيقول: فعلتُ كذا وكذا. فيقول: ما صنعت شيئاً. قال: ثم يجيء أحدهم فيقول: ما تركته حتى فرقتُ بينه وبين امرأته. قال: فيدنيه منه، ويقول: نعم أنت). قال الأعمش: أراه قال: (فيلترمه). انظر: مشكاة المصابيح، للتبريزي، بتحقيق الألباني، (27/1)، الحديث (71).

<sup>2</sup> - انظر: تفسير الكشاف، (64/4)، ومختصر تفسير ابن كثير، للصابوني (193/3).

<sup>3</sup> - انظر: تفسير الكشاف (20-18/3)، ومختصر تفسير البغوي، للدكتور عبد الله الزيد، ص (569، و788).

<sup>4</sup> - مما يؤكد أن الشيطان يطمح أن يعبد من دون الله، ما جاء في كتاب الاستقامة، لابن تيمية، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، (376/1) وهو الآتي: "روى الطبراني في معجمه عن ابن عباس، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - : (أن الشيطان قال: يارب! اجعل لي قرناً. قال: قرأتك الشعر. قال: اجعل لي مؤذناً. قال: مؤذنتك المزمار. قال: اجعل لي كتاباً. قال: كتابتك الوشم. قال: اجعل لي بيتاً. قال: بيتك الحمام. قال: اجعل لي طعاماً. قال: طعامك ما لم يذكر اسم الله عليه). فمن قاس قرآن الشيطان بقرآن الله، فإله يجازيه بما يستحقه".

<sup>5</sup> - انظر: مرقاة المفاتيح، للقاري، (141/1).

<sup>6</sup> - انظر: شرح العقيدة الطحاوية، بتخريج الألباني، ص (204).

فكل من أنكر الخالق فهو مشرك، لأنه يعبد هواه، ويدخل في هؤلاء: "أصحاب وحدة الوجود الذين يقولون: ما ثم خالق ومخلوق، ولا هاهنا شيان، بل الحق المنزه هو عين الحق المشبه"<sup>1</sup>.

فهذا الذي يعبد هواه يستعصي على الإصلاح والمراجعة والتوجيه والتقويم، بل قد يكون له سمت العلماء، ومع هذا فهو متحجر القلب مغلق الحواس، لا يتقبل الهدى أبداً، كما هو شأن كثير من علماء علوم الدنيا في زماننا، الذين يرون عظمة الله في محراب الطبيعة وخلق الإنسان ونواميس الحياة، ثم يغمضون أعينهم عن ذلك كله، منزلقين إلى مهاري الشرك والإلحاد.. قال تعالى: (أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ). (سورة الجاثية: 23).

والشرك بصوره كلها يعود سببه إلى عبادة الهوى، يقول الغزالي: " فكل متبع هواه فقد اتخذ هواه معبوده، قال الله تعالى: (أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ). وقال - صلى الله عليه وسلم - : (أبغض إليَّ عبد في الأرض عند الله تعالى هو: الهوى)<sup>2</sup>. وعلى التحقيق من تأمل عرف أن عابد الصنم ليس يعبد الصنم، وإنما يعبد هواه؛ إذ نفسه مائلة إلى دين آبائه فيتبع ذلك الميل، وميل النفس إلى المألوفات أحد المعاني التي يعبر عنها بالهوى"<sup>3</sup>.

### ح - الشرك بالدهر:

قد ينسب المشركون الأحداث للدهر، كما قال تعالى: (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ). (سورة الجاثية: 24).

نسبوا الهلاك إلى الدهر، وهو مرور الزمان "وكانوا يزعمون أن المؤثر في هلاك الأنفس هو مرور الأيام والليالي، وينكرون ملك الموت وقبضه للأرواح بأمر الله تعالى، ويضيفون الحوادث إلى الدهر والزمان، ومنه قوله - صلى الله عليه وسلم - : (لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر). أي: فإن الله هو الآتي بالحوادث لا الدهر"<sup>4</sup>.

وعقيدتهم في الدهر باطلة، نسجوها من وهم أنفسهم، قال الزمخشري: "وما يقولون ذلك عن علم، ولكن عن ظن وتخمين"<sup>5</sup>.

1 - انظر: الداء والدواء أو الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ص (131).

2 - أخرجه الطبراني من حديث أبي أمامة بإسناد ضعيف.

3 - إحياء علوم الدين، علق عليه جمال محمود ومحمد سيد، (54/1).

4 - تفسير أبي السعود، (73/8).

5 - تفسير الكشاف، (291/4).

## خ - ومن الشرك ادعاء الربوبية والألوهية

وهذا شأن كبار الطغاة في التاريخ، فهم لا يكتفون بالعدوان على شريعة الله، وتشريع ما لم يأذن الله به، ومحاربة الله ورسله، بل يطمحون إلى ما هو أكبر من ذلك؛ كإعلان الربوبية بعد أن استخفوا بعقول الناس!، ولم يجدوا من يراجعهم أو يردعهم<sup>1</sup>، وهذا حال نمرود الذي ادعى الربوبية في زمن إبراهيم عليه السلام، فاستكان له القطيع الصامت!، وما قام له إلا نبي الله إبراهيم عليه السلام، فلم يدخل معه في جدل حين ادعى - كاذباً - أنه يحيي ويميت!، وإنما أسكته بالحجة البالغة، حين طلب منه أن يأتي بالشمس من المغرب!، فوقع في الحيرة والخذلان، وذلك كما قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ). (سورة البقرة: 258).

واستمر حال الطغاة في ادعاء هذا الأمر إلى عصر فرعون، فقد ادعى الألوهية! كما قال تعالى: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهٍ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ). (سورة القصص: 38). ثم بالغ في طغيانه فادعى الربوبية!، قال تعالى: (فَحَسَرَ فَنَادَى، فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى). (سورة النازعات: 23-24). وكان عاقبة أمره أن قصمه الله تعالى!.

ولا تعدم في كل زمان من الدجالين من يدعي الألوهية أو الربوبية!، كما أنك لا تعدم من الرعاع من يتابعه ويصدقها!، وربما مارس سلطة الإله من دون أن يدعي الألوهية بشكل واضح تلبساً على الأعين!، وهذا أمره أخطر<sup>2</sup>، وحسبنا الله ونعم الوكيل!.

## د - ومن الشرك صرف العبادة للطغاة

كم من البشر من لا أحلام لهم!، وقد ارتضوا أن يعبدوا بشراً مثلهم!، ويقدمون له فروض الطاعة والولاء على معصية الله عز وجل، قال تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً

<sup>1</sup> - يدخل هذا في شرك التعطيل، وهو أقبح أنواع الشرك، قال ابن القيم: "والشرك والتعطيل متلازمان، فكل مشرك معطل، وكل معطل مشرك، ولكن الشرك لا يستلزم أصل التعطيل، بل يكون المشرك مقراً بالخالق سبحانه وصفاته، ولكنه معطل حق التوحيد". انظر: الداء والدواء أو الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ص (131).

<sup>2</sup> - ومثاله ما كان يفعله كفار قريش من الشرك والفسق والعريضة ومحاربة الدعوة في الليل والنهار!، فقد اتخذوا سلطاتهم ونفوذهم في حرب الله ورسوله، وهذا نوع من التجبر والطغيان يشبه ادعاء فرعون للربوبية، وأنه مصدر السلطات كلها! ومن ثم فهو لا يقبل بأي دين ودعوة جديدة!، ولذلك شبه الله موقفهم من الدعوة بموقف فرعون من موسى!، وهذا يدل على أنهم فراعنة حقيقة وإن لم يكونوا كذلك بالاسم، قال تعالى: (إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا، فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلاً). (سورة المزمّل: 15-16).

يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ). (البقرة: 165). قال الزمخشري في تفسير الآية: (أندادا: أمثالا من الأصنام وقيل من الرؤساء الذين كانوا يتبعونهم ويطيعونهم وينزلون على أوامرهم ونواهيهم).<sup>1</sup>

وقال ابن القيم في تفسير الآية: "وأصل الشرك بالله الإشراف بالمحبة، كما قال تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ). فأخبر سبحانه أن من الناس من يشرك به ندأ يحبه كما يحب الله، وأخبر أن الذين آمنوا أشد حبا لله من أصحاب الأنداد لأندادهم".<sup>2</sup>

### ذ - عبادة الصالحين

ثمة فريق من القطعان البشرية الضالة لا يعبدون الطغاة، وإنما يعبدون الصالحين من أقوامهم!، يبتدأ الأمر بالتبرك والتقديس، وينتهي بالنحت لصورهم، ثم العبادة لتلك الصور، وهكذا ضل قوم نوح عليه السلام من قبل، كما قال تعالى: (وَقَالُوا لَا تَدْرُنَّ إِلَهَتَكُمْ وَلَا تَدْرُنَّ وَدّاً وَلَا سَوْاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسراً، وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلا ضَلالاً). (سورة نوح: 23-24).

والحقيقة أن "هذه أسماء آلهتهم، قال محمد بن كعب: هذه أسماء قوم صالحين، كانوا بين آدم ونوح، فلما ماتوا كان لهم أتباع يقتدون بهم، ويأخذون بعدهم مأخذهم في العبادة، فجاءهم إبليس وقال لهم: لو صورتم صورهم كان أنشط لكم وأشوق إلى العبادة، ففعلوا، ثم نشأ قوم بعدهم، فقال لهم إبليس: إن الذين من قبلكم كانوا يعبدونهم، فعبدوهم، فابتداء عبادة الأوثان كان من ذلك، وسُميت تلك الصور بهذه الأسماء لأنهم صوروها على صور أولئك القوم من المسلمين"<sup>3</sup>

ولا فرق بين أن تعبد طاغية أو نبياً أو ولياً صالحاً، فكل هذه الأعمال بمنزلة واحدة في الشرك، وهي موجبة للعذاب الخالد في النار، فالشرك خط أحمر، لا يقبل الله بتجاوزه مهما كانت المبررات والذرائع!، وأياً كان المعبود!، لأنه لا يستحق العبادة إلا من خلق وربى ورزق!، وما سوى الله فكلهم عبيد؛ هم بحاجة إليه، وهو الغني عنهم سبحانه وتعالى!.

\* \* \*

<sup>1</sup> - تفسير الكشاف (211/1).

<sup>2</sup> - انظر: الداء والدواء أو الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ص (190).

<sup>3</sup> - مختصر تفسير البيهقي، للدكتور عبد الله الزيد، ص (977-978).

## المبحث الرابع:

## الإلحاد في الأسماء والصفات والأفعال الإلهية

يجب على المسلم أن يعتقد أن الله واحد لا شريك له في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فإذا اعتقد الشراكة في شيء من ذلك، فقد أشرك<sup>1</sup>، وإذا قلد المشركين في بعض مواقفهم أو عقائدهم فقد خرج من حظيرة الإيمان، فمن ذلك:

## أ - الإشمئزاز من ذكر الله وحده

وهذه صفة للمشركين، فهم يكرهون اسم الله الواحد، قال تعالى: (وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ). (الزمر: 45). فذكر الله وحده علامة التوحيد، وكرهية ذلك هي انخراط في سلك المشركين. وهذه الآية عابرة لحدود الزمان والمكان، فهي وإن كانت "تصف واقعة حال على عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - حين كان المشركون يهشون ويبشون إذا ذكرت آلهتهم؛ وينقبضون وينفرون إذا ذكرت كلمة التوحيد. ولكنها تصف حالة نفسية تتكرر في شتى البيئات والأزمان. فمن الناس من تشمئز قلوبهم وتنقبض نفوسهم كلما دعوا إلى الله وحده إلهاً، وإلى شريعة الله وحدها قانوناً، وإلى منهج الله وحده نظاماً. حتى إذا ذكرت المناهج الأرضية والنظم الأرضية والشرائع الأرضية هشوا وبشوا ورحبوا بالحديث، وفتحوا صدورهم للأخذ والرد. هؤلاء هم بعينهم الذين يصور الله نموذجاً منهم في هذه الآية، وهم بذاتهم في كل زمان ومكان. هم الممسوخو الفطرة، المنحرفو الطبيعة، الضالون المضلون، مهما تنوعت البيئات والأزمنة، ومهما تنوعت الأجناس والأقوام"<sup>2</sup>.

## ب - الإلحاد بأسماء الله عز وجل

يجب أن نؤمن بأسماء الله كلها التي سمى بها بها نفسه، أو سماه بها نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - ، فمن ذلك أسماءه الحسنی، قال تعالى: (وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ). (سورة الأعراف: 180).

ومن هذه الأسماء ما ورد في قوله تعالى: (هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ). (الحشر: 23). وغيرها كثير ثابت صحيح بنصوص الأصلين.

وقد بين سبحانه أن المشركين أنكروا اسم الرحمن، وهو من أعظم أسمائه، قال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا). (الفرقان: 60).

<sup>1</sup> - انظر: الداء والدواء أو الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ص (131).

<sup>2</sup> - في ظلال القرآن، (3055/5).

وعليه فلا ينبغي إنكار الأسماء الصحيحة لله رب العالمين، وهي تدل على عظمته سبحانه، وذلك لأن كثرة الأسماء تدل على شرف المسمى كما هو متعارف عليه عند العرب.<sup>1</sup>

### ت - الإلحاد في صفات الله عز وجل

يجب أن نؤمن بصفات الله كلها التي وصف بها بها نفسه، أو وصفه بها نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - ، وهي صفات مشتقة من أسمائه كالرحمة والعدل والقدرة والغنى، ونحو ذلك من صفات الكمال والجلال المطلقة، وفي مقابل ذلك ينبغي أن ننفي عنه سبحانه كل صفة سلبية، أو صفه بما لا يليق به سبحانه كالفقر مثلا، وقد ادعى ذلك اليهود، قال تعالى: (لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلَ دُونِهَا عَذَابَ الْحَرِيقِ). (آل عمران:181).

كما وصفوه بالبخل تعالى الله عن ذلك! حيث قال: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ يُدُّ اللَّهُ مَغْلُوبَةً غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَآلَفَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ). (المائدة:64).

فالصفات السلبية الناقصة بحق الله تعالى مستحيلة، وهي من عمل المشركين.

### ث - طلب رؤية الله جهرة

إن طلب رؤية الله جهرة في الدنيا، وجعله سبيلا وحيدا لليقين، هو من عمل المشركين، قال تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتْوًا كَبِيرًا). (الفرقان:21). وذلك أن الله تعالى من صفاته أنه لا يرى في الدنيا، قال تعالى: (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ). (الأنعام:103).

### ج - نسبة أي فعل كوني لغير الله

إن الله تعالى هو الذي خلق الكون بما فيه، وهو المتحكم فيه وحده، فمن نسب شيئا من الأفعال التي تحصل في الكون لغير الله تعالى فقد أشرك، كالخلق والبعث مثلا، قال تعالى: (قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ). (يونس:34).

ومن الأفعال التي انفرد بها سبحانه: خلق العالم كله، وإنزال المطر، والإنبات، وتمهيد الأرض، وشق الطرقات، وتسيير الأنهار، وإرساء الجبال، وإقامة الحواجز بين البحار، وإجابة المضطر،

<sup>1</sup> - انظر: حياة الحيوان الكبرى، للدميري، (1/2-3).

وإبقاء البشرية جيلاً بعد جيلٍ، ومساعدة الناس وهدايتهم في البر والبحر، وإرسال الرياح، والخلق والبعث، والرزق ونحو ذلك، كما قال تعالى: (أَمْنَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ بَاهٍ بِهَجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ، أَمْنَ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، أَمْنَ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَدَّكَّرُونَ، أَمْنَ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ، أَمْنَ بِيَدَا الْخَلْقِ تَمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قُلٌّ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ). (النمل: 60-64).

### ح - إنكار بعض الكتب والرسل

من أسس الإيمان أن يؤمن المسلم بجميع الكتب والرسل بلا استثناء، فالكتب السماوية كلام الله تعالى، والكلام هو من صفاته؛ حيث كلم موسى تكليماً، وإرسال الرسل هو من عدله الذي هو من صفاته أيضاً، وبهم تقوم الحجة، كما قال تعالى: (وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا). (سورة النساء: 164).

وربما حاول المشركون من أعداء الرسل عليهم السلام التفرقة بين الله ورسله، والإيمان ببعضهم والكفر ببعضهم الآخر، وكان القضية مجرد هوى أو مزاج؛ قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا، أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا). (سورة النساء: 150-151).

ويعد "إنكار رسالته - صلى الله عليه وسلم - طعنٌ في الرب تبارك وتعالى، ونسبة له إلى الظلم والسفه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، بل جحدٌ للرب بالكلية وإنكاراً".<sup>1</sup>

وقد ينكر المشركون النبوات جميعاً، وينكرون الكتب المنزلة، وهذا غاية الضلال؛ إذ يعني عبثية وجود الإنسان في هذه الحياة، والله منزّه عن العبث، كما قال تعالى: (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ). (سورة الأنعام: 91).

ولا شك أن إنكار بعض الكتب أو الرسل هو شرك بالله تعالى، إذ هو يندرج ضمن إنكار بعض صفاته وأفعاله سبحانه!.

### خ - الموقف من اليوم الآخر

<sup>1</sup> - شرح العقيدة الطحاوية، بتخريج الألباني، ص (157).

اليوم الآخر وعد قطعه الله على نفسه لمحاسبة الناس، وهو يوم الدين، أي يوم الجزاء، قال تعالى: (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ، إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ). (سورة الفاتحة: 4-5).

ولذلك يعد إنكار الآخرة من عقيدة أهل الشرك والضلال، كما أن التحريف في مشاهد القيامة وأحوالها، واختلاق الأوهام والدعاوى حولها هو من عمل بعض المشركين أيضاً، قال تعالى في شأن بعض أهل الكتاب ممن انحرفوا نحو الشرك، مفنداً دعواهم بعدم الخلود في النار، وأنها دعوى لا تستند إلى دليل: (وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ). (البقرة: 80).

#### د - إنكار القدر

من صفات الموحدين الإيمان بالقدر، وأن كل شيء يحدث في الواقع كتبه الله عنده في اللوح المحفوظ قبل أن يوجد في الواقع، ولكن المشركين ينكرون القدر<sup>1</sup>، أي هم ينكرون علم الله بالحوادث قبل أن تقع، وإنكار صفة من صفات الله شرك كما تقدم، وإذا أقر به بعضهم فقد يفهمونه فهماً خاطئاً، إذ ينسبون شركهم وجرائمهم إلى القدر!، وكأنه ليس لهم ثمة يد فيها!، كما قال تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ). (سورة النحل: 35). وهذا الموقف منهم يدل على تخلف في فهم القدر وحركة الحياة ومسئولية الإنسان.

ومما يؤكد سوء فهم المشركين للقدر موقفهم من الإنفاق، قال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ). (سورة يس: 47). فقد برروا بخلهم وإمساكهم المال عن المحتاجين بالقدر، فلو شاء الله أطعم الفقراء! متناسين حكمة الله تعالى أن يبلى الناس بعضهم ببعض!.

ومن العجيب أن يستخدم المشركون ما بأيديهم من مال وثروة وسلطة لصد الناس عن الهدى!، فهم يبخلون على الجائع، ويجودون لنشر ملة الكفر، مستخدمين أساليب الترغيب والترهيب، قال تعالى يذكر تحاور أهل النار، وكيف أضلهم أسيادهم بأسلوب الترغيب: (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ، قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ، قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ، وَمَا كَانْ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ). (سورة الصافات: 27-30). ومعنى اليمين في هذه الآية: أي من قبل الخير وناحيته، أو أنكم كنتم تأتوننا عن القهر والقوة وتقصدوننا عن السلطان والغلبة حتى تحملونا على الضلال، وتقصدوننا عليه<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> - انظر: الداء والدواء أو الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ص (132).

<sup>2</sup> - انظر: تفسير الكشاف (40/4).

ويتساوى أهل النفاق والمشركون في سوء فهم القدر!، إذ يرى المنافقون أن الأخذ بالأسباب مانع من القدر، ولذلك قاموا ببث الإشاعات والرعب في قلوب المؤمنين لتثبيطهم عن الجهاد في سبيل الله تعالى، كما قال تعالى: (الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ قَادِرُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ الْمَوْتِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ). (سورة آل عمران: 168).

والحق أن القدر قائم بذاته، وهو محجوب عن الناس، وهم مطالبون بالأخذ بالأسباب، ولا يكون في النهاية إلا ما يريد رب العالمين!.

#### هـ - عبادة الأسباب

إنَّ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِالْقَدْرِ يَبَالِغُ فِي شَأْنِ الْأَسْبَابِ وَيَعْظُمُهَا، فَيَجْعَلُهَا هِيَ الْفَاعِلَةَ وَالْمَوْثِرَةَ فِي هَذَا الْوُجُودِ!، فهذا قارون يعظه قومه، ويأمرونه بالإنفاق؛ فيأبى!، وينسب ما هو فيه من ثروة وجاه ورفاه إلى علمه، فهو قد حصل المال بكده وسعيه كما زعم!، وأنكر فضل الله عليه، وأن ما به من نعمة فهي من فضل الله وتدبيره... لذا وكله الله لنفسه، وخسف به الأرض، وفي هذا الصدد قال تعالى يحكي قصته: (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ، وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْفِدِينَ، قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ). (سورة القصص: 76-78).

وهذا شأن كل من عظم الدنيا وأخذ بأسبابها، فهو ينسب لنفسه الفضل، ويتهاك على حطامها وجمعها، ولا يكاد يضيع دقيقة من عمره في غير طلبها، ولا يترك سبيلا لها إلا ويلجئه.. حتى إذا أدركه الموت لم ينفعه منها شيء، وأدرك أنه ضيع عمره الثمين في ما لا طائل فيه!

والأصل أن يوازن الإنسان بين الأخذ بالأسباب والتوكل على الله، فلا يهمل الدنيا - بحجة التوكل - فيجوع ويمرض ويصبح عالة على غيره، ولا يسرف في طلبها والاعتماد على أسبابها - من دون الله - فيكفه الله إلى نفسه، وعلى المرء أن يدرك أنها دار فناء لا دار بقاء، ودار عبور بما فيها من حزن وسرور، فيتزود من صالح الأعمال الخالصة ما يؤهله للنعيم الخالد، فقد قال الفضيل في تفسير قوله تعالى: (الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ) (الملك: 2): قال: "هو أخلص العمل وأصوبه، قالوا يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل؛ حتى يكون خالصا وصوابا، فالخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة"<sup>1</sup>.

\* \* \*

<sup>1</sup> - أورده الرازي بلا عزو، انظر: التفسير الكبير للرازي، (580/10-581).

## المبحث الخامس:

## التشريع بمغزل عن الشريعة

من الأصول التي يجب الاعتقاد بها أن الله الذي خلق الناس هو أعلم بما يصلحهم في شئون دينهم ودنياهم، ولذلك بعث لهم الرسل ليدلوهم على المنهج القويم والصراط المستقيم، وزودهم بالشرائع التي تلبى حاجاتهم ومصالحهم، وأمرهم أن يتحاكموا إليها.

## والتشريع له حالتان:

الأولى تتعلق بالدين، وهي تتعلق بالحقوق الشخصية والعامة والشريعة، والتشريع في مثل هذه الأمور ينبغي أن يكون مستنبطاً من الشريعة وحدها.

الثانية: التشريع في أمور الدنيا، مثل بناء المدن وتخطيطها وشق الطرق وتنظيم الدواوين، وإنشاء المدارس ونحو ذلك... وهذا متروك للناس ليشرعوا فيه وفق مصالحهم الدنيوية على هدي من الشريعة أيضاً.

## وعليه يدخل في الحالة الأولى:

## أ - وضع التشريعات الباطلة التي لم يأذن بها الله

وذلك كأن يُحل الناس حراماً ويحرموا حلالاً<sup>1</sup>، وهنا يمارس المشرع سلطة الإله والعياذ بالله!، إذ لا يحق لأحد من البشر أياً كان فعل ذلك!، وفي هذا الصدد قال تعالى في شأن طائفة من أهل الكتاب أحلت وحرمت من تلقاء أنفسها، مندداً بما فعلت: (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ). (التوبة: 31). وفي تفسيرها ورد: أن عدي بن حاتم قدم إلى المدينة "فدخل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وفي عنق عدي صليب من فضة، وهو يقرأ هذه الآية: (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ). قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم. فقال: (بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم)."<sup>2</sup>، ولا شك أن تفسير "رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لقول الله سبحانه، نص قاطع على أن الاتباع في الشريعة والحكم

1 - انظر: شرح العقيدة الطحاوية، بتخريج الألباني، ص (204).

2 - مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني (137/2).

هو العبادة التي تخرج من الدين، وأنها هي اتخاذ بعض الناس أرباباً لبعض . . الأمر الذي جاء هذا الدين ليُلغِيه ، ويعلن تحرير "الإنسان" ، في "الأرض" من العبودية لغير الله<sup>1</sup>.

### ب - ومن ذلك الافتراء على الله، ونسبة الأمر بفعل الفواحش إليه

كان المشركون يفعلون الفواحش، زاعمين شرعيتها بإرث اجتماعي توارثوه عن آبائهم! وسلطان ديني مدعين أن الله أمرهم بها!، ولذلك قال تعالى مندداً بهم ومكذباً لهم: (وَإِذَا فَعَلُوا فَاجِسَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ). (الأعراف:28).

### ت - تحريف كلام الله المنزل من السماء

إن تحريف الكتب السماوية المنزلة قبل القرآن الكريم لهو من أسوأ صور تزيف الحقائق، فالكتب هي مصدر الشرائع، والتلاعب بها هو تلاعب بالأحكام والشرائع التي تضمنتها!، وهو نوع من الشرك يشبه ما ذكرناه في الحالة الأولى من تحريم الحلال وتحليل الحرام، وقد عمد إليه بعض أهل الكتاب، قال تعالى: (أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ). (البقرة:75). فهؤلاء المحرفون لا يتورعون عن التلاعب بالدين والصد عن سبيل الله تعالى!، وذلك كما قال تعالى: (الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ). (سورة الأعراف: 51).

وسبب هذا التحريف مصلحة دنيوية عاجلة تتمثل في مكسب مادي بسيط كما قال تعالى: (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ). (البقرة:79).

### ث - صرف العبادة لغير الله تعالى!

وذلك كأن تُصرف العبادة للطاغوت من: حجر أو بشر أو شمس وقمر، وأن يُفضل أهل الشرك على أهل التوحيد، قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيحًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا). (سورة النساء: 51). وقد

<sup>1</sup> - في ظلال القرآن، (1435/3).

نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى<sup>1</sup>، والجببت: الأصنام، وكل ما عبد من دون الله، والطاغوت: الشيطان<sup>2</sup>.

### ج - رفض التحاكم إلى شريعة الله

ينبغي على المؤمن التحاكم إلى شريعة الله تعالى التي تحقق الحق وتقيم العدل، وتتصف المظلوم، لا إلى شرائع الجاهلية التي تنصف عليه القوم دون الرعاع!، وتخترع أحكاماً ما أنزل الله بها من سلطان!، والمشركون يرفضون التحاكم إلى شرعة الله ابتداءً، ويلحق بهم المنافقون، قال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا). (سورة النساء: 61).

وربما ادعى المشركون أنهم يحققون مصلحة العباد والبلاد في أحكامهم وتشريعاتهم وتصديهم لدعوة الرسل عليهم السلام!، فهذا فرعون يدعي الرشد قائلاً لمن حوله: ( قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ). (سورة غافر: من الآية 29).

وليس الكفرة من أعداء الرسل عليهم السلام إلا قطاعاً لطريق الحق، أعداء لأهل التوحيد، حتى لو أن قائلاً ادعى بأنهم لم يخلقوا إلا لهذه الغاية لم يكن ذلك ببعيداً!

### ملاحظة:

ليس مجرد الحكم بغير ما أنزل الله كفر، مالم يكن ذلك مقروناً بعمل قلبي، وهو أن يجحد الحاكم في قلبه ما أنزل الله<sup>3</sup>، وأما مجرد الحكم بغير ما أنزل الله من دون جحد فهو معصية كبيرة كما نبه على هذا المفسرون عند قوله تعالى: (وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ). (المائدة: بعض الآية 44). فقد ورد عن ابن عباس في تفسيرها قوله: "من جحد ما أنزل الله فقد كفر، ومن أقر به ولم يحكم به؛ فهو ظالم فاسق"<sup>4</sup>، وورد عن طاووس وعطاء أنهما قالوا: "كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسق دون فسق"<sup>5</sup>.

\* \* \*

<sup>1</sup> - تفسير الكشاف للزمخشري، (520/1).

<sup>2</sup> - المصدر السابق، (521/1).

<sup>3</sup> - انظر: شرح العقيدة الطحاوية، بتخريج الألباني، ص (323-324).

<sup>4</sup> - مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني (520/1).

<sup>5</sup> - المرجع السابق، (522/1).



## الفصل الثاني:

### أسباب الشرك وبواعثه

جعل الله سبحانه هذا الكون كله يسبح له، ويشهد له بالوحدانية، كما قال تعالى: (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ). (الجمعة: 1).

فإذا كانت جميع الكائنات تشهد لله بالوحدانية، وهو أمر ثابت لدى كل ذي لب، وقد أشار إليه العلماء والأدباء والشعراء في مثل نحو قول أبي العتاهية:<sup>1</sup>

فيا عجباً كيف يُعصى الإلـ

ه أم كيف يجدهُ الجاحدُ

ولله في كل تحريكةٍ

وفي كل تسكينةٍ شاهدُ

وفي كل شيءٍ له آيةٌ

تدلُّ على أنه واحـدُ

فمن أين جاء الشرك الذي هو أقصى درجات التخلف الفكري والعقدي، وأسوأ أنواع الانحدار العقلي والشعوري؟ وما هي أسبابه؟

### كيف ينشأ الشرك؟

ينشأ الشرك من تسوية الله بخلقه في أمر من الأمور، قال ابن تيمية: "وأصل هذا قياس المشركين الذين عدلوا بالله، وجعلوا الله أنداداً، سووهم برب العالمين في عبادتها أو اتخاذها آلهة، وكذلك من عدل برسوله متنبئاً كذاباً، كمسيلمة الكذاب، أو عدل بكتابه وتلاوته واستماعه كلاماً آخر أو قراءته أو سماعه، أو عدل ما شرعه من الدين ديناً آخر شرعه له شركاؤه، فهذا كله من فعل المشركين ... وأصل الشرك أن تعدل بالله مخلوقاته، في بعض ما يستحقه وحده، فإنه لم يعدل أحد بالله شيئاً من المخلوقات في جميع الأمور، فمن عبد غيره أو توكل عليه فهو مشرك به، كمن عمد إلى كلام الله الذي أنزله، وأمر باستماعه، فعدل به سماع بعض الأشعار"<sup>2</sup>.

<sup>1</sup> - مختارات البارودي، (462/4).

<sup>2</sup> - الاستقامة، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، (344/1).

## أسباب نشأة الشرك

وهناك ثلاثة أسباب لنشأة الشرك، استنبطناها من الكتاب العزيز، وهي الآتية:

الأول: التخلف في منهجية التفكير وإعمال العقل.

الثاني: الموروث الثقافي والاجتماعي.

الثالث: أسباب نفسية وأخلاقية.

وسوف نفصل الحديث حولها في مباحث هذا الفصل.

## المبحث الأول:

### التخلف في منهجية التفكير وإعمال العقل

من المعلوم عقلاً أن التفكير السليم يقود إلى نتائج سليمة، والتفكير السليم هو التفكير العلمي الموضوعي الذي يتبع منهاجاً واضحاً في البحث والاستدلال، فمن تأمل بالكون وأجرامه، والأرض ومخلوقاتهما، وفي نفسه وما فيها من الإبداع سواء في هيتها التركيبية الجثمانية، أو قواها الروحية والعقلية الإبداعية، ومن تأمل في التاريخ وأحداثه وسننه، والواقع وما فيه من تجاذبات وتقلبات، توصل من خلال البحث والتحليل والاستقصاء فيما تقدم كله، أو في بعضه إذا تعذر عليه البحث في كل الموضوعات.. توصل إلى أن الله هو وحده الخالق لهذا الكون، المتعهد لما فيه، وأن كل فعل يجري بأمره، له الخلق والأمر سبحانه وتعالى!.

فلماذا يرفض كثير من الناس هذه الحقيقة؟! إنه التخلف في منهجية التفكير وإعمال العقل، مما يجعلهم يرفضون الحق لمجرد أنه الحق!، ويتجلى رفض الحقيقة بأمر كثيرة، منها:

#### أ - الكفر بآيات الله تعالى

فقد يرى الإنسان الآيات، ولكنه يصر على الكفر لغرض في نفسه كما قال تعالى: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ). (سورة آل عمران: 98).

#### ب - الكفر بعد الإيمان

قد يؤمن المرء ثم يكفر بعد ذلك!، وهذه صورة من صور الشرك والضلال، كما قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ نُقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ). (سورة آل عمران: 90). قال الزمخشري في تفسير الآية: "هم اليهود كفروا بعيسى والإنجيل بعد إيمانهم بموسى والتوراة، ثم ازدادوا كفراً بكفرهم بالقرآن"<sup>1</sup>.

#### ت - الإعراض عن الحقيقة

يتجلى الإعراض عن الحقيقة بعدم المبالاة بها!، كما قال تعالى: (مَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ). (سورة الأحقاف: 3).<sup>1</sup> فيها هنا كون مخلوق بالحق وله هدف معين، ولكن الكافرين مغمضون أعينهم عن هذا الهدف، غير مباليين بالتذكير والوعيد!.

<sup>1</sup> - تفسير الكشاف (382/1).

### ث - التكذيب بالحقيقة

والتكذيب بالحقيقة هو لغرض خارج عنها واما يقتضيه الإيمان بها من الإذعان لله الواحد القهار، فهذا النبي محمد - عليه الصلاة والسلام - يلاقي التكذيب من قومه! حاله في ذلك كحال الرسل من قبله، قال تعالى مواسياً له: (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ). (سورة فاطر: 4).

وسبب هذا التكذيب أن الكافرين أصلاً يحبون الافتراء والكذب حتى صار ذلك ديدنهم وجبله فيهم، فلا يتورعون عن رمي الصادقين به كما قال تعالى: (مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ). (سورة المائدة: 103).

### ج - امتزاج الإعراض بالتكذيب مما يؤدي إلى الاستهزاء

ربما تفاعلت الأسباب مع بعضها لتولد سبباً جديداً، فامتزاج الإعراض بالتكذيب يؤدي إلى الاستهزاء، ولا يمكن للمرء أن يقبل الحقيقة ممن يستهزئ به، قال تعالى: (وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ، فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ). (سورة الأنعام: 4-5).

### ح - الاستكبار

الاستكبار مرض نفسي يحول بين صاحبه والإذعان للحقيقة، والمشركون عامة مبتلون به والعياذ بالله!، قال تعالى: (إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ). (سورة الصافات: 35).

والاستكبار هنا ليس نقيض التواضع الاجتماعي، فقد يكون المشرك متواضعاً بين الناس، ولكنه مستكبر بقلبه عن قبول الحقيقة!

### خ - الصد عن الهدى

الصد عن الهدى صورة تدل على أقصى درجات التخلف في منهجية التفكير!، إذ ينبغي ترك الحقائق تتحدث عن نفسها أمام الناس، وأما الصد عنها ومحاربتها ابتغاء الحفاظ على مكتسبات أرضية، وإبقاء الواقع السيئ كما هو؛ فهذا هو غاية الجهل والتخلف في التعامل مع الحقائق والسنن الكونية، وقد كان هذا ديدن بعض أهل الكتاب، قال تعالى: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ

تَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبِعُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ). (سورة آل عمران: 99).

#### د - السخرية من المؤمنين!

اقتضت حكمة الله أن يكون أهل الشرك هم الأكثر عدداً وعدة في أغلب الأزمان، والله تعالى يمدهم بأسباب القوة المادية استدراجاً لا محبةً، فإذا نظروا إلى أهل الإيمان استضعفوهم وسخروا منهم، كما قال تعالى: (زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ). (سورة البقرة: 212). وقد أراد الله في هذه الآية أن يرفع من شأن المؤمنين، مبيناً أن الدنيا دار ابتلاء والآخرة دار جزاء، وطرف المعادلة الآخر هو يوم القيامة؛ حيث يعلو المؤمنون فوق الكافرين ويسخرون منهم، والجزاء من جنس العمل!.

#### ذ - عقدة التقليد الأعمى للسابقين

إن تقليد الآباء والأجداد ولو كانوا على ضلال!، هو موقف فلكلوري تقفه الجاهلية في كل عصر!، وترفض الانعتاق منه، فهو جزء من تراثها ووجودها، حيث تفترض في آباءها وأجدادها الصواب المطلق!، وترفض التحرر من رق العبودية لفهم الآباء والأجداد، وتحارب أي دعوة لإعمال العقل والتفكير السليم!، وذلك كما قال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلَوْا كَانِ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ). (سورة البقرة: 170).

تلك كانت أهم أسباب التخلف في منهجية التفكير وإعمال العقل عند المشركين.

\* \* \*

## المبحث الثاني:

### الموروث الثقافي والاجتماعي

يشكل الموروث الثقافي والاجتماعي هوية الأمم وحضارتها، ولكنه في حالة الشرك قد يشكل عبئاً وأغلالاً! يصعب الفكك منها للانتقال إلى نور التوحيد وقمته السامقة!.

وفيما يأتي ذكر بعض صورته التي تعيق النقلة السامية إلى التوحيد:

#### أ - التصور المادي للحياة

يعيش الإنسان المشرك كالبهيمة على وجه الأرض!، لا يدري له هدفاً غير الطعام والشراب والجنس، ولا يبحث عن سبب خلقه وإلى أين يصير بعد الموت!، بل إنه يكذب بالبعث والرسالات ليريح نفسه من عناء مُحاسبتها، وهذه حال شريحة كبيرة من أهل الشرك والعناد، قال تعالى متهمكاً بهم، ومتوعداً لهم: (ذُرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَبْتِمُّعُوا وَيُلْهَهُمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ). (الحجر:3).

#### ب - الأديان المزيفة

تسهم بعض الأديان المزيفة التي تزدرى المعرفة، وتحط من شأن العقل والتفكير، ولا تحترم إنسانية الإنسان، تسهم - ولا سيما الوثنية منها - في جعل الإنسان يعيش في سجن وهمي، جدرانها وأدواته تصورات دينية مشوهة، وقيم باطلة يؤقلم حياته من خلالها، وهي تتحكم في سلوك الإنسان وتجعله يتخبط في الظلمات!.

من ذلك - مثلاً - تصورات المشركين حول المحرم عليهم من أكل الأنعام، وهي في مجملها تصورات ظالمة كاذبة جاهلة لا سند لها من يقين، وذلك كما قال تعالى: (ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعَزِ اثْنَيْنِ قُلْ الذَّكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، وَمِنَ الْأَيْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ الذَّكْرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ). (الأنعام:143-144).

فالأديان المزيفة، بعقائدها وتشريعاتها وخزعبلاتها هي عبء وأغلال، تطوق الإنسان لتمنعه من الوصول إلى الحقيقة!.

#### ت - العادات والتقاليد

العادات والتقاليد الاجتماعية منها ما هو صالح، ومنها ما هو فاسد، ولكن ما يتصل منها بالعقيدة في المجتمع المشرك هو في مجمله ضال وفساد!، وقد أسهم التشبث بها في المجتمع القرشي بالحيلولة دون وصول بعضهم إلى نبع الشريعة العذب، فماتوا وهم كافرون!، قال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نُنَبِّئُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُوهُمْ لَآ يَعْزِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ). (سورة البقرة: 170).

وحري بالعاقل أن يتحرر من رق العادات والتقاليد الاجتماعية، ولا سيما إذا كان من يتبعهم لا حظ لهم من عقل أو معرفة، كما هو حال عبدة الأوثان!.

### ث - الأهواء الاجتماعية

تسهم الصحبة السيئة والمجاملات الاجتماعية في صرف الناس عن الحقيقة، فقد يبصر الإنسان النور، ثم يغض طرفه عنه مراعاة لخلانه وأصدقائه، مما يسبب الحسرة والهلاك له يوم القيامة!، قال تعالى: (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً، يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً، لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً). (الفرقان: 27-29).

تلك كانت بعض آثار الموروث الثقافي والاجتماعي على المشركين، وهي آثار تحول دون رؤية بعضهم للنور المبين!.

\* \* \*

## المبحث الثالث:

### أسباب نفسية وأخلاقية

جعل الله النفس البشرية قابلة للخير والشر، وللتزكية والفجور، فإذا امتلأت عتواً وفجوراً امتلأت شركاً وكفراً، وقادها ذلك إلى الطغيان والهلاك!، وذلك لأن الشرك قائم على مجموعة مترابطة من مساوئ الصفات النفسية والأخلاقية التي سنبينها في هذا المبحث.

وفيما يأتي ذكر بعض الأسباب النفسية والأخلاقية التي يقوم عليها الشرك، وتحول دون نور التوحيد:

#### أ - الجهل

الجهل هو القاعدة الأساسية للمشركين عامة، فهم يجهلون معرفة ربهم وصفاته، ويجهلون الغاية من الخلق ووجود الإنسان ورسالته في الحياة، ولما كانوا في جهل تام، وعمى مطبق!، عبدوا أصناماً لا تنفع ولا تضر، وزعموا لها الشفاعة، بلا دليل لهم!، قال تعالى: (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ). (يونس:18).

وقال أيضاً في سياق آخر: (أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهَوْا يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ). (الروم:35). والمعنى هل "أنزلنا عليهم حجة ذات قوة وسلطان تشهد بهذا الشرك الذي يتخذونه؟ وهو سؤال استنكاري تهكمي، يكشف عن تهافت عقيدة الشرك، التي لا تستند إلى حجة ولا تقوم على دليل. ثم هو سؤال تقريرى من جانب آخر، يقرر أنه لا عقيدة إلا ما ينتزل من عند الله. وما يأتي بسلطان من عنده. وإلا فهو واهنٌ ضعيف"<sup>1</sup>.

#### ب - الكذب

الكذب هو من صفات المشركين، وذلك أنهم كذبوا على الله أفضع كذب حينما نسبوا له الشركاء، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونِ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا). (النساء:48).

<sup>1</sup> - في ظلال القرآن، (2771/5).

وطالما أنهم كذبوا، وقبلوا بالكذب على الله، فإنهم يريدون من أهل الإيمان أن يكذبوا على الله أيضاً، ليكونوا مثلهم، وقد يحاولون إكراه الرسل - عليهم السلام - وأتباعهم للعودة إلى ملة الكفر عنوة، وذلك حفاظاً على حياتهم وممتلكاتهم، كما قال تعالى عن قوم شعيب: (قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَنَعُوذَنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ، قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ). (سورة الأعراف: 88-89).

ويبالغ المشركون في باطلهم وكذبهم حين يطلبون من الآخرين اتباعهم في غيهم، وترك الملة الإبراهيمية المستقيمة، قال تعالى: (وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ). (سورة البقرة: 135).

### ت - الظلم

الظلم هو من أهم بواعث الشرك بالله، ومن أسباب زوال الأمم والملوك، وقد يظلم الإنسان نفسه بالمعاصي، وأهله بعدم النفقة عليهم، أو بالتمرد عليهم، وقد يظلم عدوه إذا وقع أسيراً بين يديه!، وشرك الظلم أن يظلم الحقيقة، وذلك حين يزعم أن ثمة إلهاً آخر مع الله سبحانه!، ولذلك سمي الشرك ظلماً على لسان لقمان في قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ). (لقمان: 13).

روى ابن مسعود، قال: لما نزلت: (الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ). (سورة الأنعام: من الآية 82). شق ذلك على أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وقالوا: يا رسول الله! أينما لم يظلم نفسه؟! فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : " ليس ذلك؛ إنما هو الشرك، الم تسمعوا قول لقمان لابنه: ( يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ). (سورة لقمان: من الآية 13). وفي رواية: "ليس كما تظنون، وإنما هو كما قال لقمان لابنه".<sup>1</sup>

والظلم في الشرك قائم على الكذب، فالكذب أصل الشرك، والظلم متفرع عنه، لذلك يعتبر الشرك شر أنواع الظلم، قال تعالى حكاية على لسان أهل الكهف: (هُؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا). (الكهف: 15).

وبضد الظلم العدل، وهو من قيم هذا الدين، فإله سبحانه قائم بالعدل! كما قال تعالى: (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَانِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ). (آل عمران: 18). وذلك قيل: "وأظلم الظلم على الإطلاق الشرك، وأعدل العدل التوحيد".<sup>2</sup>

<sup>1</sup> - متفق عليه، انظر: مشكاة المصابيح، للتبريزي، بتحقيق الألباني، (25/1)، الحديث (61).

<sup>2</sup> - انظر: شرح العقيدة الطحاوية، بتخريج الألباني، ص (88).

وكلمات الله تعالى صادقة عادلة، قال تعالى: (وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ). (الأنعام:115).

وقد أمر نبيه - صلى الله عليه وسلم - بالعدل، قال تعالى: (فَلِذَلِكَ فَادُعْ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ). (الشورى:15).

وأمر المسلمين بالعدل، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا). (النساء:58).

وأوصى بالعدل مطلقاً، كما قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ). (النحل:90).

وقد وردت مادة (شرك) في القرآن الكريم (169) مرة، ومادة (وحد) (68) مرة، ومادة (عدل) (28) مرة، وثمة علاقة بين هذه المواد يصعب تتبعها في هذا البحث الموجز.

### يبقى أن نشير إلى أن العدل له ثلاث صور:

الأولى: أن تطبق القانون على الجميع بلا تمييز أو استثناء، كما في الدول الأوروبية؛ وهذا عدل نسبي.

الثانية: أن تطبق القانون على الجميع بلا تمييز أو استثناء، وأي يكون هذا القانون مستمداً من شريعة السماء، كما في حكم الرسول - صلى الله عليه وسلم - والخلفاء الراشدين من بعده، وهذا عدل كامل.

الثالثة: أن تقيم حكم الله على الجميع بلا استثناء، مع مراعاة كافة الظروف والملابسات الظاهرة والخفية في كل أمر، وإطلاع كامل على أحوال المحكوم عليه في كل أمر، وأن يوزن ما له من خير وما اكتسبه من شر بميزان الذرة، وهذا عدل خاص بالله رب العالمين يوم القيامة، وهو عدل مطلق!.

ث - الضلال

الضلال هو العدول عن الطريق المستقيم، وهو عكس الهداية، ويقال الضلال لكل عدول عن المنهج عمداً كان أو سهواً، يسيراً كان أو كثيراً<sup>1</sup>، والشرك منتهى الضلال!، ولذلك استثنى الله المشركين من رحمته، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا). (النساء:116).

ولا عجب في طرد المشركين من رحمة الله تعالى، وذلك لما فيهم من خبل عقلي وجهل معرفي، جعلهم لا يهتدون لمعرفة الله في الدنيا، فكان عقابهم أن لا تعرفهم رحمة الله في الآخرة!.

### ج - التقليد الأعمى

التقليد الأعمى من عمل البهائم وليس من شأن الإنسان السوي، فالقردة مثلاً تقلد الإنسان دون أن تدري فحوى ما يقوم به!، والله تعالى أراد أن ينأى بالمجتمع الإنساني عن مستنقع التقليد، ولذلك نعى على المشركين تقليدهم آباءهم الجهلة المغفلين في شركهم، قال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلُو كَانُوا آبَائُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ). (سورة البقرة: 170).

بل هم قد يتخذون أحاديث آبائهم مصدراً وحيداً للمعرفة!، فما سمعوه منهم قبلوه، وما لم يسمعه رفضوه، وهذا ما أقر به قوم نوح: (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولِينَ). (سورة المؤمنون: 24).

### ح - تعطيل الحواس

الحواس التي وهبها الله تعالى للإنسان هي إحدى وسائل المعرفة التي تقوده لاستكشاف العالم من حوله، ومعرفة العلي القدير بعد ذلك!، ولكن المشركين عطلوا حواسهم، فما عاد ينفعهم خطاب، ولا يردعهم كتاب!، فهم كما قال تعالى: (صُمُّ بُكُمْ عُمِي فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ). (سورة البقرة: 18).

والنبي - صلى الله عليه وسلم - يدعوهم، ولكنهم لا يدركون مغزى كلامه، ولا يعون لما في مضمونه، قال تعالى: (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكُمْ عُمِي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ). (سورة البقرة: 171).

فكان النبي - صلى الله عليه وسلم - معهم كالراعي الذي ينعق بالغنم وهي لا تدرك سوى رنة صوته فقط<sup>2</sup>، وعليه فقد استحق هؤلاء العذاب الخالد طالما انحطوا لمرتبة دون مرتبة الحيوان!، قال تعالى: (وَلَقَدْ دَرَأْنَا لِحَظْمٍ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا

1 - انظر: المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة (ضل).

2 - انظر: مختصر تفسير البغوي، للدكتور عبد الله الزيد، ص (61).

يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آدَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ). (سورة الأعراف: 179).

### خ - ضيق النفس

من بواعث الشرك الاشمزاز من التوحيد والاستبشار بذكر الأوثان، قال تعالى: (وَإِذَا دُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا دُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ).

وربما وصل الاشمزاز إلى حد ضيق النفس كمن يصعد في السماء، فيفتقد الأكسجين ويضيق نفسه في صعوده!، قال تعالى: (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ). (سورة الأنعام: 125).

وسبب هذا الضيق النفسي هو الشرك بالله، فالمشركون يفرحون عند ذكر شركائهم، ويشمنزون عند ذكر الله وحده!، قال تعالى: (ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ). (غافر: 12).

### د - الكراهية

تزييف الحقائق أو لبسها على الناس هو ديدن المشركين الذين يكرهون الحق، قال تعالى: (لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنْ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ). (سورة الزخرف: 78).

والكراهية والحقد والحسد كلها مشاعر تدفع الإنسان لركوب موجة الباطل والإعراض عن دعوة الحق!.

### ذ - الجحود

هناك شريحة من المشركين، تعرف صدق النبي عليه الصلاة والسلام، بيد أنها جحدت الحقيقة حسدا وظلما!، ومن هؤلاء أبو جهل رأس المشركين<sup>1</sup>، وفيه نزل قوله تعالى: (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ). (سورة الأنعام: 33).

### ر - الاستكبار

<sup>1</sup> انظر: لباب النقول في أسباب النزول، للسيوطي، ص (193). ومختصر تفسير البغوي، للدكتور عبد الله الزيد، ص (260).

التكبر والاستكبار من الأمور النفسية التي تمنع المرء أن يذعن للحقيقة رغم وضوحها وجلائها، وإيمانه بها في عقله الباطن!، قال تعالى: (فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ، وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ). (سورة النمل: 13-14).

وقد وردت الآيات ضمن مجموعة آيات تتحدث عن قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وقد زود الله موسى بتسع آيات بينة تدل على صدقه، والمعنى "هذه الآيات الكثيرة العدد، الكاشفة عن الحق، حتى ليبصره كل من له عينان. ويصف هذه الآيات نفسها بأنها مبصرة، فهي تبصر الناس وتقودهم إلى الهدى. ومع هذا فقد قالوا عنها: إنها سحر مبین! قالوا ذلك لا عن اقتناع به، ولا عن شبهة فيه. إنما قالوه ظلماً وعلواً وقد استيقنت نفوسهم أنها الحق الذي لا شبهة فيه: (وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ). قالوا جحوداً ومكابرة، لأنهم لا يريدون الإيمان، ولا يطلبون البرهان. استعلاء على الحق، وظلماً له ولأنفسهم بهذا الاستعلاء الذميمة.

وكذلك كان كبراء قريش يستقبلون القرآن، ويستيقنون أنه الحق، ولكنهم يجحدونه، ويجحدون دعوة النبي - صلى الله عليه وسلم - إياهم إلى الله الواحد. ذلك أنهم كانوا يريدون الإبقاء على ديانتهم وعقائدهم، لما وراءها من أوضاع تسندهم، ومغانم تتوافد عليهم. وهي تقوم على تلك العقائد الباطلة، التي يحسون خطر الدعوة الإسلامية عليها، ويحسونها تنزلت تحت أقدامهم، وترتج في ضمائرهم. ومطارق الحق المبين تدمغ الباطل الواهي المريب!

وكذلك الحق لا يجده الجاحدون لأنهم لا يعرفونه. بل لأنهم يعرفونه! يجحدونه وقد استيقنته نفوسهم، لأنهم يحسون الخطر فيه على وجودهم، أو الخطر على أوضاعهم، أو الخطر على مصالحهم ومغانمهم. فيقفون في وجهه مكابرين، وهو واضح مبين".<sup>1</sup>

## ز - الشك

الشك حالة نفسية خطيرة تجعل صاحبها متردداً في قبول الحق رغم وضوحه، وقد شك فريق من المشركين بالقرآن! وذلك كما قال تعالى: (أَنْزَلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابٍ). (سورة ص: 8).

واستمر المشركون الشك بالدعوة، وهم يقفون منها موقف اللاعب اللاهي الذي شغلته ملاهي الحياة عن التأمل في صدق الدعوة، قال تعالى: (بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ). (سورة الدخان: 9).

وكان موقف النبي - صلى الله عليه وسلم - حاسماً إزاء هؤلاء الشكاكين المترددين، فهو ثابت على دينه الحق، ماض في دعوته، غير عابئ بهم وبمواقفهم العبيثية من الدعوة!، قال تعالى: (قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ بَيْنِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ). (سورة يونس: 104).

<sup>1</sup> - في ظلال القرآن، (2630/5).

## س - الشعور بالضعف

الشعور بالضعف يدفع الإنسان إلى التدين، وقبل الإسلام اختلط الحق بالباطل لدى كثير من الناس، فهرعوا لهذه الأصنام لعلها تنصرهم كما قال تعالى: (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ، لَا يَسْتَطِيعُونَ نصرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحضَرُونَ). (سورة يس: 74-75).

وهذه الأصنام لا تستطيع نصر أنفسها، بل أتباعها هم جندها، ولولاهم لسقطت واندثرت!<sup>1</sup>، وسوف تكون معهم في النار<sup>2</sup>، وهذا إمعان في إظهار عجزها وضعفها والتهمك بها وبمن يعبدها... ولذلك لا يلجأ الموحد إلا لربه في الرخاء والشدة، وشعاره: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ). (سورة الفاتحة: 5).

### والخلاصة في هذا المبحث:

أن الشرك قائم على مزيج من مساوئ الصفات النفسية والخلقية؛ كالجهل، والكذب، والظلم، والضلال، والتقليد الأعمى، وتعطيل الحواس، وضيق النفس، والكرامية، والجود، والاستكبار، والشك، والشعور بالضعف، وهي مشاعر في مجملها تقف عائقاً دون وصول نور التوحيد إلى قلب الإنسان وبصيرته!.

\* \* \*

<sup>1</sup> - انظر: مختصر تفسير البغوي، للدكتور عبد الله الزيد، ص (789).

<sup>2</sup> - انظر: تفسير الجالين، ص (445).

## الفصل الثالث:

### آثار الشرك ونتائجه

ابتليت البشرية عبر تاريخها الطويل بصور مختلفة من الشرك، حتى صار أكثر الناس من المشركين!، قال تعالى: قال تعالى: (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ). (سورة يوسف: 106).

والشرك هو عقيدة مدمرة للإنسانية!، فالأمور كلها في البداية والنهاية بيني يدي الله تعالى!، فأية فائدة ترتجى باللجوء إلى الشركاء المختلفين المزورين سوى إضاعة العقل والجهد!، وفساد الفرد والجماعة!، ونيل غضب الرب سبحانه؟! قال تعالى: (قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا). (سورة الأحزاب: 17).

ولذلك كانت الوصية الإلهية الأولى للأنبياء والمرسلين جميعاً توحيد الله تعالى، ثم تأتي العبادات والشرائع بعد ذلك، فهذا أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام يأمره ربه بنبذ الشرك أولاً، وتطهير البيت بعد ذلك لعامة الناس، قال تعالى: (وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ). (سورة الحج: 26).

وهذا النبي الخاتم محمد - صلى الله عليه وسلم - يدعو إلى الله الواحد على بصيرة، ويتبرأ من المشركين، قال تعالى: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ). (سورة يوسف: 108).

و لما كان الشرك بالله تعالى أفضح الكبائر كلها، وهو يمثل أكبر جريمة دينية ترتكب على وجه الأرض بحق الواحد الأحد سبحانه، كان لا بد من أن تظهر له أضخم الآثار في حياة الإنسانية في مختلف جوانبها، وهو ما نحاول تلمسه في مباحث هذا الفصل.

## المبحث الأول:

### آثار الشرك الفكرية والمعرفية

للشرك بالله تعالى آثاره السلبية على صعيد الفكر والمعرفة، ومن هذه الآثار:

#### أ- انحدار العقل والتفكير

أي قيمة ينحدر إليها الإنسان عندما ينقاد لإنسان مثله؟!، إنه باختصار عديم الشخصية والإرادة، فكيف إذا انقاد لأصنام نحتها غيره، وراح يعبدها من دون الله!، ويظن لها النفع والضرر؟! هل لهذه الأصنام الجامدة المينة أية حركة أو تأثير حتى تُرتجى؟! هل ثمة تخلف فكري أكبر من هذا؟! ولذلك تحداها، وتحدى كيدها وأصحابها: الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأن يفعلوا ما في وسعهم من كيد وضرر إذا كانوا يستطيعون ذلك، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونَ). (سورة الأعراف: 194-195).

إنها باختصار حجارة صماء، لا فائدة من دعائها، وحين يملك أصحابها الوعي الجيد سينبذونها!، قال تعالى: (قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ). (سورة الأنبياء: 66).

#### ب - تزوير الحقائق

الشرك أعظم وسيلة لإشاعة الكذب!، وتزوير الحقائق، وذلك أن المشرك يكذب على الله، فيدعي له شركاء، قال تعالى: (أَفِكَأَ إِلَهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ). (سورة الصافات: 86).

ومن تعود الكذب على الله تعالى؛ يمكن له أن يكذب على الناس، لأن جريرة الكذب على الناس أهون من الكذب على الله تعالى!.

#### ت- رفض الموضوعية

تقتضي الموضوعية الإنصاف والعدل، والعرب كانت تحب الأولاد وتند البنات!، وقد زعموا أن اللات والعزى ومناة بنات الله!، فكيف جعلوا الله ما يكرهونه لأنفسهم؟! قال تعالى: (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ، أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ، تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ). (سورة النجم: 19-22).

<sup>1</sup> - انظر: تفسير الكشاف، (423/4).

وإنما العابد الحق من يؤثر مولاه على نفسه وليس العكس، وهذا من باب إقامة الحجة عليهم، وإلا فإله تعالى لا يريد ذكراً ولا أنثى! وهو غني عن العالمين.

ويلاحظ هنا أن الشرك يرفض الموضوعية والمنطق في تحليل القضايا الإيمانية ومناقشتها بشكل سليم.

### ث - التشوش الفكري وقبول الاستعباد

تعد عقائد المشركين الناس لقبول فكرة الصراع بين الآلهة، والاستعباد لها، وهذا يخلق تشوشاً فكرياً عند عبادها، فأيهما أفضل وأقوى حتى يخصه بالعبادة؟!.

ولذلك كان التوحيد خلاصاً من هذا التشوش والاستعباد لآلهة مزعومة ما لها من سلطان!، قال تعالى: (يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ). (سورة يوسف: 39). ومعنى متفرقون: "يريد التفرق في العدد والتكاثر، يقول: أن تكون لكما أرباب شتى، يستعبدكما هذا، ويستعبدكما هذا، خير لكما أم أن يكون لكما رب واحد قهار لا يُغالب، ولا يشارك في الربوبية"<sup>1</sup>.

ويجوز أن يكون المعنى: "أي: آلهة شتى هذا من ذهب وهذا من فضة، وهذا أعلى وهذا أوسط وهذا أدنى، متباينون لا تضر ولا تنفع، (خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ)، الذي لا ثاني له، القهار: الغالب على الكل"<sup>2</sup>.

وفي كل الأحوال فإن الشرك يترك الناس في حيرة وتخبط فكري، فالحمد لله على نعمة التوحيد!.

### ج - عقلية طاغية وتفكير عقيم

وقف المشركون موقفاً سلبياً من الأنبياء والرسل عليهم السلام وأتباعهم، ففسروا النبوة بأنها ضرب من السحر أو الجنون!، قال تعالى: (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ). (سورة الذاريات: 52).

ولم يتنبهوا للآيات الدالة على الدين والتوحيد، قال تعالى: (وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ). (سورة القمر: 2).

وعطلوا حواسهم التي وهبهم الله إياها، فلم يروا الحق ولم يسمعه ولم يفقهوه، وقد عاش هؤلاء على الأرض يمارسون الأكل والمشرب والجنس كما تعيش البهائم التي لم تزود بحواس التأمل والتفكير، قال تعالى: (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ). (سورة الأنفال: 55).

<sup>1</sup> - تفسير الكشاف، (470/2).

<sup>2</sup> - مختصر تفسير البيهقي، للدكتور عبد الله الزيد، ص (452).

### ح - رفض مطلق للحق

بزغت شمس الحق من مكة، ولكن كفار قريش رفضوا الإيمان بها، وقالوا بلغة لا تخلو من التحدي ما حكاه عنهم سبحانه وتعالى: (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ). (سورة الأنفال: 32).

وقد كان السبب في هذا الرفض هو الحسد والهوى... فالتأمت نفوس المشركين المريضة مع عقليتهم المتحجرة المنكفئة على ذاتها، فولد هذا سلوكا متطرفا دائماً، لا ينفك عن عداوة الحق ورفضه في كل زمان ومكان!.

### خ - رفض المنطق العلمي التحليلي

المنطق العلمي التحليلي يقود إلى الله تعالى المبدع الحكيم العليم، فلو تأمل الإنسان حوله لرأى في الأرض والسماء وما فيهما من مخلوقات وعبر، وفي واقع الحياة والتاريخ الماضي وما فيهما من دروس وفكر، ولو تأمل في الأحداث من حوله لرأى الله الواحد حاضراً يدير الأمر كله، فمن أين جاءت بدعة الوثنية الكاذبة التي روجت لعبادة الأوثان من دونه سبحانه؟! قال تعالى: (قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ، قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ، قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ، بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ). (سورة المؤمنون: 84-90).

والملاحظ أن المشركين يتعاملون مع الكون تعاملأ مادياً فيزيائياً، ويهتمون بظواهر الأشياء فقط، ولا يتساءلون عن الفاعل لهذا الكون المدبر لأمره، وهذا منتهى السذاجة في البحث والتفكير!.

تلك كانت بعض آثار الشرك السلبية على صعيد الفكر والمعرفة، وهي آثار

لا بد من التحرر منها في سبيل تربية إنسانية راشدة.

\* \* \*

## المبحث الثاني:

## الآثار النفسية

للمشرك آثار نفسية عديدة، فمن ذلك:

## أ - مخالفة الفطرة

لقد ركز الله الإيمان في فطرة الإنسان، وجعله جبلة فيه، وفي الحديث: (كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه).<sup>1</sup>

وعليه فإن المشرك مخالف لفطرته!، منتكس في إنسانيته!، ولذلك استنكر المؤمن على الغني المفتون صاحب الجنتين كفره بالله تعالى، كما قال تعالى: (قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا، لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا). (سورة الكهف: 37-38).

## ب - فقدان الهدف

يعيش المشركون في الحياة دون أهداف سامية، فلا بعث ولا حساب ولا عقاب عندهم!، ومن ثم فإن أهدافهم كلها تتمحور حول الدنيا وشهواتها، قال تعالى: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ). (سورة الأعراف: 179).

ولم يحرم الدين الاستمتاع بالدنيا وشهواتها، ولكن أن يكون ذلك في إطار حدود الشرع، ويكون وسيلة للأخرة، لا غاية في حد ذاته!.

## ت - الاضطراب

المشرك إنسان مضطرب بسبب عقيدته الهزيلة التي تجعله في تخبیط دائم، وسقوط مستمر، وضياع للأبد، قال تعالى: (حُنْفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَفَّتْهُ الطُّيُورُ أَوْ تَهَوَّى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ). (الحج: 31).

<sup>1</sup> - رواه أبو يعلى والطبراني والبيهقي عن الأسود بن سريع، ولمسلم نحوه، انظر: الجامع الصغير، (33/5)، الحديث (6356). وانظر: فيض القدير (34/5).

شبه حالة المشرك الذي يهلكه شركه هلاكاً كاملاً "بصورة حال من خر من السماء، فاخطفته الطير، فتفرق مزعاً في حواصلها، أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المطاوح البعيدة".<sup>1</sup>

تأمل قوله (خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ) وما يثيره الخر من فزع وهلع، وهو يخر من السماء وليس من جبل ونحوه!، وتأمل في سوء مصيره: (فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ) فيصير طعاماً للحيوانات الجائعة، أو تهوي به الريح في مكان سحيق!، فلا يكاد يرى له أثر، إنه التخبط في الحياة والمصير الضائع الذي يلف المشركين جميعاً.

وسبب الضياع النفسي، والتشتت الذهني، والمصير البائس الذي ينتظر المشرك في الآخرة، هو عقيدة الشرك التي تورث القلق والاضطراب، كما قال تعالى: (ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ). (سورة الزمر: 29).

هذه الآية مثل لحال المشرك والموحد، فحال المشرك الذي له آلهة متعددة يعيدها يبقى "متحيراً ضائعاً لا يدري أيهم يعبد؟ وعلى ربوبية أيهم يعتمد؟ وممن يطلب رزقه، وممن يلتمس رفقته، فهمه شعاع<sup>2</sup>، وقلبه أوزاع، وحال من لم يثبت إلا إلهاً واحداً، فهو قائم بما كلفه، عارف بما أرضاه وما أسخطه، متفضل عليه في عاجله، مؤمل للثواب في آجله".<sup>3</sup>

### ث - التعجل

من صفات الإنسان الغريزية: العجلة، ولكن هذه الصفة تحتاج إلى تهذيب وبخاصة في التعامل مع آيات الله تعالى، قال تعالى: (خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ). (سورة الأنبياء: 37).

والمشركون لا يهدبون هذه الغريزة، بل هم دائماً يستعجلون!، وبخاصة في التعامل مع الله العزيز الحكيم، وأنبياؤه عليهم السلام!، قال تعالى: (أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ). (النحل: 1). وقد كان المشركون "يستعجلون ما وعدوا من قيام الساعة، أو نزول العذاب بهم يوم بدر، استهزاءً وتكذيباً بالوعد".<sup>4</sup>

ولا يخفى أن الإنسان المتعجل كثيراً ما يتخذ قرارات خاطئة يندم عليها فيما بعد، ولذلك كان من صفات الشخصية الناجحة التؤدة وحسن اتخاذ القرار.

<sup>1</sup> - تفسير الكشاف، (155/3).

<sup>2</sup> - شعاع: متفرق.

<sup>3</sup> - تفسير الكشاف، (126/4).

<sup>4</sup> - المصدر السابق، (592/2).

## ج - التردد

من صفات المشركين التردد وعدم الثبات على حالة واحدة في تعاملهم مع الله تعالى، فهم عبيد مصالحهم!، فعند الكوارث يلجأون إلى الله الواحد، فإذا ساعدتهم وأعانهم عاد بعضهم للشرك!، قال تعالى يصف تردد المشركين في حياتهم، وكيف يخلصون له بالعبادة والدعاء في المواقف الصعبة كما لو ركبوا البحر وتقاذفتهم أمواجه، ثم ينكصون بعد ذلك إذا نجاهم إلى البر، وأحسوا بالأمان: (هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنُكَوِّنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ، فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَنْعَمُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَعَيْتُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ). (سورة يونس: 22-23).

إنها صورة رائعة حافلة بالإثارة ترسم مشاعر الإنسان المتردد، الذي يلجأ إلى الله وحده وقت الشدة، ثم يعود ليشرك بالله وقت الرخاء، وهو معنى أكده القرآن كثيراً، قال تعالى: (ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ). (النحل: 54).

إن حالة التردد سببها نسيان العهد، ومن ثم الانزلاق وراء الهوى والمصالح المادية الرخيصة، وهذا هو سبب فساد هذا العالم، فكيف إذا كانت فلسفات الدنيا كلها قائمة اليوم على المبادئ المكيافلية الزنيقية؟ أي فساد أصاب العالم أكبر من هذا الذي يتخبط فيه؟!.

\* \* \*

## المبحث الثالث:

## الآثار الدينية

تتجلى آثار الشرك الدينية في الآتي:

## أ - الاعتماد على الخرافات والأساطير في حياته الدينية

وذلك أن الشرك فرية لا دليل عليها، وكل ما يبني على الافتراء من تهاويل وعقائد وأساطير إنما هو افتراء أيضاً، قال تعالى: (وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ). (سورة المؤمنون: 117).

فقوله (لا برهان له به). صفة لازمة جيء بها للتوكيد، وهي تفيد التهكم بهم، لا أن يكون في الآلهة ما يجوز أن يقوم عليه برهان، ويجوز أن تكون اعتراضاً بين الشرط والجزاء<sup>1</sup> ... وهكذا يصبح المشرك فريسة سهلة لخرافات وأساطير ما أنزل الله بها من سلطان!.

## ب - فقدان السمو الروحي

إن الشرك بالله يحول دون التأمل في ملكوت الله الواحد الأحد، ويحرم صاحبه من إشراقات الحي القيوم، ويجعله موضع الذم والخذلان، قال تعالى: (لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُوماً). (سورة الإسراء: 22).

وكيف يجوز لامرئ أن يعبد غير الله تعالى! وكل ما سواه سبحانه هالك!، والهالك لا يستحق أن يعبد هالك، وإنما العبادة خاصة بالحي القيوم، قال تعالى: (وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ). (سورة القصص: 88).

ومن عرف لذة التوحيد وإشراقاتها هيهات أن يعدلها بلذة أخرى في الوجود!، حتى إن الموت يصبح لذيذاً في سبيلها!، والله در خبيب بن عدي حين قال:<sup>2</sup>

فوالله ما أرجو إذا متُّ مسلماً

على أي جنبٍ كان في الله مصرعي

<sup>1</sup> - انظر: تفسير الكشاف، (3/206-207). والانتصاف في حاشيته.

<sup>2</sup> - السيرة النبوية، لابن هشام، (3/227).

فلسفتُ بمبدي للعدو تخشعاً

ولا جزعاً إني إلى الله مرجعي

### ت - الهلاك الديني

الشرك مقرون بغضب الله تعالى في الدنيا والآخرة، والله تعالى يُمهّل ولا يُهمل، فقد أمهل قوم نوح قرابة ألف سنة!، ثم استأصلهم عن بكرة أبيهم!، قال تعالى: (مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُعْرِفُوا فَاذْخُلُوا تَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا). (سورة نوح: 25).

وأمم الشرك كلها معذبة في الدنيا، من لم يعذبه الله بالعذاب المادي، فقد عذبه بالأنظمة والقوانين التي يخترعونها في مختلف الأصعدة، وكان من نتيجتها انتشار الأمراض، وفساد الطبيعة، وتغير المناخ، وانتشار الرعب والحروب، ونحو ذلك من الآفات والكوارث التي تحيط بكوكبنا اليوم، ولا أول لها ولا آخر!.

### ث - العذاب الخالد في الآخرة

جعل الله تعالى العذاب الخالد في جهنم لمن أشرك به سبحانه، قال تعالى: (ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُنْقَلَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا). (سورة الإسراء: 39). فإذا كان الله لا يغفر الشرك لرسوله - صلى الله عليه وسلم - لو وقع منه! وحاشاه أن يقع!، فكيف بمن سواه؟!، وعليه فقد جعل الله العذاب المضاعف للمشركين، قال تعالى: (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا، يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا). (سورة الفرقان: 68-69).

ولا يخلد في النار إلا مشرك<sup>1</sup>، لما ورد في الحديث: (من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة)<sup>2</sup>، وجاء في حديث آخر: (من مات يشرك بالله شيئاً دخل النار، ومن مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة)<sup>3</sup>.

وإنها لبشارة عظيمة لكل الموحدين، أن يكون مآلهم إلى الجنة، والمذنب منهم إما أن يستوجب العقوبة فيعاقب على قدر ذنبه؛ وهذا عدل إلهي!، وإما أن تدركه رحمة الله فيعفو عنه ويدخل

<sup>1</sup> - انظر: شرح العقيدة الطحاوية، بتخريج الألباني، ص (369-370).

<sup>2</sup> - رواه مسلم، وقد سبق تخريجه في مقدمة البحث.

<sup>3</sup> - من حديث رواه مسلم عن جابر رضي الله عنه، انظر: مشكاة المصابيح، (17/1-18)، الحديث (38).

الجنة؛ وهذا كرم إلهي!، والله در الشافعي حين قال متفائلاً برحمة الله وعفوه ورضوانه لكل  
الموحدين:<sup>1</sup>

إن كنتَ تغدو في الذنوبِ جليدا  
وتخافُ في يومِ الميعادِ وعيدا  
فلقد أتاك من المهيمنِ عفوهُ  
وأفاضَ من نعمِ عليكَ مزيدا  
لا تياسنُ من لطفِ ربِّكَ في الحشا  
في بطنِ أمك مُضغَةً ووليدا  
لو شاء أن تصلى جهنمَ خالدا  
ما كانَ ألهمَ قلبك التوحيدا

#### فائدة في مضمون شهادة التوحيد

إن كلمة لا إله إلا الله هي أساس الفلاح للفرد والمجتمع في الدنيا والآخرة، وهي ليست مجرد كلمة تقال باللسان فقط، بل فيها مضامين كبيرة، فهي روح العقيدة، ومنهج الحياة، وقاعدة التربية، وأساس الحضارة، وهي منبع كل القيم الإيجابية التي نادى بها وحي الله!، وعرفها الناس عبر التاريخ، قال ابن القيم: "وروح هذه الكلمة وسرها: أفراد الرب جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه، وتبارك اسمه، وتعالى جده، ولا إله غيره: بالمحبة والإجلال والتعظيم، والخوف والرجاء، وتوابع ذلك: من التوكل والإنابة والرغبة والرغبة، فلا يحب سواه، وكل ما يحب غيره فإنما يحب تبعاً لمحبتة، وكونه وسيلة إلى زيادة محبته، ولا يخاف سواه، ولا يُرجى سواه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يرغب إلا إليه، ولا يرهب إلا منه، ولا يحلف إلا باسمه، ولا ينظر إلا له، ولا يُتاب إلا إليه، ولا يسجد إلا له، ولا يذبح إلا له وباسمه، ويجتمع في ذلك حرف واحد، وهو: أن لا يعبد إلا إياه بجميع أنواع العبادة؛ فهذا هو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، ولهذا حرم على النار من شهد أن لا إله إلا الله حقيقة الشهادة، ومحال أن يدخل النار من تحقق بحقيقة هذه الشهادة وقام بها".<sup>2</sup>

\* \* \*

<sup>1</sup> - ديوان الشافعي، ص (76).

<sup>2</sup> - الداء والدواء أو الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ص (198).

## المبحث الرابع:

## الآثار الاجتماعية

للشرك بالله تعالى مجموعة من الآثار الاجتماعية السلبية تتجلى بالآتي:

## أ - التفكك الاجتماعي

تعتمد السياسات الطائشة للمشركين إلى تقسيم المجتمعات إلى شيع وأحزاب تتصارع فيما بينها!، وهي تغذي فئة ضد أخرى، وتشعل صراع الطبقات بين الجميع!، والسياسة الفرعونية خير شاهد على هذا، قال تعالى: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُدَّبِحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ). (القصص: 4).

من جهة أخرى ينعكس صراع محبة الآلهة على صراع العبيد فيما بينهم، فأتباع كل إله يشعلون حرباً أو فتنة ضد أتباع الإله الآخر، ويسقط الجميع في النهاية في مستنقع الحقد والبغضاء، وتتمزق وحدة المجتمع بين شرائحه المختلفة!

## ب - الفساد الاجتماعي

الشرك قرين الفساد في المجتمعات كلها، فحيث وجد انقسم الناس إلى مترف فاجر، وفقير مسكين، ويمسك المترفون الأموال عن الفقراء محتجين بالفقر كما مر معنا، وتصير السلطة بيد المترفين، وتصبح الحياة كلها ضنكاً وعذاباً، قال تعالى: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى). (سورة طه: 124).

وعندما يستمر الضنك، يستعصي الإصلاح، ويستحق المجتمع كله البوار والدمار، قال تعالى: (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا). (سورة الإسراء: 16).

## ت - إضعاف البنية الاجتماعية

جعل الله الشرك مفتاح كل شر وبلاء!، فبه تضعف المجتمعات وتتحل أواصر وحدتها، وتتلاشى عناصر قوتها، وبعكس الشرك المدمر، يكون التوحيد الباني الذي يقيم قواعد التمكين في الأرض للمؤمنين، قال تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ). (النور: 55).

فانظر كيف جعل التوحيد سبب النصر والاستخلاف والتمكين والأمن، وبضده يكون الشرك.

### ث - مصادرة الحريات العامة

لا يعرف المشركون حرية الاعتقاد أو التعايش مع الآخر، فهم مجتمع أحادي الرؤية والتصور، ويضرب بيد من حديد كل من يخالفه في الرأي والمعتقد!، فهم تماماً كما وصفهم أهل الكهف في قوله تعالى: (إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا). (الكهف: 20).

ومن الجرائم التي ارتكبتها أصحاب الأخدود تصفية شعب مؤمن بأكمله لأنه نبذ عبادة الملك! وآمن بالله الأوحد، قال تعالى: (فُقِلَّ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ، النَّارِ ذَاتِ الْوُفُودِ، إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ، وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ، وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ، الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ). (سورة البروج: 4-9).

ولهذه الآيات قصة عجيبة، فقد روى صهيب أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: (كان فيمن كان قبلكم ملك، وكان له ساحر، فلما كبر الساحر قال للملك: إني قد كبر سني وحضر أجلي، فادفع إلي غلاماً لأعلمه السحر، فدفع إليه غلاماً كان يعلمه السحر، وكان بين الساحر وبين الملك راهب، فأتى الغلام على الراهب، فسمع من كلامه فأعجبه نحوه وكلامه، وكان إذا أتى الساحر ضربه، وقال: ما حبسك؟ وإذا أتى أهله ضربوه، وقالوا: ما حبسك؟ فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا أراد الساحر أن يضربك فقل: حبسني أهلي، وإذا أراد أهلك أن يضربوك فقل: حبسني الساحر، قال: فبينما هو ذات يوم إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا، فقال: اليوم أعلم: أمر الراهب أحب إلى الله أم أمر الساحر؟ قال: فأخذ حجراً، فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس. وربما فقتلها، ومضى الناس، فأخبر الراهب بذلك، فقال: أي بني أنت أفضل مني، وإنك ستبتلى، فإن ابتليت فلا تدل علي، فكان الغلام يبئ الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم، وكان للملك جليس فعمي، فسمع به، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: اشفني ولك ما هاهنا أجمع، فقال: ما أنا أشفي أحداً، إنما يشفي الله عز وجل، فإن أمنت به دعوت الله فشفاك، فأمن، فدعا الله فشفاه، ثم أتى الملك، فجلس منه نحو ما كان يجلس، فقال الملك: يا فلان! من رد عليك بصرك؟ فقال: ربي! فقال: أنا؟ قال: لا، ربي وربك الله. قال: ولك رب غيري؟ قال: نعم، ربي وربك الله. فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فبعث إليه فقال: أي بني! بلغ من سحرك أن تبرئ الأكمه والأبرص وهذه الأدواء؟ قال: ما أشفي أحداً، إنما يشفي الله عز وجل. قال: أنا؟ قال: لا. قال: ولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله. فأخذه أيضاً بالعذاب، فلم يزل به حتى دل على الراهب، فأتى بالراهب، فقال: ارجع عن دينك. فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه، حتى وقع شقاه إلى الأرض، وقال للغلام: ارجع عن دينك، فأبى، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا، وقال: إذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فدهدوه، فذهبوا به، فلما علوا به الجبل، قال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجف بهم الجبل، فدهدوهوا أجمعون، وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على الملك، فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى، فبعث به مع نفر في قرقور، فقال: إذا لججتم به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فغرقوه في البحر، فلججوا به البحر، فقال للغلام: اللهم

اكفنيهم بما شئت، فغرقوا أجمعون، وجاء الغلام حتى دخل على الملك، فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى، ثم قال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به، فإن أنت فعلت ما أمرك به قتلنتي، وإلا فإنك لن تستطيع قتلي، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، ثم تصلبني على جذع، وتأخذ سهما من كنانتي، ثم قل: باسم الله رب الغلام، فإنك إذا فعلت ذلك قتلنتي، ففعل، ووضع السهم في كبد قوسه، ثم رماه، وقال: باسم الله رب هذا الغلام، فوقع السهم في صدغه، فوضع الغلام يده على موضع السهم، ومات، فقال الناس: أمانا برب الغلام. فقيل للملك: رأيت ما كنت تحذر؟ فقد والله نزل بك، فقد آمن الناس كلهم، فأمر بأفواه السكك فخذت فيها الأخاديد، وأضرمت فيها النيران، وقال: من رجع عن دينه فدعوه، وإلا فأقومه فيها، قال: فكانوا يتعادون فيها ويتدافعون، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه، فكأنها تقاعست أن تقع في النار، فقال الصبي: اصبري يا أمه فإنك على الحق<sup>1</sup>.

وهذا الحديث يبين مدى الظلم والإرهاب الذي تمارسه بعض السلطات المشركة ضد الإيمان، فالملك الضال ادعى الربوبية، ليكون مصدر السلطات كلها لشعبه!، وحين انكشف عواراه، وانفضح أمره، تجرد من كل مشاعر الرحمة والخير، ودفعته غريزة الانتقام إلى إحراق شعبه، ولكن ليس ثمة بأس من هذا كله، فقد انتصرت العقيدة!، وهوى الصنم البشري!، فالموت في سبيل العقيدة خير من الحياة بدونها!.

#### تنبيه:

قد يقال أن أوروبا اليوم تفسح المجال للمسلمين وهي مشركة!، والجواب أن أوروبا اليوم علمانية تخلت عن الأديان كلها، وشركها اليوم في عبادة الأهواء والشهوات، وهو نوع من الشرك سبق الحديث عنه، ولم تعد صليبية كما كانت في العصور الوسطى!، فالتسامح الذي فيها بسبب نبذ الصليبية، لا بسبب الصليبية التي لا تؤمن بالآخر، ورَحَّلت المسلمين ودمرتهم في الأندلس وصقلية وكثير من بقاع هذا العالم، كما طردت اليهود من الأندلس قبل المسلمين بمئة عام، فأوتهم الدولة العثمانية آنذاك، وهذا يدل على سماحة المسلمين وحسن تعايشهم!

\* \* \*

<sup>1</sup> - أخرجه أحمد، ورواه مسلم والنسائي بنحوه، انظر: مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني، (3/623-624).

## المبحث الخامس:

## الآثار الاقتصادية

لشرك بالله تعالى مجموعة من الآثار الاقتصادية السلبية تتجلى بالآتي:

## أ - التلبيس التجاري

قال تعالى: (وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنُفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يُفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ). (النحل:116).

فها هنا مشركون يكذبون على الله بالتحليل والتحرير، في شأن الأنعام وحلها<sup>1</sup>، وبشأن البحيرة والسائبة<sup>2</sup>، والتحليل والتحرير قد لا يقتصر على الأنعام وحدها، بل ربما شمل كل سلعة محرمة يجعلها الناس حلالاً، والعكس صحيح أيضاً، وهو ما يفعله أهل الشرك من أجل التلبيس على الناس وخداعهم، ترويحاً لسلع يعود ريعها عليهم.

## ب - الدمار البيئي

عندما يعاقب الله المشركين، يتركهم أثراً بعد عين!، فالآبار معطلة لا يستخدمها أحد، والقصور تخلو من سكانها، ولا يبقى من البيئة التي كانت تعج بالحياة و النشاط الاقتصادي إلا أطلالا، قال تعالى: (فَكَأَيُّنَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَبُنُّ مَعْطَلَةٌ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ). (سورة الحج: 45). فالشرك تسبب في دمار البيئة.

والدمار قد يكون للجماعة المشركة، وقد يكون للفرد الواحد منها، ففي قصة الغني المفتون صاحب الجنتين الذي كفر بربه، يقول تعالى: (وَأَحْبَبَ بِنْتِمْرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا). (سورة الكهف: 42).

لقد دمر الله جنتيه بسبب شركه، ولم يعد ينفعه ندمه!

## ت - الربا وأوزاره

الربا من أسس الحياة الاقتصادية للمشركين كافة، وهو من الأمور المحرمة في الشريعة، ومن مزايا الاقتصاد الإسلامي أنه يرفض الربا، قال تعالى: (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا

<sup>1</sup> - انظر: تفسير الكشاف، (640/2).

<sup>2</sup> - انظر: مختصر تفسير البغوي، للدكتور عبد الله الزيد، ص (517).

يُؤْمِرُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ، يَمَحُوقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ، إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلُمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ). (سورة البقرة: 275-279). يلاحظ أن الله فرق بين البيع والربا، ودفع شبهة حل الربا، وبين أن الربا محق وهلاك، وأنه يربي الصدقات كرمياً منه، فمن أحب الزيادة فليصدق! ثم تأمل كيف هدد الله المسلمين بحرب منه ومن رسوله - صلى الله عليه وسلم - لو تعاملوا بالربا!، وماذا إلا لفضاعة الربا!، وأثبتت الأزمة الاقتصادية العالمية الأخيرة، أن العالم لن يتعافى اقتصادياً إلا بنبذ الربا.

وفي هذا الصدد كتب الدكتور حسين شحاتة مقالاً حذر فيه من الظلم والربا اللذين تسببا بالكوارث للإنسانية، وبخاصة في الأزمة الاقتصادية الأخيرة، ثم قال: "لقد فشل النظام الاقتصادي الاشتراكي، كما تنبأ خبراء الاقتصاد الرأسمالي بالانهيار، لأنه يحمل بذور فشله وهدمه، وبدأ علماء الاقتصاد والمال العالميين يبحثون عن نظام اقتصادي جديد لإنقاذ البشرية من شرور الرأسمالية الطاغية. ونؤكد هنا أن النظام الاقتصادي الإسلامي الذي يقوم على القيم والأخلاق والوسطية، والتوازن بين المادية والروحانية، وتفاعل رأس المال مع العمل بصيغة متوازنة بحيث لا يطغى أحدهما على الآخر، ويحقق الكفاية والرفاهية للناس على أساس الحق والعدل، ويحقق التنمية الشاملة للمجتمعات، نرى أنه المنقذ للبشرية مما حل بها من أزمات"<sup>1</sup>.

### ث - القحط

يتميز الإيمان بأنه سبب للوفر والرخاء، قال تعالى في شأن أهل الكتاب: (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ). (سورة المائدة: 66).

وبضده الشرك، فهو سبب للقحط والجوع، وهلاك البيئة الطبيعية!، قال تعالى: (وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ). (سورة الأعراف: 130). فقد سلط الله تعالى على آل فرعون الشدائد من قحط ونقص في الثمرات أملاً بأن يرجعوا إليه جل وعلا.

يبقى أن نشير إلى أن تجارة الأوثان مربحة لدى أصحابها! فهم ينحتون الأحجار والأشجار، ويبيعونها بأضعاف أثمانها!، فتمتلئ جيوبهم من كدح الفقراء وجوع البائسين!، كما أنهم يحجون لهذه الوثان، ويقصدونها بالزيارة، ويذبحون لها، مما يثري سدنتها وكهانها!، على حساب عامة الناس، وبالجملة فعبادة الأوثان هدر للمال فيما لا طائل فيه، وإثراء للنخبة على حساب العامة!،

<sup>1</sup> - مقال سبل النجاة من الأزمة المالية الرأسمالية وأثارها على أسواق المال العربية والإسلامية، ص (23)، مجلة الاقتصاد الإسلامي، العدد (333). ذو الحجة 1429 هـ، إصدار بنك دبي الإسلامي.

ولذلك لا عجب من أن يدافع أصحابها عنها، ويزعمون لها الفوائد والمعجزات!، لأنها سبب من أسباب دنياهم، بل ربما تكون هي أعظم الأسباب التي أوصلتهم للرئاسة والتحكم في رقاب الناس والمستضعفين في الأرض!.

هذه كانت بعض الآثار الاقتصادية للشرك بالله تعالى، وهي آثار مدمرة للحياة الاقتصادية برمتها، فهي تطوق أي عملية تنموية وتلحق بها الفشل والأذى، وتحول دون الازدهار الاقتصادي.

\* \* \*

## المبحث السادس:

## الآثار السياسية

لا يخلو الشرك بالله تعالى من بعض الآثار السياسية السلبية على الأمم والشعوب، ويمكن أن يتجلى بعضها بالآتي:

## أ - الاستبداد السياسي

تسهم عقيدة الشرك بالله في صناعة الاستبداد والاستعباد، فهذا فرعون يدعي الألوهية، قال تعالى: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ). (سورة القصص: 38).

وبعد ذلك تجرأ وادعى الربوبية، قال تعالى: (فَحَسَرَ فَتَادَى، فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى). (سورة النازعات: 23-24).

ومعلوم أن الإله لا يُحاسب ولا يُعاتب، وإنما تقدم له الطاعة والولاء، والرب كذلك هو المالك المتصرف في الكون كله، ومن ثم في رقاب العبيد، حيث يقضي فيها بما يريد! فإذا ادعى المستبد هاتين المرتبتين فهو لا يقبل نصحاء، ولا رأياً مخالفاً، وهذا منتهى الاستبداد والفساد معاً!

## ب - التشريعات الفاسدة

في مجتمع الشرك يمارس المشرع - سواء كان من أهل الدين أو غيرهم - عدواناً على شريعة الله!، إما بإلغاء أحكامها، أو تعديلها وتحريفها، وذلك كما قال تعالى: (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ). (التوبة: 31). فالأخبار والرهبان غيروا شريعتهم، وتلاعبوا فيها، وطاعتهم رعاياهم؛ فضلوا وأضلوا.

وكذلك الأمر بالنسبة لفرعون، فكان يكسو أحكامه صفة القدسية!، وهي ليست سوى أحكام ضالة، قادت قومه للهلاك الأبدي، قال تعالى: (وَأَصْلَ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى). (طه: 79).

## ت - التحاكم إلى الجاهلية

هناك شريحة من الناس تظاهرت بالإسلام، بيد أنها ترفض التحاكم إلى شريعة الله، قال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُوداً). (سورة النساء: 61). والتحاكم إلى الجاهلية شرك!، ولذلك جمع الله في جهنم بين المشركين

والمناققين، لأنهم في الحقيقة وجهان لعملة واحدة!، وهي رفض الشريعة!، والتعلق بالأهواء والمصالح وشرائع الجاهلية، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا). (النساء: 140). ووعد - سبحانه - المنافقين أشد العذاب!، قال تعالى: (إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا). (الآية: 145).

### ث - الشعارات المزيفة

ربما ادعى المشركون أنهم يحققون مصلحة العباد والبلاد في تصديهم لدعوة الرسل عليهم السلام!، فهذا فرعون يدعي الرشاد قائلاً لمن حوله: (قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ). (سورة غافر: من الآية 29). وادعاء الرشاد شعار مزيف يطرحه فرعون لكي يتقبل أتباعه قراراته بلا تردد!، وإضفاء سمة إيجابية على القرارات الفاسدة هو يدين عامة المشركين!.

### ج - رصد المؤمنين وتصفيتهم

لا همّ للمشركين سوى الصد عن الشريعة بكل الوسائل!، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا). (سورة النساء: 167). فالكفر والصد عن سبيل الله قرينان، وليس الكفرة من أعداء الرسل عليهم السلام إلا قطاعاً لطريق الحق، أعداء لأهل التوحيد، ودأبهم هو السعي لتصفية أهل الإيمان بالقتل والإبادة الجماعية إذا أمكنهم ذلك!.

### ح - الحرب النفسية

ومن صور رفض الحقيقة الاستهزاء بها وبأهلها، والهزاء في اللغة: مزح في خفية، وقد يقال لما هو كالمزح<sup>1</sup>، وقد استهزأ الكفرة بالنبي محمد عليه السلام، قال تعالى: (وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَنْجُذُونَكَ إِلَّا هُزُوءًا أَهْدَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا، إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا). (سورة الفرقان: 41-42).

والصبر محمود، ولكن الصبر على عبادة الأصنام مذموم، وقد أرادوا التلبيس على الأذهان حين مزجوا بين محمود ومذموم في تعبير واحد، وذلك حين قالوا: (إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا). وقد اتخذوا هذا الأمر سبباً للهزاء بالرسل - صلى الله عليه وسلم -، فهو يريد أن يضلهم عن آلهتهم بزعمهم! يلاحظ انعكاس المفاهيم كيف سمو الهداية ضلالاً!، ومثل هؤلاء لن يصحوا من سكرتهم بأوثانهم إلا حين يرون العذاب، ولذلك ختم الله الآية بالوعيد لهم.

<sup>1</sup> - انظر: المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة (هزؤ).

## خ - المصير الكارثي

الناس على دين ملوكهم، وأصحاب القرار السياسي في المجتمعات الإنسانية هم الذين يتحملون إثم التصدي للأنبياء والمرسلين عليهم السلام، إذ يجعلون شعوبهم تتحمل تبعات هذه القرارات التي يتخذونها، فيجرون عليهم انتقام رب السماء منهم!، فتبيد الأمم، وتهلك المجتمعات، وتندثر الحضارات!.. وهذا كان عقاب كثير من الأقوام البائدة، قال تعالى: (فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ). (سورة العنكبوت: 40).

وكما أن الإيمان سبب لكل خير، وبه تعمر الحياة، وتزدهر المدائن، فالكفر سبب لكل شر، ومن ذلك زوال الأمم والحضارات، قال تعالى: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ). (سورة الأعراف: 96).

هذه كانت بعض الآثار السياسية للشرك بالله تعالى، وهي آثار مدمرة للحياة، وللحضارة والمدنية والعمران على حد سواء.

\* \* \*

## الفصل الرابع:

### الوقاية من الشرك بالله العظيم

الوقاية من الشرك ضرورية جداً، حتى لا يحبط الإنسان عمله بشائبة من شوائب الشرك وهو لا يدري، وقد أكد الله سبحانه وتعالى على أهمية إفراده وحده بالعبادة واجتناب الشرك، وذلك في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: (لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا). (سورة الكهف: 38).

ومدح المؤمنين المبتعدين عن الشرك في عبادة ربهم، فقال تعالى: (وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ). (المؤمنون: 59).

ونزه نفسه عن الشرك، فقال تعالى: (خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ). (النحل: 3).

وتكرر هذا التنزيه في أكثر من موضع، من ذلك قوله تعالى: (عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ). (المؤمنون: 92).

ولما كان الشرك بالله تعالى أكبر الكبائر كلها، كان لا بد من الوقاية منه، ومن آثاره ونتائجه في حياة الإنسانية في مختلف جوانبها، وذلك حتى نوجد الإنسان الصالح المتحرر من كل أعباء العبودية لغير الله تعالى، والمجتمع الصالح الحر الذي يدين لله وحده بالعبودية دون سواه، وهو ما نحاول تلمسه في مباحث هذا الفصل.

## المبحث الأول:

## الاحتكام إلى العقل والفطرة

الاحتكام إلى العقل الراشد، والتفكير السوي والفطرة السليمة، يقود الإنسان إلى التوحيد، وذلك للأسباب الآتية:

## أ - التعدد سبيل فساد الكون واضطرابه

يقتضي التعدد الشراكة، والشراكة قد تقتضي النزاع، ومن ثم الصراع بين الشركاء وفساد الكون، قال تعالى: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ). (سورة الأنبياء: 22).

وحيث إن الكون في غاية الإبداع والانسجام، فهذا يدل على وحدة الخالق المدبر سبحانه، وينفي التعدد، قال تعالى: (مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوتٍ فارجع البصر هل ترى من فطور). (الملك: بعض الآية 3).

## ب - عجز الآلهة المزعومة

الآلهة التي اخترعها المشركون عبر التاريخ البشري بأكمله، والتي ادعواها من دون الله تعالى، كلها آلهة عاجزة لا تفعل شيئاً ولا تفقد على شيء، فضلاً عن أنها لا تخلق ولا ترزق ولا تحيي ولا تميت!، وذلك لأنها آلهة عاجزة عمياء صماء لا تحس ولا تتحرك!، كما قال تعالى: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ). (الروم: 40). وقال على لسان خليله إبراهيم الذي حاول أن يوقظ نداء العقل في أبيه الذي يعبد هذه الآلهة الصماء: (لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً). (مريم: من الآية 42).

وقد سخر الله تعالى من هذه الأصنام العاجزة لتي يعبدونها في مواضع عدة من كتابه، وبين أن عبادتهم قائمة على الجهل والتقليد، ولا تستند إلى حق ثابت، قال تعالى: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَاتٍ مِنْهُ بَلْ إِنَّ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً إِلَّا غُرُوراً). (فاطر: 40).

## ت - التوحيد نداء الفطرة

التوحيد هو نداء الفطرة، فلا يستوي من يعبد إلهاً قادراً بديعاً ليس كمثلته شيء، مع من يعبد آلهة متعددة من بشر وحجر ما أنزل الله بها من سلطان، والذين يعبدون الله وحده هم الصفوة من عباده، قال تعالى: (قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ اللَّهُ خَيْرٌ مَّا يُشْرِكُونَ). (النمل:59).

ومعرفة الله الواحد مركوزة في الفطرة، والشرك أمرطرائ<sup>1</sup>، وذلك أن الكون بما فيه يدل على الله، وهو داخل في دلالة النُّصبية، التي يقول عنها الجاحظ: "وأما النُّصبية فهي الحال الناطقة بغير اللفظ، والمشيرة بغير اليد، وذلك ظاهر في خلق السماوات والأرض، وفي كل صامت وناطق، وجامد وتام، ومقيم وظاعن، وزائد وناقص، فالدلالة التي في الموات الجامد، كالدلالة التي في الحيوان الناطق، فالصامت ناطق من جهة الدلالة، والعجماء معربة من جهة البرهان، ولذلك قال الأول: سل الأرض فقل: من شق أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك؟ فإن لم تجبك حواراً، أجابتك اعتباراً"<sup>2</sup>، ويضيف الجاحظ في حديثه عن دلالة النُّصبية، مبينا شمولها للناطق والصامت، وشيوعها في جميع اللغات: "ومتى دل شيء على معنى فقد أخبر عنه، وإن كان صامتاً، وأشار إليه وإن كان ساكناً، وهذا القول شائع في جميع اللغات، ومتفق عليه مع إفراط الاختلافات"<sup>3</sup>.

### ث - نجدة الله لعباده وقت الشدائد

عند الشدائد والكوارث يلجأ الناس جميعاً إلى الله وحده، وتسقط الوثنية بأشكالها المختلفة، ومن أوقات الشدائد مثلاً: اشتداد أمواج البحر على راكبيه، فإنهم في هذه الساعة يدعون الله وحده، ثم يعودون لشركهم إذا نجاهم!، قال تعالى: (فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِّ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ). (العنكبوت:65).

ومن ذلك ما يحصل في ساعات الكرب والشدّة والكوارث العامة، فإن الناس يلجأون إلى الله وحده، ثم يعود فريق منهم للشرك وقت الرخاء، قال تعالى: (وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ). (الروم:33).

ويؤكد معنى هذه الآية ما روي عن عمران بن حصين، قال: قال النبي - صلى الله عليه وسلم - لأبي: (يا حصين! كم تعبد اليوم إلهاً؟). قال أبي: سبعة: ستاً في الأرض وواحد في السماء. قال: (فأيهم تعبد لرغبتك ورهبتك؟). قال: الذي في السماء. قال: (يا حصين! أما إنك لو أسلمت علمتك كلمتين تنفعانك). قال: فلما أسلم حصين، قال: يا رسول الله! علمني الكلمتين اللتين وعدتني. قال: (قل: اللهم ألهمني رشدي، وأعدني من شر نفسي)<sup>4</sup>.

<sup>1</sup> - انظر: شرح العقيدة الطحاوية، بتخريج الألباني، ص (245).

<sup>2</sup> - البيان والتبيين، (81/1).

<sup>3</sup> - المصدر السابق، (81/1-82).

<sup>4</sup> - رواه الترمذي، انظر: مشكاة المصابيح، (762-763/2). الحديث (2476).

يلاحظ أنه يعبد ستاً من الآلهة لا تغني عنه شيئاً!، وإنما ينفعه الله الواحد الذي لا ند له!، وقد علمه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - دعاءً يشير في فحواه إلى أن الشرك كان بسبب فقدان الرشد ووسوسة النفس، فاستعاذ بالله منهما، وهذا يؤكد أن الشرك لا يستند إلى حكم عقلي صحيح، ولا منطق راشد، ولا مبدأ حكيم، ولا نفس سوية، وإنما هو انحراف في القوى النفسية والعقلية، والعياذ بالله منه!

\* \* \*

## المبحث الثاني:

### إخلاص العبادة لله وحده

إخلاص العبادة لله وحده، أمر في غاية الأهمية، وهو يقود الإنسان إلى التوحيد، ويكون الإخلاص في أعمال الإنسان كلها، وبخاصة في المجالات الآتية:

#### أ - في الاعتقاد

ينبغي تطهير العالم الداخلي للإنسان المكون من العقل والقلب والشعور من الشرك وأدرانته، فلا يعتقد المرء أن ثمة مؤثر في هذا العالم غير الله تعالى، فيفرده بالعبادة والخوف والرجاء، وهو أمر تكررت الإشارة إليه كثيراً في القرآن الكريم، لأنه رأس النجاة في الدنيا والآخرة، فمن ذلك ما أخبر الله تعالى به عن إيمان الجن بالله الواحد الذي لا شريك له، قال تعالى: (يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا). (الجن:2). وقال أيضاً على لسان الرجل المؤمن في سورة الكهف: (لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا). (الكهف:38). وقال على لسان صاحبه المشرك النادم: (وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا). (الكهف:42). فإذا تنظف الاعتقاد من الشرك؛ فما بعده من الجوارح والأعمال أمرها أسهل إن شاء الله تعالى!.

#### ب - في الدعاء

ينبغي إفراد الله تعالى وحده بالدعاء، لأن: (الدعاء هو العبادة)<sup>1</sup>، وإفراجه سبحانه بالعبادة واجب، قال تعالى: (قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا). (الجن:20).

كما ينبغي تطهير أماكن العبادة - كالمساجد - من دعاء غير الله تعالى، فلا ينبغي أن يدعى فيها غير الله، قال تعالى: (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا). (الجن:18).

#### ت - في الحكم والأمر

ينبغي الاعتقاد بأن أي حكم يقطعه الله رب العالمين، أو أمر يشاؤه؛ فإنما يشاؤه من تلقاء نفسه، فلا يُشاور فيه أحداً!، ولا يُشركه في أمره أحدٌ، وما له مرجعية في أحكامه غير ذاته العلية

<sup>1</sup> - من حديث رواه أحمد والترمذي وأبو داود والنسائي وابن ماجه عن النعمان بن بشير، انظر: مشكاة المصابيح، (692/2-693)، الحديث (2230).

سبحانه وتعالى، قال تعالى: (قُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرُ بِهِ وَأَسْمِعُ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا). (الكهف:26).

### ث - في المشاعر النفسية

ينبغي على المؤمن أن يحرر نفسه من المشاعر السلبية التي تجتاح النفس الإنسانية في بعض الأوقات العصبية، كالخوف من غير الله تعالى!، وذلك بأن يعتقد أن الله تعالى بيده الأرزاق والأجال والأمال كلها، فلا يستحق ما سواه أن يلتفت إليه<sup>1</sup>، فيمضي في دعوته مبلغاً وداعياً لا يعبأ بالأخطار والإنذار، قال تعالى: (الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا). (الأحزاب:39).

### ج - في عموم العمل

ينبغي أن يكون عمل المؤمن كله صالحاً، والصالح بمعنى الصواب الموافق للسنة من جهة، ومخلصاً لله تعالى من جهة أخرى، فلا يشوبه الشرك الأكبر كالذبح لغير الله مثلاً، أو الشرك الأصغر كالصدقة بقصد أن يُقال: إنه كريم، قال تعالى: (قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا). (الكهف:110).

### ح - في العبادة والحياة كلها

المؤمن في عهد وبيعة مع الله تعالى، فقد باعه نفسه وماله في مقابل الجنة، وما أعظمه من بيع!، وما أجمله من جزاء!، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآنَ لَهُمُ الْجَنَّةُ (التوبة: بعض الآية 111)).

وبمقتضى هذا البيع صارت عبادة المؤمن وذبحه ونذره، وحياته ومماته، كل ذلك خالصاً لله تعالى!، قال تعالى: (قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ). (سورة الأنعام: 162).

وحتى تتم صفقة البيع، ويكون الجزاء الجنة إن شاء الله؛ فإنه ينبغي أن لا يخالط المؤمن في عبادته وحياته كلها شيء من الشرك الذي يحبط العمل، ويفسد عقد البيعة مع الله تعالى!، وذلك

<sup>1</sup> - قال ابن القيم: "أما الشرك في الإرادات والنيات فذلك البحر الذي لا ساحل له، وقل من ينجو منه، من أراد بعمله غير وجه الله ونوى شيئاً غير التقرب إليه وطلب الجزاء منه، فقد أشرك في نيته وإرادته. والإخلاص: أن يخلص لله في أقواله وأفعاله وإرادته ونيته، وهذه هي الحنيفية ملة إبراهيم التي أمر الله بها عباده كلهم، ولا يقبل من أحد سواها، وهي حقيقة الإسلام". الداء والدواء أو الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ص (136).

كالرياء، أو الحلف بغير الله تعالى<sup>1</sup>، أو أن يقول: ماشاء الله وشئت<sup>2</sup>، ونحو ذلك من الألفاظ التي تفيد معنى الشرك، وكذلك اجتناب الأعمال التي تؤدي للشرك "فالسجود والعبادة، والتوكل والإنابة، والتقوى والخشية، والحسب والتوبة، والنذر والحلف، والتسبيح والتكبير، والتهليل والتحميد، والاستغفار وحلق الرأس خضوعاً وتعبداً، والطواف بالبيت والدعاء، كل ذلك محض حق الله تعالى، ولا ينبغي لسواه من ملك مقرب، ولانبي مرسل"<sup>3</sup>.

\* \* \*

<sup>1</sup> - في الحديث الذي رواه الترمذي عن ابن عمر: (من حلف بغير الله فقد أشرك). انظر: مشكاة المصابيح، (1020/2)، الحديث (3419).

<sup>2</sup> - في الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود عن حذيفة: (لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم فلان). انظر: مشكاة المصابيح، (1349/2)، الحديث (4778).

<sup>3</sup> - انظر: الداء والدواء أو الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، ص (137).

## المبحث الثالث:

## إثبات النفع والضرر والقدرة لله وحده

من فطرة الإنسان أن يبحث عن يأوي إليه ليساعده ويسنده في وجه أعاصير الحياة، ولما كان كل ما سوى الله باطل كما قال لبيد، وزكى قوله رسول الله - صلى الله عليه وسلم -<sup>1</sup>، كان لجوء المؤمن إلى الله وحده، لكي ينشر عليه رحمته، ويساعده في كل الأوقات، ويهيئ له من أمره يسراً. ومما يساعد على اعتقاد أن النفع والضرر والقدرة بيد الله وحده، فلا حاجة لسؤال الآلهة المتعددة التي هي سلبية في كل شيء، أو الناس والاعتماد عليهم، الأمور الآتية:

## أ - الخالق هو الله تعالى

إن الله خالق كل شيء، وسواه لم يخلق شيئاً، وليس هنالك أي دليل علمي ولو كان ضعيفاً لا يُعتد به يُثبت أن لغير الله أي تأثير في هذا الكون، لذا يلوذ المؤمن بخالقه الأوجد عند الملمات، قال تعالى: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ اننُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنْارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ). (الأحقاف:4).

## ب - الرازق هو الله تعالى

إن الله الذي خلق، هو الذي رزق!، وهذه الآلهة المزعومة سواء سبحانه لا ترزق ولا تعمل شيئاً، وكل ما يقال عن تأثيرها ودورها في الرزق محض افتراء، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآَنَى تُؤْفَكُونَ). (سورة فاطر: 3).

## ت - الهادي هو الله

إن الله تعالى الذي خلق البشر هو الذي هداهم النجدين، ويسر أمورهم، ودلهم على طريق الخير والنجاح، وهو الذي يضيء لهم الطريق في ظلمات البر والبحر!، ويهديهم إلى سبل النجاة!، ويرسل لهم الرياح محملة بالخير، وليس ثمة إله غيره يفعل ذلك!، قال تعالى: (أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْهَ مَعِ اللَّهُ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ). (النمل:63).

<sup>1</sup> - انظر: مشكاة المصابيح، (1350/3)، الحديث (4786).

### ث - القادر هو الله تعالى

إن الله تعالى هو الذي خلق الأسباب والسنن الكونية، وهو القادر على خرقها بالمعجزات، فنار إبراهيم لا تحرق!، وعصا موسى تنقلب حية يأخذها ولا تلدغه!، وهو سبحانه القادر على كل شيء، والآلهة المزعومة من أوثان وسواها لا تفعل شيئاً!، فمن أراد أسباب القوة والقدرة فليتمسها من الله، قال تعالى: (قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ). (سبأ:22).

### ج - المتصرف في الكون هو الله تعالى

إن الله تعالى الذي خلق الكون هو الذي يتصرف فيه، وهو الذي يختار لكل مخلوق أداء دوره المناسب له في الحياة!، قال تعالى: (وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ). (القصص:68). وقد نزلت هذه الآية جواباً للمشركين الذين تمنوا نزول القرآن على رجل من القرينين عظيم، يعنون الوليد بن المغيرة من أهل مكة، أو عروة بن مسعود الثقفي من أهل الطائف.<sup>1</sup>

وهناك آيات كثيرة تشير إلى تصرف الله في هذا الكون، بما في ذلك رزق الإنسان، وحواسه، فالأمر كله بيده سبحانه، يقضي كيف يشاء!، وهذا الاعتقاد يجعل رجاء الإنسان في الله وحده، قال تعالى: (قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ). (سورة يونس: 31).

### ح - العظيم هو الله تعالى

ينبغي أن يعتقد المؤمن بعظمة الله، فينفي عنه الشريك، ويكفي من عنوان عظمتة - سبحانه - أن الأرض كلها تكون قبضته يوم القيامة!، والسموات مطويات بيمينه!، فما أعظمه رب الأرض والسماء!، قال تعالى: (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ). (الزمر:67).

هذا الإله العظيم لا ندَّ له ولا شريك، قال تعالى: (أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ). (الطور:43). ومن آمن بعظمة الله لم يُخدع بسواها، ولم يحن جبهته ساجداً إلا للحي القيوم، وهذا هو عنوان التوحيد، وهو أن يعترف المؤمن بربه العظيم، فيستغني عن العبودية لغيره أياً كان المعبود!

<sup>1</sup> - انظر: مختصر تفسير البغوي، للدكتور عبد الله الزيد، ص (715).

### خ - الخير والضرر بيده تعالى

من أصول الإيمان الاعتقاد بأن الخير والضرر بيده تعالى!، لا بيد أحدٍ سواه، قال تعالى: (وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ). (سورة الأنعام: 17).

وعليه فالمرتجى للخير ودفع الضرر هو الله وحده، الذي نعبده دون سواه، ونخصه بهذا الدعاء في كل صلاة: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ). (سورة الفاتحة: 5). ومن استعان بالله استغنى عن عون ما سواه!.

### د - ما سوى الله لا يملكون شيئاً

نعتقد في التصور الإسلامي أن الله هو القادر على كل شيء!، وما سواه هم عبيد لا يملكون شيئاً، وأتباع الأوثان هم يعبدون ما لا يضر ولا ينفع!، وهذا منتهى العمى والضلال والظلمية التي يعيش فيها المشركون!، فهل خلقت هذه الأوثان خلقاً يشبه خلق الله؟!، فالتبس الخلق على عابديها، فراحوا يعبدونها من دون الله؟!، هيهات أن يكون الأمر كذلك!، فما هذا الكون إلا صنعة الله الواحد القهار!، قال تعالى: (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخُلُقِهِ فَنَسَابَهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ). (سورة الرعد: 16).

وعليه فلا ينبغي لإنسان يحترم عقله أن يركع لوثن أياً كانت صفته، كما لا ينبغي لإنسان أن يرتجي حجراً، أو قبراً، أو قبةً بحجة أن صاحبها له كرامة عند الله تعالى!، فليتحرر الإيمان من كل لبس وشبهة، حتى يكون التوحيد خالصاً لله رب العالمين!.

\* \* \*

## المبحث الرابع:

## اجتناب الأعمال والأقوال التي تؤدي للشرك

هنالك مجموعة من الأعمال القلبية أو السلوكية تقود إلى الشرك، فمما ذكره القرآن في هذا الصدد الآتي:

## أ - الشك والتردد

الشك والتردد يؤدي إلى انقلاب أحوال النفس الإنسانية، والشك من صفات المشركين، كقوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم، فهم يشكون في قضايا واضحة كالشمس، يشكون بالله تعالى...! وبالأنبياء والنبوات... وبأركان الإيمان كلها...! قال تعالى: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَقْوَاهُمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكِّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ، قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخَرِّجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَثُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ). (سورة إبراهيم: 10-9).

ومن عادة النفس الإنسانية أنها تلح في الطلب على الله، وحين يؤتيها سؤالها قد تتغير وتتلون!، قال تعالى: (فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ). (الأعراف: 190).

وعليه ينبغي للمرء التخلص من التردد والشك؛ حتى ينعم ببرد اليقين وسلامة المعتقد!.

## ب - الطاعة بغير المعروف

لا توجد طاعة مطلقة إلا لله ورسوله!، وبعد ذلك يجب أن تكون الطاعة على بصيرة، حتى للمرجعيات الدينية!، لأن المرجع الذي يحتكم إليه الجميع هو ما أنزله الله تعالى من الكتاب!، وقد تتلاعب المرجعيات بالنصوص أو دلالاتها، وهنا تسقط مرجعيتها، وينبغي عدم طاعتها، لئلا يقع الناس في الشرك عند طاعتهم لها، وهو ما حصل لأهل الكتاب الذي قال تعالى بشأنهم: (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ). (التوبة: 31).

## ت - النذر لغير الله وحده

النذر من الأعمال التي ينبغي أن تكون خالصة لله تعالى!، قال تعالى على لسان امرأة عمران: (إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ). (سورة آل عمران: 35).

والنذر لغير الله تعالى شرك<sup>1</sup>، أي كان المقصود بالنذر: ولياً مباركاً أو شيطاناً مريداً!

### ث - دعاء ما سوى الله تعالى

لا ينبغي للمرء أن يدعو أحداً مع الله!، لا من الأوثان، ولا من الصالحين!، قال تعالى: (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً). (سورة الجن: 18).

وذلك لأن الله قريب منا يجيب الدعاء، فلا يحتاج إلى وسطاء!، فمن دعا ما سوى الله من الآلهة المزيفة فقد أشرك، قال تعالى: (وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ). (سورة البقرة: 186). يلاحظ هنا "إضافة العباد إليه، والرد المباشر عليهم منه.. لم يقل: فقل لهم: إني قريب.. إنما تولى بذاته العلية الجواب على عباده بمجرد السؤال.. قريب.. ولم يقل: أسمع الدعاء.. إنما عجل بإجابة الدعاء: (أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ).. إنها آية عجيبة.. آية تسكب في قلب المؤمن الندوة الحلوة، والود المؤنس، والرضى المطمئن، والثقة واليقين.. ويعيش منها المؤمن في جناب رضي، وقربى ندية، وملاذ أمين وقرار مكين. وفي ظل هذا الأنس الحبيب، وهذا القرب الودود، وهذه الاستجابة الوحية.. يوجه الله عباده إلى الاستجابة له، والإيمان به، لعل هذا أن يقودهم إلى الرشد والهداية والصلاح"<sup>2</sup>.

### ج - ترك الدعاء وقت الشدائد

هنالك طائفة من المشركين اتخذت الشرك مبدأً لا تحيد عنه!، لذا فهي تنبذ الدعاء لله الواحد حتى عند المحن والشدائد!، وهذا نابع أساساً من الاستكبار، قال تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ، فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ). (سورة الأنعام: 42-43).

فهؤلاء السفهاء يرفضون الدعاء، لأنه في تصورهم سلاح الضعفاء، وهم مغرورون بقوتهم وأعمالهم!.

### ح - أعمال السحر والكهانة والشعوذة

<sup>1</sup> - في الحديث الذي رواه النسائي عن عمران بن حصين: (النذر نذران: فمن كان نذر في طاعة، فذلك لله فيه الوفاء، ومن كان نذر في معصية، فذلك للشيطان، ولا وفاء فيه، ويكفره ما يكفر اليمين). انظر: مشكاة المصابيح، (1026/2)، الحديث (3444).

<sup>2</sup> - في ظلال القرآن، (173/1).

السحر<sup>1</sup>، والكهانة<sup>2</sup>، والتنجيم<sup>3</sup> والشعوذة، كلها من أعمال المشركين!، وهي أعمال يُقصد بها إيذاء الغير أو تضليله، فأما السحر فلا يفلح صاحبه أبداً، وذلك كما قال تعالى: (وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاجِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاجِرُ حَيْثُ أَتَى). (سورة طه: 69).

وأما الكهانة وما يدعيه الكهان من علم الغيب فباطل، قال تعالى: (عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا، إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا). (سورة الجن: 26-27).

والكهانة مقرونة بالتنجيم والشعوذة والدجل، وكلها أعمال تنافي التوحيد<sup>4</sup>، وهي من إرث الجاهلية.

### خ - المبالغة في التعظيم والتقديس

إن المبالغة في تعظيم الملائكة والمرسلين قد تقود إلى الشرك المنهي عنه!، قال تعالى: (وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ). (سورة آل عمران: 80).

ونهى النبي - صلى الله عليه وسلم - عن المبالغة في مدحه وإطرائه، ففي الحديث: (لا تُطروني كما أطرت النصارى ابنَ مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبدُ الله ورسولُه).<sup>5</sup>، ودعا في حديث آخر أن يحفظ الله تعالى لقبره حرمة، فلا يتحول إلى وثن يعبده الناس!، فقال - صلى الله عليه وسلم - : (اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد، اشتد غضبُ الله على قوم اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجد).<sup>6</sup>

### د - ولاية الشيطان

إن طاعة الشيطان وعبادته وولايته لون من ألوان الشرك بالله تعالى!، قال تعالى: (إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ). (سورة النحل: 100). وقد تقدم الحديث عن

1 - في الحديث الذي رواه الترمذي عن جُنْدُبٍ: (حدُّ الساحرِ ضربةٌ بالسيف!). انظر: مشكاة المصابيح، (1054/2)، الحديث (3551).

2 - في الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود عن أبي هريرة: (من أتى كاهناً فصدقه بما يقول، أو أتى امرأته حائضاً، أو أتى امرأته في دبرها؛ فقد برئ مما أنزل على محمد). انظر: مشكاة المصابيح، (1294/2)، الحديث (4599).

3 - في الحديث الذي رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه عن ابن عباس: (من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبةً من السحر، زاد ما زاد). انظر: مشكاة المصابيح، (1294/2)، الحديث (4598).

4 - انظر: شرح العقيدة الطحاوية، بتخريج الألباني، ص (502-506).

5 - متفق عليه عن عمر، انظر: مشكاة المصابيح، (1372/3)، الحديث (4897).

6 - رواه مالك مرسلأ عن عطاء بن يسار، انظر: مشكاة المصابيح، (234/1)، الحديث (750).

المقصود بعبادة الشيطان، وأما ولايته فتشمل ولاية حزبه، وهم أهل المعاصي والباطل، فمجازاة هؤلاء تقود في النهاية إلى الشرك والعياذ بالله تعالى!.

تلك كانت بعض الأعمال التي تؤدي إلى الشرك، نسأل الله السلامة منه في الدنيا والآخرة!.

\* \* \*

## الخاتمة:

ونوجز فيها البحث وأهم النتائج والتوصيات

### أولاً- موجز البحث:

تكون هذا البحث من: مقدمة، وتمهيد، وأربعة فصول موزعة إلى مباحث مختلفة، وفق الآتي:

#### المقدمة

ذكرنا فيها أسباب كتابة البحث، وخطته، والمنهج المتبع.

#### التمهيد

قمنا فيه بتحرير المصطلحات الآتية: (الرب - الإله - الدين - العبادة - الكفر - الشرك).

#### الفصل الأول: أنواع الشرك وصوره

وفيه خمسة مباحث:

##### المبحث الأول: نسبة الأقرباء لله تعالى

يأتي في مقدمة الشرك: نسبة الأبناء والزوجة ونحو ذلك من الأقرباء إليه سبحانه وتعالى.

##### المبحث الثاني: عبادة المظاهر الطبيعية والقوى الكونية

حيث يقف الإنسان مبهوراً في محراب الطبيعة البديع، فيظن أن بعض أجرامها آلهة له، فيعبدها!، لذا فقد عبد الشمس والقمر والكواكب، والنار، والأشجار، وغير ذلك.

##### المبحث الثالث: عبادة الطاغوت

الطاغوت: الشيطان، أو كل ما عبد من دون الله، ويشمل: الأصنام، وعبادة الحيوانات والبهائم، وعبادة الهوى، والدهر، وادعاء الربوبية والألوهية، وعبادة الطغاة، وعبادة البشر.

### المبحث الرابع: الإلحاد في الأسماء والصفات والأفعال

إن الله واحد لا شريك له في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله، فإذا اعتقد المرء الشراكة في شيء من ذلك، فقد أشرك!، وإذا قلد المشركين في بعض مواقفهم أو عقائدهم فقد خرج من حظيرة الإيمان!، فمن ذلك: الاشمئزاز من ذكر الله وحده!، والإلحاد بأسماء الله عز وجل، والإلحاد في صفاته عز وجل، وطلب رؤيته جهرة، ونسبة أي فعل كوني لغيره سبحانه!، وإنكار بعض الكتب والرسول، والكفر باليوم الآخر، وإنكار القدر، وعبادة الأسباب من دون الله تعالى!.

### المبحث الخامس: التشريع بمعزل عن الشريعة

التشريع له حالتان: الأولى تتعلق بالدين، وينبغي أن يكون مستتباً من الشريعة. والثانية: التشريع في أمور الدنيا، وهذا متروك للناس كما وضحا.

وعليه يدخل في الحالة الأولى: وضع التشريعات الباطلة التي لم يأذن بها الله، والافتراء على الله، ونسبة الأمر بفعل الفواحش إليه!، وتحريف كلام الله المنزل من السماء!، وصرف العبادة لغير الله تعالى!، ورفض التحاكم إلى شريعة الله!.

### الفصل الثاني: أسباب الشرك وبواعثه

وفيه ثلاثة مباحث:

#### المبحث الأول: التخلف في منهجية التفكير وإعمال العقل

إن التخلف في منهجية التفكير وإعمال العقل، يجعل المشركين يرفضون الحق لمجرد أنه الحق!، ويتجلى رفض الحقيقة في أمور كثيرة، منها: الكفر بآيات الله تعالى، والكفر بعد الإيمان، والإعراض عن الحقيقة، والتكذيب بالحقيقة، وامتزاج الإعراض بالتكذيب مما يؤدي إلى الاستهزاء!، والاستكبار، والصد عن الهدى!، والسخرية من المؤمنين!، وعقدة التقليد الأعمى للسابقين.

#### المبحث الثاني: الموروث الثقافي والاجتماعي

يشكل الموروث الثقافي والاجتماعي - في حالة الشرك - عبئاً وأغلاً يصعب الفكك منها!، وتتجلى بعض صورته التي تعيق النقلة السامية إلى التوحيد في: التصور المادي للحياة، والأديان المزيفة، والعادات والتقاليد، والأهواء الاجتماعية.

#### المبحث الثالث: أسباب نفسية وأخلاقية

إن الشرك قائم على مزيج من مساوئ الصفات النفسية والخلقية السلبية، وذلك كالجهل، والكذب، والظلم، والضلال، والتقليد الأعمى، وتعطيل الحواس، وضيق النفس، والكراهية، والجحود، والاستكبار، والشك، والشعور بالضعف، وهي مشاعر تحول دون الإيمان.

### الفصل الثالث: آثار الشرك ونتائجه

وفيه ستة مباحث:

#### المبحث الأول: آثار الشرك الفكرية والمعرفية

لشرك بالله تعالى آثاره السلبية على صعيد الفكر والمعرفة!، ومن هذه الآثار: انحدار العقل والتفكير، وتزوير الحقائق، ورفض الموضوعية، والتشوش الفكري وقبول الاستعباد، والعقلية طاغية والتفكير العقيم، والرفض المطلق للحق، ورفض المنطق العلمي التحليلي!.

#### المبحث الثاني: الآثار النفسية

لشرك آثار نفسية عديدة، فمن ذلك: مخالفة الفطرة، وفقدان الهدف، والاضطراب، والتعجل، والتردد.

#### المبحث الثالث: الآثار الدينية

تتجلى آثار الشرك الدينية في الآتي: الاعتماد على الخرافات والأساطير في الحياة الدينية!، وفقدان السمو الروحي، والهلاك الدنيوي، والعذاب الخالد في الآخرة!.

#### المبحث الرابع: الآثار الاجتماعية

لشرك بالله تعالى مجموعة من الآثار الاجتماعية السلبية، مثل: التفكك الاجتماعي، والفساد الاجتماعي، وإضعاف البنية الاجتماعية، ومصادرة الحريات العامة!.

#### المبحث الخامس: الآثار الاقتصادية

لشرك بالله تعالى مجموعة من الآثار الاقتصادية السلبية، مثل: التلبيس التجاري، والدمار البيئي، والتعامل بالربا وأوزاره، وهو يتسبب بالقحط الذي يهلك الناس والبيئة الطبيعية!.

#### المبحث السادس: الآثار السياسية

لا يخلو الشرك بالله تعالى من بعض الآثار السياسية السلبية، ويمكن أن يتجلى بعضها بالآتي: الاستبداد السياسي، والتشريعات الفاسدة، والتحاكم إلى الجاهلية، ورفع الشعارات المزيفة، ورصد المؤمنين وتصفيتهم، والحرب النفسية لأهل الإيمان، وجلب المصير الكارثي للأمم والشعوب!.

### الفصل الرابع: الوقاية من الشرك بالله العظيم

وفيه أربعة مباحث:

#### المبحث الأول: الاحتكام إلى العقل والفطرة

الاحتكام إلى العقل الراشد، والتفكير السوي، والفطرة السليمة، يقود الإنسان إلى التوحيد، وذلك لأن: التعدد سبيل فساد الكون واضطرابه!، والآلهة المزعومة عاجزة، كما أن التوحيد نداء الفطرة، والله وحده هو الذي ينجد عباده وقت الشدائد!.

### المبحث الثاني: إخلاص العبادة لله وحده

إخلاص العبادة لله وحده أمر في غاية الأهمية، وبخاصة في المجالات الآتية: الاعتقاد، والدعاء، والحكم والأمر، والمشاعر النفسية، وفي عموم العمل، وفي العبادة والحياة كلها.

### المبحث الثالث: إثبات النفع والضرر والقدرة لله وحده

مما يساعد على اعتقاد أن النفع والضرر والقدرة بيد الله وحده، فلا حاجة لسؤال الآلهة المتعددة، الإيمان بأن: الله تعالى هو الخالق، وهو الرازق، وهو الهادي، وهو القادر، وهو المتصرف في الكون، وهو العظيم، والخير والضرر بيده تعالى!، وما سوى الله لا يملكون شيئاً.

### المبحث الرابع: اجتناب الأعمال والأقوال التي تؤدي للشرك

هنالك مجموعة من الأعمال القلبية أو السلوكية تقود إلى الشرك، ولذلك ينبغي اجتنابها، وذلك ك: الشك والتردد، والطاعة بغير المعروف، والنذر لغير الله وحده!، ودعاء ما سوى الله تعالى!، وترك الدعاء وقت الشدائد، والسحر والكهانة والشعوذة، والمبالغة في التعظيم والتقدیس، وولاية الشيطان!.

\* \* \*

### ثانياً: النتائج

أهم النتائج التي توصلنا إليها هي الآتية:

- 1- لا بد من ضبط المصطلحات العلمية قبل الشروع في أي بحث.
- 2- للشرك أنواع وصور متعددة، من: نسبة الأقرباء لله تعالى، أو عبادة المظاهر الطبيعية والقوى الكونية، أو عبادة الطاغوت، أو الإلحاد في الأسماء والصفات والأفعال، أو التشريع بمعزل عن الشريعة!.
- 3- أسباب الشرك وبواعثه تنحصر في: التخلف في منهجية التفكير وإعمال العقل، والموروث الثقافي والاجتماعي، وهناك أسباب نفسية وأخلاقية!.
- 4- تظهر آثار الشرك ونتائجه السلبية في مجالات عدة، فهناك: آثار فكرية ومعرفية، وآثار نفسية، وآثار دينية، وآثار اجتماعية، وآثار اقتصادية، وآثار سياسية! وكلها آثار ضارة على الفرد والجماعة!.

- 5- الوقاية من الشرك بالله العظيم تكون بـ: الاحتكام إلى العقل والفطرة، وإخلاص العبادة لله وحده، وإثبات النفع والضرر والقدرة لله وحده، واجتناب الأعمال والأقوال التي تؤدي للشرك.
- 6- الشرك بالله جريمة لا تغتفر في الآخرة!، وهي أساس الفساد في الحياة الإنسانية عبر التاريخ كله.
- 7- التوحيد هو أعظم نعمة من الله تعالى على عباده المؤمنين!، وهو أعظم حقيقة علمية اهتدى لها الناس بفضل الله تعالى!، ثم بفضل أنبيائه ورسله عليهم الصلاة والسلام.
- 8- إن الحضارة التي تقوم على عقيدة التوحيد هي أعظم حضارة إنسانية راشدة، ومن ثم كانت حضارة الإسلام هي في القمة عبر تاريخ الأمم جميعاً!.

\* \* \*

### ثالثاً: أهم التوصيات

نوصي من خلال هذا البحث بالآتي:

- 1- الإكثار من قول: (لا إله إلا الله)، فهي الكلمة الطيبة؛ أصلها ثابت وفرعها في السماء!.
- 2- تربية النشء على كلمة التوحيد، وتفهمهم معناها، ومقتضاها، ونواقضها.
- 3- تكوين فرق عمل وبحث لنشر عقيدة التوحيد بين الأمم والشعوب جميعاً.
- 4- تحكيم شريعة الله في كافة شئون الحياة؛ فذلك هو أساس الفلاح والنجاح.

وصلى الله على نبيينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

\* \* \*

**البحث الثاني:**

**منهجية القرآن الكريم في التعامل مع آراء معارضيه**

## مقدمة:

تقف البشرية اليوم على أعتاب الألفية الثالثة للميلاد، وقد حصلت متغيرات كثيرة في عالم الفكر والواقع على مختلف الأطر السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها، مما جعل التفاعل مع المتغيرات أمرا لا مفر منه، فقد غدا العالم قرية صغيرة في عصر ثورة الاتصالات والتكنولوجيا، وبداية التفاعل تنطلق من استيعاب المتغيرات أولا، وهضمها ثانيا، ثم يكون الانطلاق بعد ذلك. ولن نستطيع أن نتفاعل مع المتغيرات لدى الأمم الأخرى إلا إذا فهمنا التركيبة العقلية لأصحابها، وهذا لن يتم إلا بالحوار مع الآخر لفهمه، ومعرفة مفاتيح الدخول إلى حضارته وثقافته.

ونعني بعملية هضم المتغيرات انتقاء ما هو قابل للفائدة، ولا يصطدم بثوابت الأمة الأساسية من دين وخلق وقيم، واستبعاد ما لا يهضم منها على صعيد المنظومة القيمية لهذه الأمة، ثم تأتي المرحلة الثالثة وهي مرحلة الانطلاق نحو بناء صرح الحضارة الإسلامية المتميزة، التي تجمع بين العلم والإيمان، والقيم والتكنولوجيا في آن واحد.

## الهدف من البحث

إن هذا البحث يأتي لسد ثغرة فكرية في ثقافتنا المعاصرة، وهي تتمثل بما يلي:

أولا: التأسيس العلمي والحضاري لفكرة الرأي الآخر، فنحن نؤمن بأن الله تعالى بيده الهداية والضلال، والخير والشر معا، ولم يجبر أحدا على الإيمان به أو بنبيه عليه السلام، وإنما دعا إلى الإيمان بمثل قوله: (قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء)<sup>1</sup>، وترك العباد أحرارا بعد ذلك. وعليه فإن فكرة التعايش مع من يخالف المسلمين في الرأي والعقيدة أمر ممكن، إذا كان الطرف الآخر لا يرفع السيف في وجه الدعوة، وقد عمل النبي عليه السلام مودعة مع اليهود في المدينة تحدد أسس التعايش معهم، مما يعني أن فكرة التعايش السلمي بين الأديان والمذاهب المختلفة عرفها الإسلام ومارسها قبل الحضارة المعاصرة.

ثانيا: تفعيل الحوار الفكري وتشجيع فكرة قبول الآخر بين أبناء هذه الأمة. فما دام أن التعايش مع غير المسلمين ممكن، فهو فيما بين المسلمين أولى، وعليه فقد آن الأوان للتمسك بالثوابت المركزية للدين الإسلامي، والبعد عن التنافر الطائفي والمذهبي الذي مزق جسد هذه الأمة، وذهب بوحدتها، وجعلها فريسة لأعدائها، وهذه هي عقيدة سلف الأمة وأخبارها، جاء في العقيدة الطحاوية: (ونرى الصلاة خلف كل بر وفاجر من أهل القبلة، وعلى من مات منهم، ولا ننزل أحدا منهم جنة ولا نارا، ولا نشهد عليهم بكفر ولا بشرك ولا نفاق، ما لم يظهر منهم شيء من ذلك، ونذر سرائرهم إلى الله تعالى، ولا نرى السيف على أحد من أمة محمد إلا من وجب عليه السيف)<sup>2</sup>.

1 - سورة آل عمران، الآية (64)

2 - شرح العقيدة الطحاوية، تحقيق الألباني، ص (373-379). نشر المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الثامنة، 1404هـ/1984م.

ثالثاً: استجابة لدعوة مجلة دراسات في افتتاحية العدد الثالث عشر والتي دعت فيها إلى (صحوة عربية حقيقية تبدأ برفع مستوى وعي المواطن العربي، وجعله قادراً على إدراك التردي والانزامية التي يعيشها، وعند ذلك يمكنه صياغة حياة جديدة قادرة على أن تكون بمستوى تلك التحديات الشرسة، ولن يتأتى ذلك إلا من خلال الوعي الجديد لواقع وأفاق مستقبل المرحلة، إن الفهم الأفضل والأمثل لإجمالي تلك الأطروحات لن يتم إلا من خلال الحوار، وتبني الآراء، واحترام الرأي والرأي الآخر). وإنما لدعوة علمية واعية لما يحيط بالأمّة من أخطار، فلا بد من وضع حد لهذا التآكل الفكري والتمزق النفسي الذي تعيشه الأمّة تحت مطرقة الرأي الواحد، والفهم الواحد، والاتجاه الواحد.

من هنا جاء هذا البحث ليقرر أن كتاب الله الخالد تعامل مع خصومه بمنتهى الموضوعية والصدق والشفافية، حيث استمع لما يقولونه، وسجل أقوالهم وشبهاتهم وهواجسهم النفسية، بل وزاد على ذلك، فسجل شبهات الأمم والشعوب في كل العصور الخالية التي سبقت نزوله حول النبوة والدين والوحي، ثم قام بتفنيدها، والرد عليها واحدة تلو الأخرى، بحجة مقنعة، وأسلوب مهذب، وكلمة موحية مؤثرة، وعبارة جميلة واضحة، فكان بهذا رائداً لمنهجية الحوار العلمي الراشد مع الآخرين، واستطاع أن يؤسس منهجية علمية خالصة، قامت عليها الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى، وهذه الحضارة كانت هي السبب فيما نشهده من تطور علمي وحضاري على وجه المعمورة في عصرنا هذا.

فلنذهب إلى دوحة القرآن نتفياً ظلّالها، ونرتشف من معينها، ولنتعرف على منهجية كتاب الله في التعامل مع آراء خصومه، ولأنّ البحث كبير وتسع فسنتجزئ بالأمثلة قدر الإمكان، وسنكتفي بما يوضح الصورة ويناسب المقام. وقد جعلته في خمسة مباحث، فإلى المبحث الأول:

## المبحث الأول: منهج القرآن في الحرية الفكرية

### أولاً: تحرير الدين للعقل البشري

القرآن الكريم يقف مع حرية العقل البشري، ويكره الجمود والتقليد والحجر على العقل البشري لأي سبب كان، وهو في سبيل هذه الغاية النبيلة شرع ما يلي:

1- تحرير العقل من كافة المؤثرات البيئية والوراثية والخرافية والوثنية، فنجد القرآن يرفض اتباع الهوى، قال تعالى: (أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً)<sup>1</sup>، وينعى على أهل الجاهلية تقليدهم الأعمى لأبائهم، قال تعالى: (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون)<sup>2</sup>، ويندد بعبادة الأوثان لما فيها من ازدراء للعقل، قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: (قال أتعبدون ما تتحتون، والله خلقكم وما تعملون)<sup>3</sup>. ويبين ضرورة مغادرة الأرض التي يمارس أصحابها الفواحش، كما هو حال قوم لوط الذين نجى الله لوطاً منهم، قال تعالى: (ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين)<sup>4</sup>.

2- القرآن لا يرى وصاية على العقل البشري، قال تعالى على لسان نوح عليه السلام: (قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون)<sup>5</sup>.

3- التفكير الحر هو طريق الإيمان، قال تعالى: (إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فقنا عذاب النار)<sup>6</sup>، فهم آمنوا بعد التفكير في خلق الكون، وقادهم التفكير السليم إلى أن هناك غاية من الخلق، فأمنوا وطلبوا من الله النجاة من العذاب الخالد.

4- رفض الإيمان أو الكفر بالإكراه قال تعالى: (لا إكراه في الدين)<sup>7</sup>، والإنسان حر فيما يختار، قال تعالى: (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)<sup>8</sup> ولا عبرة بكفر المضطر الذي أكره عليه، قال تعالى: (إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان)<sup>9</sup>، ولا يقبل إيمان من آمن بلسانه لمصلحة ما، وكفر بقلبه، قال تعالى: (لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم)<sup>10</sup>. فالأصل في الإيمان والكفر الإقرار التام بالقلب، وليس مجرد ما يجري على اللسان فقط.

1 - سورة الفرقان، الآية (43).

2 - سورة البقرة، الآية (170).

3 - سورة الصافات، الآيتان (95-96).

4 - سورة الأنبياء، الآية (74).

5 - سورة هود، الآية (28).

6 - سورة آل عمران، الآيتان (190-191).

7 - سورة البقرة، الآية (256).

8 - سورة الكهف، الآية (29).

9 - سورة النحل، الآية (106).

10 - سورة المائدة، الآية (41).

5-وظيفة الرسول عليه السلام التبليغ فقط، قال تعالى: (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)<sup>1</sup>، وقال أيضا: (وما أنت عليهم بجبار)<sup>2</sup>، وقال: (فذكر إنما أنت مذكر، لست عليهم بمسيطر)<sup>3</sup>، وقال: (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون)<sup>4</sup>. ودعوة الله للبشرية لكي يؤمنوا هي لمصلحتهم لا غير، قال تعالى: (يا أيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيرا لكم وإن تكفروا فإن الله ما في السماوات والأرض وكان الله عليما حكيما)<sup>5</sup>، وفي آية أخرى: (ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن تقوا الله وإن تكفروا فإن الله ما في السماوات وما في الأرض وكان الله غنيا حميدا)<sup>6</sup>.

### ثانيا: تصنيف الرأي الآخر وإدراك مسبباته:

يمكن تصنيف الرأي بصفة عامة بحسب نوعه محمودا أو مذموما، ويمكن تصنيفه بحسب قائله: معارض، أو متردد أو ناصح، سلبي أو إيجابي، وفي القرآن الكريم نجد كل هذه الأنواع، ولكن سنقتصر هنا على ما يتعلق بالرأي المعارض، وهذا الرأي مبعثه أسباب كثيرة، منها:

1- البواعث النفسية: وهي كثيرة مثل الجحود بسبب العناد، قال تعالى: (قد نعلم إنه ليحزنك الذين يقولون فإني لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون)<sup>7</sup>، وكذلك الحسد قال تعالى: (ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم)<sup>8</sup>، وكذلك الهوى، قال تعالى: (وقالوا لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم)<sup>9</sup>، وكذلك الشك والتردد، قال تعالى: (بل هم في شك من ذكري)<sup>10</sup>.

2- البواعث البيئية قال تعالى: (ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون)<sup>11</sup>، فالبيئة المغلقة التي لم تعرف الأنبياء سبب للمعارضة.

3- البواعث العقلية: وهي تتعلق بضيق التفكير بسبب التمسك بالعادات والتقاليد، أو بسبب ضعف البواعث العلمية وانتشار الجهل والضلال، قال تعالى: (أئتوني بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين)<sup>12</sup>.

4- البواعث الاقتصادية، وسببها الحرص على المصلحة الشخصية التي قد تقتضي الاكتناز والبخل معا، قال تعالى: (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم)<sup>1</sup>

1 - سورة يونس، الآية (99).

2 - سورة ق، الآية (45).

3 - سورة الغاشية، الأيتان (21-22).

4 - سورة الحجر، الآية (3).

5 - سورة آل عمران، الآية (170).

6 - سورة آل عمران، الآية (131).

7 - سورة الأنعام، الآية (33).

8 - سورة البقرة، الآية (105).

9 - سورة الزخرف، الآية (31).

10 - سورة ص، الآية (8).

11 - سورة القصص، الآية (46).

12 - سورة الأحقاف، الآية (4).

### ثالثاً: دعوة الإسلام للحوار

الإسلام يؤمن بالحوار مع جميع المذاهب والطوائف والأديان، يؤكد ذلك دعوته أهل الكتاب إلى قواعد مشتركة من الإيمان بالله وتوحيده، قال تعالى: (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندعو أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين، إن هذا لهو القصص الحق وما من إله إلا الله وإن الله لهو العزيز الحكيم، فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين، قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)<sup>2</sup>، وهو يرفض العنف مع الآخرين، ويدعو إلى برهم والتعايش معهم إذا لم يرفعوا السيف في وجه الدعوة، قال تعالى: (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين)<sup>3</sup>، ويرفض الإسلام منطق المداهنة في الأديان، قال تعالى: (لكم دينكم ولي دين)<sup>4</sup>، كما يستنكر قتل المؤمنين الأبرياء بسبب دينهم، قال تعالى: (أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات)<sup>5</sup>، ويرفض مطلقاً فكرة قتل الرسل والأنبياء الذين يريدون إصلاح المجتمعات الإنسانية فتمتد إليهم أيدي أصحاب المصالح الدنيوية الرخيصة بالإثم والعدوان، قال تعالى: (أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون)<sup>6</sup>.

### رابعاً: آداب الحوار والمناقشة

1- الموضوعية: والمقصود بها عدم الميل مع الأهواء، وإنما اتباع الحق، والأسلوب العلمي في الحوار، قال تعالى في صفة المؤمنين: (وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر)<sup>7</sup>، والأسلوب العلمي يقتضي الإقرار بالحجة الدامغة، والحكم على القضايا الشائكة بالعدل، قال تعالى: (اعدلوا هو أقرب للتقوى)<sup>8</sup>، وقد كان النبي عليه السلام مثلاً أعلى في العدالة والنزاهة حتى آخر يوم من حياته، وحسبنا هذا المقطع من آخر خطبة له خطبها عليه السلام ليوضح مدى تمسكه بالعدل، فقد قال عليه السلام: (أما بعد، أيها الناس فإنه قد دنى مني خلوف من بين أظهركم، ولن تروني في هذا المقام فيكم، وقد كنت أرى أن غيره غير مغن عني حتى أقومه فيكم، ألا فمن كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري فليستقد، ومن كنت أخذت له مالاً، فهذا مالي فليأخذ منه، ومن كنت شتمت له عرضاً، فهذا عرضي فليستقد، ولا يقولن قائل: أخاف الشحناء من قبل رسول الله، ألا وإن الشحناء ليست من شأني ولا من خلقي، وإن أحبكم إلي من أخذ حقاً إن كان له علي، أو أحلطني، فلقبت الله وليس لأحد عندي مظلمة)<sup>9</sup>.

2- الشفافية: وهي صفة خاصة بالدين الحنيف، فنجده مثلاً يستعمل مصطلح: (يا أهل الكتاب) وهو تعبير جميل فيه من المدح والإطراء ما فيه، فهو يخاطبهم باعتبارهم أهل الوحي الأول، وبوصفهم أهل العلم والمعرفة، كما نجد أيضاً الأمر الإلهي بعدم شتم الأوثان ونحوها مما يعبد من دون الله، حتى لا يسبب هذا استفزازاً لمشاعر الآخرين فيسبوا الله عز وجل، قال تعالى: (ولا

1 - سورة التوبة، الآية (34).

2 - سورة آل عمران، الآيات (61-64).

3 - سورة الممتحنة، الآية (8).

4 - سورة الكافرون، الآية (6).

5 - سورة غافر، الآية (28).

6 - سورة البقرة، الآية (87).

7 - سورة العصر، الآية (3).

8 - سورة المائدة، الآية (8).

9 - البداية والنهاية، لابن كثير، (231/5).

تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا من غير علم<sup>1</sup>، ويجيز استقبال المشركين بالمساجد، قال تعالى: (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله)<sup>2</sup> ويوصي الحق عز وجل باللين في مخاطبة موسى عليه السلام لفرعون طاغية عصره، فيقول: (فقلوا له قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى)<sup>3</sup>، ويدعو كتاب الله إلى خفض الصوت لما في رفعه من الأذى، قال تعالى: (واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير)<sup>4</sup>، ويطلب المساواة بين الناس واحترامهم جميعاً، قال تعالى: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)<sup>5</sup>. ومثل هذه التعاليم الواضحة في احترام الآخر وحسن عرض الحقيقة عليه، كفيلة بأن تجعل الطرف الآخر يقترب من هدى الدين، ليكون من الموالين له، أو من أتباعه المؤمنين به.

---

1 - سورة الأنعام، الآية (108).  
 2 - سورة التوبة، الآية (6).  
 3 - سورة طه، الآية (44).  
 4 - سورة لقمان، الآية (19).  
 5 - سورة الحجرات، الآية (13).

## المبحث الثاني:

### الرصد القرآني الشامل لمواقف الأقوام السابقين من أنبيائهم عليهم السلام

يعتبر القرآن الكريم مصدرا أميناً، وسجلاً موثقاً، لمواقف الأمم مع أنبيائها، وما اكتنف تلك المواقف من حوار وجدال ومواجهات ساخنة، وسوف نستعرض هنا ما يتعلق بتسجيل القرآن للرأي الآخر بكل دقة ووضوح.

#### أولاً: تسجيل أقوال المعارضين وشبهاتهم الفاسدة:

سجل القرآن الكريم الأقوال والشبهات الفاسدة من الأمم الخالية حول دعوة الله عز وجل، وعلى مختلف الأصعدة، نذكر منها:

#### 1- مواقفهم العقديّة:

سجل القرآن عقائد خصوم الأنبياء في مجملها، والتي تلتف حول إنكار الغيب والالتفاف حول الأوثان عند الأمم القديمة والبائدة، أو التي تؤمن بالغيب، ولكنها تفسد الإيمان به بالتحريف والتبديل مما جعلها تقع في فخ الشرك وتقترب من الوثنية، من ذلك ما جاء في عقيدة قوم نوح المتمسكين بأوثانهم: (وقالوا لا تذرنا آلهتكم ولا تذرنا ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا)<sup>1</sup>، ومنه أيضاً كثير من أقوال اليهود والنصارى، كما في قوله تعالى: (ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم)<sup>2</sup>، وقوله: (وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون)<sup>3</sup>، وقوله: (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم)<sup>4</sup>، وقوله: (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء)<sup>5</sup>.

#### 2- مواقفهم من الأنبياء عليهم السلام:

وهي مواقف ملؤها الاستهزاء والسخرية والاتهامات الباطلة والألفاظ القبيحة، كما في قوله تعالى: (ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون، فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لأنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آياتنا الأولين، إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين)<sup>6</sup>، وقوله عن عاد التي رأت في نبيها رجلاً عادياً يفترى على الله ويسعى للزعامة من وراء ذلك، وهو يردد قضايا لا تتفق والعقل القاصر لهم مثل عقيدة البعث، قال تعالى: (وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة وأترفناهم في الحياة الدنيا ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون، ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون، أيعدكم أنكم إذا متم وكنتم تراباً وعظاماً أنكم مخرجون، هيهات هيهات لما توعدون، إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا

1 - سورة نوح، الآية (23).

2 - سورة النساء، الآية (171).

3 - سورة التوبة، الآية (30).

4 - سورة المائدة، الآية (64).

5 - سورة المائدة، الآية (18).

6 - سورة المؤمنون، الآيات (23-25).

وما نحن بمبعوثين، إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا وما نحن له بمؤمنين<sup>1</sup>، وهذه الآيات في عاد قوم هود عليه السلام<sup>2</sup>، وقوله عن فرعون واتهامه لموسى بالسحر أو الجنون: (وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسُلطان مبين، فتولى بركنه وقال: ساحر أو مجنون)<sup>3</sup>.

ويبدو أن دعاية السحر والجنون ألصقت بالأنبياء في كل الأمم، وذلك أن التفكير المادي لا يرى تفسيراً للنبوة غير هذا، قال تعالى: (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون، أتواصوا به بل هم قوم طاغون)<sup>4</sup>، وسجل القرآن موقف اليهود من مريم وابنها السيد المسيح عليه السلام، قال تعالى: (وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً، وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم)<sup>5</sup>.

### 3- مواقفهم من أتباع الأنبياء عليهم السلام:

رصد القرآن مواقف الأقوام الكافرين من أتباع الأنبياء، وهي في مجملها تقوم على إلحاق الأذى المعنوي من تهكم وسخرية، والأذى المادي من طرد وقتل وغيره، ومن ذلك: تهديد قوم شعيب لنبيهم ومن آمن معه بالطرد من الوطن، قال تعالى: (قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا)<sup>6</sup>، وكذلك موقف القيادة الفرعونية من موسى عليه السلام، قال تعالى: (فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم)<sup>7</sup>.

### ثانياً: رسم الشخصيات وتسجيل القرآن لمواقفها الدرامية :

سجل القرآن ما يقوم به الطرف المناوئ للدعوة من سخرية واستهزاء بالمؤمنين ودينهم، قال تعالى: (إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آما فاعفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين، فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون، إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون)<sup>8</sup>.

وصور بمشهد حي قوم نوح وهم يسدون آذانهم ويرفضون الدعوة، قال تعالى: (وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً)<sup>9</sup>، واستغشاء الثياب معناه (جعلوها غشاوة على أسماعهم، وذلك عبارة عن الامتناع من الإصغاء، وقيل: استغشوا ثيابهم كناية عن العدو، كقولهم شمر ذيلاً وألقى ثوبه)<sup>10</sup>.

1 - سورة المؤمنون، الآيات (32-38).

2 - انظر: قصص الأنبياء، لابن كثير، تحقيق سعيد اللحام، ص (103).

3 - سورة الذاريات، الآيات (38-39).

4 - سورة الذاريات، الآيات (52-53).

5 - سورة النساء، الآيات (156-157).

6 - سورة الأعراف، الآية (88).

7 - سورة غافر، الآية (25).

8 - سورة المؤمنون، الآيات (109-111).

9 - سورة نوح، الآية (7).

10 - المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة (غشي).

وفي صورة أخرى يصور القرآن الكريم المواقف الرعناء لبعض الأقسام من أنبيائهم، قال تعالى: (ألم يأتكم نبا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب)<sup>1</sup>، ورد الأيدي بالأفواه يحتمل صوراً حسية متعددة، وهي جميعها تعبر عن استهجان المدعويين من دعوة أنبيائهم، قال الزمخشري: (فعضوها غيظاً وضجراً مما جاءت به الرسل، كقوله: [عضوا عليكم الأنامل من الغيظ]<sup>2</sup>، أو ضحكا واستهزاء كمن غلبه الضحك فوضع يده على فيه، أو أشاروا بأيديهم إلى ألسنتهم وما نطقت به من قولهم: [إنا كفرنا بما أرسلتم به] وهذا قول قوي، أو وضعوها على أفواههم يقولون للأنبياء: اطبقوا أفواهكم واسكتوا، أو ردوها في أفواه الأنبياء يشيرون لهم إلى السكوت، أو وضعوها على أفواههم يسكتونهم ولا يذرونهم يتكلمون)<sup>3</sup>.

وفي صورة نادرة يصور القرآن موقفاً عصيباً بين لوط عليه السلام، وقومه المهووسين بالمثلية الجنسية، قال تعالى: (وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخرجوني في سبي أليس منكم رجل رشيد، قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد)<sup>4</sup>، فانظر إلى قوله يهرعون وما يوحيه من احتفالهم ومسارعتهم وتسابقهم إلى بيت لوط عليه السلام يريدون جريمة الاغتصاب للضيوف رغم مضيفهم.

### ثالثاً: تسجيل القرآن للأحوال النفسية:

من ذلك قول أصحاب طالوت له عند لقاء أعدائهم: (قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده)<sup>5</sup>، وهذا القول يكشف عن نفسية خائفة قد أدركها الوهن بسبب قوة عدوها وقلة عددها عتادها، ومن هذا القبيل تصوير الصراع بين فرعون وموسى، نقتبس منه قول السحرة في مشهد التلاقي بينهم وبين موسى عليه السلام، فقد بدأوا النزال قائلين: (وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون)<sup>6</sup>، وهذا القول يدل على شعورهم بالفخر والغلبة أمام موسى عليه السلام لأنهم من ملأ فرعون، ويحظون برعايته.

وصور القرآن النفسية المحطمة لبني إسرائيل التي لا تحب الحرب وتبعاتها، وتلقي بها على كاهل نبيها وحده، قال تعالى مصوراً موقفهم مع موسى حين طلب منهم القتال لدخول الأرض المقدسة: (قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون، قال رجال من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلا عليهم الباب فإذا دخلتموه

1 - سورة إبراهيم، الآية (9).

2 - سورة آل عمران، الآية (119).

3 - الكشاف، رتبته مصطفى حسين أحمد، (542/2).

4 - سورة هود، الآية (78).

5 - سورة البقرة، الآية (249).

6 - سورة الشعراء، الآية (44).

فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين، قالوا يا موسى إننا لن ندخلها أبدا ماداموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون<sup>1</sup>

وفي موقف آخر يصور القرآن ترددهم في ذبح البقرة، فيقول: (قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون)<sup>2</sup>، كما يصور سوء ظنهم واستعجالهم بالاتهام لمريم بالخطيئة، قال تعالى: (فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فريا، يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا)<sup>3</sup>.

والخلاصة أن القرآن سجل المواقف النفسية لخصوم الأنبياء، ورسمها بأدق صورة، حتى تبدو المشاهد وكأنها حية أمامنا، وهذا منتهى السمو العلمي والعظمة الأدبية في آن معا.

#### رابعاً: تسجيل القرآن للأحداث بين الأنبياء وأقوامهم

التاريخ في نظر الدين صراع بين الإيمان والكفر والحق والباطل، قال تعالى: (وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين)<sup>4</sup>، ووظيفة الرسل هي الإنذار والتبشير لا غير، قال تعالى: (رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل)<sup>5</sup>. ولم يذكر القرآن قصص الأنبياء كلها، وإنما انتقى أهمها وأعظمها، قال تعالى: (ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك)<sup>6</sup>. وقد ذكرت كثير من قصصهم للعبارة، قال تعالى: (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب)<sup>7</sup>، وأيضاً لتثبيت قلب النبي عليه السلام ومواساته والشد من أزره للنهوض بأعباء الدعوة، قال تعالى: (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك)<sup>8</sup>.

والقرآن سجل لأهم الأحداث التاريخية بين الرسل وأقوامهم، وهو حكم فصل فيها، قال تعالى: (إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون)<sup>9</sup>، وقد اشتمل القرآن على قصص غير الأنبياء ممن اتبعوهم، كقصة أهل الكهف وأصحاب الأخدود، وأصحاب الرس، قال ابن عباس: (أصحاب الرس أهل قرية من قرى ثمود)<sup>10</sup>، وأصحاب القرية في سورة يس، قال ابن كثير: (اشتهر عن كثير من السلف والخلف أن هذه القرية أنطاكية)<sup>11</sup> كما ذكر قصصا للضالين مثل قصة أصحاب الجنة الذين أقسموا ليعصرنها مصبحين، ونماذج للطرفين.

وقد اشتملت قصص القرآن عن الأمم والشعوب السابقة تسجيلاً لما يلي:

- 1 - سورة المائدة، الآية (22-24).
- 2 - سورة البقرة، الآية (71).
- 3 - سورة مريم، الآيات (27-28).
- 4 - سورة آل عمران، الآية (140).
- 5 - سورة النساء، الآية (165).
- 6 - سورة النساء، الآية (164).
- 7 - سورة يوسف، الآية (111).
- 8 - سورة هود، الآية (120).
- 9 - سورة النمل، الآية (76).
- 10 - قصص الأنبياء، لابن كثير، تحقيق سعيد اللحام، ص (285)، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1413 هـ/1993 م.
- 11 - قصص الأنبياء، لابن كثير، تحقيق سعيد اللحام، ص (289).

1- الانحرافات العقيدية، كما في قوله تعالى على لسان إلياس عليه السلام: (أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين)<sup>1</sup>. والبعل: اسم صنم كانوا يعبدونه من دون الله<sup>2</sup>.

2- الانحرافات السلوكية والأخلاقية، كما في قوله تعالى على لسان لوط عليه السلام: (أإنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون)<sup>3</sup>.

3- الانحرافات الاجتماعية، كما في قوله تعالى عن الكافرين من بني إسرائيل وسبب لعنتهم على لسان أنبيائهم: (كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه)<sup>4</sup>.

4- الانحرافات الاقتصادية، كما في قوله تعالى حكاية عن واقع الأحبار والرهبان واكتنازهم للأموال باسم الدين: (يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فيشربهم عذاب أليم)<sup>5</sup>. كما أشار القرآن إلى نهم اليهود في جمع المال من كل السبل المحرمة، وأن هذا كان سببا في تحريم الطبييات التي أحلت لهم، وذلك في قوله تعالى: (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طبييات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل)<sup>6</sup>.

5- الانحرافات السياسية، مثل الحديث عن سبب الطاعة العمياء من الشعب لفرعون، وهو استخفاف فرعون بالشعب واحتقاره له، مما جعله يخنع ويضعف ويغرق في مستنقع العبودية للطاغية فرعون، قال تعالى: (فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين)<sup>7</sup>، وتكلم القرآن في موضع آخر عن السياسة الفرعونية التي تشرح المجتمع إلى شيع وطوائف، وتسلط بعضها على بعض، لتمسك هي في النهاية بخيوط اللعبة السياسية، قال تعالى: (إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا)<sup>8</sup>، ونتيجة هذا التقسيم كان نصيب بني إسرائيل الإبادة الجماعية، قال تعالى منوها بنعمته على بني إسرائيل: (وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبون أبناءكم ويستحيون نساءكم)<sup>9</sup>.

6- ذكر القرآن تسجيلا لعوامل ذهاب الحضارات وفناء الأمم، قال تعالى حكاية عن قوم نوح: (مما خطيئتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً)<sup>10</sup>، وقال تعالى حكاية عن أقوام عدة: (فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)<sup>11</sup>. فالبلاء يقع بسبب الذنوب التي لا تكون في

1 - سورة الصافات، الآية (125).

2 - مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني، (189/3).

3 - سورة الأعراف، الآية (81).

4 - سورة المائدة، الآية (79).

5 - سورة التوبة، الآية (34).

6 - سورة النساء، الآية (160-161).

7 - سورة الزخرف، الآية (54).

8 - سورة القصص، الآية (4).

9 - سورة البقرة، الآية (49).

10 - سورة نوح، الآية (25).

11 - سورة العنكبوت، الآية (40).

عقيدة الشرك وحدها، وإنما بسبب إفرات تلك العقيدة أيضا من ظلم اجتماعي، وخلل اقتصادي، وانتهيار خلقي عام للفرد والمجتمع.

والخلاصة أن القرآن الكريم سجل حافل للصراع بين الأنبياء وأقوامهم، وهو لا يألو في ذكر شبه خصوم الدعوة وتفنيدها، لأنها واهية كبيت العنكبوت، وهيئات لها أن تستطيع الوقوف أمام منطق الحق، فله الحجة البالغة، ولذلك تلجأ القوى الطاغية إلى مواجهة الحق دوماً بحد السيف، حيث تعجز عن مواجهته بالحجة والبرهان.

## المبحث الثالث:

## الرصد القرآني الشامل لمواقف المعاندين والمشككين بالدعوة في العهد النبوي

دار صراع طويل بين الدعوة الإسلامية وأعدائها، ابتداءً بالفكر والبيان، وانتهى بالسيف والسنان، وقد دون القرآن لب هذا الصراع كما سنجد في هذا المبحث.

## أولاً: تسجيل القرآن الكريم لأقوال خصوم الدعوة وشبهاتهم الفاسدة

## 1- تسجيل العقائد الفاسدة:

تحدث القرآن عن أوثان العرب التي تعلقوا بها، (أفرايتم اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، ألكم الذكر وله الأنثى، تلك إذا قسمة ضيزى)<sup>1</sup>، وأنكر قمتهم للثمار والقرايين بين الله والأوثان، قال تعالى: (وجعلوا مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون)<sup>2</sup>، وتحدث عن جهلهم بأسماء الله وصفاته، قال تعالى: (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً)<sup>3</sup>، وذكر عقيدتهم الشركية في الملائكة، قال تعالى: (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثاً أشهدوا خلقهم سنكتب شهادتهم ويسئلون)<sup>4</sup>. وذكر احتجاجهم الفاسد بالقدر على ما هم فيه من الشرك، وذلك لأنهم عبدوا الأصنام لأنها تشبه الملائكة بنات الله بزعمهم<sup>5</sup>، قال تعالى: (وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يخرصون)<sup>6</sup>، وذكروا أن الجن أمهات الملائكة، قال تعالى: (وجعلوا بينه وبين الجنة سباً ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون)<sup>7</sup> قال مجاهد: (قال المشركون: الملائكة بنات الله. فقال أبو بكر: فمن أمهاتهن؟ قالوا: بنات سروات الجن)<sup>8</sup>، وذكر إنكارهم للبعث، قال تعالى: (وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم)<sup>9</sup> وقال أيضاً: (ق والقرآن المجيد، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب، إذا متنا وكنا تراباً ذلك رجع بعيد)<sup>10</sup>. (وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون، وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا انتوا بآبائنا إن كنتم صادقين)<sup>11</sup>.

1 - سورة النجم، الآيات (19-22).

2 - سورة الأنعام، الآية (136).

3 - سورة الفرقان، الآية (60).

4 - سورة الزخرف، الآية (19).

5 - انظر: مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني، (287/3).

6 - سورة الزخرف، الآية (20).

7 - سورة الصافات، الآية (158).

8 - مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني، (193/3).

9 - سورة يس، الآية (78).

10 - سورة ق، الآيات (1-3).

11 - سورة الجاثية، الآيات (24-25).

كما سجل القرآن أقوال أهل الكتاب وشبهاتهم، من ذلك: (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق)<sup>1</sup>، (وقالت اليهود ليست النصرى على شيء وقالت النصرى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم)<sup>2</sup>، (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة)<sup>3</sup>، (وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصرى)<sup>4</sup>.

## 2- تسجيل موقفهم من الرسول عليه السلام:

اتهم المشركون النبي عليه السلام بتهم متعددة من: كاهن، وكذاب، وساحر، وشاعر، ونحو ذلك، قال تعالى: (فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون، أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون، قل فتربصوا إني معكم من المتربصين، أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون، أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون، فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين)<sup>5</sup>، وقال أيضا: (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب، أجعل الألهة إلها واحدا إن هذا لشيء عجاب، وانطلق الملائم منهم أن أن امشوا واصبوا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد، ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق، أنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من زكري بل لما يذوقوا عذاب)<sup>6</sup>.

وأما أهل الكتاب، فقد رفض أكثرهم الدعوة الجديدة، متذرعين بحجج واهية، منها على سبيل المثال ما جاء في قوله تعالى: (الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم تقتلتموهم إن كنتم صادقين)<sup>7</sup>، كما قاموا بممارسة هواية التحريف لكتابتهم المقدس، والتحريف في خطابهم للنبي عليه السلام، وهو ما نبه عليه الله عز وجل في قوله: (من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا في الدين)<sup>8</sup>.

ولكن هناك بعضهم ممن اعترف بالحق، ودخل في معسكر الإيمان، قال تعالى: (لكن الراسخون بالعلم منهم والمؤمنون يؤمنون بالله وما أنزل إليك وما أنزل من قبلك)<sup>9</sup>، وهنالك من النصرى من أظهر الود للدعوة الجديدة، واعتنقها، فكانوا محل ثناء الله عز وجل، حيث قال: (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصرى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون، وإذا سمعوا ما أنزل على الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكذبنا مع الشاهدين)<sup>10</sup>.

1 - سورة آل عمران، الآية (181).

2 - سورة البقرة، الآية (113).

3 - سورة البقرة، الآية (80).

4 - سورة البقرة، الآية (111).

5 - سورة الطور، الآيات (29-34).

6 - سورة ص، الآيات (4-8).

7 - سورة آل عمران، الآية (183).

8 - سورة النساء، الآية (46).

9 - سورة النساء، الآية (162).

10 - سورة المائدة، الآيات (82-83).

### 3- تسجيل موقفهم من المؤمنين:

سجل القرآن موقف المشركين من المؤمنين، وهو موقف يقوم على السخرية والاستهزاء، ويمتد إلى الأذى والعدوان، قال تعالى: (وكذلك فتننا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا)<sup>1</sup>، وقال تعالى: (إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفروا)<sup>2</sup>.

وأما اليهود من أهل الكتاب فكانوا يفضلون المشركين على المؤمنين!، قال تعالى: (ألم تر إلى الذين أتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبيت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهولاء أهدي من الذين آمنوا سبيلا)<sup>3</sup>، وقد آزروا أهل الشرك في غزوة الأحزاب ضد الإيمان، ونقضوا عهودهم مع المؤمنين.

وبرزت في المدينة فئة ثالثة مرجفة، وهي فئة المنافقين، الذين يتخذون المصلحة المادية أساسا لتعاملاتهم مع الآخرين، فإذا تناقضت مصالحهم مع الدعوة وقفوا بوجه الدعوة، واتخذوا من ثرواتهم المادية وسيلة للقهر والإذلال للمؤمنين، (هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا)<sup>4</sup>، ودأب هؤلاء تخويف المؤمنين من الأعداء، وإحباط المعنويات والهمم، قال تعالى: (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا)<sup>5</sup>، وعند المحن ينسحبون من المعركة، ويحرضون غيرهم على ذلك، ويلومون من قاتلوا واستشهد لأنه خسر الحياة الدنيا، والتي هي منتهى حلمهم وآمالهم، قال تعالى يصف جنبهم وترددهم في الدفاع عن المدينة يوم أحد: (وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون، الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين)<sup>6</sup>

### ثانيا: رسم الشخصيات وتسجيل القرآن لمواقفها الدرامية:

بين الله سبحانه أدق خصائص التصوير الحي للمشركين الذين يواجهون الدعوة، فهم يسارعون للكفر، وكأن هنالك شيئا ما يغريهم به، فيبادرون إليه بلا روية، قال تعالى: (ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئا)<sup>7</sup>.

ويصف حالة اللقاء بينهم وبين المؤمنين، وما يكون في اللقاء من تهكم وسخرية تبدأ من الضحك، ثم التغامز الذي يبعث السرور النفسي عند المفارقة، ثم التهكم عند اللقاء مرة أخرى، وهكذا دواليك، قال تعالى: (إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون، وإذا مروا بهم

1 - سورة الأنعام، الآية (53).

2 - سورة الممتحنة، الآية (2).

3 - سورة النساء، الآية (51).

4 - سورة المنافقون، الآية (7).

5 - سورة آل عمران، الآية (173).

6 - سورة آل عمران، الآية (167-168).

7 - سورة آل عمران، الآية (176).

يتغامزون، وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين، وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون، وما أرسلوا عليهم حافظين)<sup>1</sup>

وتقدم بعض الآيات مشهدا مثيرا لأحد المشركين وهو الوليد بن المغيرة الذي استغرق بالتفكير والنظر بشأن إيجاد تفسير للدعوة، وانتهى إلى نتيجة تخالف ما يعتقدده هو في قرارة نفسه، حيث كان قد أقر بالوحي القرآني، ثم تراجع تحت تأثير قومه، قال تعالى: (إنه فكر وقدر، فقتل كيف قدر، ثم قتل كيف قدر، ثم نظر، ثم عبس وبسر، ثم أدبر واستكبر، فقال إن هذا إلا سحر يؤثر، إن هذا إلا قول البشر، سألصليه سقر)<sup>2</sup>

وتقدم الآيات القرآنية مشهدا نابضا للتردد اليهودي في قضية الإيمان، قال تعالى: (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون)<sup>3</sup>.

وهناك آيات كثيرة ترسم مشاهد المنافقين، منها: قوله تعالى يصور إعراضهم عن المجيء إلى رسول الله ليستغفر لهم، وانحرافهم برؤوسهم عنه: (وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رؤوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون)<sup>4</sup>، وقوله تعالى: مبينا جمال أجسادهم وحسن منطقتهم، بيد أنهم خواء وقت الشدة، مهزومين شر هزيمة في داخل أنفسهم: (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون)<sup>5</sup>.

وهكذا لم يتوان القرآن عن رسم صور حية لأحوال معارضيه، بالإضافة لذكر شبهاتهم، وهذا منتهى الأمانة العلمية والحرية الفكرية التي هي من أسس الدين الحنيف.

### ثالثا: تسجيل القرآن للأحوال النفسية:

فمن ذلك وصفه للمشركين بأنهم في غمرة ساهون، شرود ولهو وعبث قاتل في التفاعل مع الدعوة والكون والحياة، قال تعالى: (قتل الخراصون، الذين هم في غمرة ساهون، يسألون أيان يوم الدين)<sup>6</sup>، وفي صورة أخرى يوضح ما في قلوب المعارضين من حسد يأكلها بسبب ما أنزل الله من خير على عباده، قال تعالى: (ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم)<sup>7</sup>، وفي صورة ثالثة يكشف المكر الذي يملأ قلوب بعض أهل الكتاب، ويدفعهم إلى الحيلة من أجل ردة المؤمنين، قال تعالى: (وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي

1 - سورة المطففين، الآيات (29-33).

2 - سورة المدثر، الآيات (18-26).

3 - سورة البقرة، الآية (76).

4 - سورة المنافقون، الآية (5).

5 - سورة المنافقون، الآية (4).

6 - سورة الذاريات، الآيات (10-12).

7 - سورة البقرة، الآية (105).

أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون، ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم<sup>1</sup>، وقال أيضا: (ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون)<sup>2</sup>.

ويصور القرآن مشاعر المنافقين في آيات كثيرة، وما يموج في نفوسهم من مرض وتردد وهوان، منها قوله تعالى: (وإذا جاءوك حيوك بما لم يحييك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول)<sup>3</sup>، فهم يحسون بالإثم الذي يمور في صدورهم، ويستبطنون العذاب؟ وفي مشهد آخر يقول تبارك وتعالى: (يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم)<sup>4</sup>، فها هنا نحس بارتباك المنافقين ومبلغ ذعرهم من فضيحة الله لهم، وكأنهم يتوجسون من لقاء جيش هادر يدمرهم ويفضحهم، وفي مشهد ثالث يقول زعيمهم عبد الله بن أبي بن سلول: (يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل)<sup>5</sup>، هنا تظهر العنصرية المريضة التي يتذرع وراءها عبيد الأهواء الذين ضاقوا ذرعا بالدين الجديد وانتصاراته وتمكنه بالمدينة المنورة، فأرادوا طرد المهاجرين حسدا وضيقا من عند أنفسهم. وفي مشهد رابع يصور القرآن هلع المنافقين على شهداء أحد حيث قالوا: (لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا)<sup>6</sup>، وهذا تصوير لنفسية الخائف الهلع الذي يظن أن الحرب سبب الموت، وليس القدر المقدر للأجل.

ومن أدق صور مشاهد الهلع والحيرة لنفوس المنافقين ما جاء في مطلع سورة البقرة، وهو قوله تعالى: (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون، في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون، وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون، وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون، الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون)<sup>7</sup>، فها هنا نجد جماعة من الناس قتلتها الحيرة والتردد الذي يعتور في صدورها، فجعلها تقول شيئا وتبطن نقيضه، وتعمل عملا في الظاهر وتعمل بعكسه في الباطن، فهي مصابة بمرض الفصام بين الفكر والسلوك، ومع هذا تظن نفسها على الصواب والصلاح!.

وهكذا نجد أن القرآن عني أدق عناية ليس بتسطير فكر معارضية فقط، وإنما يرسم هواجسهم وحركاتهم في صور معبرة أيضا.

#### رابعاً: تسجيل القرآن لكافة ظروف الدعوة الجديدة وأحداثها.

سجل القرآن معظم الأحداث التي جرت في عهد النبي عليه السلام، والصراع الذي دار بين الشرك والإيمان، ويمكن إيجاز أهم الأمور التي سجلها القرآن بما يلي:

- 1 - سورة آل عمران، الأيتان (72-73).
- 2 - سورة آل عمران، الآية (69).
- 3 - سورة المجادلة، الآية (8).
- 4 - سورة التوبة، الآية (64).
- 5 - سورة المنافقون، الآية (8).
- 6 - سورة آل عمران، الآية (156).
- 7 - سورة البقرة، الآيات (8-15).

1- تسجيل الحروب والوقائع، مثل: وقعة بدر، كما في قوله تعالى: (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أدلة)<sup>1</sup>، ووقعة أحد في قوله تعالى: (وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله)<sup>2</sup>، ووقعة الأحزاب في قوله تعالى: (إذ جاءكم جنود فارسنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها)<sup>3</sup>، ووقعة حنين، كما في قوله تعالى: (لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين)<sup>4</sup> ووقعة بني النضير في قوله تعالى: (يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين)<sup>5</sup>، وغير ذلك.

2- تسجيل بعض جوانب الحياة الشخصية للنبي عليه السلام، كما في قوله تعالى: (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون)<sup>6</sup>، وقوله تعالى حكاية عن بعض أزواج النبي عليه السلام: (وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين)<sup>7</sup>. وسجل القرآن قصة زواج النبي عليه السلام بزینب بنت جحش الأسدية رضي الله عنها، قال تعالى: (وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا)<sup>8</sup>. تقول عائشة في التعقيب على هذه الآية: (لو كنتم محمد صلى الله عليه وسلم شيئا مما أوحى إليه من كتاب الله تعالى، لكنتم [وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه] وقوله تعالى: [فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها])<sup>9</sup>، ومن ذلك قصة الإفك، قال تعالى: (إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم)<sup>10</sup>، وغير ذلك كثير.

3- تسجيل الحياة العامة بكافة مشكلاتها، مع التوجيه والإرشاد لحل لتلك المشكلات، مثل قوله تعالى: (قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها)<sup>11</sup>، وقوله عز وجل: (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات)<sup>12</sup>، وقوله مستنكرا على الذين يبخسون الميزان: (ويل للمطففين، الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون)<sup>13</sup>، قال ابن عباس رضي الله عنهما: (لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، كانوا من أخبث الناس كيلا، فأنزل الله تعالى: [ويل للمطففين] فحسنوا الكيل بعد ذلك)<sup>14</sup>.

- 
- 1 - سورة آل عمران، الآية (123).
  - 2 - سورة آل عمران، الآية (166).
  - 3 - سورة الأحزاب، الآية (9).
  - 4 - سورة التوبة، الآية (25).
  - 5 - سورة الحشر، الآية (2).
  - 6 - سورة الحجرات، الآية (4).
  - 7 - سورة التحريم، الآية (4).
  - 8 - سورة الأحزاب، الآية (37).
  - 9 - مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني، (98/3).
  - 10 - سورة النور، الآية (11).
  - 11 - سورة المجادلة، الآية (1).
  - 12 - سورة التوبة، الآية (79).
  - 13 - سورة المطففين، الآيات (1-3).
  - 14 - مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني، (613/3).

4-سجل بعض أحداث الأمم الأخرى، مثل انتصار الفرس على الروم، وبشر بنصر الروم على الفرس في سنين معدودة، قال تعالى: (الم، غلبت الروم، في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون)<sup>1</sup>

وهكذا نجد أن القرآن يكاد لا يترك شيئاً من واقع الدعوة وملابساتها إلا وسجله، وبين ما فيه من الحكم والعبر، والتوجيه والتشريع الذي ستنتفع منه أمة المسلمين بعد ذلك.

---

<sup>1</sup> - سورة الروم، الآيات (1-3).

## المبحث الرابع:

## منهجية القرآن في حوار خصومه، والرد على شبهاتهم

عندما يورد القرآن أقوال وشبهات خصوم الأنبياء ومعارضهم، سواء كانت قبل الإسلام أو في عهد الرسالة المحمدية، فهو لا يوردها للترويج لها، أو التشهير بها، فالترويج والتشهير ديدين البشر، وليس من صفات الخالق الذي هو العدل ويحكم بالعدل سبحانه وتعالى، وهو القوي والقاهر فليس بحاجة إلى ترويج، وهو الغني عن العالمين أيضا، وإنما يوردها كقضية مطروحة من الطرف المعارض للدعوة، فيقوم بمناقشتها بموضوعية تامة، والرد المنهجي العلمي عليها، وربما كان هنالك نوع من الحدة في الجواب أحيانا تتناسب والشبهة المثارة، ولا سيما إذا كانت شبهة تقوم على الاستهزاء والتهكم وليس على العقل والتفكير، كما في قوله تعالى: (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم)<sup>1</sup>، ورد القرآن في مثل هذه الحالات على كل الأحوال لا يتجاوز الموضوعية، ولا ننسى أن القرآن كلام الخالق، فلا بد أن تظهر فيه عظمة الخالق وكبريائه من جهة، وعدله ورحمته من جهة أخرى، وهو يترك للعقل البشري قراره بالإيمان والكفر بعد ذلك.

وقد يكون الرد على الشبهات من قبل الأنبياء أنفسهم، وفي هذا الصدد سجل القصص القرآني ردودا علمية عقلية قاطعة ومتنوعة من الأنبياء على شبهات الأمم السابقة في قضايا الإيمان بالغيب والرسول والتوحيد الذي هو حق الخالق على العبيد، وقد يكون الرد بوحى من الله مباشرة بلفظ (قل) وهذا كثيرا ما نجده في القرآن خطابا للنبي عليه السلام، وقد وردت كلمة قل كثيرا في القرآن الكريم، من ذلك قوله تعالى: (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة قل أخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون، بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)<sup>2</sup>، فحيث إنه لا عهد لهم عند الله بذلك يثبتوه، بطل قولهم الذي لا يستند إلى عهد أو علم، ثم وجه الله تعالى الحديث إلى الحكم في قضية الخلود بالنار، وأنها مرهونة بكسب السيئات المحيطة بالإنسان، والتي تقوده إلى النار إذا لم يتخلص من إحاطتها، ويفك نفسه من أغلالها، وذلك بالإيمان بمحمد عليه السلام.

وأحيانا يعرض القرآن شبهة معارضية ولا يرد عليها لتهافتها، قال تعالى: (وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين)<sup>3</sup>. فقد أراد زنادقة المشركين الاستهزاء بالمؤمنين الذين يعلقون أفعال الله بمشيتته، (فأخرجوا هذا الخطاب مخرج الاستهزاء بالمؤمنين وبما كانوا يقولونه من تعليق الأمور بمشيتته الله)<sup>4</sup>. وعدم الرد هنا بسبب تهافت الحجة، فلماذا يذهبون إلى الطبيب مثلا إذا كان الله يستطيع أن يشفيهم، ولو أراد الشفاء لهم لشفاهم مباشرة، فلا حاجة للذهاب إلى الطبيب؟! إن الإيمان بالقدر لا يلغي قانون السببية بل يتكامل معه في تفسير حركة الحياة، أضف إلى أن التصور الإسلامي لموضوع الغنى والفقير، وما فيه من عنصر القدر، وما يندرج تحته من أحكام التشريع فيما يتصل

1 - سورة المائدة، الآية (64).

2 - سورة البقرة، الآيتان (80-81).

3 - سورة يس، الآية (47).

4 - تفسير الكشاف للزمخشري، (19/4).

بالتكافل الاجتماعي، يوجب على الأغنياء في النهاية أن يتحملوا قسطاً من واجباتهم نحو الفقراء، ووجدنا العالم المتمدن اليوم يضع نظام الضرائب من أجل صيانة المجتمع وقيامه، رغم أن معظم الدول المتقدمة علمانية ولا يؤمن سكانها إلا بالمادة، فالإنفاق على الفقراء ضرورة لمصلحة الغني والفقير معاً، وليس الاحتجاج بالقدر مبرراً لتركها.

وسوف نستعرض في هذا المبحث طريقة الحوار مع آراء الجاحدين وأسسه.

### أولاً : طريقة التعامل مع آراء الخصوم والجاحدين:

أ- الحوار العلمي، ويكون بالحكمة والموعظة الحسنة قال تعالى: (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن)<sup>1</sup>، ومن شروط الحوار العلمي عدم استفزاز الطرف الآخر، لما يورثه من ردة فعل لا تحمد عقباها، قال تعالى: (ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم)<sup>2</sup>.

ب- الجدل بالأسلوب الأمثل، قال تعالى: (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن)<sup>3</sup>، والجدال للمراء والرياء مكروه، ولكن لإحقاق الحق مع المعاندين أمر لا مفر منه، وترك الجدل بالحق محمود عندما يكون في قضايا ثانوية أو فقهية شائكة، أو مصطلحات علمية دقيقة، أو مع خصم عنيد لا يعترف بالحق، ويرفض البديهيات، قال المتنبي:<sup>4</sup>

وليس يصح في الأفهام شيء

### إذا احتاج النهار إلى دليل

وأما الجدل لإثبات الدين، وتصديق الرسالة، فمطلوب مرغوب، وفي القرآن الكريم حجج بالغة، ومنهج عظيم في إقامة الحق بالدليل العقلي القاطع، وقد تحدث عنه العلماء تحت عنوان جدل القرآن، (قال العلماء: قد اشتمل القرآن العظيم على جميع البراهين والأدلة، وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحذير، تبنى من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله قد نطق به، لكن أورده على عادات العرب دون دقائق طرق المتكلمين، لأمرين، أحدهما: بسبب ما قاله: [وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم]<sup>5</sup>. والثاني: أن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام، فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون، لم ينحط إلى الأغمض الذي لا يعرفه إلا المقلون، ولم يكن ملغزاً، فأخرج تعالى مخاطباته في محاجة خلقه في أجلى صورة، ليفهم العامة من جليهم ما يقنعهم، وتلزمهم الحجة، وتفهم الخواص من أنبائها ما يربي على ما أدركه فهم الخطباء)<sup>6</sup>.

1 - سورة النحل، الآية (125).

2 - سورة الأنعام، الآية (108).

3 - سورة العنكبوت، الآية (46).

4 - ديوان المتنبي بشرح العكبري، (92/3).

5 - سورة إبراهيم، الآية (4).

6 - الإتيقان في علوم القرآن، للسيوطي، (172/2). شركة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الرابعة، 1398هـ/1978م.

ومن منهج القرآن في إثبات التوحيد قوله تعالى: (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا)<sup>1</sup>، وذلك (لأنه لو كان للعالم صانعان، لكان لا يجري تدبيرهما على نظام، ولا يتسق على أحكام، ولكان العجز يلحقهما أو أحدهما، وذلك لأنه لو أراد أحدهم إحياء جسم وأراد الآخر إماتته، فإما أن تنفذ إرادتهما فيتناقض لاستحالة تجزيء الفعل إن فرض الاتفاق، أو لامتناع اجتماع الضدين إن فرض الاختلاف، وإما أن لا تنفذ إرادتهما، فيؤدي إلى عجزهما، أو لا تنفذ إرادة أحدهما، فيؤدي إلى عجزه، والإله لا يكون عاجزا)<sup>2</sup>.

ج- المباهلة: ويكون اللجوء إليها كحل أخير لقطع دابر الباطل، وإقامة الحق، قال تعالى: (فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندعو أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين)<sup>3</sup>، وقد نزلت الآية في نصارى نجران الذين جادلوا بشأن المسيح عليه السلام، فدعاهم إلى المباهلة فامتنعوا، والمباهلة هي الملاعنة، وقد ضم في سياق الآية الأبناء والنساء (للدلالة على ثقته بحاله، واستيفائه بصدقه، حيث استجراً على تعريض أعزته وأفلاد كبدته وأحب الناس إليه إلى ذلك، ولم يقتصر على تعريض نفسه له، وعلى ثقته بكذب خصمه حتى يهلك خصمه مع أحبته وأعزته هلاك الاستئصال إن تمت المباهلة ... وفيه برهان واضح على صحة نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، لأنه لم يرو أحد من موافق ولا مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك)<sup>4</sup>.

### ثانياً: الأسس العامة للحجة القرآنية:

تقوم أسس الحجة القرآنية على أمور كثيرة منها:

1- الدعوة إلى التأمل بالكون والنفس والحياة، قال تعالى في صفة أولي الألباب: (ويتفكرون في خلق السماوات والأرض)<sup>5</sup> وقد أقسم تعالى بتلك الآيات العظيمة من شمس وقمر وليل ونهار ونجوم وغيرها لينبهنا إلى قدرته وعظمته، وأنه هو الذي أنزل القرآن، لأن (القصد بالقسم تحقيق الخبر وتوكيده)<sup>6</sup>، قال تعالى: (فلا أقسم بمواقع النجوم، وإنه لقسّم لو تعلمون عظيم، إنه لقرآن كريم)<sup>7</sup>.

وأشار إلى آياته في النفس الإنسانية وما فيها من إعجاز وأسرار، فقال تعالى: (وفي أنفسكم أفلا تبصرون)<sup>8</sup>، وبين آثار قدرته في تصريف الأمور الكونية: (يقلب الله الليل والنهار إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار)<sup>9</sup>، وأشار إلى ما في خلق السماء والأرض والجبال والحيوانات من إعجاز باهر وقدره مطلقة، فقال سبحانه: (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء

1 - سورة الأنبياء، الآية (22).

2 - الإتيان في علوم القرآن، للسيوطي، (173/2).

3 - سورة آل عمران، الآية (161).

4 - تفسير الكشاف، للزمخشري، (370/1-371).

5 - سورة آل عمران، الآية (191).

6 - الإتيان في علوم القرآن، للسيوطي، (169/2).

7 - سورة الواقعة، الآيات (75-77).

8 - سورة الذاريات، الآية (121).

9 - سورة النور، الآية (44).

كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت)<sup>1</sup>، وبين أن هنالك غاية من هذا الخلق، فقال سبحانه: (أفحسبتم أننا خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون)<sup>2</sup>.

وإذا كان الناس لا يلتفتون إلى الغاية من وجودهم، وسر خلقهم، بسبب لهوهم وانشغالهم بأمر دنياهم، فإنهم وقت الشدائد يدركون ذلك، ويتجهون إلى الخالق الواحد بفطرتهم، قال تعالى: (وهو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين)<sup>3</sup>.

2- الدعوة لقراءة السيرة الذاتية لمحمد عليه السلام، فهو أمي لم يقرأ ولم يدرس، قال تعالى: (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون)<sup>4</sup>، فمن أين له بهذا الكتاب الذي جاء به؟ إنه وحي الله وعلمه، قال تعالى: (وعلمك ما لم تكن تعلم)<sup>5</sup>، قال السيوطي: (إنه كان معلوماً من حال النبي صلى الله عليه وسلم أن كان أمياً لا يكتب ولا يحسن أن يقرأ، وكذلك كان معروفاً من حاله أنه لم يكن يعرف شيئاً من كتب المتقدمين، وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم، ثم أتى بجمل ما وقع وحدث من عظيماات الأمور، ومهمات السير، من حين خلق الله آدم عليه السلام إلى حين مبعثه... ونحن نعلم ضرورة أن هذا مما لا سبيل إليه إلا عن تعلم، وإذا كان معروفاً أنه لم يكن ملايساً لأهل الآثار، وحملة الأخبار، ولا متردداً إلى التعلم منهم، ولا كان من يقرأ، فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه، علم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحي، ولذلك قال الله عز وجل: [وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون]<sup>6</sup>، وقال: [وكذلك نصرف الآيات وليقولوا درست]<sup>7</sup>، وقد بينا أن من كان يختلف إلى تعلم علم، ويشغل بملايسة أهل صنعة، لم يخف على الناس أمره، ولم يشتبه مذهبه)<sup>8</sup>.

وفي ظل مجتمع وثني نشأ فيه الإسلام كان من الطبيعي أن يكون هنالك تقارب بين أهل الإسلام والنصرانية إلى حد ما أكثر من الوثنية التي ناصبت الرسول صلى الله عليه وسلم العداة منذ اليوم الأول، وكان قعود الرسول صلى الله عليه وسلم مع نصراني بمكة يؤكد ذلك، مما أغرى قريشاً بدعوى منكرة، وهي أن النصراني يعلم محمداً، متجاهلين أن الكتاب الذي أنزل على محمد إنما هو بلسان عربي مبين، وهو معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم التي تحداهم بها، بينما كان ذلك النصراني لا يحسن العربية، مما يبطل حجتهم ويسقط دعواهم، قال ابن إسحاق: (وكان رسول الله فيما بلغني كثيراً ما يجلس عند المروة إلى مبيعة غلام نصراني، يقال له جبر، عبد لبني الحضرمي، فكانوا يقولون: والله ما يعلم محمداً كثيراً مما يأتي به إلا جبر

1 - سورة الغاشية، الآيات (17-20).

2 - سورة المؤمنون، الآية (115).

3 - سورة يونس، الآية (22).

4 - سورة العنكبوت، الآية (48).

5 - سورة النساء، الآية (113).

6 - سورة العنكبوت، الآية (48).

7 - سورة الأنعام، الآية (105).

8 - إعجاز القرآن، للباقلاني، تحقيق السيد صقر، ص (34-35).

النصراني غلام بني الحضرمي، فأُنزل الله في ذلك قوله: [ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين]<sup>1</sup>.

3- الدعوة لقراءة تاريخ العرب، فهم أمة ممزقة متفرقة، لم يوحد بينها شيء في الجاهلية، ولم تخضع لسلطة مركزية كباقي الأمم والشعوب، قال تعالى: (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا)<sup>3</sup>، وهذا التأليف لم يكن ليتم بأموال الأرض، وإنما تم بدين الله، قال تعالى: (لو أنفقت ما في الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم)<sup>4</sup>، فلم يؤلف بينهم إلا الإسلام، وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك، فقال في مقدمته: (إن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية من نبوة، أو ولاية، أو أثر عظيم من الدين على الجملة، والسبب في ذلك أنهم خلقوا التوحش الذي فيهم أصعب الأمم انقيادا بعضهم لبعض، للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة، فقلما تجتمع أهواؤهم، فإذا كان الدين بالنبوة أو الولاية، كان الوازع لهم من أنفسهم، وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم، فسهل انقيادهم واجتماعهم، وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والأنفة، الوازع عن التحاسد والتنافس، فإذا كان فيهم النبي أو الولي الذي يبعثهم على القيام بأمر الله، ويذهب عنهم مذمومات الأخلاق، ويأخذهم بمحمودها، ويؤلف كلمتهم لإظهار الحق، تم اجتماعهم، وحصل لهم التغلب والملك)<sup>5</sup>.

4- الاسترشاد بأهل الكتاب: فهم أهل العلم الأول، ولديهم ما يثبت نبوة محمد عليه السلام في كتابهم، قال تعالى: (أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل)<sup>6</sup>، والمراد بالعلماء هنا العدول منهم، كعبد الله بن سلام وسلمان الفارسي، ونحوهم<sup>7</sup>، وقال تعالى: (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم)<sup>8</sup>، فهي معرفة لا لبس فيها ولا غموض، حيث يروى أن عمر قال لعبد الله بن سلام: (أتعرف محمدا كما تعرف ولدك؟ قال: نعم وأكثر، نزل الأمين من السماء على الأمين في الأرض بنعته فعرفته، وابني لا أدري ما كان من أمه)<sup>9</sup>، وقال تعالى: (قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين)<sup>10</sup>، الشاهد: هو عبد الله بن سلام، وهذا قول ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة<sup>11</sup>.

وامتدح القرآن الراسخين في العلم من أهل الكتاب، قال تعالى: (لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما)<sup>12</sup> والراسخون في العلم هنا أربعة من

1 - سورة النحل، الآية (103).

2 - السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، (393/1). مؤسسة علوم القرآن.

3 - سورة آل عمران، الآية (103).

4 - سورة الأنفال، الآية (63).

5 - مقدمة ابن خلدون، تحقيق درويش الجويدي، ص (140)، المكتبة العصرية، صيدا، الطبعة الثانية، 1416هـ/1996م.

6 - سورة الشعراء، الآية (197).

7 - مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني، (658/2).

8 - سورة البقرة، الآية (146).

9 - مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني، (140/1).

10 - سورة الأحقاف، الآية (10).

11 - انظر: مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني، (318/3).

12 - سورة النساء، الآية (162).

علماء بني إسرائيل وهم: عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعيه، وأسد بن سعيه، وأسد بن عبيد الذين دخلوا بالإسلام وصدقوا النبي عليه السلام<sup>1</sup>.

يبقى أن نشير إلى أن التحدي بالمعجزة القرآنية هو أكبر رد على خصوم الدعوة، وقد أفردت له مبحثاً مستقلاً لأهميته.

---

<sup>1</sup> - انظر: مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني، (464/1).

## المبحث الخامس:

## التحدي بالمعجزة القرآنية

القرآن هو المعجزة الخالدة لنبيينا محمد عليه السلام، ومن أهم خصائص هذه المعجزة:

- 1- خلوها من التناقض، قال تعالى: (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)<sup>1</sup>.
  - 2- التحدي بها وقت نزولها، وبقاء التحدي إلى قيام الساعة، وإخبار الخالق عن عدم قدرة البشر على الإتيان بمثلها رغم قيام التحدي، وهذه معجزة أخرى تضاف إلى القرآن لأنها تتعلق بالغيب، قال تعالى: (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين)<sup>2</sup>
  - 3- وقد تكفل الله بحفظ كتابه من التغيير والتبديل، قال تعالى: (إنا نحن نزلنا الذكر وإننا له لحافظون)<sup>3</sup>.
- ونبدأ بتعريف المعجزة:

## أولاً: تعريف المعجزة وخصائصها:

قال السيوطي: (المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة، وهي إما حسية أو عقلية، وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم، وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم وكمال أفهامهم، ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة خصت بالمعجزة العقلية الباقية، ليراهم ذوو البصائر كما قال صلى الله عليه وسلم: ما من نبي من الأنبياء إلا أعطي ما مثله عليه آمن البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا. أخرجه البخاري)<sup>4</sup>.

## ثانياً: مراحل التحدي بالمعجزة القرآنية:

مر التحدي بالمعجزة القرآنية بمراحل متعددة على فترات متباينة، قال السيوطي: (ولما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم إليهم، وكانوا أفصح الفصحاء ومصاقع الخطباء، وتحداهم على أن يأتوا بمثله، وأمهلهم طول السنين فلم يقدرُوا، كما قال تعالى: [فليأتوا بحديث مثله إن كانوا

1 - سورة النساء، الآية (82).

2 - سورة البقرة، الآيتان (23-24).

3 - سورة الحجر، الآية (9).

4 - الإتيان في علوم القرآن، (2/148-149).

صادقين]<sup>1</sup>، ثم تحداهم بعشر سور منه في قوله تعالى: [أم يقولون افتراه قل فائتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين، فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله]<sup>2</sup> ثم تحداهم بسورة في قوله: [أم يقولون افتراه قل فائتوا بسورة مثله] الآية<sup>3</sup>، ثم كرر في قوله: [وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فائتوا بسورة من مثله] الآية<sup>4</sup>، فلما عجزوا عن معارضته والإتيان بسورة تشببه على كثرة الخطباء فيهم والبلغاء، نادى عليهم بإظهار العجز، وإعجاز القرآن، فقال: [قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا]<sup>5</sup> فهذا وهم الفصحاء اللد، وقد كانوا أحرص شيء على إطفاء نوره وإخفاء أمره، فلو كان في مقدرتهم معارضته لعدلوا إليها قطعا للحجة، ولم ينقل عن أحد منهم أنه حدث نفسه بشيء من ذلك ولا رامة<sup>6</sup>

### ثالثا: أسلوب القرآن

وهو أسلوب غريب متميز، لم تعرف له العرب مثالا من قبل ولا من بعد، يخلب اللب، ويسحر العقل، وهو نسيج وحده في ألفاظه ومعانيه ونظمه وترتيبه، ألف فيه العلماء كتبا كثيرة، وما استطاعوا أن يحيطوا بجماله ووصفه، ويحسن هنا أن نذكر قول الرافعي: (ومن أعجب ما رأيناه في إعجاز القرآن وإحكام نظمه، أنك تحسب ألفاظه هي التي تنقاد لمعانيه، ثم تتعرف ذلك، وتتغلغل فيه، فتنتهي إلى أن معانيه منقادة لألفاظه، ثم تحسب العكس، وتتعرفه متثبنا، فتصير منه إلى عكس ما حسبت، وما إن تزال مترددا على منازعة الجهتين كلتيهما، حتى ترده إلى الله الذي خلق في العرب فطرة اللغة، ثم أخرج من هذه اللغة ما أعجز تلك الفطرة، لأن ذلك التوالي بين ألفاظها ومعانيها، وبين المعاني وألفاظها، مما لا يعرف مثله إلا في الصفات الروحية العالية، إذ تتجاذب روحان قد ألفت بينهما حكمة الله، فركبتهما تركيبا مزجيا، بحيث لا يجري حكم في هذا التجاذب على إحداها حتى يشملهما جميعا)<sup>7</sup>.

### رابعا: البشائر الغيبية للقرآن

وهي كثيرة في آياته، منها بشارته بفتح مكة، قال تعالى: (إذا جاء نصر الله والفتح)<sup>8</sup>، ومنها بشارته بغلبة الروم على الفرس بعد مدة وجيزة من حرب جرت بينهما عند ظهور الإسلام، قال تعالى: (الم، غلبت الروم، في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون)<sup>9</sup>، وغير ذلك كثير، قال الباقلاني: (وذلك مما لا يقدر عليه البشر، ولا سبيل لهم إليه، فمن ذلك ما وعد الله تعالى نبيه عليه السلام، أنه سيظهر دينه على الأديان بقوله عز وجل: [هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين

1 - سورة الطور، الآية (34).

2 - سورة هود، الآيتان (13-14).

3 - سورة يونس، الآية (38).

4 - سورة البقرة، الآية (23).

5 - سورة الإسراء، الآية (88).

6 - الإتيان في علوم القرآن، (149/2).

7 - تاريخ أداب العرب، (48/2)، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، 1394هـ/1974م.

8 - سورة النصر، الآية (1).

9 - سورة الروم، الآيات (1-3).

الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون]<sup>1</sup>، وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه، إذا أغزى جيوشه عرفهم ما وعدهم الله من إظهار دينه، ليثقوا بالنصر، ويستيقنوا بالنجح، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يفعل كذلك في أيامه<sup>2</sup>.

### خامسا: الأمثال القرآنية :

وهي إحدى دعائم الحجة القرآنية، قال تعالى: (ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون)<sup>3</sup>، وقال أيضا: (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون)<sup>4</sup>.

وقد فصل العلماء في الحديث عن تلك الأمثال، قال السيوطي: (أمثال القرآن قسمان: ظاهر مصرح به، وكامن لا ذكر فيه للمثل، فمن أمثلة الأول قوله تعالى: [مثلهم كمثل الذي استوقد نارا]<sup>5</sup> الآيات ضرب الله فيها مثلين: مثلا بالنار ومثلا بالمطر، أخرج ابن أبي حاتم وغيره من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هذا مثل ضربه الله للمنافقين، كانوا يعتزون بالإسلام، فيناكحهم المسلمون ويوارثونهم، ويقاسمونهم الفيء، فلما ماتوا سلبهم الله العز، كما سلب صاحب النار ضوءه، وتركهم في ظلمات،... وأما الكامنة، فقال الماوردي: سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن مضارب بن إبراهيم يقول: سمعت أبي يقول، سألت الحسن بن الفضل، فقلت إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن، فهل تجد في كتاب الله: خير الأمور أوساطها؟! قال نعم، في أربعة مواضع: قوله تعالى: [لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك]<sup>6</sup> وقوله تعالى: [والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما]<sup>7</sup> وقوله تعالى: [ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط]<sup>8</sup> وقوله تعالى: [ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلا]<sup>9</sup> (10).

### سادسا: العلوم القرآنية

احتوى القرآن على أسس العلوم الدينية والدينية، قال تعالى: (ما فرطنا في الكتاب من شيء)<sup>11</sup>، وقال أيضا: (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء)<sup>12</sup>، فالقرآن كتاب جامع للمعارف والعلوم على إجمالها وليس على تفصيلاتها ودقائقها، وقد (قال صلى الله عليه وسلم: ستكون فتن، قيل: وما المخرج منها؟ قال: كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم. أخرجه

1 - سورة التوبة، الآية (33).

2 - إعجاز القرآن، للباقلاني، تحقيق السيد صقر، ص (33)، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة.

3 - سورة الزمر، الآية (27).

4 - سورة العنكبوت، الآية (43).

5 - سورة البقرة، الآية (17).

6 - سورة البقرة، الآية (68).

7 - سورة الفرقان، الآية (67).

8 - سورة الإسراء، الآية (29).

9 - سورة الإسراء، الآية (110).

10 - الإتيقان في علوم القرآن، للسيوطي، (167/2-168).

11 - سورة الأنعام، الآية (38).

12 - سورة النحل، الآية (89).

الترمذي وغيره، وأخرج سعيد بن منصور عن ابن مسعود: قال: من أراد العلم فعليه بالقرآن، فإن فيه خبر الأولين والآخرين. قال البيهقي: يعني أصول العلم<sup>1</sup>.

وقد اعتنى بالقرآن: القراء والنحاة والمفسرون والمحدثون والأصوليون والفقهاء والمؤرخون والقصاص والوعاظ والخطباء، و علماء تعبير الرؤيا، و علماء الفرائض والمواقيت، والبلاغيون وغيرهم، بل لقد اعتنى به أيضا علماء العلوم البحتة كالطب والرياضيات والطبيعة وغيرها، قال السيوطي: (وقد احتوى القرآن على علوم أخرى من علوم الأوائل، مثل: الطب والجدل والهيئة والهندسة والجبر والمقابلة والنجامة وغير ذلك... وقال ابن سراج: من بعض وجوه إعجاز القرآن ما ذكر الله فيه من أعداد الحساب والجمع والقسمة والضرب والموافقة والتأليف والمناسبة والتنصيف والمضاعفة، ليعلم بذلك أهل العلم بالحساب أنه صلى الله عليه وسلم صادق في قوله، وأن القرآن ليس من عنده)<sup>2</sup>.

وقد استعرض أحد المعاصرين المتخصصين بالرياضيات موضوع الرياضيات في كتاب الله وتوصل إلى النتيجة التالية التي سجلها في خاتمة كتابه: (إن هذا البحث يعد إضافة جديدة للعلم، وبرهان آخر لهؤلاء الملحدون الذين لا يؤمنون بالله ورسوله وكتبه السماوية، ويوضح لهم بالدليل والبرهان أن هذا الكتاب الكريم الذي أنزل على رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم منزل من لدن حكيم عليم بكل العلوم على رسوله الأمي الصادق الوعد الأمين)<sup>3</sup>.

وعليه فالقرآن سراج العلوم جميعها، وهو السبب في نهضة الحضارة المعاصرة، يقول الرافعي: (لو لم يكن القرآن الكريم لكان العالم اليوم غير ما هو في كل ما يستطيل به، وفي مقدمة وانبساط ظل العقل فيه، وقيامه على أرجائه، واستبحار عمرانه، فإنما كان القرآن أصل النهضة الإسلامية، وهذه كانت على التحقيق هي الوسيلة في استبقاء علوم الأولين وتهذيبها وتصفيتها... وهذا كله كان أساس التاريخ العلمي في أوروبا)<sup>4</sup>.

### سابعا: الإعجاز العلمي:

احتوت آيات القرآن حديثا عن خلق الإنسان، ومراحل تكوينه جنينا في بطن أمه، كما احتوت أحاديث عن نشأة الحياة على الأرض، وأحاديث كثيرة عن نشأة الكون والكواكب والنجوم، وعن نهاية الكون أيضا، وعن حركة الشمس والقمر والليل والنهار، وعن عالم البحار وأسراره، وعن عالم الحيوان والطيور، وأنها أمم منظمة، وغير ذلك كثير، وقد آمن السلف الأوائل بما ورد في القرآن وسلموا به، وإن كانت أدوات البحث العلمي لم تساعدهم على اكتشاف ذلك في عصرهم، بيد أن القرآن كتاب كل عصر، ولا تنقضي عجائبه، ولذلك تطور هذا الجانب من البحث في الإعجاز العلمي في عصرنا، بعد القفزة الهائلة التي وصل إليها البحث العلمي في العصور الأخيرة، وقد توافقت الاكتشافات العلمية مع الأخبار القرآنية، فتبين أن مصدر القرآن من عند الله، لأن خالق الكون ومنزل القرآن واحد، وهذه مزية خاصة

1 - الإتيان في علوم القرآن، للسيوطي، (161/2).

2 - الإتيان في علوم القرآن، للسيوطي، (163-161/2).

3 - د. خليفة عبد السميع، الرياضيات في القرآن الكريم، ص (178).

4 - تاريخ آداب العرب، (115-114/2).

للقرآن على ما سواه من كتب سماوية، يقول موريس بوكاي مشيدا بها في حديثه عن مزايا القرآن: (إنه يحتوي أيضا على تأملات عديدة خاصة بالظواهر الطبيعية وبتفاصيل توضيحية تتفق تماما مع معطيات العلم الحديث، وليس هناك ما يعادل ذلك في التوراة والإنجيل)<sup>1</sup>، ويضيف منوها بإعجاز القرآن من خلال ما أثبتته المنهج التجريبي في هذا الصدد: (بداية يثير الجمع بين القرآن والعلم الدهشة، وخاصة أن المقصود في علاقة الجمع هذه هو التواءم بين الاثنين وليس التنافر، ألا يرى الكثيرون في مواجهة كتاب ديني بالمعطيات الوضعية التي ينتمي العلم إليها أمرا بدعيا في عصرنا)<sup>2</sup>، ويقرر تبعا لذلك أن القرآن وحي من الله، يقول: (هذه الملاحظة الأخيرة تدحض فرض هؤلاء الذين يرون في محمد صلى الله عليه وسلم مؤلفا للقرآن، كيف يمكن لإنسان كان في بداية عمره أميا ثم أصبح فضلا عن ذلك سيد الأدب العربي على الإطلاق، أن يصرح بحقائق ذات طابع علمي لم يكن في مقدور أي إنسان في ذلك العصر أن يكونها، وذلك دون أن يكشف تصريحه عن أقل خطأ في هذه الواجهة)<sup>3</sup>، ويدحض أي فكرة حول بشرية القرآن، يقول: (ولا يستطيع الإنسان تصور أن كثيرا من المقولات ذات السمة العلمية كانت من تأليف بشر، وهذا بسبب حالة المعارف في عصر محمد صلى الله عليه وسلم، لذا فمن المشروع تماما أن ينظر إلى القرآن على أنه تعبير الوحي من الله، وأن تعطى له مكانة خاصة جدا، حيث إن صحته أمر لا يمكن الشك فيه، وحيث إن احتواءه على المعطيات العلمية المدروسة في عصرنا تبدو كأنها تتحدى أي تفسير وضعي، عقيمة حقا تلك المحاولات التي تسعى لإيجاد تفسير للقرآن بالاعتماد فقط على الاعتبارات المادية)<sup>4</sup>.

1 - دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص (140).

2 - دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص (135).

3 - دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص (150).

4 - دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص (286).

## الخاتمة:

استعرضت في هذا البحث الوجيز منهج القرآن في التعامل مع الرأي الآخر، في خمسة مباحث، تناولت فيها الحرية الفكرية في الإسلام، ومنهجه في عرض شبهات خصوم الأنبياء قبل الرسالة المحمدية وفي عصرها أيضا، ثم منهجه في إثبات الرسالة من خلال التأمل في النفس والكون والآفاق، ثم من خلال التأمل من خلال المعجزة الخالدة، ونخلص من خلال هذا كله إلى تقرير الحقائق التالية:

1- القرآن كتاب رباني معجز ، وهو مائدة الله في الأرض، والإيمان به هو لمصلحة الإنسان أولا وأخيراً.

2- المنهجية العلمية في القرآن تتمثل في غاية الصدق والأمانة في تصوير آراء الخصوم والمعاندين، والرد عليها جاء بأسلوب علمي عقلي يدحض حجة الخصم، ويزيل اللبس عن العقول.

3- القرآن لا يؤمن بالقهر للعقل البشري، فأساس الإيمان والكفر هو الاختيار لا الإكراه، وبذلك يكون سباقا إلى إقرار حرية التعبير من كل ما جاء بعده من دعوات وثورات نادى بحرية الفكر وكرامة الإنسان.

4- العبارة القرآنية منضبطة مع الآداب أكمل انضباط، مما يدل على أن هذا الكتاب من عند الله، فهو بعيد عن الأهواء والانفعالات التي تكون في كلام الناس.

5- عندما يكون هنالك حرية في البحث والحوار العلمي في أي مجتمع، فإن القرآن سيسود بمنطقه ومنهجيته. فهو كما قال السيوطي: (معجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة، وخرقه العادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبرنا به أنه سيكون يدل على صحة دعواه)<sup>1</sup>.

6- إن خصوم القرآن هم الذين لا يؤمنون بالحوار ولا الرأي الآخر، أليسوا هم القائلين بترك السماع للقرآن واللغو فيه كما أخبر تعالى: (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون)<sup>2</sup>، وكذلك كانوا هم الساعين للفتك بالنبي محمد عليه السلام صاحب الكلمة الحرة وهي كلمة التوحيد، فأعلنوا الحرب عليها وعلى صاحبها، كما قال تعالى: (وإذ يمكروا بك الذين كفروا ليليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين)<sup>3</sup>.

لقد أن الأوان للبشرية أن تترك التعصب، وتعترف بالحقيقة، وتتنظر من جديد في كتاب الله، لترى فيه الإطار الذي يجمعها على مختلف اتجاهاتها وأديانها، ويستوعب كل المتغيرات فيها، ويدفع عنها كل ظلم وإجحاف، ويترك لها باب الحرية الفكرية مفتوحا على مصراعيه،

1 - الإتيان في علوم القرآن، للسيوطي، (141/2).

2- سورة فصلت، الآية (26).

3- سورة الأنفال، الآية (30).

إيماننا منه بأن الحق يعلو ولا يعلى عليه، (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ينفع الناس فيمكث في الأرض)<sup>1</sup> صدق الله العظيم.

\* \* \*

---

<sup>1</sup>- سورة الرعد، الآية (17).

**البحث الثالث:**

**وسائل القرآن في حوار الآخر**

## موجز بحث

### وسائل القرآن في حوار الآخر

هذا البحث مقسم إلى مقدمة وتمهيد و(22) فقرة، ومذيل بخاتمة

في المقدمة ذكرت سبب كتابة هذا البحث وأنه يأتي ضمن الرد على حملة شرسة تتهم الإسلام بعدم احترام الفكر والرأي لدى الناس.

وفي التمهيد بينت أن الدعوة إلى الله هي مهمة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، وأن القرآن الكريم كتاب يحترم العقل والمنطق، ويدعو إلى التفكير والحوار مع مختلف البشر ممن لا يؤمنون به، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة في هذا الصدد، مما يدل على حيويته وملامسته لواقع الناس الديني والفكري

وذكرت أن للدعوة أساليبها ووسائلها في إقناع الآخر، وإلزامه الحجة، وقد ناقشنا هذه الوسائل مناقشة علمية هادئة من خلال ما يقوله الله عز وجل في كتابه مباشرة للكافرين والمعاندين، أو من خلال ما يعلمه لنبيه - عليه الصلاة والسلام - من أساليب الحوار والحجاج، وكانت المناقشة ضمن (22) فقرة وفق التالي:

- 1- الاحتكام إلى العقل
- 2- الاحتكام إلى النفس
- 3- الاحتكام إلى الفطرة
- 4- الاحتكام إلى البيئة
- 5- الاحتكام إلى الكون ومظاهره
- 6- الاحتكام إلى التاريخ
- 7- الاحتكام إلى المستقبل
- 8- الاحتكام إلى أهل العلم والخبرة
- 9- الاحتكام إلى القيم الفاضلة
- 10- الاحتكام إلى المصلحة العامة
- 11- الاحتكام إلى خوارق العادات (المعجزات)
- 12- الاحتكام إلى المعجزة القرآنية
- 13- استخدام التشبيه

## 14- المذهب الكلامي

## 15- تسخير طاقات اللغة

## 16- طلب الدليل والبرهان

## 17 - دحض شبهة الخصم

## 18- الاحتكام إلى القيم الجمالية

## 19- الاحتكام إلى السيرة النبوية

## 20- الاحتكام إلى المنهج التجريبي

## 21- الوعد والوعيد

## 22- الاحتكام إلى الله عز وجل

وفي الخاتمة ذكرت نتائج البحث وأهم المقترحات، وتوصلت إلى أن القرآن استخدم جميع الوسائل المتاحة في الكون والحياة والإنسان ذاته من أجل إثبات قضاياها التي يطرحها، واستخدم سجل الحياة الإنسانية ماضيها ومستقبلها للغرض السابق أيضا، وسخر طاقات اللغة التعبيرية والعلوم والمعارف جميعها، واعتمد على الفطرة السليمة ولم يأل جهدا في إيقاظها وتنبيهها، واستخدم أجود أساليب التعبير والحوار لإقامة حجته، وأشاد بالمعجزات على أنها دلائل إثبات صدق المرسلين، وأعظمها هذا القرآن العظيم، واحتكم إلى مصالح العباد التي تقتضي الإيمان من أجل سيرورة الحياة وبقائها.

وأوصيت بما يلي:

- 1- تشجيع الدراسات الحوارية بين الإسلام ومخالفيه أو خصومه.
- 2- استخدام المزيد من الوسائل المتاحة لهذا الغرض كالتلفزيون والأفلام والشبكة الإلكترونية.
- 3- تؤكد على أن الحوار هو في صالح الإسلام أولا.

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسوله الكريم، وعباده الذين اصطفى.

وبعد:

فإننا نعيش في فتن متلاطمة الأمواج، وفي جهل مركب، ضمن عالم يختال فيه الناعقون، ويُصَفد فيه أهل الرأي والحجى، فصرنا نجد من يهاجم دين الله تعالى، ورسوله الكريم، بصورة أسوأ من الجاهلية الأولى. في حين أن السواد الأعظم من المسلمين مشغول في البحث عن لقمته، أو غارق في أهوائه وشهواته، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وفي هذا الجو الموبوء صار الدين ينعت بكل فرية، ولا من يرد ولا من يجيب، اللهم إلا أصواتا ضعيفة، لا تضارع جعجعة الباطل وحزبه.

وكان من أفرى الفرى أن يقال: إن القرآن انتشر بالسيف والإكراه، وأن ديننا لا يؤمن بلغة العقل والحوار، فكان لزاما على أهل الرأي والنهى أن يتصدوا لهذه الحملات الظالمة.

وقد أحببت المشاركة بهذا البحث لغرض الذب عن ديننا، وأسأل الله عز وجل أن يتقبل مني، وأن يختم لي بخاتمة السعادة، وهو حسبي ونعم الوكيل

## تمهيد حول أهمية البحث

الدعوة إلى الله هي مهمة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، وهي ينبغي أن تكون بأسلوب اللين والرفق، قال تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (النحل:125).

وليس الدعوة مقصورة على الرسل، بل هي واجب على أتباعهم أيضاً، قال تعالى: (قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (يوسف:108).

والدين الإسلامي الذي ندعو إليه هو دين الأنبياء والمرسلين جميعاً، قال تعالى: (شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ) (الشورى:13). وقد حصل الاختلاف بين أتباع الرسل السابقين، وقد حصل التغيير والتبديل عن المنهج الثابت الذي شرعه الله تعالى: (وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى لَفُضِّي بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ) (الشورى:14). ومن ثم كانت رسالة النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - أن يرد الناس إلى المنهج القويم الذي كان عليه الأنبياء جميعاً، قال تعالى: (فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) (الشورى:15).

والقرآن الكريم كتاب يحترم العقل والمنطق، ويدعو إلى التفكير والحوار، فمن ذلك ذكره لموقف أحد المشركين المنكرين للبعث وهو أبي بن خلف الجمحي، الذي (أخذ عظماً بالياً فجعل يفته بيده ويقول: يا محمد، أترى الله يحيي هذا بعد ما قد رم؟ قال - صلى الله عليه وسلم -: نعم، ويبعثك، ويدخلك جهنم)<sup>1</sup>. قال تعالى: (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ) (يس:78).

ومن ذلك دعوته بني إسرائيل إلى إحضار توراتهم لإثبات كذبهم، قال تعالى: (كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ جِلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (آل عمران:93).

ومن ذلك دعوته نصارى نجران للمباهلة، قال تعالى: (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْهَلْ فَنَجْعَلْ لِعَنْتِ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ) (آل عمران:61).

<sup>1</sup> - الكشاف، للزمخشري، تصحيح مصطفى حسين أحمد، (30/4).

ومن ذلك حوار ه لأهل الكتاب في شأن إبراهيم عليه السلام، قال تعالى: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (آل عمران:65).

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة في هذا الصدد، مما يدل على حيويته وملامسته لواقع الناس الديني والفكري، فهو كتاب يهتم بالحوار وإقامة الحجة والبرهان، كما يهتم بأداب الحوار والتعامل مع الآخرين برفق، وهو أمر يفتقده معظم المعارضين للقرآن الكريم.

وللدعوة أساليبها ووسائلها في إقناع الآخر، وإلزامه الحجة، وهذا البحث الذي تقدمه يتكامل مع بحث محكم سابق نشرناه بعنوان: (منهجية القرآن في التعامل مع آراء معارضية)، وقد نشرناه في كتاب مستقل أيضا، وذلك لما للموضوع من أهمية، وكنا قد استعرضنا فيه الأسس المنهجية للحوار مع الآخر، واليوم نستعرض في هذا البحث الوسائل المنهجية التي استخدمها القرآن في حوار الآخر، وهو بحث هام من أجل أن نتعلم من هذه الوسائل المساعدة في طرائق التفكير والتعبير والحوار حتى نقيم حجة الله على خلقه.

وهذا البحث مقسم إلى (22) فقرة، ومذيل بخاتمة، فإلى أولى فقرات هذا البحث

## 1- الاحتكام إلى العقل

من خصائص القرآن الكريم أنه كتاب يؤمن بالعقل ويعلي من شأنه، وقد جعله مناط التكليف، وهو يحتكم إليه في شئون الدين والدنيا، وفي خطابه للمسلمين وغيرهم.

فالكون في المنظور القرآني كتاب ناطق يهدي العقلاء من الناس إلى ربهم، قال تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (البقرة: 164)

والكون يهدي أيضا إلى معرفة الغرض من الخلق؛ وهو الفتنة والابتلاء، ليعقب ذلك الجزاء في عالم البقاء، قال تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ آيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ) (آل عمران: 190). وعقب هذه الآية بين صفة أولي الألباب، وكيف يستدلون بوحدة الخلق على وحدة الخالق سبحانه، فقال تعالى: (الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ قِنَا عَذَابَ النَّارِ) (آل عمران: 191).

وتبيان الآيات من أجل إدراكها والتفكير فيها، قال تعالى: (كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (البقرة: 242).

والحياة الدنيا ليست إلا ممرا للأخرة لمن تفكر، قال تعالى: (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهُوَ وِلْدَانُ الْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (الأنعام: 32).

والتشريع ليس إلا وسيلة لحفظ العقل وديمومة الحياة، قال تعالى: (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرِزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَفْتَنُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (الأنعام: 151).

والوثنية ليست سوى انحطاط عقلي، لا يليق بالآدميين، قال تعالى: (أَفَ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (الأنبياء: 67).

والشرك بالله - الذي هو أكبر جريمة يعاقب الله عليها - لا يتناغم مع العقل في شيء، قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَرَأْتَتَّخِذُ أَصْنَامًا إِلَهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (الأنعام: 74).

وليس ثمة دليل واحد للمشركين يعتمدون عليه، قال تعالى: (هُؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا) (الكهف: 15).

والآلهة المزيفة لا تستطيع أن تغالب رب العالمين، قال تعالى: (قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَعُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا) (الإسراء:42) والمعنى: "اطلبوا إلى من له الملك والربوبية سبيلا بالمغالبة، كما يفعل الملوك بعضهم مع بعض"<sup>1</sup>.

بل هي لا تستطيع نصر أصحابها، قال تعالى: (فَلَوْلَا نَصْرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ) (الأحقاف:28).

وهي لم تخلق شيئاً أصلاً حتى تغالب الرب سبحانه، أو تنتصر أصحابها، قال تعالى: (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا) (الفرقان:3).

والشرك يقتضي الصراع بين الآلهة، مما يترتب عليه فساد الكون في جملته، وطالما أن الكون يجري وفق نواميس وسنن ثابتة، فمعنى هذا أنه ليس ثمة شرك ولا شريك، قال تعالى: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) (الأنبياء:22).

وهذا الشرك - بكل أشكاله وصوره - قائم على الجهل ولا يستند إلى شيء من الحقائق المعتبرة، قال تعالى: (أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ) (الأنبياء:24).

وأهل الشرك عطلوا حواسهم فصاروا شر الخليفة، قال تعالى: (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ) (الأنفال:22).

وأهل الكتاب يتناقضون مع العقل في كثير من أحكامهم، كزعمهم انتساب إبراهيم إليهم، مع أنهم جاؤوا بعده، قال تعالى: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلَ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (آل عمران:65).

وسلوك أهل الكتاب يتناقض مع معتقداتهم، فهم في فصام نكد بين المثال والواقع، مما يجعل العقل يتقرز من ممارساتهم اللامسئولة، قال تعالى: (اتَّمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (البقرة:44).

وأكثر أهل الكتاب يركنون إلى الحياة الدنيا وأسبابها، وقد توحدوا أمام الناس في حين أن حقيقتهم التشرذم والاختلاف، قال تعالى: (لَا يِقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَىٰ مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ) (الحشر:14).

وبعض الأعراب لم يتعلموا أدب التعامل مع الآخر، وفيهم حماقة وقلة عقل، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) (الحجرات:4)

وقد وردت بعض الكلمات والمواد اللغوية المتصلة بالعقل كثيرة في القرآن الكريم، فمن ذلك:

<sup>1</sup> - تفسير الكشاف، (669/2).

عدد المرات	المادة مع مشتقاتها، أو الكلمة*
49	عقل
16	ألباب
17	فكر
20	فقه
127	نظر
148	بصر
855	علم
185	سمع
16	فؤاد*
135	قلب*

وهذا التكرار لمواد ذات صلة بالعقل، يعتبر كله إعلاء من شأن العقل وأدواته من حواس وعلم في خطاب الناس على مختلف توجهاتهم ونحلهم وأديانهم، وليس هذا موضع تفصيل تلك المواضيع، واكتفينا بالإشارة إليها على موضع الإجمال، لنؤكد على أن العقل هو الأداة الأولى التي يحتكم إليها الخطاب القرآني.

## 2- الاحتكام إلى النفس

النفس: لها معان عدة، فهي الروح، والذات<sup>1</sup>، والنفس البشرية من أعظم الأشياء التي استخدمها القرآن في الدلالة على وحدانية الله، وعظمة آياته، قال تعالى: (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) (الذريات:21)، والمعنى: "في حال ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال، وفي بواطنها وظواهرها من عجائب الفطر وبدائع الخلق، ما تتحير فيه الأذهان"<sup>2</sup>.

وللإنسان أن يتأمل بدء خلقه، قال تعالى: (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ) (الطارق:5).

وله أن يتأمل خط سيره من الرحم إلى القبر مروراً بالحياة، قال تعالى: (هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تَرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلٍ وَلِنَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (غافر:67).

وله أن يتأمل كيف يدب الوهن والضعف فيه بعد رحلة الصحة والشباب، قال تعالى: (وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ) (يس:68).

وله أن يتأمل حياته الجنسية والعاطفية ليدرك عظمة الله تعالى، قال تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (الروم:21).

وله أن يتأمل دقائق صنع الله تعالى في النفس البشرية وما بث فيها من مشاعر الفجور والتقوى، (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) (الشمس:7-8). وليستعد بالله مما توسوس به نفسه، قال تعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلْمُ مَا تُوسَّوسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) (ق:16)، وليتأمل كيف تزين له نفسه السوء والمنكر، قال تعالى: (وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ) (يوسف:53).

وله أن يتأمل في جسده وحسنه وقوامه، قال تعالى: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) (التين:4)، وليتأمل جوارحه ولسانه وبيانه، قال تعالى: (أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ، وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ) (البلد:8-9).

وله أن يتأمل تعدد الألوان واختلاف اللغات، قال تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ) (الروم:22)

ليدرك من خلال ذلك كله، أن الله خلقه في أحسن تقويم، وأن أكبر آية على وحدانية الله هو هذه النفس القريبة التي نعيش بين جنبيها، فتبارك الله أحسن الخالقين!

1 - مفردات الراغب، مادة (نفس).

2 - تفسير الكشاف، (399/4).

## 3- الاحتكام إلى الفطرة

الفطرة مشتقة من فطر، "وفطر الله الخلق: وهو إيجاد الشيء وإبداعه على هيئة مترشحة لفعل من الأفعال، فقله: (فَطَّرَ اللَّهُ الَّتِي فَطَّرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) (الروم: من الآية 30) فإشارة منه تعالى إلى ما فطر أي أبداع وركز في الناس من معرفته تعالى، وفطرة الله هي ما ركز فيه من قوته على معرفة الإيمان، وهو المشار إليه بقوله: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ) (الزخرف: من الآية 87)، وقال: (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (فاطر: من الآية 1)..<sup>1</sup>

ورد الناس إلى فطرتهم، وبعث ما فيها من كوامن الخير والفلاح، هو منهج الأنبياء جميعاً، فهذا نوح عليه السلام ينكر على قومه نبذ الإيمان بالله خالقهم، وعدم إجلال ربه عز وجل، قال تعالى: (مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً، وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً) (نوح: 13-14)

وهذا إبراهيم يتبرأ من قومه حتى يردهم إلى الإيمان بالله الواحد، قال تعالى: (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) (المتحنة: 4)

وهذا لوط ينعى على قومه سلوكهم المشين الذي يخالف الفطرة، قال تعالى: (وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ) (الأعراف: 80)

ولم يكن سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - بمعزل عن هؤلاء الأنبياء أيضاً، فهم قد بشروا به، وكل ما نادى به هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحليل الطيبات وتحريم الخبائث، وفك الغلال عن البشر، مما يقتضي على كل ذي لب اتباعه، قال تعالى: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُجِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (الأعراف: 157).

والخلاصة أن الإيمان بالله هو فطرة في النفس البشرية، قال تعالى: (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (التغابن: من الآية 11)، ومبادئ الدين وقيمه وأحكامه منسجمة تماماً مع الفطرة السليمة، قال تعالى: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (الروم: 30). فلا غرو بعد هذا أن تكون الفطرة السليمة إحدى الوسائل المنهجية التي يحتكم إليها الرسل وأتباعهم في الدعوة إلى الله.

1 - المفردات للراغب، مادة (فطر).

#### 4- الاحتكام إلى البيئة

البيئة في اللغة: "المنزل والحال، يقال: بيئة طبيعية وبيئة اجتماعية وبيئة سياسية"<sup>1</sup>.

والبيئة بهذا المفهوم إحدى وسائل التي يتحاكم إليها الخطاب القرآني، فالطعام والشراب من معجزات الله عز وجل، حيث هنالك دورة للماء والنبات حتى يصل صالحين للاستعمال الآدمي، قال تعالى: (فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ، أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا، ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا) (عبس:24-26).

والأرض وما فيها من النباتات والأشجار المختلفة، ذات الطعوم المختلفة، بيد أن الماء واحد، وفي هذا إشارة إلى علم الوراثة في النبات، فالمورثات هي التي تتسبب في اختلاف المذاق، قال تعالى: (وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنُونًا وَعَظِيرٌ صِنُونًا يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (الرعد:4).

ويد الإنسان تمتد لرزق الله تعالى، فنتخذ منه الحلال والحرام، قال تعالى: (وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً

لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (النحل:67) والسكر: الخمر<sup>2</sup>، وكان الإنسان هو الذي يتمادى في طغيانه فيجعل نعمة الله خمرا، فيفسد ما وهبه الله إياه من نعمة.

والماء هو سر الحياة على هذه الأرض، قال تعالى: (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ) (الأنبياء: من الآية30)، وعنه تنبتق المزروعات والثمار، قال تعالى: (يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (النحل:11)، ومن هذه الثمار يكون العسل الذي فيه شفاء للناس، فهو غذاء ودواء، قال تعالى: (وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ، ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (النحل:68-69).

وحيث ما نظر الإنسان، فسيجد من حوله نعم الله تحوطه وتغمره، فالبيئة بما فيها من ثروة ومال وطعام وشراب وزرع وماء وحيوان وحشرات، كلها آيات تدل على وحدانية الله عز وجل، وإذا تجاوزنا البيئة الطبيعية إلى البيئة الاجتماعية وما فيها من سنن الاجتماع والتطور والتغيير، أو إلى البيئة السياسية وما فيها من خير وشر وتقلبات ونزاعات، وجدنا آيات الله وسننه الثابتة التي لا تتغير، فالعدل جوهر الحياة، وأساس البقاء، والتغيير يبدأ من النفس أولا، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) (الرعد: من الآية11). والظلم يعصف بالأمم والممالك عبر التاريخ، قال تعالى: (وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا

1- المعجم الوسيط، مادة (باء).

2- الكشاف، (617/2).

ظَلَّمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (الكهف:59). وهذا بحث كبير، جدير بالتفصيل في دراسة مستقلة.

## 5- الاحتكام إلى الكون ومظاهره

تعتبر المنهجية القرآنية الكون وما فيه من مظاهر الحكمة والإبداع وسيلة لإثبات الخالق ووحدانيته عز وجل، فإله سبحانه هو الموجد لهذا الكون، ومدبر أمره، بيده أسباب الخلق والرزق، وأمر الليل والنهار، قال تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (البقرة:164).

وهو رب الأجرام العلوية النيرة، التي سخرها من أجل حياة الإنسان، قال تعالى: (وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (النحل:12).

وهو رب الأرض بما فيها، وقد أمدها سبحانه بما يحقق فيها الأمن من جبال تقيها الزلازل، وأنهار تعد شرايين الحياة للبشر، قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِي وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيًا ثَلَاثِينَ يُغَشِّي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (الرعد:3).

وهو رب الجهات كلها سبحانه، قال تعالى: (قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ) (الشعراء:28).

وهو واهب الرزق والحياة لمن في الأرض حتى بإقرار المشركين، قال تعالى: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) (العنكبوت:63).

وقد جعل وميض البرق شعاع أمل ورعدة خوف في قلوب عباده، فقال: (وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (الروم:24).

ومن يملك الكون يملك أمر الموت والحياة، قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (المؤمنون:80).

وهو سبحانه وحده أهل لأن يعبد ويطاع، لأن بيده كل شيء، وغيره لا يملك شيئاً، قال تعالى: (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) (النحل:17)، ومن ابتغى ربا سواه فهو أحمق وجاهل، قال تعالى: (قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ) (الزمر:64).

## 6- الاحتكام إلى التاريخ

التاريخ خير شاهد على صدق الأنبياء، وإثبات الرسالات، فآثار الأمم البائدة بالعقاب الرباني تنطق بالحق عبر التاريخ، قال تعالى يذكر بأسه في قوم لوط، (فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سَحَابٍ مَّنضُودٍ) (هود:82)، ثم ذكر العبرة من بقاء قرية لوط: (وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (العنكبوت:35). وقال يذكر عاداً وثمود: (وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ) (العنكبوت:38)، وقال يذكر معهما أصحاب الرس وهم من عبدة الأوثان: (وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا) (الفرقان:38)، وقال يذكر قوم تبع: (أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَعِّعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ) (الدخان:37) والظلم هو سبب الهلاك، قال تعالى: (وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا) (الكهف:59)، وأشنع أنواع الظلم هو الشرك بالله تعالى: (وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِأَبِيهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) (لقمان:13). وليس ثمة عذر لمن أهلكهم الله بعد أن أرسل الرسل وأيدهم بالمعجزات البينة، قال تعالى: (وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ) (يونس:13)

والاحتكام إلى تجارب الأمم السابقة خير سبيل للنجاة، فالتاريخ في معظمه يسطر تجارب مريرة للبشرية بسبب بعدها عن دين الله تعالى، قال تعالى: (وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ) (يس:62)، وهذه قرية لوط يمر عليها المشركون في كل الأوقات فلا يتدبرون ولا يعتبرون، قال تعالى: (وَإِنَّكُمْ لَأَمْتُرُونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ، وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (الصفافات:138-138). وهذه آثار مملكة فرعون البائدة بسبب الظلم، قال تعالى: (كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ، وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ، وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَاهِنِينَ، كَذَلِكَ وَأُورَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ) (الدخان:25-28)

وفي التاريخ قصص كثيرة، قال تعالى: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْعَاقِلِينَ) (يوسف:3)، وينبغي أن تؤخذ العبرة من القصص الصادقة، لا أن تسرد القصص لمجرد لتسلية، قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (يوسف:111).

وفي القصص القرآني نذير لقريش وغيرهم من المعاندين: (وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ) (محمد:13)، فقد بعث الله إليهم رسولا وهم على أبواب العذاب، قال تعالى: (وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى) (طه:134).

وقد جعل الله عز وجل النصر حليف عباده المتقين، قال تعالى: (قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْعَبُونَا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

(الأعراف:128). وهذه سنة جارية من قبل الرسول محمد - عليه الصلاة والسلام - وبعده، فإقامة منهج الله هو مفتاح الرزق والفرج والخير كل الخير، قال تعالى: (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرِزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى) (طه:132).

ودراسة التاريخ لا تعني الجمود والتقديس لكل ما هو قديم، إذ لا بد أن تكون دراسة نقدية مبصرة لمعرفة المحاسن والمساوئ في عقيدة وتراث من كانوا قبلنا، وقد نعى الله على الكافرين تحنطهم في متحف التاريخ، وتكلس عقولهم عند مقولة الآباء والأجداد، قال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) (البقرة:170).

ولا بد من تحكيم التاريخ في المسائل المهمة، إذ لا يصح منهجياً أن ينتسب الجد الأعلى للأدنى، ولا المتقدم تاريخياً للمتأخر، ومن ثم فلا يجوز أن يكون إبراهيم المتقدم زمانياً على موسى وعيسى - عليهم السلام - يهودياً ولا نصرانياً، قال تعالى: (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ، هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ، مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (آل عمران:65-67)

## 7- الاحتكام إلى المستقبل

المستقبل غيب مخبأ، لا يستطيع العقل البشري أن ينفذ إليه على سبيل اليقين، وإنما هي تنبؤات وإرهاصات يعتمد عليها أصحاب الفراسة والخبرة، أو الكهان والمشعوذون، فيصيّبون مرة ويخطئون مرات!

وفي القرآن الكريم حديث طويل عن الغيب بشكل عام أو عن حوادث غيبية معينة تحققت، وهذا مما يزيد أهله إيماناً به، ويوقع الحجة على مناوئيه وأعدائه.

فمن ذلك وعد الله عباده المؤمنين بالتمكين لهم في الأرض، وهذه سنة ثابتة لا تتخلف عن جيل دون جيل، ولا تتبدل طول الدهر، قال تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (النور:55)، وقال أيضاً: (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) (غافر:51)، فالنصر حليف الإيمان في كل عصر ومصر على قلة أهل الإيمان عدداً وعدة، ولقائل أن يقول: فكيف قتل بعض الأنبياء والرسول بشهادة القرآن: (إِنَّ

الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) (آل عمران:21). والجواب أن الشهادة هي نصر، بل هي أعظم نصر، ولذلك قال تعالى: (قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ) (التوبة:52). فليس ثمة شيء أعظم من الإيمان بالرسالة والثبات عليها من الاستشهاد في سبيلها، فيكون هذا الدم الطاهر وساما لصاحبه يوم القيامة تنبعث منه رائحة المسك، كما يكون صاحبه منارا للأجيال القادمة من المؤمنين، تعلمهم معنى التضحية والفداء.

ويتوعد الله الكافرين بالخذلان عند الجولة الأخيرة، قال تعالى: (وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ) (الرعد:42)، وهي سنة ثابتة، فمهما علا الباطل، فإنه إلى الحضيض يمضي في النهاية.

وقد بشر الله نبيه عليه الصلاة والسلام بفتح مكة، وتم له ذلك، قال تعالى: (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا) (الفتح:1)، وبشره بنصر دينه على جميع الأديان، وتم له ذلك في حياته، واستكمل بعد وفاته حتى عم نور الله مشارق الأرض ومغاربها، قال تعالى: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) (التوبة:33).

على أن أعظم بشارة غيبية تحديه ببقاء القرآن دون تحريف، في مجتمع أمي، يتكون من مزيج متعدد، ففيه المسلمون والمشركون والمنافقون وأهل الكتاب أصحاب الخبرة في التبديل والتحريف، ولكن الله حفظ كتابه في هذا المجتمع المتعدد المشارب، والحفظ مستمر إلى قيام الساعة، قال تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (الحجر:9).

ولا يقل أهمية عن هذه البشارة أن بعجز البشر عن محاكاته أو المجيء بسورة تشبهه، وأن يستمر التحدي إلى قيام الساعة، وأن لا نجد من أعداء القرآن - على كثرتهم في كل زمان - من يستطيع أن يقف لهذا التحدي، وقد مر زهاء خمسة عشر قرنا منذ نزول القرآن، وليس ثمة من نجح في هذا، بل جميع المحاولات من مسيلمة، إلى كذاب ثقيف، إلى ابن الراوندي... إلى عصرنا، لا تعدو أن تكون عبثا صبيانيا، فليس بوسع أحد أن يتحدى البشر جميعا بفعل شيء هو من صنعهم - أي البيان - فلا يقدر على ذلك لو لم يكن هذا المتحدي هو رب الكون وخالق الزمان والمكان والحدث الذي يجري فيهما، وهو يعلم من وراء الغيب أنه ليس ثمة أحد يستطيع أن يقف أمام هذه المعجزة القرآنية الخالدة، ومن ثم دعاهم للإيمان لكي يقوا أنفسهم من النار، قال تعالى: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) (البقرة:23-24)

## 8- الاحتكام إلى أهل العلم والخبرة

من مزايا القرآن الكريم تنويحه بالعلم وأهله، فالعلم مطلب شريف، قال تعالى: (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) (طه: من الآية 114). وأهل العلم في مرتبة لا يدانيها غيرهم، قال تعالى: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ) (الزمر: من الآية 9)، وهم المرجعية المعتمدة للمعرفة الصحيحة، قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) (النحل: 43).

وعليه فلكل علم مرجعيته، فهناك علم الشريعة، ومرجعيته الرسول - صلى الله عليه وسلم -، قال تعالى: (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ كُفْرُكُمْ عَلَيْكُمْ إِلَّا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدِينَ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَفْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (الأنعام: 151).

وهناك علم الرياضيات، ومرجعيته علماء الحساب، قال تعالى: (قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ) (المؤمنون: 113)، وهؤلاء يستقون معرفتهم من حركة الجرام السماوية وما يتولد عنها من ليل ونهار، قال تعالى: (وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِنَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَا تَفْصِيلًا) (الإسراء: 12).

وهناك أرشيف الأخبار والسير قبل البعثة المحمدية، ويمكن الاحتكام فيه إلى الصادقين من أهل الكتاب، قال تعالى: (أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ) (الشعراء: 197) فهؤلاء "يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها، والمراد العدول منهم الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد - صلى الله عليه وسلم -".<sup>1</sup>

وقد امتدح الله تعالى الصادقين من علماء أهل الكتاب، قال تعالى: (لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ) (آل عمران: 113)، وكبار علمائهم يؤمنون بالقرآن مثل ما يؤمنون بكتبهم أيضا، قال تعالى: (لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا) (النساء: 162)، وهؤلاء وعدهم الله بالثوبة والأجر يوم القيامة، قال تعالى: (وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (آل عمران: 199).

ويمكن الرجوع إلى أهل الكتاب لمعرفة نتائج تجاربهم الدينية، وما ترتب عليها من ثواب وعقاب، قال تعالى: (سَلِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (البقرة: 211)، وينبغي من خلال الاحتكاك بأهل الكتاب دعوتهم بالحسنى إلى الإرث المشترك بيننا وبينهم من التوحيد الخالص والانقياد لمنهج الله سبحانه، قال تعالى: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ

<sup>1</sup> - مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني، (659/2).

شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) (آل عمران:64).

## 9- الاحتكام إلى القيم الفاضلة

القيم الفاضلة من فطرة البشر جميعاً، ونعني بالقيم الفاضلة: الصدق والأمانة والعفة والشجاعة والعدل ونحو ذلك من مكارم الأخلاق، وهذه القيم متفق عليها بين الأمم والشعوب جميعاً، لذلك يمكن الاحتكام إليها عند الضرورة من أجل استقامة الحياة الإنسانية.

فالنبى لوط - عليه السلام - دعا قومه إلى العفة ونبذ الشذوذ الجنسي، لأنه عمل ينافي فطرة البشر، ولم يفعله أحد من السابقين، قال تعالى: (وَلَوْطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ) (الأعراف:80)، وقد حاول عليه السلام أن يثير في قومه البصيرة والتفكير في سفاهة فعلهم الشنيع، قال تعالى: (وَلَوْطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ) (النمل:54).

والذين يحبون نشر الفاحشة، متفككين بأعراض الناس من هذه الأمة لا بد من تحذيرهم من مغبة فعلهم: (إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) (النور:19).

وهذا شعيب - عليه السلام - يدعو قومه للأمانة في المعاملات الاقتصادية والتجارية، لأن الأمانة أساس النجاح في حياة البشر، وفقدانها يسبب الفساد الذي تنعكس آثاره سلباً على جميع المجتمعات، قال تعالى: (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (الأعراف:85).

ودفع الظلم عن حياة الفرد والجماعة ضرورة إنسانية، والذين يمارسون الظلم بحق الآخرين لا بد من تهديدهم وردعهم حتى تستقيم حياة البشر، قال تعالى: (وَلَمَنْ أَنْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ، إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (الشورى:41-42).

والعدل ينبغي أن يكون سمة المؤمنين حتى مع أعدائهم الذين يبغضونهم، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ) (المائدة:8).

والمساواة بين البشر، تكون بشعورهم بالانتماء لأسرة آدمية واحدة، ثم حصل التنوع لكي يحصل التعاون والتعارف، والأفضلية لمن كان عمله صالحاً، وسلوكه ملتزماً بالقوانين الإلهية الثابتة، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات:13).

والصدق كان في الأول والآخر دعامة الحياة، ولا سيما في التبليغ عن الله، وألا ينسب إليه شيء لم يشره أو يأمر به، قال تعالى: (مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) (المائدة:103).

والقرآن كتاب يفيض بمكارم الأخلاق، ولم يأت بشيء من أحكامه إلا وللأخلاق السامية فيه نصيب، وعليه فإن الاحتكام للقيم الأخلاقية هو انتصار للقرآن الكريم الذي يعلن نبيه - صلى الله عليه وسلم - بوضوح أن رسالته دعم الخلاق، حيث قال: (إنما بعثت لتمم مكارم الأخلاق)<sup>1</sup>.

## 10- الاحتكام إلى المصلحة العامة

خلق الله الخلق لغاية واحدة وهي عبادته سبحانه، قال تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (الذريات:56). وقد سخر لهم كل شيء في هذا الكون من أجل هذه الغاية، قال تعالى: (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (الجمانية:13).

لذا فمصلحة العباد الدينية والدينية هي في اتباع أمر خالقهم، إذ لو فعلوا ذلك فسرعان ما يمدهم بالغيث الذي هو عنوان الحياة، قال تعالى على لسان نوح عليه السلام: (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً) (نوح:10-11).

وهذا هود يعد قومه بالغيث وجميع أسباب القوة إذا أنابوا إلى ربهم، قال تعالى: (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثَابِرُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ) (هود:52).

وتحكيم دين الله عز وجل سبب للازدهار الاقتصادي والحضاري بكل صورته، قال تعالى: (وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمَنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ) (المائدة:66).

والإعراض عن دين الله سبب ماحق للأمم والمدن والحضارات، وهو يؤدي للهلاك العاجل في الدنيا، والذي سيعقبه عذاب أشد منه في الآخرة، قال تعالى: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (الأعراف:96).

ولا يستطيع أحد غير الله - مما يعيد من دونه سبحانه - أن يرزق العباد أو ينفعهم، قال تعالى: (إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَاناً وَتَخْلُقُونَ إِفْكاً إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ) (المنكوت:17).

<sup>1</sup> - رواه البخاري في الأدب، وأحمد والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة، انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير، (573-572/2).

وعليه فالطاعة مفتاح الرزق، قال تعالى: (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى) (طه:132)، ولا حاجة لتحديد النسل أو التخلص من المواليد عبر الإجهاض أو القتل خشية الفقر، قال تعالى: (وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا) (الإسراء:31).

وعليه فعلى المؤمن أن يبذل نفسه لله طائعا مختارا، طالما أن الله بيده الخير والرزق، وقد وعده بالثبوت في الدارين: (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ) (الحج:58).

واستقراء الواقع المعايين والتاريخ المجرب يبين أن الازدهار قرين الإيمان، والخراب قرين الكفر، وهذه قاعدة ثابتة، وإذا شوهد غير هذا فيما هو استدراج للكافر، أو ابتلاء للمؤمن، أو عقاب دنوي للمؤمن إذا تخلف عن إقامة دين الله تعالى أو تهاون في تطبيقه.

## 11- الاحتكام إلى خوارق العادات (المعجزات)

المعجزة كما عرفها القرطبي هي: (واحدة معجزات الأنبياء الدالة على صدقهم صلوات الله عليهم، وسميت معجزة لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها، وشرائطها خمسة فإن اختلف منها شرط لا تكون معجزة)<sup>1</sup>

والشروط التي ذكرها القرطبي هي:

الشرط الأول: أن تكون مما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه.. كفلق البحر وانشقاق القمر

الشرط الثاني: هو أن تخرق العادة، وإنما وجب اشتراط ذلك لأنه لو قال المدعي للرسالة: آيتي مجيء الليل بعد النهار، وطلوع الشمس من مشرقها، لم يكن فيما ادعاه معجزة.

الشرط الثالث: هو أن يستشهد بها مدعي الرسالة على الله عز وجل، فيقول: آيتي أن يقلب الله سبحانه هذا الماء زيتا، أو يحرك الأرض عند قولي لها تزلزلي؛ فإذا فعل الله سبحانه ذلك حصل المتحدّي به.

الشرط الرابع: هو أن تقع على وفق دعوى المتحدّي بها، المستشهد بكونها معجزة له، وإنما وجب اشتراط هذا الشرط لأنه لو قال المدعي للرسالة: آية نبوتي ودليل حجتي أن تنطق يدي أو هذه الدابة، فنطقت يده أو الدابة بأن قالت: كذب وليس هو نبيي، فإن هذا الكلام الذي خلقه الله تعالى دال على كذب ذلك المدعي للرسالة.

الشرط الخامس: أن لا يأتي أحد بمثل ما أتى به المتحدّي على وجه المعارضة<sup>2</sup>

<sup>1</sup> - الجامع لأحكام القرآن، (69/1). تصحيح أحمد عبد العليم البردوني، الطبعة الثانية. مطبعة دار الكتب المصرية، 1373هـ/1954م.

<sup>2</sup> - انظر: الجامع لأحكام القرآن، (69/1-71).

وهذه المعجزات كانت إحدى وسائل إقامة الحجة على المكذبين والمعاندين، وقد سجل القرآن عددا من معجزات الأنبياء السابقين، من ذلك ناقة صالح عليه السلام، وأصلها صخرة في جبل، فحولها الله تعالى ناقة، قال تعالى: (وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفاً) (الإسراء: 59).

ومن المعجزات عصا موسى عليه السلام، والتي انقلبت حية تسعى، والتقت عصي السحرة، قال تعالى: (وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ) (الأعراف: 117).

ومن المعجزات ما فعله عيسى عليه السلام من الخوارق، كبث الروح في الجمادات وإحياء الموتى وشفاء المرضى بإذن الله تعالى، وكذلك إخباره عن بعض الغيوب، قال تعالى: (وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (آل عمران: 49).

ومن المعجزات الحسية التي أيد الله بها نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - انشقاق القمر، قال تعالى: (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) (القمر: 1)، والدخان الذي عن سماء مكة نذيرا بالعذاب، قال تعالى: (فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ) (الدخان: 10)، والإسراء والمعراج، قال تعالى: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (الإسراء: 1)، وحفظ الله لنبيه يوم الهجرة، قال تعالى: (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَاكِرِينَ) (الأنفال: 30). ونزول الملائكة يوم بدر، (وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (آل عمران: 123). وإرسال الريح على الأحزاب، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا) (الأحزاب: 9). وتعليم الله تعالى لنبيه عليه السلام بعض أمور الغيب، قال تعالى: (وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثاً فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ) (التحریم: 3).

والمعجزات الحسية دليل صدق لمن رآها أو سمع بها، ولا سبيل لتفسيرها أو تعليلها سوى أنها تأييد من الله لرسله عليه السلام.

## 12- الاحتكام إلى المعجزة القرآنية

قد ينازع الملاحدة في عصرنا بشأن المعجزات الحسية، وقد يرفضونها بحجة أنها أخبار تتناقض مع الواقع المألوف، وهنا اقتضت حكمة الله أن تكون هنالك معجزة حسية باقية تخاطب عقل الإنسان إلى يوم الدين، هذه المعجزة هي القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من أي جهة، والذي تحدى البشر أن يأتوا بمثله فعجزوا، وقد تكفل الله ببقائه إلى قيام الساعة، وعليه يقول القرطبي: (المعجزات على ضربين: الأول: ما اشتهر نقله وانقرض عصره بموت النبي - صلى الله عليه وسلم -).

والثاني ما تواترت الأخبار بصحته وحصوله، واستفاضت بثبوته ووجوده... وهذه صفة نقل القرآن<sup>1</sup>

والقرآن كتاب فيه تفصيل كل شيء من أمر الدنيا والآخرة، وقد جاء به رجل أمي، فلا يعقل أن يكون لأمي كتاب كهذا لو لم يعلمه أحد، وطالما ثبت أن محمدا لم يدرس على أحد، ولم يكن في بلده مدرسة، ولم يبتعث في رحلة علمية خارج بلاده، فقد ثبت بالضرورة أن من علمه جبريل عليه السلام، وأن محمدا رسول الله.

وعلم الإعجاز يرتكز أساسا على علوم البلاغة، فالقرآن جاء بأروع بيان عرفته العربية، قال تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (يوسف:2)، وهذا الكتاب فخر للعرب لو آمنوا به وتفاعلو معه، قال تعالى: (لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (الأنبياء:10)، ولو أن كتابا فعل المعجزات الحسية التي ليست بمقدور بشر لكان هذا القرآن، قال تعالى: (وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلَّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلَّ اللَّهُ الْأَمْرَ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَنبَأِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ) (الرعد:31).

وقد تحدى الله البشر أن يأتوا بسورة من مثل هذا القرآن فجزوا، وبين أن عجزهم سيبقى ملازما لهم إلى قيام الساعة، فاجتمعت معجزة التحدي مع معجزة الإنباء بالغيب، قال تعالى: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْجِبَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) (البقرة:23-24).

على أن في القرآن وجوها كثيرة من الإعجاز التشريعي والإخبار بالغيوب، والإعجاز العلمي، وغير ذلك، فهو كتاب لا تنقضي عجائبه، والإيمان به تثبيت لنبوة الأنبياء والمرسلين جميعا، والكفر به هو كفر بهم جميعا، إذ لا سبيل لإثبات معجزاتهم بالعين المجردة الآن، ولكن لما صدقنا بالقرآن صدقنا بكل ما فيه من أخبار، فمن جحد نبوة محمد فقد جحد نبوة نبيه أيضا، لأن الإيمان بالقرآن والاحتكام إليه هما السبيل الوحيد لإثبات الحق في هذه الحياة ولجم المنافقين والملحدين على مر العصور.

### 13- استخدام التشبيه

التشبيه هو: (الدلالة على مشاركة أمر لأمر في معنى)<sup>2</sup>، وهو كثير في القرآن كما هو الحال في اللغة أيضا، وهو أحد وسائل القرآن لتوضيح الفكرة، وإقامة الحجة.

<sup>1</sup> - الجامع لأحكام القرآن، (72/1). تصحيح أحمد عبد العليم البردوني، الطبعة الثانية. مطبعة دار الكتب المصرية، 1373هـ/1954م.

<sup>2</sup> - التلخيص في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، شرح: عبد الرحمن البرقوقي، ص (238)، دار الفكر العربي.

وتشبيهات القرآن جميعها سواء كانت مفردة أو مركبة، تمثيلية أو غير تمثيلية تدفع بالفكر في آفاق عليا، وتحرك الخيال في اتجاهات متعددة وعوالم مختلفة، خذ مثلا قوله تعالى: (يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ) (القارعة:4) وتأمل كيف ربط في هذا التشبيه بين حركة الناس وما يصحبها من تدافع وتصادم وهول واقتحام بحركة الفراش المتطاير المتدافع المقتحم، فقد تحدث عن المستقبل كما لو كان حاضرا، وربط بين الدنيا والآخرة في آية واحدة، ثم أعقبها بقوله: (وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ) (القارعة:5)، والعهن هو الصوف والمنفوش: الذي شرع في الذهاب والتمزق، فانظر إلى ثبات الجبال وقوتها كيف صار هباء، ففي آيتين اثنتين تبين ما تؤول إليه صورة العالم من التبدل والمغايرة يوم القيامة، وذلك من خلال التشبيه الذي يثري الخيال تدفقا وحيوية وإثارة.

ولنتأمل من التشبيه المركب قوله تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (الجمعة:5)، وهي صورة دقيقة مفعمة بالحركة لأولئك الذين حملوا وهنا استخدم صورة الماضي ثم أعقبها بصورة المضارع (كمثل الحمار يحمل) استحضارا للذهن وتشخيصا للصورة أمام الناظرين، وماذا حمل هؤلاء؟ لقد حملوا التوراة التي هي نور الله، بيد أنهم رفضوا الحمل، وناءوا به، فتلاعبوا كي يتخلصوا منه، فمثل هؤلاء كالحمار الذي يحمل أسفار لا ينتفع بها، ولا ينال منها إلا مؤونة الثقل، ووجه الشبه عقلي، وهو: (حرمان الانتفاع بأبلغ نافع مع تحمل التعب في استصحابه)<sup>1</sup>، فانظر كيف نقلك التشبيه بين أمور متعددة أعطت الفكر صورة حية نابضة لحقيقة بني إسرائيل الذين لم يستفيدوا من مصاحبة كتاب ربهم شيئا سوى العناء والمقت الإلهي.

لنتأمل أيضا قوله تعالى في صفة شجرة الزقوم: (طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ) (الصافات:65)، وهو من التشبيه الوهمي عند البلاغيين، كيف ربط القرآن من خلال التشبيه بين الطلع وبين رؤوس الشياطين وبين الزقوم بحيوية جمعت بين الدنيا والآخرة والغواية وسببها ونتيجتها، فرؤوس الشياطين هي التي ضللت الكافرين وساقتهم إلى هذا الغذاء الذميم، في عملية مدارها كله على القبح، فرأس الشيطان قبيح، والضلال قبيح، وعقابه قبيح، وشجرة الزقوم قبيحة، والأكل من هذه الشجرة قبيح.

ومن التشبيه نوع خاص يسمى بالأمثال القرآنية، وقد استخدمها القرآن لأغراض كبرى، فمن ذلك استخدامه لها في نفي الشريك عنه سبحانه، قال تعالى: (ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (الروم:28). والمعنى: "هل ترضون لأنفسكم - وعبيدكم أمثالكم بشر كبشر وعبيد كعبيد - أن يشارككم بعضهم (فيما رزقناكم) من الأموال وغيرها، تكونون أنتم وهم فيه على السواء، من غير تفصلة بين حر وعبد: تهابون أن تستبدوا بتصرف دونهم، وأن تفتاتوا بتدبير عليهم كما يهاب بعضكم بعضا من الأحرار، فإذا لم ترضوا بذلك لأنفسكم، فكيف ترضون لرب الأرباب ومالك الأحرار والعبيد أن تجعلوا بعض عبيده له شركاء؟"<sup>2</sup>

<sup>1</sup> - التلخيص في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، شرح: عبد الرحمن البرقوقي، ص (260).  
<sup>2</sup> - الكشاف (478/3).

واستخدمت الأمثال في بيان سرعة زوال الحياة وتقلبها من حال إلى حال كما هي حال المياه النازلة من السماء التي سرعان ما تنمحق وتزول، قال تعالى: (إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (يونس:24).

واستخدمت الأمثال في بيان إمكانية البعث، فمن يحيي الأرض الميتة يحيي من دفن فيها من البشر، قال تعالى: (فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (الروم:50).

واستخدمت الأمثال في وصف حقيقة الكفار الذين يعطلون حواسهم ويردد بعضهم قول بعض، قال تعالى: (وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) (البقرة:171).

واستخدمت الأمثال في بيان عظمة القرآن الكريم، قال تعالى: (لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لَضُرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (الحشر:21).

.. وهكذا نجد أن التشبيه والأمثال من أدوات القرآن التعبيرية التي سخرها القرآن في بيان أغراضه.

#### 14- المذهب الكلامي

المراد بالمذهب الكلامي: (إيراد حجة المطلوب على طريقة أهل الكلام)<sup>1</sup>، ومثاله قوله تعالى: (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا) (الأنبياء: من الآية22)، فالشراكة تكون بسبب الضعف عن تحقيق الشيء من دون معونة الآخرين، والآلهة يجب أن تكون قوية بنفسها غنية عن غيرها، ثم إن الشراكة قد ينتج عنها صراعات وعداوات وخلافات بين المتشاركين، مما يفسدها من أساسها، ولو كان هنالك آلهة متعددة لهذا الكون لفسد الكون، ولما كان الكون صالحا محكما متوازنا علمنا بالضرورة أنه صنع إله قوي واحد وهو الله العزيز الحكيم.

ومثاله أيضا قوله تعالى حكاية عن إبراهيم وكيف استدل من ظواهر الكون على الخالق المبدع: (فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْأَفْلِينَ) (الأنعام:76)، فقد استناره جمال الكوكب، فقال: هذا ربي! ولكن الرب ينبغي أن يكون حاضرا شاهدا قيوما لا ينام ولا يغفل ولا يغييب، فعدل عنه إلى القمر، قال تعالى: (فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ) (الأنعام:77)، وحصل معه في القمر

<sup>1</sup> - التلخيص في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، شرح: عبد الرحمن البرقوقي، مصدر السابق، ص(374).

ما حصل في الكوكب، فاتجه على الشمس، ومنها إلى عبادة الحي القيوم، قال تعالى: (فَلَمَّا رَأَى  
الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ) (الأنعام:78).

والقرآن سنده العقل، وهو قائم على الحجج والبراهين، وهذا ما يقويه وينصره في كل  
زمان ومكان، وهذا الذي يعطيه القبول والخلود، فهو صالح لأهل قرطبة وغرناطة كصلاحه  
لأهل مكة والمدينة، وهو صالح لأهل القرن الخامس عشر الهجري كصلاحه لأهل القرن الأول،  
وهذا أحد أهم العوامل في حيوية القرآن وسر بقائه معجزا خالدا إلى يوم الدين.

## 15- تسخير طاقات اللغة

البناء اللغوي للقرآن هو قاعدة الإعجاز الأساسية فيه، فلقد كانت اللغة بين يدي القرآن الكريم مطواعة لأغراضه ومقاصده، يشكلها كما يريد، ويوظفها كما يشاء، يختار من مفرداتها أخفها وأيسرها وأعذبها، ويصنع منها نظماً غريب المنوال، ليس له في اللغة سابق مثال، وهذا النظم البديع قادر على أن يزلزل الجبال، وأن يهز الكون كله، والأهم من هذا كله أنه يهز الإنسان من داخله، ويخلقه خلقاً جديداً، وذلك لما فيه من الطاقة الفعالة.

ولقد تكلم أهل العلم عن أساليب القرآن وبديعه ونظمه، وما أكثر ما قيل في هذا الصدد!، ولكن ما يعنينا هنا في هذه الأساليب: الطاقة، ونقصد بها استخدامه لأساليب تثير الحركة والانتباه في ذهن الإنسان، مثل: الاستفهام الذي يراد به التعجيز والتحدي، كما في قوله تعالى: (قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنْتُمْ تُؤْفَكُونَ) (يونس:34).

والاستثناء الذي يقرر حقيقة المرسلين، كما في قوله (قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُم بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ) (إبراهيم:11).

والنداء المقرون بالنهي الذي يراد به التوبيخ، كما في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْرُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (التحریم:7).

والأمر الذي فيه التهكم بالشركاء كما في قوله تعالى: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَتُنُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (الأحقاف:4)

وقد استخدم القرآن تعابير مختلفة، وكرر بعضها بصيغ مختلفة، وتناول موضوع المشترك والمترادف والمبهم ونحو ذلك، وذلك كله مما ذكره العلماء في بحوثهم عن القرآن، وهذه الأساليب استخدمها القرآن في حوار الكافرين والمعارضين خير استخدام، وكان لها دور كبير في هداية أعداد غفيرة من البشر.

## 16- طلب الدليل والبرهان

طلب الدليل والبرهان إحدى وسائل الحوار مع الآخر وإقامة الحجة عليه في منهجية القرآن الكريم، والقرآن لا يفعل ذلك إلا لاطمئنانه بأن المشركين ليسوا على شيء، لذلك يقف على أرض صلبة في الحوار، فقد تحدى البشر أن يأتوا بسورة من مثله فعجزوا، قال تعالى: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (البقرة:23).

وتحدى أهل الكتاب أن يأتوا بدليل على أمانيتهم الكاذبة بأن الجنة لهم وحدهم، قال تعالى: (وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (البقرة:111).

وتحدى بني إسرائيل أن يتمنوا الموت، قال تعالى: (قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (البقرة: 94).

كما تحداهم أن يأتوا بالتوراة التي يفترون عليها، قال تعالى: (كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (آل عمران: 93).

وكذبهم في مسألة ربط الإيمان برسول معه قربان، قال تعالى: (الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدٌ أَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالذِّكْرِ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (آل عمران: 183).

وتحدى المشركين أن تستجيب لهم أصنامهم، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (الأعراف: 194).

وتحدى المشركين أن يأتوا ببرهان على وجود إله غير الله تعالى، قال تعالى: (أَمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِرَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (النمل: 64)، وطالبهم بأي دليل على ما يذهبون إليه من الشرك، قال تعالى: (قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ اننوني بكتابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَتَارَةً مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (الأحقاف: 4)، وزادهم تهكما حين طالبهم أن يحضروا شركاءهم، قال تعالى: (أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فُلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ) (القلم: 41).

## 17 - دحض شبهة الخصم

قد يكون لمن يقف معاندا للقرآن أو معارضا لدعوته شبهات لا تقوم بها حجة، ولا تستند إلى حقيقة، فهي أوهى من بيت العنكبوت، بيد أنها تقف عائقا بينه وبين الإيمان، فهو بحاجة إلى من ينقذه من شركها، ويستخلصه من عقدها، وهذا ما فعله القرآن الكريم بكل نجاح.

فهؤلاء الذين يجهدون أنفسهم بعبادة الأوثان التي لا طائل من ورائها إنما يصرفون جهدهم في شيء لا ينفعهم، وإلا فليجربوا دعاءها، هل تستجيب لهم؟ قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (الأعراف: 194). إن هذه الأوثان لا تعدو أن تكون حجارة معطلة الحواس، وهي مع أصحابها لا تستطيع أن توقع الضرر بالنبي - صلى الله عليه وسلم -، قال تعالى: (أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْتَاطُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونَ) (الأعراف: 195).

وهؤلاء الذين عبدوا عجلا من ذهب، ألا يرون أنه كالحجارة الصماء لا يتكلم ولا يملك لهم أي شيء من خير أو شر، قال تعالى: (أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) (طه: 89).

وهؤلاء الذين يزعمون أن الجنة لهم وحدهم، لماذا لا يتمنون الموت حتى يذهبوا ويدخلوها؟ قال تعالى: (قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (البقرة:94)

والذين يزعمون أنهم لا يؤمنون برسول حتى يأتيهم بقریان تأكله النار، لماذا كذبوا الرسل وقتلوا لما جاءتهم بما زعموا، قال تعالى: (الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَاهَدَ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالذِّكْرِ فَلَمَّ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (آل عمران:183).

وهذا المشرك الطاغية الضال، الذي زعم الربوبية، وادعى إحياء الموتى، ما له لا يستطيع أن يأتي بالشمس من المغرب لو كان صادقاً فيما يدعيه من ربوبية، قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (البقرة:258).

إن دحض شبهات الخصوم خير وسيلة لهدايتهم، لأن هذه الشبهات ليست أكثر من عقد نفسية، نحتاج أن نحرر المريض منها لينطلق نشيطاً إلى ميدان الحياة.

## 18- الاحتكام إلى القيم الجمالية

القيم الجمالية المبنوثة في الكون والحياة والقرآن وجميع الأشياء من حولنا هي من أهم الوسائل في الدعوة إلى الله تعالى، وذلك أن حب الجمال فطرة في الإنسان، ومن شأن الجمال الحسي أن يجمع ذوي الأبصار، ومن شأن الجمال المعنوي أن يجمع ذوي البصائر ويقودهم إلى الصراط المستقيم.

وتفسر المعاجم الجمال بالحسن، وبالعكس<sup>1</sup>، ويستخدم القرآن في الحديث عن هذه القيم لفظ أحسن على وزن أفعل، والحسن هنا بمعنى الفضل، ويندرج الجمال في الفضل مع غيره من الكمالات، فالله أحسن الخالقين، قال تعالى: (أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ) (الصافات:125)، وقال تعالى: (ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ) (المؤمنون:14).

وهو الذي أبدع كل شيء، قال تعالى: (بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) (البقرة:117). وقد أحسن كل شيء خلقه، قال تعالى: (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ) (السجدة:7).

<sup>1</sup> - انظر: المعجم الوسيط، مادتي: (حمل، حسن).

وجعل الإنسان في أحسن صورة، قال تعالى: (لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ) (التين:4). وجعل لنا الجمال في ما رزقنا من وسائل النقل الحيوانية، قال تعالى: (وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تُسْرِحُونَ) (النحل:6).

وقد أنزل أحسن الحديث، قال تعالى: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا تَتَشَعَّرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضَلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) (الزمر:23).

وقص أحسن القصص في كتابه، قال تعالى: (نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْعَافِينَ) (يوسف:3).

وحكمه أحسن الأحكام، قال تعالى: (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) (المائدة:50).

ودينه أحسن الأديان، قال تعالى: (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا) (النساء:125).

وتطهيره لعباده بالإيمان أحسن تطهير، قال تعالى: (صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ) (البقرة:138).

وخلق الناس ليلبئوهم أيهم أحسن عملا، قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) (هود: من الآية7).

ودعاهم إلى أن يقولوا التي هي أحسن، قال تعالى: (وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا) (الإسراء:53).

ونبه نبيه إلى أن يكون الجدل مع الآخر بالتي هي أحسن، قال تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) (النحل: من الآية125).

وقد كان المسلمون الأوائل حريصين على القيم الجمالية، وبخاصة المعنوي منها، كالتفوق بالأدب من خطابة وشعر ونحو ذلك، وكان هذا التفوق سببا لإسلام بعض القبائل، فحين قدم وفد تميم على المدينة قالوا: يا محمد جئناك نفاخر بك، فأذن لشاعرنا وخطيبنا. فأذن لهم، وقام خطيبهم عطار بن حابس فتكلم، فانتدب له النبي - صلى الله عليه وسلم - ثابت بن الشماس، وتكلم شاعرهم الزبير بن بدر، فانتدب له النبي - صلى الله عليه وسلم - حسان بن ثابت، فلما فرغ حسان، قال الأقرع بن حابس رئيس الوفد: (وأبي، إن هذا الرجل لمؤتى له، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أحلى من أصواتنا. فلما فرغ القوم أسلموا، وجوزهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فأحسن جوائزهم).<sup>1</sup>

وحري بالمسلمين اليوم إتقان صناعتهم الإعلامية بما يضمن لهم التفوق واستجلاب المخاطبين نحو دينهم بالكلمة الطيبة والتعبير الجميل.

<sup>1</sup> - السيرة النبوية، لابن هشام، (206/4).

## 19- الاحتكام إلى السيرة النبوية

إن دراسة سيرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - قبل البعثة وبعدها، ودراسة نسبه وبيئته وتاريخ بلده مكة، ودراسة أخلاقه وشمائله، تدل دلالة صادقة على أنه رسول من عند الله - صلى الله عليه وسلم -.

فالرسول - صلى الله عليه وسلم - من بيئة أمية، قال تعالى: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (الجمعة:2).

وهو نبي أمي، قال تعالى: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (الأعراف:157).

ولد يتيما فتعهده الله تعالى برعايته، قال تعالى: (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى) (الضحى:6).

ولم يدرس أو يتعلم على أحد، قال تعالى: (وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِأَرْتَابِ الْمُبْتَاطُونَ) (العنكبوت:48)، ولم يكن له ثمة معلم من العرب أو غيرهم، قال تعالى: (وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) (النحل:103).

ولم يسافر إلا باتجاه الشام مرتين، الأولى وهو صغير مع عمه أبي طالب، والثانية في تجارة لخديجة في العقد الثالث من عمره.

ولم يكن يقرض الشعر، قال تعالى: (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ) (يس:69).

ولم يكن له وضع اجتماعي خاص، كأن يكون ساحرا أو مجنونا، قال تعالى: (كَذَلِكَ مَا آتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ) (الذريات:52).

ولم يكن كاهنا، قال تعالى: (وَلَا يَقُولِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ) (الحاقة:42).

ولم يكن يتعامل مع الجن الذين يسترقون السمع، قال تعالى: (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ) (التكوير:25).

ولم يكن محمد - صلى الله عليه وسلم - من قواد الحروب، فمن أين له بقيادة الحروب والانتصار فيها لولا أن الله كان مؤيده وناصره ومعينه؟

ولم يكن محمد من أسرة مالكة، ولم يصاحب ملوك الأرض أو يقرأ سيرهم، فمن أين له بسياسة الأمم والشعوب؟

ولم يكن قبل البعثة من ملوك البيان، فكيف يصبح بعدها أفصح العرب؟

ولم يكن من أطباء الزمان، فمن أين له بالطب النبوي؟

و لم يكن محمد - صلى الله عليه وسلم - من علماء النفس، فكيف ربي الناس وهدب النفوس أحسن تربية وأسواها، لو لم يكن يوحى إليه؟.

ولم يكن من علماء الحساب فمن أين له بقسمة المواريث؟

وكيف علم أن الحيض أذى، وخالف أهل الكتاب، وصحح لهمن وتحدى البشر بهذا القرآن، لو يكن ربه معه يؤيده ويحفظه؟

ومن أين له بهذا الكتاب وهذه المعجزات إن لم يكن رسولا من عند الله تعالى، قال تعالى: (قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (يونس:16).

إن الاحتكام إلى السيرة النبوية هو أحد وسائل القرآن في حوارهِ مع الآخر، وهو منهج يقيم من الواقع المشاهد أدلة ملموسة على أن القرآن وحي من الله تعالى، وأن محمدا رسول الله.

## 20- الاحتكام إلى المنهج التجريبي

يقال: التجربة أكبر برهان، والمنهج التجريبي منهج احتكم إليه القرآن في إثبات الدعوة، فالدعوة إلى تحطيم الأصنام وعدم الخوف منها هو بداية المنهج التجريبي، قال تعالى: (أَلَمْ لَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونَ) (الأعراف:195).

وفي القرآن حديث عن المنهج التجريبي عند الأنبياء والمرسلين، نورده اقتضابا، فهذا الخليل إبراهيم يريد أن يعاين إحياء الموتى بنفسه، قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمُنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيَبْتَلِيَ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِيَنَّكَ سَعْيًا وَاعْلَمَنَّ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (البقرة:260).

ونجد إبراهيم أيضا يتحدى أحد الطغاة المتجبرين أن يحيي الموتى، أو أن يجرب محاولة الإتيان بالشمس من المغرب، قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (البقرة:258).

وإبراهيم هو من حطم الأصنام فلم تضره، وطلب من قومه أن يجربوا سؤالها لتخبرهم، قال تعالى: (قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ) (الأنبياء:63).

وهو من ألقى في النار فلم تحرقه، وإن من حصل له مثل هذا جدير بأن يكون للناس إماما.

وهذا موسى كليم الله تعالى يطلب رؤية ربه، فيرشدته الله إلى رؤية الجبل، فلما رأى الجبل يندك أمامه أدرك بالتجربة أنه لا يمكن ذلك، قال تعالى: (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرَاكَ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ) (الأعراف:143).

وهذا سليمان - عليه السلام - يستعرض جنده ويتفقدهم، قال تعالى: (وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدُودَ أَمْ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ) (النمل:20)، وحين غاب الهدد أراد أن يتحقق من سبب غيابه قبل أن ينزل فيه العقاب، قال تعالى: (قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) (النمل:27).

والله تعالى يرشد عباده الضالين أن يجربوا مخاطبة الأصنام، فهي لا تحس ولا تتحرك ولا تتكلم، ولا تصلح لشيء إلا أن تحرق، من ذلك عجل بني إسرائيل الذي عبده من دون الله تعالى، قال تعالى متهمًا بإسفافهم وانحطاطهم العقلي: (أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) (طه:89)، ولم يكن جزاء هكذا إله إلا النار، وأن ينسف رماده في البحر!، ولذلك قال موسى للسامري: (وَأَنْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُْحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا) (طه: من الآية97).

والمنهج التجريبي مما علمه الله للبشر من عهد آدم، فحين قتل أحد الأخوين الآخر، لم يدر ما ذا يفعل بالجنمان، حتى أرسل الله غرابين يقتتلان، فتعلم من الغراب القاتل كيف يدفن أخاه، فقلده وحاكاه، قال تعالى: (فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ) (المائدة:31).

وفي قصة ذي القرنين حديث طويل عن المهج التجريبي وكيف أنه عاين بنفسه المشرق والمغرب، وأوتي من كل شيء سببًا، وقصته مفصلة في القرآن، قال تعالى: (وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا، إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا) (الكهف:83-84).

والمنهج التجريبي يثبت أنه لا قوام لهذه الأمة إلا بالقرآن، بل لا صلاح للأمم والشعوب إلا بهذا الدين، قال تعالى: (وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى) (طه:124).

كما يثبت المنهج التجريبي أن محمدا رسول الله، فما جربوا عليه كذبا قط، ولم يجدوه يتلاعب بآيات الله أبدا، ولقد ناقشوه وجادلوه، وراقبوه واستمعوا إليه، واتبعوا آثاره وتجسسوا عليه، فما وجدوه إلا كالشمس وضوحا وإشراقا، فشهدوا بصدقه وعدالته، ولكنهم جحدوا بدين الله ودعوته، قال تعالى: (فَدُ نَعَلِمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ) (الأنعام:33).

ولقد حاولوا قتله حين لم يجدوا عليه ريبة يتمسكون بها، فقد أعيتهم المناهج كلها في محاربتة، ولم تسعفهم كل الوسائل في إطفاء نور دعوته، لأنه كان على صراط مستقيم،

فلا تغيير ولا تبديل، ولا بيع ولا مزاولات بشأن القرآن، قال تعالى: (وَإِذَا تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِمْ  
آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلْتَهُ فُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ  
أُبدَلَهُ مِنْ تَلْقَائِنَا نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ  
عَظِيمٍ) (يونس: 15).

-21 الوعد والوعيد

الوعد والوعيد من وسائل الحوار مع الآخر، لأنهما متحققان بعون الله في الدنيا والآخرة، فقد وعد الله عباده المتصدقين بالزيادة، وهذا متحقق مشاهد ملموس عند من يتصدقون، قال تعالى: (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (البقرة:268).

ووعد عباده المؤمنين ببدر بالعبير أو النفير وتحقق وعده، قال تعالى: (وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ) (الأنفال:7).

ووعدهم بالنصر والتمكين لهم في الأرض إذا عبده ووحده سبحانه، قال تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (النور:55). وهذه سنة ثابتة لا تتخلف أبداً، وما هزم المسلمون يوماً ما إلا لأنهم قصروا في أمر دينهم أو لأنهم تركوا الأسباب الموجبة للنصر التي يأمرهم بها دينهم، من وحدة واستعداد مادي ومعنوي لملاقاة عدوهم.

وهذه السنة ماضية في الرسل جميعاً قبل الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم -، فالغلبة للحق في جميع القصص القرآني، ولكن بعد أن يمحص الله أهل الحق فينجحوا في التمحيص، قال تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ، وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ) (إبراهيم:13-14). وقال أيضاً: (أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْتِمُ الْبَاسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَرَزُلْوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ) (البقرة:214).

وأما وعد الشيطان لحزبه وحلفائه فهو وعد كذوب لا يتحقق أبداً، وإذا صدف أن تحقق فهو من ترك المؤمنين لسنة من سنن النصر، لا من صدق الشيطان في وعوده، فهو الكاذب على الدوام، ومن كذبه وعده للمشركين بالنصر يوم بدر حتى يغريهم بالخروج للمعركة، قال تعالى: (وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآتِ الْفِتْيَانَ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (الأنفال:48).

ووعود المنافقين أيضاً هي من جملة المواعيد الكاذبة، قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) (الحشر:11).

والوعد والوعيد من سنن الأنبياء والرسل - عليهم السلام - السابقين في الدعوة إلى الله تعالى، فقد كان موسى - عليه السلام - يعد من يؤمن بالفوز والثواب، قال تعالى: (وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ) (غافر:28).

ووعيد الله عز وجل لا يتخلف عن أعدائه أبداً، وإن في أخبار الأمم البائدة لعبرة، قال تعالى: (وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمٌ تُبِعَ كُلُّ كَذَّبِ الرُّسُلِ فَحَقَّ وَعِيدِ) (ق:14).

وهذا القرآن ليس إلا تذكرة، ووعد للمؤمنين ووعد للكافرين، فعلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يذكر به المؤمنين دوماً الذين يرجون ربهم ويخافون عذابه، قال تعالى: (نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ) (ق:45).

والخلاصة في هذا الموضوع أن هنالك وعوداً دنيوية وأخروية، ومثلها وعيد أيضاً، وأسلوب الوعد والوعيد مما استخدمه القرآن في تعامله مع الناس في دعوتهم إلى الله، واستقراء ما جاء من الآيات في هذا الصدد نجد أن القسم المتعلق بالدنيا منها قد تحقق، وأما ما يتعلق بالآخرة فهو سيتحقق بإذن الله تعالى، وهنالك إرهاصات على تحقيقه، ومن ثم فهذا الأسلوب هو وسيلة يمكن استخدامها في الحوار مع الآخر لإثبات صدق القرآن العظيم، ولدعوة هذا الآخر ليندرج مع أصحاب الوعد لا الوعيد.

## 22- الاحتكام إلى الله عز وجل

الله تعالى هو أحكم الحاكمين، قال تعالى: (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ) (التين:8).

وله الأمر كله، قال تعالى: (وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) (هود:123). وله الحكم أيضا، (أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ) (الأنعام: من الآية62).

والإيمان بالله يقتضي تحكيم كتابه، قال تعالى: (وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ) (المائدة:49).

وهو يحكم بين عباده في الدنيا، قال تعالى: ( دَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (المتحنة: من الآية10)

وهو سيحكم بين عباده يوم القيامة، (اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) (الحج:69).

وقد كان المرسلون سباقين إلى شهادة الله عز وجل لهم بالرسالة، قال تعالى: (وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ) (الرعد:43)، وقال تعالى: (قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا) (الإسراء:96). وقال تعالى: (قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ) (العنكبوت:52). وقال تعالى: (إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ) (المنافقون:1).

ولأن الله هو المرسل والحاكم والشهيد فهذا يقتضي من الرسول - صلى الله عليه وسلم - طلب المعونة من الله تعالى، والخوف والاحذر من التغيير والتبديل، قال تعالى: (قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا) (الجن:22).

ويكفي أن أيد الله تعالى نبيه محمدا - صلى الله عليه وسلم - بهذا الكتاب، قال تعالى: (أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (العنكبوت:51).

ولا يضير رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يكذبه قومه، فتلك سنة تاريخية مر بها الرسل السابقون برغم ما معهم من كتب ومعجزات، قال تعالى: (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ) (آل عمران:184).

ومن رحمة الله أن يعطي للمكذبين فسحة، ولا يعجل لهم العذاب، قال تعالى: (فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) (الأنعام:147).

وما على الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلا الصبر والمضاء في التبليغ، قال تعالى: (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ) (الطور:48).

و عليه أن لا يخاف أحدا من المشركين، فالله يعصمه ويحميه، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ) (المائدة:67).

و عليه أن يقول بقوة المؤمن بربه، الواثق بنفسه ورسالته، إن مظاهر الشرك وأهلها لا تستطيع أن تهزني مثقال ذرة، لأنها لا تملك ضرا ولا نفعا، قال تعالى: (قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ) (الأعراف: من الآية195).

وشهادة الله أقوى الشهادات وأعظمها وأهمها وأقومها، ولا يجترئ عاقل على ربه أبداً، ولذلك لما دعا الرسول - صلى الله عليه وسلم - بعض النصارى إلى المباهلة امتنعوا خوفاً من عاقبة ذلك، قال تعالى: (فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ) (آل عمران:61).

وأهل الحق - وفي مقدمتهم الرسل عليهم السلام - لا يجروون على القول على الله بلا علم، فليس كذب على الله ككذب على أحد غيره، قال تعالى: (وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ، لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ، فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ) (الحاقة:44-47).

وأما ما يقع من أهل الضلال من جرأة على الله، وعدم معاملة الله لهم بالعقوبة، فهو لهوانهم على الله، أو لاستدراجهم، أو لأن الله أعد لهم من عذاب الآخرة ما ينوون به، وليست خطيئة وزير عند ملك كخطيئة واحد من رعيته، فكلما ازداد القرب اشتدت المحاسبة، وهذا مشاهد معاين، والأمر بالنسبة إلى الله أعظم، والله المثل الأعلى في الدنيا والآخرة.

و خلاصة الأمر أن شهادة الله عز وجل لنبيه أقوى الشهادات، ويمكن الاعتماد عليها في حوار الآخر، ومن لم يقبل شهادة الله لنبيه - صلى الله عليه وسلم - فلا قبل الله له شهادة، وهو حسبنا ونعم الوكيل، قال تعالى: (لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ) (الحشر:13).

## الخاتمة

وهذا البحث مقسم إلى مقدمة وتمهيد و(22) فقرة، ومذيل بخاتمة

في المقدمة ذكرت سبب كتابة هذا البحث وأنه يأتي ضمن الرد على حملة شرسة تتهم الإسلام بعدم احترام الفكر والرأي لدى الناس.

وفي التمهيد بينت أن الدعوة إلى الله هي مهمة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، والدين الإسلامي الذي ندعو إليه هو دين الأنبياء والمرسلين جميعاً وأن رسالة النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - أن يرد الناس إلى المنهج القويم الذي كان عليه الأنبياء جميعاً، وأن القرآن الكريم كتاب يحترم العقل والمنطق، ويدعو إلى التفكير والحوار مع مختلف البشر ممن لا يؤمنون به، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة في هذا الصدد، مما يدل على حيويته وملامسته لواقع الناس الديني والفكري، فهو كتاب يهتم بالحوار وإقامة الحجة والبرهان، كما يهتم بأداب الحوار والتعامل مع الآخرين برفق، وهو أمر يفنقه معظم المعارضين للقرآن الكريم.

وذكرت أن للدعوة أساليبها ووسائلها في إقناع الآخر، وإلزامه الحجة، وهذا البحث الذي قدمته يتكامل مع بحث محكم سابق نشرناه، وكنا قد استعرضنا فيه الأسس المنهجية للحوار مع الآخر، واليوم نستعرض في هذا البحث الوسائل المنهجية التي استخدمها القرآن في حوار الآخر، وهو بحث هام من أجل أن نتعلم من هذه الوسائل المساعدة في طرائق التفكير والتعبير والحوار حتى نقيم حجة الله على خلقه.

وقد ناقشنا هذه الوسائل مناقشة علمية هادئة من خلال ما يقوله الله عز وجل في كتابه مباشرة للكافرين والمعاندين، أو من خلال ما يعلمه لنبيه - عليه الصلاة والسلام - من أساليب الحوار والحجاج، وكانت المناقشة ضمن (22) فقرة وفق التالي:

- 14- الاحتكام إلى العقل
- 15- الاحتكام إلى النفس
- 16- الاحتكام إلى الفطرة
- 17- الاحتكام إلى البيئية
- 18- الاحتكام إلى الكون ومظاهره
- 19- الاحتكام إلى التاريخ
- 20- الاحتكام إلى المستقبل
- 21- الاحتكام إلى أهل العلم والخبرة
- 22- الاحتكام إلى القيم الفاضلة
- 23- الاحتكام إلى المصلحة العامة
- 24- الاحتكام إلى خوارق العادات (المعجزات)
- 25- الاحتكام إلى المعجزة القرآنية
- 26- استخدام التشبيه

## 14- المذهب الكلامي

15- تسخير طاقات اللغة

16- طلب الدليل والبرهان

17 - دحض شبهة الخصم

18- الاحتكام إلى القيم الجمالية

19- الاحتكام إلى السيرة النبوية

20 - الاحتكام إلى المنهج التجريبي

21 - الوعد والوعيد

22 الاحتكام إلى الله عز وجل

وقد توصلنا في هذا البحث للآتي:

- أ- استخدم القرآن جميع الوسائل المتاحة في الكون والحياة والإنسان ذاته من أجل إثبات قضاياه التي يطرحها.
- ب- استخدم سجل الحياة الإنسانية ماضيها ومستقبلها للغرض السابق أيضا.
- ت- سخر طاقات اللغة التعبيرية والعلوم والمعارف جميعها أيضا لهذا الغرض.
- ث- اعتمد على الفطرة السليمة ولم يأل جهدا في إيقاظها وتنبيهها.
- ج- استخدم أجود أساليب التعبير والحوار لإقامة حجته.
- ح- أشاد بالمعجزات على أنها دلائل إثبات صدق المرسلين، وأعظمها هذا القرآن العظيم.
- خ- احتكم إلى مصالح العباد التي تقتضي الإيمان من أجل سيرورة الحياة وبقائها، وسرد من سير السابقين ما يؤيد هذا.

ونوصي في هذه الخاتمة بما يلي:

- 4- تشجيع الدراسات الحوارية بين الإسلام ومخالفيه أو خصومه.
- 5- استخدام المزيد من الوسائل المتاحة لهذا الغرض كالصحف والأفلام والشبكة الإلكترونية.
- 6- نؤكد على أن الحوار هو في صالح الإسلام أولا، وإن كثيرا من أعدائه سوف يكونون من خيرة أبنائه لو عرفوا الإسلام على حقيقته، وانزاحت عن أعينهم سحب الظلام.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.



البحث الرابع:

أدبيات الجَمال في الكتاب والسنة

بعد غائب في منهاج الدعوة في العصر الحديث

## مقدمة

الإسلام دين الحق والخير والجمال، وهذه ثوابت لا مرأى فيها، تؤيدها الحقائق الكونية، والمعجزة القرآنية، والأخبار التاريخية الثابتة، ويشهد عليها أهل الأرض والسماء ما تعاقب الليل والنهار إلى قيام الساعة.

بيد أن جهود الدعاة والعلماء الأجلة انصبت في معظمها على العنصرين الأوليين، وهما الحق والخير، فقاموا بتجلية حقائق الإسلام وكشف أباطيل خصومه، وتبيان ما يحمله هذا الدين من الخير للبشر، والقيام بمصالحهم العاجلة والأجلة، مما يلزمهم اتباعه لما فيه من فائدة لهم، بينما يكاد عنصر الجمال يكون مغيباً عن واقع الدعوة، وهو أمر ينبغي تداركه في واقع الدعوة، فالجمال ليس فضلة في حياة الإنسان، بل هو شيء أساسي يسعى له في حياته كلها، وربما ضحى بحياته من أجل الجمال!

والدين في اعتقادنا مصدر الجمال الخالد، وتعاليمه كلها تقوم على الجمال، فهي حق وخير وجمال في آن واحد، ابتداء من الإيمان بالله وحده، حيث ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله كلها جميلة، مروراً ببقية أركان الإيمان والإسلام، وانتهاء بالجنة التي وعد بها المتقون في الآخرة فهي مستقر الجمال المطلق الخالد، وبضده الكفر وهو موضع القبح في التصورات والعمل والأقوال، ابتداء من الشرك بالله والتمثل بعبادة وثن أو حيوان أو ملك، ومروراً بسلوك المشرك في حياته وهو سلوك مهين قبيح، وهو مؤد إلى جهنم دار القبح والعورات، والبلايا والآفات أعادنا الله منها.

وسوف نعرض في هذا البحث الموجز إلى تجلية مظاهر الجمال في الإسلام، ومدى اهتمام الدين به، لنسد ثغرة في مجال منهاج الدعوة الإسلامية في العصر الحديث.

## أولاً: تعريف الجمال

الجمال لغة: هو الحسن في الخلق والخلق<sup>1</sup>، وأما الجمال عند الفلاسفة وعلماء الجمال فقد تشعبت الآراء فيه!، وقد أشار إلى ذلك ول ديورانت فقال: (إن في الجمال آراء بقدر ما في العالم من رؤوس، وكل محب للجمال يعتبر نفسه حجة في هذا الموضوع لامرد لرأيه)<sup>2</sup>.

ومن أجود ما قيل في الجمال قول الإمام الغزالي، فقد بسط القول فيه، بعبارة جامعة مانعة، كشف فيها عن خبايا هذه الكلمة وما تحمله من معنى حيث قال: (كل شيء جماله وحسنه في أن يحضر كماله اللائق به، الممكن له، فإذا كان جميع كمالاته الممكنة حاضرة، فهو في غاية الجمال، وإن كان الحاضر بعضها، فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر، فالفرس الحسن هو الذي جمع كل ما يليق بالفرس، من هيئة، وشكل، ولون، وحسن عدو، وتيسر كر وفر عليه، والخط الحسن كل ما جمع ما يليق بالخط من تناسب الحروف، وتوازيها، واستقامة ترتيبها، وحسن انتظامها، ولكل شيء كمال يليق به، وقد يليق بغيره ضده، فحسن كل شيء في كماله الذي يليق به، فلا يحسن

1 - انظر: مفردات الراغب، والقاموس المحيط، مادة (جمال).

2 - قصة الفلسفة، ص (582).

الإنسان بما يحسن به الفرس، ولا يحسن الخط بما يحسن به الصوت، ولا تحسن الأواني بما تحسن به الثياب، وكذلك سائر الأشياء).<sup>1</sup>

### ثانياً: مواضع الجمال

يبين الغزالي أن الجمال موجود في غير المحسوسات كوجوده في المحسوسات، (إذ يقال: هذا خلق حسن، وهذا علم حسن، وهذه سيرة حسنة).<sup>2</sup> وأن الذي يحب عالماً من العلماء، أو إماماً من الأئمة، فإنما يحبه لصورته الباطنة من العلم والتقوى، لا لصورته الظاهرة التي تحولت إلى تراب!<sup>3</sup>

ثم يذكر الغزالي عقب ذلك أن النفوس من طبيعتها أن تحب كل جميل، وهي تختلف في محبتها للأشياء الجميلة، فيقول: (المحسن في نفسه محبوب، وإن كان لا ينتهي قط إحسانه إلى المحب، لأن كل جمال وحسن فهو محبوب، والصورة ظاهرة وباطنة، والحسن والجمال يشملهما، وتدرك الصور الظاهرة بالبصر الظاهر، والصور الباطنة بالبصيرة الباطنة، فمن حرم البصيرة الباطنة، لا يدركها، ولا يلتذ بها، ولا يحبها، ولا يميل إليها، ومن كانت الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة، كان حبه للمعاني الباطنة أكثر من حبه للمعاني الظاهرة، فشتان بين من يحب نقشاً مصوراً على الحائط لجمال صورته الظاهرة، وبين من يحب نبياً من الأنبياء لجمال صورته الباطنة!).<sup>4</sup>

وفي ضوء ما تقدم نستطيع أن نصنف الجمال في ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ويكون في الأمور المادية، من سماء وأرض وأجساد وحيوان وغير ذلك، وقد أشارت إلى ذلك آيات الكتاب العزيز، فالسماء مزينة جميلة تسحر الأبصار، قال تعالى: (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب)<sup>5</sup>، والأرض فيها من الزينة ما يخلب الأبواب، فكل ما عليها زينة لهان قال تعالى: (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملاً)<sup>6</sup>، والإنسان مخلوق في أحسن صورة، (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم)<sup>7</sup>، وتختلف أجساد الناس في حسنها فبعضها أجمل من بعض، قال تعالى في صفة المنافقين الذين امتلكوا جمال المظهر وافتقدوا جمال الجوهر: (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم)<sup>8</sup>، والأنعام فيها جمال للإنسان، قال تعالى: (ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون)<sup>9</sup>.

1 - إحياء علوم الدين، (277/4).

2 - المصدر السابق (277/4).

3 - المصدر السابق، (277/4-278).

4 - المصدر السابق، (278/4).

5 - سورة الصافات، الآية (6).

6 - سورة الكهف، الآية (7).

7 - سورة التين، الآية (4).

8 - سورة المنافقون، الآية (4).

9 - سورة النحل، الآية (6).

القسم الثاني: جمال معنوي، ويكون في المجردات، فالإيمان زينة القلوب، ولذلك تألفه وتتشربه وتمسك به وتدافع عنه، قال تعالى: (ولكن الله حبيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم)<sup>1</sup>، والصبر يكون جميلا في مواطن الشدة والابتلاء، سواء كان سبب البلاء من الأبناء كما هو الحال مع يعقوب عليه السلام الذي افتقد يوسف بسبب تأمر أبنائه فصبر، قال تعالى: (قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل)<sup>2</sup>، أو بسبب سفاهة الأعداء كما هو حال الرسول عليه السلام مع كفار قريش، فكان سلاحه في ذلك الموقف هو الصبر الجميل، قال تعالى: (فصبر صبرا جميلا)<sup>3</sup>، والهجر يكون جميلا أيضا، وهو مقاطعة السفهاء وعدم استقزازهم واعتزالهم برفق، قال تعالى: (واصبر على ما يقولون واهجرهم هجرا جميلا)<sup>4</sup>، والفراق بين الزوجين ينبغي أن يكون فرقا جميلا بلا طرد وحقد وكراهية، قال تعالى: (فتعالين أمتعن وأسرحن سراحا جميلا)<sup>5</sup>، والأمر بالسراح الجميل ليس خاصا بزوجات النبي عليه السلام، بل عام في زوجات المؤمنين أيضا، قال تعالى: (فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا)<sup>6</sup>.

القسم الثالث: جمال متكامل أو مزدوج، أي في الماديات والمعنويات معا، أو في الجسم والروح معا، وهذا الجمال خاص بالأنبياء عليهم السلام ومن سار على مناهجهم، فهم أكمل خلق الله خلقا وخلقا، وربما شاركهم في بعض جوانب هذا اللون من الجمال بعض الحكماء والعلماء ممن لم يتبعوا منهج الأنبياء اتباعا كاملا، وإنما هداهم البحث العلمي والخبرة الطويلة إلى الالتقاء مع منهج الأنبياء في بعض الأمور.

و الأنبياء عليهم السلام يبتغون الجمال بشقيه الحسي والمعنوي، مما يتطابق مع تكوينهم النفسي، روى أنس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (حبيب إلي الطيب والنساء، وجعلت قرّة عين في الصلاة). رواه أحمد والنسائي<sup>7</sup>. فالطيب والنساء من الأمور المحببة المحسوسة، والصلاة من الأمور المحببة المعنوية، وقد جمع النبي عليه السلام بين الطيب والنساء والصلاة في هذا الحديث ليوائم بين كافة ألوان الجمال، فبينما يقف الناس عند جمال الماديات من الطيب والنساء، فإن محمدا المحمود في الدنيا والآخرة يتجاوز هذا الحد ليحدثنا عن الصلاة التي جعلها الله قرّة عينه، وهل ثمة شيء أجمل للعابد من الوقوف بين يدي مولاه رب العالمين!.

### ثالثا: فلسفة الجمال في الإسلام

ترتكز فلسفة الجمال في الإسلام على العناصر التالية:

1- الإتيان، فكل شيء خلقه الله جاء في غاية الإتقان، قال تعالى: (الذي أحسن كل شيء خلقه)<sup>8</sup>، وقال تعالى: (صنع الله الذي أتقن كل شيء)<sup>1</sup>.

1 - سورة الحجرات، الآية (7).

2 - سورة يوسف، الآية (18).

3 - سورة المعارج، الآية (5).

4 - سورة المزمل، الآية (10).

5 - سورة الأحزاب، الآية (28).

6 - سورة الأحزاب، الآية (49).

7 - انظر: مشكاة المصابيح، للتبريزي، بتحقيق الألباني (1448/3). الطبعة الثالثة، المكتب الإسلامي، دمشق، 1405هـ/1985م.

8 - سورة السجدة، الآية (7).

ومن الإتقان: السلامة من العيوب، فالكون الهائل ليس فيه أي خلل أو نقص أو عيب، قال تعالى: (ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت)<sup>2</sup>. ولا يصلح مخلوق إلا كما خلقه الله، فالأفعى مثلاً لا تكون جميلة إلا بتجردها من الأيدي والأرجل، وبجلدها المرقرش، والفيل لا يكون جميلاً إلا بهذه الهيئة التي ركب فيها من جسم ضخم وخرطوم طويل ونحو ذلك... وهكذا وجد كل مخلوق في أحسن صورة تناسب حاله، حتى لو رأيناه بصورة غير الصورة التي خلقه الله بها أدركنا أن ثمة عارض حصل له، أو تشويه كان قد أصابه.

ومن الإتقان خلق الإنسان بأحسن صورة، قال تعالى: (وصوركم فأحسن صوركم)<sup>3</sup>، وقد طلب الشارع الحكيم من عباده أن يتقنوا سلوكهم وأقوالهم لتكون حركتهم منسجمة مع مسار الكون المتقن، قال تعالى: (وقولوا للناس حسناً)<sup>4</sup>، ووعده تعالى أولئك المتقنين المحسنين بالحسنى في الآخرة، فالجزاء من جنس العمل، قال تعالى: (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة)<sup>5</sup>.

2- الإبداع: فالله تعالى هو مبدع الأشياء وموجدها على غير مثال سبق، قال تعالى: (بديع السماوات والأرض)<sup>6</sup>، وقد أوجد خلقه على غاية الإتقان كما سبق، ولا بد لمن أبدع هذا الوجود، من أن يكون جميلاً سبحانه وتعالى، وأن يكون خلقه كله في غاية الهندسة والحسن والجمال.

3- التناسق، وهو قائم في حركة الكون، قال تعالى: (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار)<sup>7</sup>، وقائم في المخلوقات ومنها الإنسان، فلو تأملنا في وجه الإنسان لرأينا قدرة الخالق المبدع الحكيم في توزيع الحواس على شكل جميل متناسق، قال تعالى: (ألم نجعل له عينين، ولساناً وشفهتين، وهديناه النجدين)<sup>8</sup>. وانسجاماً مع التناسق في الخلق طلب الشارع الحكيم من المؤمن أن يكون متناسقاً في مظهره، فلا يمش في نعل واحدة مثلاً، ورد عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يمشي أحدكم في نعلٍ واحدة، ليحفظهما جميعاً أو لينعلهما جميعاً) متفق عليه<sup>9</sup>.

4- الوحدة والانسجام، وذلك لأن الله مصدر الخلق جميعاً، قال تعالى: (هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى)<sup>10</sup>، وما سواه من المخلوقات أو الآلهة المزيفة لم تخلق شيئاً، قال تعالى: (هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه)<sup>11</sup>، ووحدة الخالق توجب الوحدة والانسجام في قوانين الخلق والمخلوقات.

5- التنوع في الجنس الواحد، وهو أثر من آثار الجمال والإبداع في الخلق، فالناس ليسوا نسخة واحدة طبق الأصل، بل هم مختلفون في أشكالهم وأوانهم، قال تعالى: (ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم)<sup>12</sup>، والتعدد ليس مقصوراً على الناس بل يشمل الزرع المتنوع أيضاً، قال تعالى: (وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء

1 - سورة النمل، الآية (88).

2 - سورة الملك، الآية (3).

3 - سورة غافر، الآية (064).

4 - سورة البقرة، الآية (83).

5 - سورة يونس، الآية (26).

6 - سورة البقرة، الآية (117).

7 - سورة يس، الآية (40).

8 - سورة البلد، الآيات (8-10).

9 - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (1259/2).

10 - سور الحشر، الآية (24).

11 - سورة لقمان، الآية (11).

12 - سورة الروم، الآية (22).

واحد)<sup>1</sup>، ويتجاوز التعدد الإنسان والزرع إلى كافة المخلوقات، قال تعالى: (وربك يخلق ما يشاء ويختار)<sup>2</sup>. وهذا التعدد يوفر للمرء فرصة عظيمة لتتبع آثار قدرة الله فيما أودعه من جمال في تلك المخلوقات، ويجعل المرء متطلعا بشكل دائم إلى اكتشاف ذاك الجمال، بعكس ما لو خلق نوعا واحدا من كل مخلوق، فلو تصورنا أن السمك نوع واحد، كم كان ذلك سيحرمنا من التطلع إلى المغامرة والغوص من أجل اكتشاف المزيد من الأسرار عن عالم الأسماك بين البحار والأنهار.

#### رابعاً: اللامسات الجمالية في أركان الإيمان

الجمال في الإسلام يشمل العقيدة والعبادة والسلوك، فهو لا يقتصر على جانب دون آخر، وسنتبع ذلك في كل ركن من أركان الإيمان.

#### الركن الأول: الإيمان بالله

يفتضي الإيمان بالله الاعتقاد بأن الله صاحب الجمال المطلق، روى ابن مسعود، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر). فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا، ونعله حسنا. قال: (إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس). رواه مسلم.<sup>3</sup> وهو جمال تفرد به سبحانه، فلا يشبهه شيء من خلقه، قال تعالى: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)<sup>4</sup>.

وجمال الله يستوجب نفي كل نقص عنه، روي عن أنس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من نبي إلا أنذر أمته الأعور الكذاب، ألا إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور). متفق عليه<sup>5</sup>، فهو سبحانه متصف بأحسن الصفات، ويريد من عباده الصالحين أن يتخلقوا بها، روي عن عامر بن سعيد، عن أبيه، عن النبي صلى الله عليه وسلم (إن الله طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، كريم يحب الكرم، جواد يحب الجود، فنظفوا أنفسكم ولا تشبهوا باليهود) حديث حسن رواه الترمذي<sup>6</sup>.

وأسماء الله الحسنى تفيض طهرا وجمالا وعظمة، وكذلك صفات الله وأفعاله عز وجل، فالله هو صاحب الجمال المحتجب بالجلال، ورؤيته هي النعيم الذي ليس فوقه نعيم في الآخرة، قال تعالى: (وجوه يومئذ ناضرة، إلى ربها ناظرة)<sup>7</sup>، ففضارة الوجوه تزداد بسبب رؤية الله عز وجل، روى صهيب، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا دخل أهل الجنة الجنة، يقول الله تعالى: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجينا من النار؟)

1 - سورة الرعد، الآية (4).

2 - سورة القصص، الآية (68).

3 - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (14513/3).

4 - سورة الشورى، الآية (11).

5 - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (1506/3).

6 - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (1272-1271/2).

7 - سورة القيامة، الآيتان (22-23).

قال: (فيرفع الحجاب، فينظرون إلى وجه الله، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إلى ربهم). ثم تلا: (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة)<sup>1</sup>. رواه مسلم.<sup>2</sup>

وعقب الرؤية ينقلب أهل الجنة إلى أزواجهم، فيقلن: (مرحبا وأهلا، لقد جئت، وإن بك من الجمال أفضل مما فارقتنا عليه، فيقول: إنا جالسنا اليوم الجبار، وبحقنا - أي يلزمننا - أن ننقلب بمثل ما انقلبنا). من حديث رواه الترمذي وابن ماجه.<sup>3</sup>

وجمال الله يستوجب عبادته وحده ومحبته، يقول ابن القيم (والمحبة لها داعيان: الجمال، والجلال، والرب تعالى له الكمال المطلق من ذلك، فإنه جميل يحب الجمال، بل الجمال كله، والإجلال كله منه، فلا يستحق أن يحب لذاته من كل وجه سواه، قال تعالى: "إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله"<sup>4</sup>... ولهذا التوحيد في الحب أرسل الله سبحانه جميع رسله، وأنزل جميع كتبه، وأطبقت عليه دعوة جميع الرسل من أولهم إلى آخرهم، ولأجله خلقت السماوات والأرض، والجنة والنار، فجعل الجنة لأهله، والنار للمشركين فيه)<sup>5</sup>.

### الركن الثاني: الإيمان بالملائكة

الملائكة جند الله، وهي مخلوقات جميلة خلقت من نور، روت عائشة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (خلقت الملائكة من نور). من حديث رواه مسلم.<sup>6</sup> وهي دائمة التسبيح والتمجيد للعلي القدير، فلا تفتن ولا تمل، روى ابن عباس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله خلق إسرائيل، منذ يوم خلقه صافاً قدميه لا يرفع بصره، بينه وبين الرب تبارك وتعالى سبعون نورا، ما منها من نور يدنو منه إلا احترق). رواه الترمذي وصححه.<sup>7</sup>

والملائكة لا تتمثل إلا بالصور الجميلة ولا تأمر إلا بالخير، بعكس الشياطين التي لا تتمثل إلا بالصور القبيحة، ولا تأمر إلا بالشر، وقد جرت عادة الناس أن يشبهوا كل ذي وجه جميل بالملائكة، قال تعالى يذكر حال النسوة لما رأين يوسف عليه السلام: (فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم)<sup>8</sup>.

وقد أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم دحية الكلبي رسولا إلى قيصر<sup>9</sup>، وكان من أجمل الناس، وقد أتى جبريل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بني قريظة على صورته<sup>10</sup>، وهذه لفظة جميلة من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخلفاء من بعده لكي ينتقوا سفراءهم

1 - سورة يونس، الآية (26).

2 - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (1574/3).

3 - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (1570/3).

4 - سورة آل عمران، الآية (31).

5 - الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، تحقيق عصام الدين الصبايبي، ص (234-235) دار الحديث، القاهرة، 1422هـ/2001م.

6 - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (1589/3).

7 - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (1597/3).

8 - سورة يوسف، الآية (31).

9 - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (1148/3، 1598).

10 - انظر: السيرة النبوية، لابن هشام، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، (267/3). دار الفكر، 1409هـ/1989م.

ومبعوثيهم إلى الآخرين من ذوي الصور الحسنة، لأن القلوب أميل إلى الحسن، وأكثر تقبلاً لصاحبه من غيره.

### الركن الثالث: الإيمان بالكتب السماوية

الكتب التي أنزلها الله من السماء هي أحسن الكتب التي عرفتها البشرية، وأحسن تلك الكتب القرآن الكريم الذي أنزله الله تعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: (الله أنزل أحسن الحديث)<sup>1</sup>، والذي أنزل هذا الحديث الحسن أنزل من قبله التوراة والإنجيل، قال تعالى: (نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان)، وهو الذي أنزل الزبور على عبده داود، قال تعالى: (وآتينا داود زبوراً)<sup>2</sup>.

وكتب الله هي أقوم الكتب وأحسنها منهجاً ولغة وقصصاً وهدفاً وتشريعاً وتربيةً ونظام حياة، بيد أن الإعجاز والتحدي لم يقع إلا بالقرآن، وذلك لأن العرب أمة البيان، فجاءت معجزة رسول الله صلى الله عليه وسلم من جنس ما اشتهر به قومه من صنعة البيان، وقد وقف العرب مشدوهين أمام جمال القرآن، فهو كتاب الجمال عندهم، الجمال الذي لم يعرفوه ولم يألفوه، يدل على ذلك قول الوليد بن المغيرة: (والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لعذق، وإن فرعه لجنابة)<sup>3</sup> ومعنى قوله: (وإن أصله لعذق، وإن فرعه لجنابة): استعارة من النخلة التي ثبت أصلها، وقوي وطاب فرعها إذا جنى<sup>4</sup>.

وجمال القرآن يشمل لفظه، ومعناه، ونظمه، وترتيب آياته وسوره، وأمره ونهيته، وتشريعاته، وأخباره وقصصه، وإعجازه، فهو كتاب يفضل جميع ما سواه من الكلام كفضل الله على خلقه<sup>5</sup>

وجمال القرآن يستوجب محبته ومعاشيته (وكان الصحابة إذا اجتمعوا وفيهم أبو موسى يقولون: يا أبا موسى! ذكرنا ربنا، فيقرأ وهم يستمعون. فلمحبي القرآن من الوجد والذوق واللذة والحلاوة والسرور أضعاف ما لمحبي السماع الشيطاني)<sup>6</sup>.

### الركن الرابع: الإيمان بالأنبياء والرسل عليهم السلام

لما كان الخالق جميلاً، وملائكته جميلة، وكتبه جميلة، فلا بد أن يكون أنبيأؤه ورسله على حظ كبير من الجمال، فمن شروط النبوة السلامة من العيوب المنفرة، والآفات والعاهاات، والسلامة من النقص كمال في حد ذاته، وقد تحدثت بعض الأحاديث بالتفصيل عن جمال بعض الأنبياء، فمنهم: موسى عليه السلام، فقد كان جسمه أجمل الأجسام، بيد أن قومه البلهاء ظنوا أن به عاهة لأنه كان يستتره، فاقتضت حكمة الله أن يروه عريانا حتى ينفى تهمة قومه عنه، روى أبو

1 - سورة الزمر، الآية (23).

2 - سورة النساء، الآية (163).

3 - السيرة النبوية، لابن هشام، (12/2).

4 - الروض الأنف للسيبلي، (21/2). تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، (267/3). دار الفكر، 1409هـ/1989م.

5 - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (658/1)، الحديث: (2136).

6 - الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لابن القيم، (مصدر سابق) ص (242).

هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن موسى كان رجلا حيبا ستيرا، لا يرى شيء من جلده استحياء، فأذاه من آذاه من بني إسرائيل، فقالوا ما تستر هذا التستر إلا من عيب بجلده: إما برص أو أدرة، وإن الله أراد أن يبرئه، فخلا يوما وحده ليغتسل، فوضع ثوبه على حجر، ففر الحجر بثوبه، فجمح موسى في إثره، يقول: ثوبي يا حجر! ثوبي يا حجر! حتى انتهى إلى ملأ من بني إسرائيل، فرأوه عريانا أحسن ما خلق الله، وقالوا: والله ما بموسى من بأس، وأخذ ثوبه، وطفق بالحجر ضربا، فوالله إن بالحجر لندبا من أثر ضربه ثلاثا أو أربع أو خمسا). متفق عليه.<sup>1</sup>

وفي حديث آخر يصف النبي عليه السلام أصحاب الرسالات السماوية الثلاث، موسى وعيسى ونفسه، فأما موسى فهو منتصب القد كالسيف، وأما عيسى فهو أحمر كأنه خرج من حمام لوضاءته، وأما هو أعني النبي فهو أشبههم بأبيهم إبراهيم عليه السلام، روى أبو هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليلة أسري بي لقيت موسى، فإذا رجل مضطرب - طويل مستقيم القد - رجل الشعر، كأنه من رجال شنوءة، ولقيت عيسى ربة أحمر، كأنما خرج من ديماس - يعني الحمام - ورأيت إبراهيم وأنا أشبه ولده به). متفق عليه.<sup>2</sup>

وفي قصة المعراج أيضا رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم النبي يوسف عليه السلام في السماء الثالثة، يقول النبي: (إذا هو قد أعطي شطر الحسن). رواه مسلم.<sup>3</sup>

وتحدث النبي عن الخصائص الجميلة التي منحها بعض الأنبياء كالصوت الحسن لداود والذي يشبه عزف المزامير الموسيقية، روى أبو موسى، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: (يا أبا موسى! لقد أعطيت مزارا من مزامير آل داود). متفق عليه.<sup>4</sup>

وتحدث النبي صلى الله عليه وسلم عن جمال بعض أزواج الأنبياء، مثل سارة التي كانت من أحسن الناس كما ورد في الصحيحين.<sup>5</sup> فالطيبات للطيبين والطيبون للطيبات.

وممن عرف بالجمال من زوجات النبي صلى الله عليه وسلم السيدة عائشة، ففي قصة الإفك قالت أم رومان لعائشة: (والله لقلما كانت امرأة جميلة تكون عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا حسدنها). رواه أحمد<sup>6</sup>

وأما جمال محمد فقد كان الغاية في الجمال الإنساني، وحسبك أنه يفوق النيرين: الشمس والقمر، روى أبو هريرة، قال: ما رأيت شيئا أحسن من رسول الله صلى الله عليه وسلم، كأن الشمس تجري في وجهه، وما رأيت أحدا أسرع في مشيه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، كأنما الأرض تطوى له، وأنا لنجهد أنفسنا، وإنه لغير مكترث. رواه الترمذي.<sup>7</sup> وروى جابر بن سمرة، قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في ليلة إضحيان، فجعلت أنظر إلى رسول الله صلى

1 - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (1590/3).

2 - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (1593/3).

3 - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (1628/3).

4 - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (1748/3).

5 - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (1589/3).

6 - مسند الإمام أحمد، (60/6)، دار الفكر العربي.

7 - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (1614/3).

الله عليه وسلم والقمر، وعليه حلة حمراء، فإذا هو أحسن عندي من القمر. رواه الترمذي والدارمي<sup>1</sup>.

وكان النبي عليه السلام أطيب الناس ريحاً، وأحسنهم عرقاً، روى أنس، قال: (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أزهر اللون، كأن عرقه اللؤلؤ، إذا مشى تكفأً، وما مسست دبيباجة ولا حريراً ألين من كف رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا شممت مسكاً ولا عنبرة أطيب من رائحة النبي صلى الله عليه وسلم). متفق عليه<sup>2</sup>.

### الركن الخامس: اليوم الآخر

اليوم الآخر هو يوم الجزاء، والجزاء من جنس العمل، قال تعالى: (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)<sup>3</sup>.

والجزاء وفق سعي الإنسان هو العدل، والعدل شيء جميل بحد ذاته، والجمال هنا معنوي، وستكون نهاية الإنسان إما في الجنة مستقر الجمال الخالد، أو في النار مستقر القبح الخالد أيضاً، وأياً كان الجزاء فهو عدل، وعدالة الله حق، وهي أجمل شيء في ذلك اليوم حيث يرى المؤمن مصير الطغاة والمفسدين في الأرض، الذي عتوا عتواً كبيراً، وأفسدوا وسموا فسادهم صلاحاً، ولم يستطع أحد أن يحاسبهم في الدنيا، يراهم محشورين على صورة الذر يطوهم الناس بأقدامهم لهوانهم على الله، وهل ثمة سرور للنفس أكثر من هذا؟

وفي الآخرة رحمة الله التي سبقت غضبه، تشمل كثير من العصاة الذين استحقوا العذاب، فأعفاهم العزيز الكريم من العقاب، وهل ثمة شيء أجمل من عفو ملك الملوك عن عباده العصاة في ذلك اليوم؟

وفي الآخرة الجنة التي أعدها الله قرة عين لعباده المؤمنين، قال تعالى في صفة الجنة: (لا يسمعون فيها لاغية، فيها عين جارية، فيها سرر مرفوعة، وأكواب موضوعة، ونمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة)، وقال في صفة ولدانها: (ويطوف عليهم ولدان مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً)<sup>4</sup>، وقال في صفة حورها: (وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون)<sup>5</sup>، وقال في صفة أهلها: (يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير)<sup>6</sup>، وأعظم نعيم في الجنة رؤية الحي القيوم، قال تعالى: (وجوه يومئذ ناضرة، إلى ربها ناظرة).

وورد في السنة أحاديث كثيرة حول الجنة وأهلها ونعيمها، روى أبو هريرة، قال: قلت: يا رسول الله! مما خلق الخلق؟ قال: (من الماء). قلنا: الجنة ما بناؤها؟ قال: (لبنة من ذهب ولبنة من فضة، وملاطها المسك الأذفر، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت، وتربتها الزعفران، من يدخلها

1 - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (1613/3-1614).

2 - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (1611/3).

3 - سورة الزلزلة، الآيتان (7-8).

4 - سورة الإنسان، الآية (19).

5 - سورة الواقعة، الآية (23).

6 - سورة الحج، الآية (23).

ينعم ولا يبأس، ويخلد ولا يموت، ولا يبلى ثيابهم، ولا يفنى شبابهم). رواه أحمد والترمذي والدارمي.<sup>1</sup>

وأهل الجنة مجردون من كل المعاييب التي تشوه الوجوه والأبدان والثياب، روى أبو هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أهل الجنة جرد مرد كحلى، لا يفنى شبابهم، ولا تبلى ثيابهم). رواه الترمذي.<sup>2</sup> وفضلات أجسامهم تتحول إلى روائح طيبة بإذن الله تعالى، روى جابر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون، ولا يتفلون، ولا يبولون، ولا يتغوطون، ولا يتمخطون). قالوا: فما بال الطعام؟ قال: (جشاء ورشح كرشح المسك، يلهمون التسبيح والتحميد كما تلهمون النفس). رواه مسلم.<sup>3</sup>

### الركن السادس: الإيمان بالقدر

الإيمان بالقدر خيره وشره يربي في الإنسان شعور الجمال، ويبعد عنه كل الآفات النفسية والخلقية، لأن كل ما أصابه هو من تقدير الله عز وجل، فإن كان خيراً شكر الله عليه وإن كان شراً صبر ابتغاء مرضاة الله، فعوضه الله خيراً منه في الجنة، روى صهيب، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عجبا لأمر المؤمن! إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له). رواه مسلم.<sup>4</sup>

إن المحبوب أفعاله كلها محبوبة لدى محبه، والمحـب الصادق يرى كل شيء من حبيبه جميلاً، قال ابن الدمينه<sup>5</sup>

لئن ساءني أن نلتني بمساءة

لقد سرنى أنى خطررت ببالك

فالإساءة عنده مغفورة طالما أن محبوبته تذكره، وإذا كان هذا هو حال العشاق عبيد الشهوات والأهواء، حيث يتفانون في رضاء المحبوب والتودد إليه مهما أصابهم منه من آفات، فإن المؤمن وهو الأكثر حبا لمولاه جدير بأن يتلقى كل ما أتاه عن مولاه بالرضا، لما له من الأجر الجزيل في الآخرة، وربما في الدنيا أيضاً، فإن قاعدة التعامل بين العباد وربهم المحبة، قال تعالى: (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه)<sup>6</sup>، ورحم الله رابعة العدوية حيث تقول:

فلو قطعنتي في الحب إرباً

لما حن الفؤاد إلى سواكا

1 - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (1566/3).

2 - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (1567/3).

3 - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (1564/3).

4 - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (1458-1457/1).

5 - معاهد التنصيص للعباسي، (159/1). عالم الكتب، بيروت.

6 - سورة المائدة، الآية (54).

### خامسا: اللمسات الجمالية في أركان الإسلام

أركان الإسلام كلها ذات إحياءات جمالية متعددة، فالتوحيد والشهادتان ينبوع الجمال الخالد الذي ينبعث عبر المآذن خمس مرات في اليوم واللييلة في سماء الأرض كلها، حيث يشعر المؤمن بالسمو الروحي والتحرر النفسي من كل قيود الرق والعبودية لغير الله، فهو عبد الله وحده، يشارك الطبيعة الصامتة في العبودية لله القدير، قال تعالى: (يسبح الله ما في السموات وما في الأرض الملك القدوس العزيز الحكيم)<sup>1</sup>.

والإيمان بمحمد ينير للمسلم طريق السعادة في دنياه وآخرته، فهو يتبع نبيا هاديا، ومعلما رائدا، وقائدا راشدا، فيما يتبع غيره من الناس الطغاة أو الدجالين من المشعوذين أو الفاسدين من رجال الأديان المختلفة، وهذا الشعور باتباع محمد كفيل بأن يملأ حس المؤمن بالعظمة والتفوق والجمال، فيشدو قائلا:

يا هذه الدنيا أصيخي واشهدي

إنا بغير محمد لا نفتدي

ويشدو وهو يرى تفوق محمد على الناس جميعا:

محمد بشر وليس كالبشر

بل هو ياقوتة والناس كالحجر

فالانتماء لدين محمد واتباع محمد هو الانتماء للجمال في الفكر والعقيدة والمشاعر والسلوك.

والصلاة قائمة على الجمال أيضا، فهي تبدأ من الوضوء ومعناه يفيد الوضوء، فهو نور للمؤمن، كما أن السجود نور للمؤمن أيضا، قال تعالى: (سيماهم في وجوههم من أثر السجود)<sup>2</sup>. فالصلاة نور من بدايتها إلى نهايتها، والمساجد وما فيها من الترتيب والنظام تبعث الإحساس بالجمال أيضا، وطريقة الصلاة واصطفاف المسلمين لأدائها، وسماعهم للأذان والإقامة قبلها، والتلاوة القرآنية العذبة خلالها، وصوت أمين الذي ينبعث كنشيد واحد من جموع المصلين، كلها أعمال تفيض جمالا روحيا لا ينتهي، وتشد المسلم إلى حب الصلة والقربى من الله العلي الكبير.

والزكاة: طهارة للنفس أيضا من الشح والبخل، وفي هذا سمو نفسي، كما أنها طهارة للمجتمع من رذيلة الفقر وما يستتبعها من جرائم السرقة والعنف، فالمجتمع الذي يؤدي الزكاة لا بد أن يكون مجتمعا محببا جميلا.

والصوم جمال للظاهر والباطن معا، حيث يشعر الناس بالتساوي أمام الله العلي الكبير، فلا يستطيع الغني أن يأكل ويرتع كما يريد، وتتعتق النفس من أسر شهوتي الفرج والبطن عند

1 - سورة الجمعة، الآية (1).

2 - سورة الفتح، الآية (29).

الصيام، فتعانق قيم الجمال الأخرى في الحياة، جمال التوحد مع الآخرين بمشاعر الجوع والظماً في سبيل الله، حتى إنه ليحلو رمضان في عين الصائم ويتمنى لو كان الزمان كله رمضان.

والحج رحلة إلى الجمال الخالد أيضاً، حيث يبدو المؤمنون بلباس أبيض واحد، وكأنهم أسراب من الملائكة، وتبدو الكعبة المعظمة وكأنها عروس يلتف حولها أهلها، وفي عرفات منظر مهيب جميل حتى إن الله ليباهي بالحجيج ملائكته، روت عائشة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ما من يوم أكثر من أن يعتق الله فيه عبداً من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة، فيقول: ما أراد هؤلاء). رواه مسلم.<sup>1</sup>

### سادساً: صور العناية بالجمال

اعتنى الإسلام بالجمال، وكان له منهجه التربوي الخاص في رعاية الجمال في النفس والطبيعة والفكر والمشاعر، ونوجز منهج الإسلام بالآتي:

#### الصورة الأولى: العناية بالجسد

الجسد بيت الروح، فلا بد له أن يكون مسكناً نظيفاً لها، ومن هذا المنطلق أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بتسريح الشعر، فعن عطاء بن يسار، قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في المسجد، فدخل رجل ثائر الرأس واللحية، فأشار إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده، كأنه يأمره بإصلاح شعره ولحيته، ففعل، ثم رجع. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أليس هذا خيراً من أن يأتي أحدكم وهو ثائر الرأس كأنه شيطان). رواه مالك.<sup>2</sup>

وتسريح الشعر هو إكرام لهذا الشعر الذي هو نعمة من الله تعالى، وينبغي على المؤمن أن يتعاهدها، فعن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من كان له شعر فليكرمه). رواه أبو داود.<sup>3</sup>

وحدث على خضاب الشعر، من أجل المحافظة على رونق الشباب، فعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (غيروا الشيب، ولا تشبهوا باليهود). رواه الترمذي.<sup>4</sup>

وحدث النبي صلى الله عليه وسلم على نظافة الجسد، وأمر بالغسل والطيب وبخاصة يوم الجمعة حيث يلتقي المسلم بإخوانه فينبغي أن يكون على أحسن صورة، فعن البراء، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (حقاً على المسلمين أن يغتسلوا يوم الجمعة، وليمس أحدكم من طيب أهله، فإن لم يجد فالماء له طيب). رواه أحمد والترمذي، وقال هذا حديث حسن.<sup>5</sup>

1 - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (796/2).

2 - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (1271/2).

3 - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (1265/2).

4 - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (1266/2).

5 - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (440/1).

ونظافة الفم تستوجب استعمال السواك، وهو ما حث عليه النبي صلى الله عليه وسلم، روي عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بتأخير العشاء، وبالسواك عند كل صلاة). متفق عليه.<sup>1</sup>

وينبغي إزالة الأوساخ والأشعار عن بعض مواضع الجسم، كما ينبغي الختان حتى يكون المرء في أحسن صورة عند اللقاء مع زوجته، فعن عائشة، قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (عشر من الفطرة: قص الشارب، وإعفاء اللحية، والسواك، واستنشاق الماء، وقص الأظفار، وغسل البراجم، ونتف الإبط، وحلق العانة، وانتقاص الماء) يعني الاستنجاة. قال الراوي: ونسيت العاشرة إلا أن تكون المضمضة. رواه مسلم.<sup>2</sup> وتأمل في قوله (غسل البراجم) وهي العقد على ظهر مفاصل الأصابع لتعلم كم كان الرسول حريصاً على دقائق الأشياء، ويريد من المسلم أن لا يهمل شيئاً من نظافة بدنه مهما كان هذا الشيء صغيراً.

وكذلك ينبغي على المرأة أن تزيل ما على جسمها من شعر قبيح، وتتهيأ لاستقبال زوجها على أحسن صورة، فعن جابر، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إذا دخلت ليلاً فلا تدخل على أهلك حتى تستحد المغيبة، وتمتشط الشعثة). متفق عليه.<sup>3</sup>

وينبغي على المرء أن يلبس الثياب الحسنة التي تظهر نعمة الله عليه، فعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده). رواه الترمذي.<sup>4</sup>

### الصورة الثانية: العناية بالأسماء

كان المجتمع الجاهلي مجتمعاً محارباً لا يعرف الاستقرار، له عاداته وظروفه من حرب وكر وفر، وكان من عاداتهم في الجاهلية أن يختاروا الأسماء القبيحة لأولادهم، والحسنة لعبيدهم، فلما سئل أحدهم عن ذلك، قال: إننا نسمي أولادنا لأعدائنا، ونسمي عبيدنا لنا، فهم يؤمنون بأن شؤم الاسم سينقلب على العدو، كما أن حسنه سيكون لهم، وكم من جميل واسمه قبيح؟! ولما جاء الإسلام غير من تصورات الجاهلية، فلا بد من توافق الاسم والمسمى، وحتى لو كان المرء قبيحاً فليختر اسماً جميلاً يخفف من قبح المسمى، وقد كان من منهج النبي صلى الله عليه وسلم تغيير الاسم القبيح، فعن عائشة، قالت: إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يغير الاسم القبيح. رواه الترمذي.<sup>5</sup>

وقد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً من الأسماء القبيحة، قال أبو داود: وغير النبي صلى الله عليه وسلم اسم العاص، وعزيز، وعتلة، وشيطان، والحكم، وعراب، وحباب،

1 - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (121/1).

2 - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (121/1).

3 - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (1144/2).

4 - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (1246/2).

5 - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (1348/2).

وشهاب<sup>1</sup>، كما غير أسماء بعض النساء، فعن ابن عمر، أن بنتا لعمر يقال لها عاصية، فسامها رسول الله صلى الله عليه وسلم جميلة. رواه مسلم.<sup>2</sup>

وتغيير الأسماء القبيحة دليل على عناية الإسلام بالجمال المعنوي كعنايته بالجمال المادي.

### الصورة الثالثة: المرأة

المرأة شريكة الرجل في حياته، يأوي إليها ليجد في قربها الأنس والسكينة والحنان، وقد اعتنى الإسلام بجمال المرأة، فأمرها بأن لاتحلق شعر رأسها لما ورد عن علي، قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تحلق المرأة رأسها. رواه النسائي<sup>3</sup>

كما حث النبي صلى الله عليه وسلم على الزواج من الأبيكار لما فيهن من روح المداعبة والملاعبة، فعن جابر، قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة، فلما قفلنا كنا قريبا من المدينة، قلت: يا رسول الله! إني حديث عهد بعرس. قال: (تزوجت؟). قلت: نعم. قال: (أبكر أم ثيب؟). قلت: بل ثيب. قال: (فهلا بكرا تلاعبها وتلاعبك). متفق عليه.<sup>4</sup> وعن معقل بن يسار، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم). رواه أبو داود والنسائي.<sup>5</sup>

وفضل المرأة ذات الدين، لأن الدين جمال للروح، وأمان للأسرة، على المرأة التي لها حظ من جمال الجسد، بيد أنها قفر من الدين، فعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (تتج المرأة لأربع: لمالها ولحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك). متفق عليه.<sup>6</sup>

ولا يعني تفضيل الجمال المعنوي بالحث على الزواج من ذات الدين جحود الجمال الحسي، فإنه من السنة أن تكون المرأة جميلة، لأنه أغض لبصره، وقد أباح الشارع النظر إلى المخطوبة لهذا الغرض<sup>7</sup>، وقد تزوج الحسن بن علي رضي الله عنهما ابنة الشاعر عمرو بن الأهتم ويقال لها أم حبيب، وكان له ابن يقال له نعيم بن عمرو من أجمل الناس، وفيه تأنيث، وقد الحسن أن تكون في جمال أخيها، فوجدها قبيحة، فطلقها.<sup>8</sup>

وحث المرأة على الخضاب لكي تبدو بأنوثتها الكاملة بعيدا عن التشبه بالرجال، فعن عائشة، أن هند بنت عتبة قالت: يا نبي الله! يا يعني. فقال: (لا أباعك حتى تغيري كفيك، فكأنهما كفا سبع). رواه أبو داود.<sup>9</sup>

1 - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (1348/2).

2 - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (1345/3).

3 - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (1271/2).

4 - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (928/2).

5 - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (929/2).

6 - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (927/2).

7 - انظر: الروض المربع شرح زاد المستنقع مختصر المقنع، للبهوتي، (268/2)، دار الفكر، بيروت، الطبعة السادسة.

8 - انظر: الشعر والشعراء، لابن قتيبة، ص(424-425). دار صادر، بيروت، الطبعة الرابعة، 1412هـ/1991م.

9 - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (1267/2).

ومحبة النساء من الفطرة، والسبيل إلى المرأة هو الزواج الذي فيه حماية للمرأة وصون لحقوقها وشرفها، وهو سنة الأنبياء، قال ابن القيم: (هذا خليل الله إبراهيم كان عنده سارة أجمل نساء العالمين، وأحب هاجر وتسرى بها، وهذا داود عليه السلام كان عنده تسعة وتسعون امرأة، فأحب تلك المرأة وتزوجها فكمل المائة، وهذا سليمان ابنه عليه السلام كان يطوف في الليل على تسعين امرأة، وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أحب الناس إليه، فقال: "عائشة". رضي الله عنها، وقال عن خديجة: "إني رزقت حبها". فمحبة النساء من كمال الإنسان، قال ابن عباس: "خير هذه الأمة أكثرها نساء"<sup>1</sup>.

وقد يتطور الحب عند بعض الناس إلى العشق، ولا سبيل لعلاج العشق إلا بالزواج، قال ابن القيم (وقد شفع النبي صلى الله عليه وسلم لعاشق أن تواصله معشوقته بأن تتزوج به فأبت، وذلك في قصة مغيث وبريرة، لما رآه النبي صلى الله عليه وسلم يمشي خلفها، ودموعه تجري على خديه، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم "لو راجعتيه". فقالت: أتأمرني يا رسول الله؟ فقال: لا. إنما أشفع، فقالت: لا حاجة لي به، فقال لعمه: "يا عباس! ألا تعجب من حب مغيث وبريرة، ومن بغضها له". ولم ينكر عليه حبها، وإنما كانت قد بانته منه... ولم يزل الخلفاء الراشدون والرحماء من الناس يشفعون للعشاق إلى معشوقهم الجائز وصلهن، كما تقدم من فعل أبي بكر وعثمان وكذلك علي رضي الله عنه)<sup>2</sup>.

### الصورة الرابعة: الملابس

امتن الله على عباده بالملابس التي زودهم بها فستر عوراتهم وجملهم بها، قال تعالى: (يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشا ولباس التقوى ذلك خير)<sup>3</sup>، جاء في تفسير الآية عند ابن كثير: (قال ابن عباس: الريش: اللباس والعيش والنعيم، وقال ابن أسلم: الرياش: الجمال... وقوله تعالى: {ولباس التقوى ذلك خير}: الإيمان، وقال ابن عباس: العمل الصالح، وعنه هو سمت الحسن في الوجه)<sup>4</sup>. فلا بد من جمال الظاهر والباطن معا، ولا يتحقق ذلك إلا بالتقوى مع الثياب الحسنة.

وقد أمر الله تعالى بالزينة عند المساجد، قال تعالى: (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد)<sup>5</sup>، والزينة هي اللباس، وأفضله الأبيض، وفي الحديث: (البسوا من ثيابكم البيضاء، فإنها من خير ثيابكم، وكفونوا فيها موتاكم، وإن خير أحوالكم الإثم، فإنه يجلو البصر وينبت الشعر). رواه أحمد عن ابن عباس مرفوعاً<sup>6</sup>

<sup>1</sup> - الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، (مصدر سابق) (244-245).

<sup>2</sup> - نفسه.

<sup>3</sup> - سورة الأعراف، الآية (26).

<sup>4</sup> مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني، (12/2)، دار القرآن الكريم، بيروت، الطبعة السابعة، 1402هـ/1981م.

<sup>5</sup> - سورة الأعراف، الآية (31).

<sup>6</sup> مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني، (مصدر سابق) (15/2).

وبين الله تعالى أن الزينة من لوازم الجماعة المؤمنة في الدنيا، وهي لهم وحدهم في الآخرة، قال تعالى: (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق)<sup>1</sup>، قال ابن عباس: (كانت قريش يطوفون بالبيت وهم عراة، يصفرون ويصفقون، فأنزل الله (قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده) فأمروا بالثياب)<sup>2</sup>.

وقد أحل الله الزينة من غير سرف ولا خيلاء، (قال ابن عباس: أحل الله الأكل والشرب، ما لم يكن سرفاً أو مخيلة، وفي الحديث: كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا من غير مخيلة ولا سرف، فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده)<sup>3</sup>.

وكما ينبغي على المرأة أن تتزين لزوجها، فكذلك يجب على الرجل أن يفعل ذلك، قال ابن عباس: (إني لأحب أن أتزين لزوجتي كما تتزين لي).

### الصورة الخامسة: الصوت الجميل

الصوت الجميل نعمة من الله، وينبغي استخدامه في طاعة الله من تلاوة حسنة أو أذان، أو نشيد مباح ونحو ذلك، فعن البراء بن عازب، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (زينوا القرآن بأصواتكم). رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والدارمي<sup>4</sup>. وقد اختار الرسول صلى الله عليه وسلم بلالا للأذان لما له من صوت ندي، ففي حديث عبد الله بن زيد، قال له الرسول صلى الله عليه وسلم: (... فقم مع بلال، فألق عليه ما رأيت فليؤذن به، فإنه أندى صوتاً منك) رواه أبو داود والدارمي وابن ماجه والترمذي<sup>5</sup>.

وإذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يرغب بتحسين الصوت خلال التلاوة، ويختار للأذان من هو أندى صوتاً، فهو بالمقابل ينفر من الأصوات القبيحة، فعن جابر، قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا سمعتم نباح الكلب، ونهيق الحمير من الليل، فتعودوا بالله من الشيطان الرجيم...). رواه البغوي في شرح السنة<sup>6</sup>، والاشمئزاز من الأصوات القبيحة منسجم مع منهج القرآن الكريم، قال تعالى: (واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير)<sup>7</sup>. ولاشك أن الترغيب بالصوت الحسن، والتنفير من القبيح هو من أسس التربية الجمالية القويمة للنفس المؤمنة.

<sup>1</sup> - سورة الأعراف، الآية (32).

<sup>2</sup> - مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني، (مصدر سابق) (16/2).

<sup>3</sup> رواه أحمد والنسائي وابن ماجه، مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني، (مصدر سابق) (15/2).

<sup>4</sup> - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (674/1).

<sup>5</sup> - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (206/1).

<sup>6</sup> - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (1239/2).

<sup>7</sup> - سورة لقمان، الآية (19).

### الصورة السادسة: الكون والطبيعة

اهتم الإسلام بتوجيه الإنسان نحو النظر في الكون والطبيعة، قال تعالى: (قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون)<sup>1</sup> وحثه على النظر في الحيوان والبيئة التي من حوله بما فيها من سماء وجبال ووهاد، قال تعالى: (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت)<sup>2</sup> وأمره بالنظر إلى الثمار من حوله، قال تعالى: (انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه)<sup>3</sup>، وعلى النظر في نفسه، قال تعالى: (وفي أنفسكم أفلا تبصرون)<sup>4</sup>.

ومن أجل تربية المسلم على النفع العام وتنمية أحاسيس الجمال فيه فقد حث الرسول على زيادة الرقعة الخضراء على وجه الأرض، فعن أنس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما من مسلم يغرس غرساً، أو يزرع زرعاً، فيأكل منه إنسان أو طير أو بهيمة إلا كانت له صدقة). متفق عليه.<sup>5</sup>

وكافأ الشارع المسلم بأن جعل الأرض التي يحييها ملكاً له، فعن سعيد بن زيد، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من أحيا أرضاً ميتة فهي له). رواه أحمد والترمذي وأبو داود.<sup>6</sup> وتمليك الأرض لمن يحييها دعوة لعمران الأرض واستثمارها مما يحول البلد الميت إلى بلد حي مزدهر، وفي هذا جمال للطبيعة ونفع للإنسان.

كما حض النبي صلى الله عليه وسلم على نظافة الطرقات، في وقت لم تكن فيه البلديات المسؤولة عن نظافة الطرق موجودة، فعن أبي برزة، قال: قلت يا نبي الله! علمني شيئاً أنتفع به. قال: (اعزل الأذى عن طريق المسلمين). رواه مسلم.<sup>7</sup>

ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن كل ما يؤدي مشاعر الناس ويفسد جمال الطبيعة، فعن أبي سعيد، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اتقوا الملاعين الثلاثة: البراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظل). رواه أبو داود وابن ماجه.<sup>8</sup>

وقد أثارت لفتة الإسلام إلى مناظر الطبيعة وما فيها من جمال أحاسيس الشعراء، فانفعلوا بجمال الطبيعة، واعتبروا كل شيء جميل في الدنيا يقود إلى معرفة الله، يقول أبو العتاهية:<sup>9</sup>

فيا عجباً كيف يعصى الإي

له أم كيف يجحده الجاحدُ

ولله في كل تحريكٍ

<sup>1</sup> - سورة يونس، الآية (101).

<sup>2</sup> - سورة الغاشية، الآيات (17-20).

<sup>3</sup> - سورة الأنعام، الآية (99).

<sup>4</sup> - سورة الذاريات، الآية (21).

<sup>5</sup> - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (595/1).

<sup>6</sup> - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (889/2).

<sup>7</sup> - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (595/1).

<sup>8</sup> - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (115/1).

<sup>9</sup> - مختارات البارودي، (462/4). مشروع المكتبة الجامعة، مكة المكرمة.

وفي كل تسكينة شاهدُ

وفي كل شيء له آيةٌ

تدل على أنه واحدُ

ويقول أبو تمام في وصف الربيع مشيدا بقدرة الله عز وجل:<sup>1</sup>

دنيا معاش للورى حتى إذا

حلَّ الربيعُ فإنما هي منظرُ

أضحت تصوغ ظهورها لبطونها

نورا تكاد له القلوب تنورُ

من كل زاهرة ترقق بالندى

فكأنما عين عليه تحدرُ

تبدو ويحجبها الجميم<sup>2</sup> كأنها

عذراء تبدو تارة وتخفرُ

صنع الذي لولا بدائع لطفه

ما عاد أصفر بعد إذ هو أخضرُ

وفي هذا الصدد يقول ابن الرومي أيضا مشيدا بقدرة الله الذي أحيا الطبيعة بالمطر:<sup>3</sup>

أصبحت الدنيا تروق من نظر

بمنظر فيه جلاء للبصر

واهاً لها مصطنعاً لقد شكر

أثنت على الله بآلاء المطر

والأرض في روض كأفواه الحبر

تبرجت بعد حياء وخفر

<sup>1</sup> - ديوان المعاني، للعسكري، (19/2). عالم الكتب.

<sup>2</sup> - الجميم: متكاثف النبات.

<sup>3</sup> - ديوان المعاني، للعسكري، (18-17/2). عالم الكتب.

## تبرج الأنثى تصدت للذكر

وليس ما في الدنيا من جمال في تصور شعراء المسلمين إلا مشوق لما في الآخرة، وذلك هو الهدف الأسمى من وراء إدراك الجمال! وهو ما أشار إليه البحثري عقب وصفه لقصرين من قصور المتوكل الفخمة الرائعة، حيث قال:<sup>1</sup>

**شَوَّقْنَا إِلَى الْجَنَانِ فَرَدْنَا**

### في اجتناب الذنوب والآثام

#### الصورة السابعة: عالم الحيوان

من عظمة هذا الدين نهيه عن تشويه الحيوان وإيذائه لأي سبب كان، فعن جابر، أن النبي صلى الله عليه وسلم مر عليه حمار وقد وسم في وجهه، قال: (لعن الله الذي وسمه). رواه مسلم.<sup>2</sup> كما أنه اشترط في الأضحية أن تكون سالمة من العيوب، غير مقطوعة الأطراف أو الأذن.. هكذا يريد الإسلام المحافظة على الحياة الفطرية وعدم تشويهها، أو تشويه الحيوان الذي يعيش فيها، من أجل الحفاظ على الجمال الرائع للطبيعة، وألا يقوم الإنسان بتلويثها وهي مسخرة له، وإنما يقوم بالمحافظة عليها واستثمارها وتنميتها لفائدته وفائدة المخلوقات التي تعيش معه من نبات أو حيوان معا.

إن كل شيء موجود بالطبيعة موجود بأحسن صورة تناسب حاله، والجمال يكون بعمل الفنان، بمقدار محاكاته المتقنة لما في الطبيعة، يقول أرسطو: (فالكانئات التي تقتحمها العين حينما تراها في الطبيعة، تلذ لها مشاهدتها مصورة، إذا أحكم تصويرها، مثل صور الحيوانات الخسيسة والجيف!).<sup>3</sup>

#### الصورة الثامنة: الفكر والبيان

امتن الله على عباده بأن علمهم البيان، قال تعالى: (الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان)<sup>4</sup> ولكن قلّ من يلتفت إلى جمال الفكر والأدب والبيان، لأنه جمال مجرد، لا يدركه إلا من صقل نفسه، وهذب مشاعره، وسما ذوقه.. فقد غرق الناس بالجمال المحسوس، مع أن في المعقول ما هو ألد وأنفع، وإنما يحتاج إلى البصيرة الثاقبة التي تدركه، ومن ذلك جمال البيان، فهو جمال يشبه السحر في تأثيره بالنفوس، فعن ابن عمر، قال: قدم رجلان من المشرق فخلبا،

<sup>1</sup> - م (54/4). ديوانه (2002/3).

<sup>2</sup> - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (1193/2).

<sup>3</sup> - فن الشعر، تحقيق د. عبد الرحمن بدوي، ص (12).

<sup>4</sup> - سورة الرحمن، الآيات (1-4).

فعجب الناس لبيانهما، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن من البيان لسحرا). رواه البخاري.<sup>1</sup>

وقد كان المسلمون الأوائل حريصين على التفوق بالأدب من خطابة وشعر ونحو ذلك، وكان هذا التفوق سببا لإسلام بعض القبائل، فحين قدم وفد تميم على المدينة قالوا: يا محمد جئناك نفاخرك، فأذن لشاعرنا وخطيبنا. فأذن لهم، وقام خطيبهم عطار بن حاجب فتكلم، فانتدب له النبي صلى الله عليه وسلم ثابت الشماس، وتكلم شاعرهم الزبرقان بن بدر، فانتدب له النبي صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت، فلما فرغ حسان، قال الأقرع بن حابس رئيس الوفد: (وأبي، إن هذا الرجل لمؤتى له، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ولأصواتهم أحلى من أصواتنا. فلما فرغ القوم أسلموا، وجوزهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأحسن جوانزهم).<sup>2</sup>

وحري بالمسلمين اليوم إتقان صناعتهم الإعلامية بما يضمن لهم التفوق واستجلاب المخاطبين نحو دينهم بالكلمة الطيبة والتعبير الجميل.

### الصورة التاسعة: الآداب العامة

إن مراعاة الآداب العامة، فيه حس جمالي، ووعي حضاري، وتهذيب للسلوك الإنساني، فكل الأمور المستفزة التي تنفر منها النفوس حت الدين على تجنبها، من ذلك عدم إيذاء الآخرين بالعطاس المرتفع، عن أبي هريرة، أن النبي كان إذا عطس غطى وجهه بيده، أو ثوبه، وغض بها صوته. رواه أبو داود والترمذي.<sup>3</sup> ومنه أيضا عدم القهقهة في الضحك، ووضع اليد على الفم عند التثاؤب، والأكل مما يلي الإنسان، وغير ذلك من آداب المناسبات والاجتماع الإنساني، وهي آداب نبه إليها النبي عليه السلام، وأشاد بها أهل العلم والأدب، لأنها هي الجمال الأسمى للإنسان، يقول الشاعر:

ليس الجمالُ بأثواب تزينا  
إن الجمالَ جمال العلم والأدب

ولا شك أن ترك المستقبحات من العادات والتقاليد، هو قاعدة أساسية لبناء الإنسان المتحضر، صاحب الإحساس الجمالي، فلا بد من التخلية من المفاصد قبل التحلية بالكمالات في التربية القويمة للفرد والأمة.

### الصورة العاشرة: الجوانب الروحية

جمال الروح هو غاية الجمال، وهو المقصود النهائي لعملية الجمال، فما الفائدة من جسم جميل بلا قلب حساس مرهف، أو روح محلقة؟ يروى أن فيلسوفا نظر إلى رجل حسن الصورة قبيح المخبر فقال: بيت حسن فيه ساكن نذل. فما الذي يعني الإنسان مثلا أن يسكن بجوار قصر منيف مثلا وصاحبه يزج جيرانه، إن الأساس في التعامل مع الآخرين هي القيم الإنسانية التي

<sup>1</sup> - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (1350/2).

<sup>2</sup> - السيرة النبوية، لابن هشام، (مصدر سابق) (206/4).

<sup>3</sup> - انظر: مشكاة المصابيح، (مصدر سابق)، (1340/3).

يحملونها وليست صور الأجساد، إذ ربما كانت صور الأجساد الجميلة التي تجرد أصحابها من جمال الروح خادعة مضللة للآخرين، ومطية لأصحابها في الوصول للمنكرات والجرائم، يقول النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الصدد: (خير ما أعطي الرجل المؤمن خلق حسن، وشر ما أعطي الرجل قلب سوء في صورة حسنة). رواه ابن أبي شيبة<sup>1</sup>

---

<sup>1</sup> - الجامع الصغير، للسيوطي، (489/3). دار الفكر.

ورسالة الإسلام في عموم تشريعاتها وأوامرها ونهياتها، وقصصها وأخبارها، إنما تهدف إلى تزكية النفوس، وتطهير القلوب، وتنقية الضمائر، وحرص الصفوف، ووحدة المجتمعات، وتقوية الأواصر بين الناس، وإشاعة الحب والسلام بين الأمم والشعوب، فهي رسالة تقوم على إزالة الشر بالتّي هي أحسن، وزرع الخير مكانه، قال تعالى: (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين).<sup>1</sup>

### الصورة الحادية عشرة: الحث على الجمال والدعاء به للمسلمين وغيرهم

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مدركا لأهمية الجمال في عرض الدعوة، فحث أصحابه على أن يكونوا في أحسن صورة عند اجتماعهم بالآخرين، وهذا يدل على أن الإسلام دين مدني يهتم بقواعد الحضارة وأصول التعامل القويم بين الناس، وهو قد وضع الأسس للنظافة والزينة والجمال في الثوب والبدن والمكان والدابة التي يستخدمها الإنسان، وهو أمر لم تعهده العرب من قبل، وقد اعتبر الأخذ بأسباب الجمال قربى إلى الله عز وجل، فعن أبي الدرداء، قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لنا: (إنكم قادمون على إخوانكم، فأصلحوا رجالكم ولباسكم حتى تكونوا في الناس كأنكم شامة، فإن الله عز وجل لا يحب الفحش ولا المتفحش). رواه أحمد وأبو داود.<sup>2</sup>

وكان من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه يدعو لأصحابه بالجمال، روى أبو زيد الأنصاري، قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللهم جملة وأدم جماله). قال الراوي: فلقد بلغ بضعا ومائة سنة، وما في رأسه ولحيته بياض إلا نبذ يسير، ولقد كان منبسط الوجه، ولم ينقبض وجهه حتى مات. رواه أحمد.<sup>3</sup>

ويبدو أن سبب الدعاء لأبي زيد هذا لما يتمتع به من حس حضاري مرهف وأدب جم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففي رواية عن أخرى عن أبي زيد قال: استسقى رسول الله صلى الله عليه وسلم ماء فأتيته بقدر فيه ماء، فكان فيه شعرة، فأخذتها، فقال: (اللهم جملة). قال الراوي: فرأيت ابن أربع وتسعين سنة، وليس في لحيته شعرة بيضاء. رواه أحمد.<sup>4</sup>

ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتصر بالدعاء لأصحابه، بل للمواطنين الذين يعيشون معه من غير المسلمين في دولة المدينة، فعن أنس، قال: استسقى النبي صلى الله عليه وسلم فسقاه يهودي، فقال له: النبي صلى الله عليه وسلم: (جملك الله). فما رأى الشيب حتى مات. رواه ابن السني.<sup>5</sup> وفي دعاء النبي لليهودي أدب جم، فلم يدع له بالهداية، لأن هذا يفيد أنه على ضلال، وفي هذا جرح لأحاسيس الآخرين ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمنأى عنه، فصاحب الباطل يظن نفسه على حق، ومواجهته بشكل صريح قد ينفره ويبعده، وإنما دعا له بالجمال من

1 - سورة آل عمران، الآية (164).

2 - مسند الإمام أحمد، (180/4)، دار الفكر العربي.

3 - مسند الإمام أحمد، (77/5)، دار الفكر العربي.

4 - مسند الإمام أحمد، (340/5)، دار الفكر العربي.

5 - الأذكار للنووي، ص (429)، مكتبة الغزالي، دمشق، الطبعة الثانية، 1405هـ/1985م.

أجل أن يؤنسه ويكافئه، وإنها لدعوة جميلة بحد ذاتها، فهل يكون المرء جميلا كل الجمال إلا إذا تابع رسول الله صلى الله عليه وسلم؟.

### الخاتمة:

تناولنا في هذا البحث تعريف الجمال، ومواضع الجمال وفلسفة الجمال في الإسلام واللمسات الجمالية في أركان الإيمان، واللمسات الجمالية في أركان الإسلام، وصور العناية بالجمال في الكون والإنسان والحياة والمخلوقات جميعا، وقد توصلنا من خلال هذا البحث إلى الآتي:

- 1- الإسلام دين الجمال كما أنه دين الحق والخير للناس جميعا.
- 2- الجمال في الإسلام يشمل أمور الدين والدنيا والآخرة فهو جامع لأمر العادات والعبادات والمغيبات والعقائد جميعا.
- 3- الجمال في الإسلام أكثر عمقا وأبعد غورا منه في الفلسفات المادية التي تحصر نفسها بالمحسوس وتبتعد عن المجردات والغيبيات، وعلينا تقديمه للناس بصورة محببة تجعلهم يسارعون إليه، لأنه دين الذوق والحضارة والجمال.
- 4- القرآن مصدر الجمال للعقل والبصيرة كما أن الكون مصدر الجمال للعين والنفس أيضا.
- 5- الجمال ينبغي صيانته وحفظه وتعاهده، وبخاصة جمال المرأة، وأما التبذل والفجور فهو كفران بنعمة الجمال.
- 6- على المسلمين مراعاة الأبعاد الجمالية في حياتهم، فيختارون للأذان مثلا أطيب الأصوات، وللوفود والتبشير بالدعوة أكمل الرجال خُلُقًا وخَلْقًا، وأن يهتموا بالفنون الراقية التي تصقل النفس وتهذب الوجدان، وأن تكون بلادهم ومدنهم نظيفة مزينة جميلة وموضع احترام الناس جميعا، كما هو الحال في مدينة دبي التي تعد عروس المدائن العالمية ولؤلؤة الشرق بلا منازع.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

\* \* \*

البحث الخامس:

الأنبياء والرسل عليهم السلام ضحايا الظلم والعدوان!! (دراسة قرآنية)

## مقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على جميع الأنبياء والمرسلين، وعلى من اتبعهم بحق إلى يوم الدين.

وبعد: فإن علم التاريخ ودراسة سير الأنبياء والرسل عليهم السلام من أهم العلوم التي ينبغي العناية بها، واستخلاص تجارب البشرية من خلالها، لنتمكن من استشراق المستقبل وصناعته بعد الاستفادة من تجارب الماضي، والخبرات البشرية السالفة على وجه الأرض.

وتاريخ البشر برمته لا يعدو أن يكون إلا صراعا بين الحق والباطل والخير والشر إلى يوم القيامة، ولذلك يمكن استخلاص النتائج الهامة منه في صنع مستقبل الإنسان، وتفسير الأحداث التي يعيشها، والصراعات التي يمر بها.. فعندما أراد الله أن يخلق الإنسان، تعجبت الملائكة من ذلك، فهي لم تتصور الأرض ستكون بعد خلق الإنسان إلا بقعة من دماء يفسد فيها الأشرار، بيد أن الله تعالى أبعد عنها هذا التصور، حين بين أن هنالك في علمه شيئا آخر غير هذا الشر الذي توجست منه الملائكة، فهنالك بشر سيصارعون هذا الشر، وسيحاولون الإصلاح، وسيوجهون سفينة البشرية نحو مرفأ الأمان، والمتمثل بالفطرة المستجيبة لنداء الخالق الكبير، هذا ما تصوره الآية التالية في حوار جميل: (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون)<sup>1</sup>.

والأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام في مقدمة الرجال العظماء في هذا العالم، فهؤلاء جندهم الله تعالى من بين عباده ليصلحوا مسار الحياة، ويوجهوا البشرية نحو الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، وإنها لمهمة شاقة تحتاج إلى مزيد من الجلد والصبر والتضحيات، وقد بذل الأنبياء والرسل عليهم السلام أموالهم وأرواحهم في سبيل الدعوة إلى الله، وتعرضوا لمختلف ضروب المحن والأذى، وتركوا بلادهم مهاجرين إلى الله، وقاسوا ما قاسوا من أجل تحقيق منهج الله وميزان العدالة ونصرة الحق على سطح الأرض، وهذا بحث يحكي قصة الصراع بين الأنبياء عليهم السلام وأقوامهم، وما لاقوه من العنت والمشقة، والعدوان والأذى، وقد كتبت من خلال معاشتي للقرآن الكريم في أحد مواسم شهر رمضان المعظم، وأرجو من الله القبول والتوفيق، وسوف نتناول في المقدمة ثمة عناصر تتعلق بالبحث وهذا أولها:

### أولاً: قصة الصراع بين الحق والباطل:

خلق الله سبحانه الخلق لعبادته، قال تعالى: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)<sup>2</sup>، وقد كرم الإنسان على ما سواه من المخلوقات، فأمر الملائكة بالسجود له، فسجدوا باستثناء إبليس الذي كان يعيش معهم بيد أنه من الجن، وكان سبب رفضه للسجود حسده لأدم عليه السلام،

1 - الآية (30) من سورة البقرة.

2 - الآية (56) من سورة الذاريات.

وادعاؤه بأنه خير من آدم، قال تعالى: (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين)<sup>1</sup>، وقد ازداد إبليس حقدا على آدم فسول له ولزوجه الأكل من الشجرة التي نهاه الله عنها، وكانت النتيجة خروج الجميع من الجنة والهبوط إلى الأرض، وقد حذرنا الله من إبليس وغوايته، قال تعالى: (يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة)<sup>2</sup>.

والعاقل من عبد الله وحده، ولم يتبع ما يأمره به الشيطان، أو ينطلق وراء هواه ليعبده، قال تعالى: (أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا)<sup>3</sup>.

### ثانيا: احترام العقل الإنساني

نصب الله سبحانه في السماء والأرض والنفس الإنسانية آيات كثيرة تدل على ربوبيته ووحدانيته، وهذه الآيات كافية لترشد من يتأملها إلى الصراط المستقيم، ولم يشأ - سبحانه - أن يقهر الناس على اتباع دينه، وذلك احتراما للعقل الإنساني، وللقرار الفردي لكل إنسان، (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي)<sup>4</sup>، وقد وضع الله الشواهد والبيانات الدالة على الحق، بيد أنه لم يلزم البشر بحتمية الهداية والاتباع لنهجه القويم، قال تعالى على لسان نوح عليه السلام: (قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون)<sup>5</sup>.

وينبه الله عز وجل رسوله الكريم إلى أن وظيفته تذكير الناس وليس إلزامهم بالهدى، قال تعالى: (ولو شاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين)<sup>6</sup>.

### ثالثا: الناس فريقان أو حزبان

وقد انقسم الناس أمام الدين الحق ودعوة الأنبياء عليهم السلام إلى فريقين أو حزبين:

الأول: هم أهل الإيمان والصراط المستقيم والفرقة الناجية، وسماهم ربهم حزب الله، وهو الحزب الذي يمثل بأوامر الله ونواهيه، ويتميز بمنهج واضح، وعقيدة ثابتة، ويشمل أتباعه الأنبياء والمرسلين عليهم السلام وأتباعهم من الصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا، وهؤلاء قال الله فيهم: (الآ إن حزب الله هم المفلحون)<sup>7</sup>، وهذا الحزب دينه الإسلام، قال تعالى: (إن الدين عند الله الإسلام)<sup>8</sup>، وقال تعالى: (ومن يبتغ غير الإسلام ديننا فلن يقبل منه وهو في

1 - الآية (34) من سورة البقرة.

2 - الآية (27) من سورة الأعراف.

3 - الآية (43) من سورة الفرقان.

4 - الآية (256) من سورة البقرة.

5 - الآية (28) من سورة هود.

6 - الآية (99) من سورة يونس.

7 - الآية (22) من سورة المجادلة.

8 - الآية (19) من سورة آل عمران.

الآخرة من الخاسرين)<sup>1</sup>، والإيمان في هذا الحزب واجب بجميع الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، قال تعالى: (والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا يفرق بين أحد من رسله)<sup>2</sup>، ومحمد عليه السلام هو خاتمهم ووريثهم كما قال تعالى: ( ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين)<sup>3</sup>، والكفر بأحد الأنبياء عليهم السلام هو كفر بهم جميعاً، قال تعالى: (إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً، أولئك هم الكافرون حقا وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً)<sup>4</sup>.

والثاني: حزب الشيطان، ويشمل كل جماعة أو فرقة أو فرد لا يتبع منهج الله، قال تعالى: (ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون)<sup>5</sup>، وهذا الحزب أتباعه فرق كثيرة من أهل الباطل، كالمشركين، والمنافقين، قال تعالى: (إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً)<sup>6</sup> ويدخل فيه الكافرون من أهل الكتاب ممن لا يؤمن بالنبي محمد عليه السلام، وذلك لأن الكفر بالنبي الخاتم الذي بشرت به الأنبياء عليهم السلام هو كفر بهم جميعاً، قال تعالى: (إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية)<sup>7</sup> و يدخل فيه أيضاً الملاحدة ممن لا يؤمنون بدين، وغير ذلك من الملل والنحل.

#### رابعاً: عقلية طاغية وتفكير عقيم

وقد وقف حزب الشيطان موقفاً سلبيًا من الأنبياء والرسل عليهم السلام وأتباعهم، ففسروا النبوة بأنها ضرب من السحر أو الجنون، قال تعالى: (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون، أتواصوا به بل هم قوم طاغون)<sup>8</sup>، ولم ينتبهوا للآيات الدالة على الدين والتوحيد، قال تعالى: (وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها)<sup>9</sup>، وعطلوا حواسهم التي وهبهم الله إياها، فلم يروا الحق ولم يسمعه ولم يفقهوه، قال تعالى: (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون)<sup>10</sup>، وقد عاش هؤلاء على الأرض يمارسون المأكل والمشرب والجنس كما تعيش البهائم التي لم تزود بحواس التأمل والتفكير، قال تعالى: (إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون)<sup>11</sup>

1 - الآية (85) من سورة آل عمران.

2 - الآية (285) من سورة البقرة.

3 - الآية (40) من سورة الأحزاب.

4 - الأيتان (150-151) من سورة النساء.

5 - الآية (19) من سورة المجادلة.

6 - الآية (140) من سورة النساء.

7 - الآية (6) من سورة البينة.

8 - سورة الذاريات، الأيتان (52-53).

9 - الآية (146) من سورة الأعراف.

10 - الآية (179) من سورة الأعراف.

11 - الآية (55) من سورة الأنفال.

### خامسا: رفض مطلق للحق

ورغم بزوغ شمس الحق من مكة، فإن كفار قريش رفضوا الإيمان به، وقالوا بلغة لا تخلو من التحدي: (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم)<sup>1</sup>، وقد كان السبب في الرفض هو الحسد والهوى، قال تعالى: (وقالوا لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القرينتين عظيم)<sup>2</sup>، وكذلك وقف كثير من أهل الكتاب الموقف ذاته، وليس ثمة سبب لذلك إلا الحسد الذي كان أول من ابتلي به إبليس ثم شاع بين الناس فيما بعد، قال تعالى: (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير)<sup>3</sup>

### سادسا: إدانة ظالمة للإيمان والمؤمنين

وهؤلاء الذين رفضوا الإيمان، راحوا ينظرون للإيمان وكأنه تهمة أو جريمة، لأن الإيمان يحزر صاحبه من سلطة الطواغيت كلها، وفي هذا تهديد لمصالحهم ونفوذهم الاجتماعي، ولو كان الإيمان بالله الواحد القهار جريمة - كما يزعمون - فالمسئول عنها صاحبها وليس المشركون، قال تعالى: (قل لا تسئلون عما أجرمنا ولا نسئل عما تعملون)<sup>4</sup>، وربما تولدت في نفوسهم مشاعر النقمة على المؤمنين دونما سبب، قال تعالى: (قل يا أهل الكتاب هل تنقمون منا إلا أن آمننا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل من قبل وإن أكثركم فاسقون)<sup>5</sup>، وأبرز مشاعر العداة تلك التي تفيض بها قلوب اليهود والمشركين، قال تعالى: (لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا)<sup>6</sup>.

### سابعا: رفض التعايش السلمي

تدفع مشاعر العدوان حزب الشيطان إلى رفض التعايش السلمي مع أهل الإيمان في مجتمع واحد، فلا يقبلون بالتعايش في مجتمع واحد تحت شعار (لكم دينكم ولي دين)<sup>7</sup>، لأنهم لا يؤمنون بالحرية وقبول الآخر أساسا، ولذلك يسعون للعدوان وإخراج المؤمنين من أوطانهم، قال تعالى: (ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدؤوكم أول مرة)<sup>8</sup>، ولم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرغب في الهجرة من مكة، لولا أنه اضطر لذلك، روى عبد الله

<sup>1</sup> - الآية (32) من سورة الأنفال.

<sup>2</sup> - الآية (31) من سورة الزخرف.

<sup>3</sup> - الآية (109) من سورة البقرة.

<sup>4</sup> - الآية (25) من سورة سبأ.

<sup>5</sup> - الآية (59) من سورة المائدة.

<sup>6</sup> - الآية (82) من سورة المائدة.

<sup>7</sup> - الآية (6) من سورة الكافرون.

<sup>8</sup> - الآية (13) من سورة التوبة.

بن عدي بن حمراء رضي الله عنه، قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفا على الحزورة - موضع بمكة - فقال: (والله إنك لخير أرض الله، واحب أرض الله إلى الله، ولولا أنني أخرجت منك ما خرجت)<sup>1</sup>.

وكما أخرج الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد أخرج أصحابه من وطنهم، ووقع عليهم الظلم والعدوان، قال تعالى: (واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فأواكم وأيدكم بنصره)<sup>2</sup>.

والإخراج منهج متبع لحزب الطاغوت مع جميع الرسل والأنبياء عليهم السلام، ولذلك قال ورقة بن نوفل للنبي عليه السلام: (ياليتني فيها جذعا أي شابا قويا- ياليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك). فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أومخرجي هم؟). قال: (نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي)<sup>3</sup>.

### ثامنا: المسارعة في العدوان

يرفض المؤمنون البدء بالعدوان، فهم قوم يحملون رسالة السلام والخير امتثالاً لقوله تعالى: (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان)<sup>4</sup>، بيد أن حزب الشيطان لا يألو جهداً ببذل أقصى درجات العدوان والمسارة إليه، قال تعالى: (وترى كثيراً منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون)<sup>5</sup>، وهو يستخدم شتى الأساليب الإرهابية في عدوانه على المؤمنين، وهنا يثار سؤال ما هو الإرهاب الذي يركز عليه العدوان؟ وكيف يبتدىء؟

للإجابة على هذا السؤال نبدأ أولاً بتعريفه من حيث اللغة: الإرهاب يرجع في اللغة إلى اصل ثلاثي وهو رهب كعلم، ومعناه: خاف، ورهبوت خير من رحموت: أي لأن ترهب خير من أن ترحم، وأرهبه واسترهبه: أخافه، والمرهوب: الأسد<sup>6</sup>.

فالإرهاب إذا يرجع إلى الخوف، والخوف يحصل بأسباب كثيرة، يبدأ بالأمر النفسية، فقد يخاف الإنسان مثلاً: من تكذيب الآخرين له إذا حمل لهم نبأ صادقاً، أو أن يتسبب هذا النبأ بازدرائه وتبكيته، وقد يخاف من أن يقدم شهادة الحق في محكمة مثلاً لما سيتبعها من أذى، فالخوف من التكذيب والازدراء ونحو ذلك هو أدنى درجات الإرهاب ونسميه بالإرهاب النفسي، وقد يخاف الإنسان من أن يتحول التكذيب إلى تشهير دائم فيتطور الإيذاء النفسي إلى إيذاء إعلامي واجتماعي، وقد يقاطع الناس هذا الإنسان اقتصادياً، فيتحول الضرر من معنوي إلى حسي، مما يتسبب له بالفقر والضرر، وفي خطوة أخيرة قد يحاولون إيقاع الأذى الجسدي به أو

<sup>1</sup> - رواه الترمذي وابن ماجه، وإسناده صحيح، انظر: مشكاة المصابيح للتبريزي بتحقيق الألباني (832/2) المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الثالثة 1405هـ/1985م.

<sup>2</sup> - الآية (26) من سورة الأنفال.

<sup>3</sup> - من حديث متفق عليه عن عائشة، انظر: مشكاة المصابيح للتبريزي بتحقيق الألباني (1624/3).

<sup>4</sup> - الآية (2) من سورة المائدة.

<sup>5</sup> - الآية (62) من سورة المائدة.

<sup>6</sup> - انظر: القاموس المحيط، مادة (رهب).

بأهله وضيوفه، وهنا يدخل الإرهاب مرحلة خطيرة وهي مرحلة التصفية والإبادة، مما يبرر لهذا المتضرر بالدفاع عن نفسه حفاظا على حقه في الحياة.

من هذه المقدمة نستطيع تعريف الإرهاب بأنه: هو إيقاع الأذى المادي أو المعنوي بالآخرين ورفض الاستماع إليهم أو التحاور معهم، ويبدأ الأذى بالتكذيب والتشهير، وينتهي بحرب الإبادة والتصفية الجماعية، وبين هاتين المرحلتين مراحل كثيرة من العدوان الإعلامي والاقتصادي والاجتماعي والأخلاقي.

ومن آثار الإرهاب مقابلة الحجة بالسوط، والحق بالسيف، والحقيقة بالجلد، إذ ينطلق الإرهاب من فكرة رفض التعايش مع الآخر، وينتهي بالتصفية الجسدية ومحاولة الاستئصال الدموي لذلك الآخر ولو كان نبيا مرسلا مثل موسى عليه السلام، قال تعالى: (وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم)<sup>1</sup>.

#### تاسعا: شبهة وردها

وردت مادة رهب ومشتقاتها في القرآن الكريم في اثني عشر موضعا، منها: الرهب ورهبانية ورهبان وغير ذلك<sup>2</sup>، ولم ترد بمعنى الأمر بإرهاب العدو أبدا، وإنما وردت لتعليل الإعداد لملاقاة الأعداء في المعركة، وذلك موضع واحد من الذكر الحكيم، وهو قوله تعالى: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم)<sup>3</sup>، والإرهاب المقصود هنا يكون في المعركة، فقد (أمر تعالى بإعداد آلات الحرب لمقاتلتهم حسب الطاقة والإمكان والاستطاعة)<sup>4</sup>، ومعلوم بأن المعارك كلها تهدف إلى كسب الحرب وإرهاب العدو وإحراز الغنائم، فالحرب ليست لعبا، والقوي هو الذي ينتصر في النهاية، لذلك تحرص الدول والجيوش جميعا على كسب المعارك منذ الجولة الأولى، وبث الرعب في نفوس أعدائها، وهذا ما أراده القرآن، ولم يرد قط إرهاب الأمنيين، أو تصفية الخصوم بالأساليب الغادرة كما يفعل الطواغيت في الأرض، لأن المبدأ الذي قام عليه الدين احترام حقوق الآخرين في العقيدة والحياة الكريمة والمشاركة الفاعلة في المجتمع، وعدم البدء بالعدوان على الآخرين، يقول سبحانه: (والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون، وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين، ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل، إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبيغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم)<sup>5</sup>.

#### عاشرا: جذور العدوان

العدوان يبدأ من الناحية النفسية وينتهي بالتصفية الجسدية، وهو يرتكز أساسا على فكرة الإرهاب، وأول من ابتكر الإرهاب النفسي هو إبليس الذي رفض السجود لآدم زاعما بأنه من عنصر النار الذي يفضل الطين الذي خلق منه آدم، وهذه حجة واهية أراد إبليس من خلالها تبرير

1 - الآية (28) من سورة غافر.

2 - انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، مادة (رهب)

3 - الآية (60) من سورة الأنفال.

4 - مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني، (115/2).

5 - الآيات (39-42) من سورة الشورى.

خروجه عن الأمر الإلهي، وأن يوهم الملائكة وآدم أنه على حق في عصيانه للأمر الإلهي، وإلا فالطين فيه عنصر النار وليس في النار عنصر الطين، فيكون الطين أشمل من النار، وأول من ابتكر الإرهاب الحسي ضد الغير هو قابيل، فهو الإرهابي الأول على وجه الأرض، حين حسد أخاه هابيل، وتخلص منه بالقتل، قال تعالى: (واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لأقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين، لنن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إني أخاف الله رب العالمين)<sup>1</sup>، ويتحمل قابيل مبتكر الإرهاب المادي على وجه الأرض وزرا من كل جريمة تقع من بعده، عن ابن مسعود، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تقتل نفس ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها لأنه كان أول من سن القتل)<sup>2</sup>.

#### أحد عشر: ماذا يريد حزب الشيطان؟

كل ما يريده حزب الشيطان التمتع بهذه الدنيا بدون حدود ولا قيود شرعية، قال تعالى: (فأعرض عن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا، ذلك مبلغهم من العلم إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى)<sup>3</sup>.

وليس ثمة شيء يحقق لحزب الشيطان ما يريد إلا حكم الجاهلية، وهو حكم الهوى والضلال، قال تعالى: (أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون)<sup>4</sup>.

#### اثنا عشر: الوصاية على الناس

ولأن حزب الشيطان يريد التمتع بالحياة، ويرفض التعايش مع أهل الإيمان، فإنه يريد فرض وصايته على الناس بالقوة، ولو أدت هذه الوصاية إلى استئصال شريحة كبيرة من الناس بقتل أبنائهم واستيلاء نساءهم للخدمة كما فعل فرعون ببني إسرائيل، قال تعالى: (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين، إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب، فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال)<sup>5</sup>.

#### ثلاثة عشر: صراع إلى يوم القيامة

والصراع بين أهل الحق وحزب الشيطان قائم إلى قيام الساعة، قال تعالى: (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض)<sup>6</sup>، فإله سبحانه يدفع أذى الشر والطاغوت بأنبيائه وأوليائه، والهدف الذي يسعى له حزب الشيطان من حرب الدعوة إطفاء هذه الشعلة الإلهية التي

<sup>1</sup> - الآيات (27-28) من سورة المائدة.

<sup>2</sup> - أخرجه الجماعة سوى أبي داود، انظر: مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني، (508/1).

<sup>3</sup> - الآيات (29-30) من سورة النجم.

<sup>4</sup> - الآية (50) من سورة المائدة.

<sup>5</sup> - الآيات (23-25) من سورة غافر.

<sup>6</sup> - الآية (251) من سورة البقرة.

تثبت الأمل والحياة في نفوس المعذبين على وجه الأرض، وهو هدف لا يمكن تحقيقه مهما أوتي الطاغوت من قوة وعتاد، قال تعالى: (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون، هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون)<sup>1</sup>.

#### أربعة عشر: الأنبياء والرسول عليهم السلام جميعا ضحايا العدوان

نتيجة لفكرة رفض التعايش مع الآخرين، اشتعلت نار العداوة بين رؤوس حزب الشيطان من جهة والأنبياء والرسول عليهم السلام من جهة أخرى، فلا يخلو نبي من عدو يترصد به، قال تعالى: (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا من المجرمين)<sup>2</sup>.

وحسبنا أن نعلم بأن موسى وقومه كانوا ضحايا البطش الفرعوني لمدة طويلة، وحاول فرعون أن يستأصل موسى عليه السلام ومن معه حين اتبعهم للبحر، وعيسى وأمه ضحايا الاقتراء من أعدائهما، وقد سعى أعداء عيسى لقتله عليه السلام لولا أن نجاه الله منهم، ومحمد مات عليه السلام بتأثير الشاة المسمومة التي أهدتها إليه امرأة يهودية في خيبر.

ورغم هذا العناء فإن النصر قادم، فقد غرق فرعون ومن معه من الجنود الفاسدين، ورفع الله المسيح عيسى إلى السماء، وانتشر دين محمد ملء الخافقين، وتحقق وعد الله بالنصر لحزبه، قال تعالى: (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا)<sup>3</sup>.

والنتيجة النهائية لهذا الصراع بين الحق والباطل، ولهذا الاستئصال الذي يمارسه حزب الشيطان ضد المؤمنين في الدنيا هي في يوم الدين، فالدنيا هي الشوط الأول من رحلة الإنسان، والآخرة هي الشوط الأخير الذي تتحدد فيه النتائج، ويكون فيه العقاب الأبدى للطغاة، قال تعالى: (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار، وترى المجرمين يومئذ مقرنين في الأصفاد، سرابيلهم من قطران وتغشى وجوههم النار، ليجزي الله كل نفس ما كسبت إن الله سريع الحساب)<sup>4</sup>.

وهو عقاب أبدي عادل لحزب الشيطان في الآخرة، قال تعالى: (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالوا إن الله حرمهما على الكافرين، الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرثهم الحياة الدنيا فاليوم ننسأهم كما نسأ لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يجدون)<sup>5</sup>.

وأما المؤمنون فسينالون الثواب الكريم من رب رحيم، قال تعالى: (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون، ونزعنا ما في

<sup>1</sup> - الآية (32-33) من سورة التوبة.

<sup>2</sup> - الآية (31) من سورة الفرقان.

<sup>3</sup> - الآية (51) من سورة غافر.

<sup>4</sup> - الآيات (48-51) من سورة إبراهيم.

<sup>5</sup> - الآيات (50-51) من سورة الأعراف.

صدورهم من غل تجري من تحتهم الأنهار وقالوا الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله لقد جاءت رسل ربنا بالحق ونودوا أن تلك الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون)<sup>1</sup>.

وإنها لفرصة أخيرة لحزب الشيطان أن يكف عن عدوانه وظلمه تجاه الأنبياء عليهم السلام وحملة ميراثهم قبل فوات الأوان، فإن العقاب قادم لهؤلاء الاستئصاليين الذين يريدون وأد الإيمان وأهله، ولكن الله بالمرصاد لهم، قال تعالى: (أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون، أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين، أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرءوف رحيم)<sup>2</sup>.

وهذا البحث قد جاء لبيان أساليب حزب الشيطان والمكون من أعداء الرسل والأنبياء عليهم السلام في العدوان على أهل الصراط المستقيم والمتمثلين بالرسل والأنبياء عليهم السلام وأتباعهم من المؤمنين، وذلك من خلال آيات الذكر الحكيم وفق منهج علمي استقرائي، وهو مكون من خمسة مباحث وخاتمة.

<sup>1</sup> - الآيات (42-43) من سورة الأعراف.

<sup>2</sup> - الآيات (45-47) من سورة النحل.

## الحرب النفسية

الحرب النفسية هي مقدمة لسائر الحروب الأخرى التي يشنها الطواغيت ضد الأنبياء والرسل عليهم السلام، بل هي قاعدة الحروب جميعاً، وتشمل هذه الحرب عناصر عدة، من ذلك:

## أولاً: احتكار الحقيقة

عندما يدعي أعداء الرسل عليهم السلام بأن الحقيقة عندهم، وأنها ملك يديهم، فكأنهم يقولون للمؤمنين بلسان الحال فضلاً عن المقال أنتم لستم على شيء، تضيعون أعماركم فيما لا طائل من ورائه، وعليكم أن تتبعونا وتتبعوا ما في أيديكم من ميراث النبوة، وفي هذا الصدد تدعي طوائف ممن انحرفوا عن هدي الرسل عليهم السلام بأنهم أصفياء الله، ويبالغون أكثر في دعوى القرابة والنسب إلى الله تعالى عن ذلك، قال تعالى: (وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق)<sup>1</sup>.

ويبالغون في باطلهم حين يطلبون من الآخرين اتباعهم في غيهم وترك الملة الإبراهيمية المستقيمة، قال تعالى: (وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين)<sup>2</sup>.

وهذه الطوائف تقوم بكتمان الحق الذي يعرفونه جيداً كما قال تعالى: (الذين أتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون)<sup>3</sup>، وهم جراء هذا الفعل الشنيع يستحقون لعنة الله وغضبه، قال تعالى: (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون، إلا الذين تابوا)<sup>4</sup>.

والباعث على كتمان الحقيقة هو المصالح المادية العاجلة التي تجعلهم يشتركون دنياهم بأخوتهم، قال تعالى: (إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشتركون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزيهم ولهم عذاب أليم)<sup>5</sup>.

## ثانياً: تزيف الحقائق

تزيف الحقائق أو لیسها على الناس هو ديدن حزب الشيطان الذي يكره الحق، قال تعالى: (بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون)<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> - الآية (18) من سورة المائدة.

<sup>2</sup> - الآية (135) من سورة البقرة.

<sup>3</sup> - الآية (146) من سورة البقرة.

<sup>4</sup> - الآيتان (159-160) من سورة البقرة.

<sup>5</sup> - الآية (174) من سورة البقرة.

فالمحرفون من أهل الكتاب مثلاً يتعمدون مزج الحق بالباطل ليلتبس الحق على أعين الناس، قال تعالى: (يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون)<sup>2</sup>، وربما عمدوا إلى إظهار الإيمان بمحمد ثم تراجعوا عنه، وذلك بغية زرع الشك في قلوب المؤمنين، ومن ثم ردتهم عن دينهم، قال تعالى: (وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون)<sup>3</sup>.

والتذبذب بين الكفر والإيمان هو ديدن طائفة أخرى من غير أهل الكتاب سميت بالمنافقين، وهي فرقة احتارت بين مصالحها ودينها، ولم تجد لها موقعا ثابتا في معسكر الكفر أو الإيمان، قال تعالى: (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا، مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا)<sup>4</sup>، وقال أيضا مصورا خداع هذه الفرقة وضلالها: (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون)<sup>5</sup>.

وتعتمد هذه الفرقة على بث الإشاعات والرعب في قلوب المؤمنين لتثبيطهم عن الجهاد في سبيل الله تعالى، كما قال تعالى: (الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا قل فادعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين)<sup>6</sup>، وتحاول هذه الفرقة أن تبحث عن مكاسبها المادية بأية طريق كانت، يقول تعالى: (الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين)<sup>7</sup>.

ويتجلى تزييف الحقائق في صور كثيرة، وفي مقدمتها: الشرك بالله، وهو أكبر الكبائر وأسوأ الذنوب، كأن ينسب لله ولد تعالى الله عن ذلك، وقد فعل هذا اليهود والنصارى، قال تعالى: (وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يظاهرون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون)<sup>8</sup>.

ومن ذلك صرف العبادة لغير الله، وهو من أنواع الشرك، مثل:

1 - الآية (70) من سورة المؤمنون.

2 - الآية (71) من سورة آل عمران.

3 - الآية (72) من سورة آل عمران.  
4 - الآيتان (142-143) من سورة النساء.

5 - الآيتان (8-9) من سورة البقرة.  
6 - الآية (168) من سورة آل عمران.

7 - الآية (141) من سورة النساء.

8 - الآية (30) من سورة التوبة.

\* مظاهر الطبيعة المختلفة، مثل السجود للشمس، وهكذا كان قوم سبأ (إني وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شيء ولها عرش عظيم، وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله)<sup>1</sup>.

\* أو صرفها للأصنام والطغاة، قال تعالى: (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله)<sup>2</sup>، قال الزمخشري في تفسير الآية: (أندادا: أمثالا من الأصنام وقيل من الرؤساء الذين كانوا يتبعونهم ويطيعونهم وينزلون على أوامرهم ونواهيهم)<sup>3</sup>.

ولا يتورع حزب الباطل أن يزكي نفسه، وأن يصرف العبادة لغير الله، وأن يفضل أهل الشرك على أهل التوحيد، قال تعالى: (ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلًا، انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إثما مبينا، ألم تر إلى الذين أتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا)<sup>4</sup>، وقد نزلت هذه الآية في اليهود والنصارى<sup>5</sup>، والجبت: الأصنام وكل ما عبد من دون الله، والطاغوت: الشيطان<sup>6</sup>.

ومن تزييف الحقائق: الأمر بعبادة غير الله، قال تعالى: (قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون)<sup>7</sup>، وكذلك الاشتمزاز من ذكر الله وحده، قال تعالى: (وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون)<sup>8</sup>.

ومن تزييف الحقائق: الإلحاد في أسماء الله عز وجل، قال تعالى: (وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفورا)<sup>9</sup>.

ومن تزييف الحقائق: الإلحاد في صفات الله عز وجل، أو وصفه بما لا يليق به سبحانه كالفقر مثلا، وقد ادعى ذلك اليهود، قال تعالى: (لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق)<sup>10</sup>، أو وصفه بالبخل

1 - الأيتان (23-24) من سورة النمل.

2 - الآية (165) من سورة البقرة.

3 - الكشاف (211/1).

4 - الآيات (49-51) من سورة النساء.

5 - الكشاف للزمخشري، (520/1).

6 - الكشاف للزمخشري (521/1).

7 - الآية (64) من سورة الزمر.

8 - الآية (45) من سورة الزمر.

9 - الآية (60) من سورة الفرقان.

10 - الآية (181) من سورة آل عمران.

تعالى الله عن ذلك حيث قال: (وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء)<sup>1</sup>.

ومن ذلك أيضا طلب رؤية الله جهرة، وجعلها سبيلا وحيدا لليقين، قال تعالى: (وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا)<sup>2</sup>.

وربما طلب بعضهم من النبي عليه السلام أن ينزل لهم كتابا محسوسا من السماء استهزاء وعتوا، قال تعالى: (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم)<sup>3</sup>.

ومن أسوأ صور تزيف الحقائق تحريف كلام الله المنزل من السماء، وهو ما عمد إليه بعض أهل الكتاب، قال تعالى: (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون)<sup>4</sup>.

وسبب هذا التحريف مصلحة دنيوية عاجلة تتمثل في مكسب مادي بسيط كما قال تعالى: (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون)<sup>5</sup>، ولا يخفى بأن التبديل في دين الله وكتبه ظلم يستحق أشد العقاب، ولذلك قال تعالى منددا بما فعله بعض أهل الكتاب: (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون)<sup>6</sup>.

ومن ذلك الافتراء على الله، ونسبة الأمر بفعل الفواحش إليه، قال تعالى: (وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون)<sup>7</sup>، ويدخل في الافتراء التشريعات الباطلة التي لم يأذن بها الله، قال تعالى في شأن طائفة من أهل الكتاب: (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون)<sup>8</sup>.

<sup>1</sup> - الآية (64) من سورة المائدة.

<sup>2</sup> - الآية (21) من سورة الفرقان.

<sup>3</sup> - الآية (153) من سورة النساء.

<sup>4</sup> - الآية (75) من سورة البقرة.

<sup>5</sup> - الآية (79) من سورة البقرة.

<sup>6</sup> - الآية (59) من سورة البقرة.

<sup>7</sup> - الآية (28) من سورة الأعراف.

<sup>8</sup> - الآية (31) من سورة التوبة.

ويدخل في الافتراء على الله نسبة جرائمهم إلى القدر، وكأنه ليس لهم ثمة دخل فيها، قال تعالى: (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمانا من دونه من شيء كذلك فعل الذين من قبلهم فهل على الرسل إلا البلاغ المبين)<sup>1</sup>

وقد دأب حزب الشيطان على المكر والدهاء لتضليل الناس وغوايتهم، قال تعالى: (وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون)<sup>2</sup>، والهدف الأول لهذا المكر عند جميع طوائف حزب الشيطان هو: حرصهم على تغيير الملة المستقيمة كما قال تعالى: (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم قل إن هدى الله هو الهدى ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير)<sup>3</sup>.

وربما ادعى أعداء الرسل عليهم السلام من الطغاة الظالمين أنهم يحققون مصلحة العباد والبلاد في تصديهم لدعوة الرسل عليهم السلام، فهذا فرعون يدعي الرشد قائلاً لمن حوله: (قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد)<sup>4</sup>، وطالما ظن أئمة الكفر بأن عملهم صواب، فلا عجب إذا من صدهم عن سبيل الله، قال تعالى: (إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله قد ضلوا ضللاً بعيداً)<sup>5</sup>، فالكفر والصد عن سبيل الله قرينان، وليس الكفرة من أعداء الرسل عليهم السلام إلا قطاعاً لطريق الحق، أعداء لأهل التوحيد، حتى لو أن قائلاً ادعى بأنهم لم يخلقوا إلا لهذه الغاية لم يكن ذلك ببعيد.

### ثالثاً: الإرهاب النفسي

ويكون الإرهاب النفسي بالتخويف على مختلف الأصعدة، فقد يخوفون الرسل عليهم السلام من الأوثان التي يعبدونها، ويزعمون لها الضر والنفع، قال تعالى: (ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فماله من هاد)<sup>6</sup>، قال الزمخشري: (أراد الأوثان التي اتخذوها آلهة من دونه)<sup>7</sup>.

وهذه الأوثان هي جزء من لحمة المجتمع الجاهلي ونظامه الاجتماعي، فالمساس بها مساس ببنية المجتمع الأساسية، قال تعالى على لسان نبيه إبراهيم عليه السلام: (وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً مودة بينكم في الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم

1 - الآية (35) من سورة النحل.

2 - الآية (123) من سورة الأنعام.

3 - الآية (120) من سورة البقرة.

4 - الآية (29) من سورة غافر.

5 - الآية (167) من سورة النساء.

6 - الآية (36) من سورة الزمر.

7 - الكشاف (129/4)

بعضاً ومأواكم النار ومالكم من ناصرين)<sup>1</sup>، وقد فسر الزمخشري المراد بالمودة في هذه الآية فقال: (أي لتتوادوا بينكم وتتواصلوا، لاجتماعكم على عبادتها، واتفاقكم عليها واتلافكم، كما يتفق الناس على مذهب فيكون ذلك سبب تحابهم وتصادقهم)<sup>2</sup>.

وفي لفظة كريمة من لدن الله العزيز الحكيم، لنبيه الكريم، لدحض فكرة هذا الخوف الذي تروج له الجاهلية يقول تعالى: (وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً)<sup>3</sup>، فالخوف لا ينبغي أن يلامس قلب الرسول الكريم أو المؤمن الصالح، لأنه على المحجة البيضاء والصراط المستقيم، وأولى بهذا الخوف أن يلامس قلوب المشركين الذين افتروا على الله الكذب، واتخذوا معه آلهة أخرى ظلماً وعدواناً، وهو ما أشارت إليه آية كريمة في موضع آخر من الكتاب العزيز، وفيها يقول عز وجل: (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين)<sup>4</sup>.

وبحكم الطبيعة البشرية والضعف البشري قد يشعر بعض الأنبياء المقربين عليهم السلام برهبة أو خوف من القوى الطاغوتية التي يواجهونها في بعض المواقف، مثل ما حصل لموسى في مواجهة فرعون، حيث وردت آيات عدة تذكر هذا الخوف، قال تعالى على لسان موسى عليه السلام: (قال رب إني أخاف أن يكذبون)<sup>5</sup>، وقال أيضاً: (ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون)<sup>6</sup>، وقال سبحانه: (ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين)<sup>7</sup>، ولكن هذا الخوف سرعان ما تبدد في لحظة اللقاء مع فرعون، حيث كانت معية الله لموسى وهارون عليهما السلام كافية لأن تبدد أي ذرة من خوف ذلك الطاغية المتجبر، قال تعالى: (قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى)<sup>8</sup>.

ومن أسوأ صور الرهبة والخوف تلك التي يزرعها السادة والكبراء في نفوس أتباعهم، وهو خوف يجعل التابع ينفذ للمتبعون انقياداً أعمى بلا وعي ولا تفكير، قال تعالى: (وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلاً، ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعناً كبيراً)<sup>9</sup>.

وفي مشهد آخر لهذا الحوار الساخن بين السادة والأتباع يوم القيامة يقول عز وجل: (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين، قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى

1 - الآية (25) من سورة العنكبوت.

2 - الكشاف (450/3).

3 - الآية (81) من سورة الأنعام.

4 - الآية (175) من سورة آل عمران.

5 - الآية (12) من سورة الشعراء.

6 - الآية (14) من سورة الشعراء.

7 - الآية (21) من سورة الشعراء.

8 - الآية (46) من سورة طه.

9 - الآيتان (67-68) من سورة الأحزاب.

بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين، وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون<sup>1</sup>، فعملية الإضلال كانت مهينة ومخططة عبر الليل والنهار، وكانت أمرا إلزاميا من السادة إلى أتباعهم وأعوانهم، هؤلاء السادة الذين يمثلون قمة الترف والفساد، ويدفعهم الخوف على مصالحتهم الضيقة إلى التصدي لكل الأنبياء والمصلحين، قال تعالى: (وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون)<sup>2</sup>.

وقد تكرر في القرآن الكريم نسبة المكر إلى الرؤساء كما في قوله تعالى: (ومكروا مكرا كبارا)<sup>3</sup>، قال الزمخشري: (والماكرون هم الرؤساء، ومكرهم احتيالهم في الدين وكيدهم لنوح، وتحريش الناس على أذاه، وصددهم عن الميل إليه والاستماع منه، وقولهم لا تدرن آلهتكم إلى عبادة رب نوح... والكبار أكبر من الكبير، والكبار أكبر من الكبار)<sup>4</sup>.

وربما عظم التابعون من الرعايا والعامّة أسيادهم كما يعظمون رب العالمين، وربما عبدوا قادتهم من دون الله تعالى، قال تعالى يذكر هذا التلاوم المزري بين السادة والقطيع يوم القيامة حيث لم تعد تجد الملامة: (فككبوا فيها هم والغاؤون، وجنود إبليس أجمعون، قالوا وهم فيها يختصمون، تالله إن كنا لفي ضلال مبين، إذ نسويكم برب العالمين، وما أضلنا إلا المجرمون)<sup>5</sup>.

ومن صور هذا التعظيم القسم بالطغاة كما فعل السحرة أمام موسى، حيث قالوا: (فألقوا بحالهم وعصيتهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون)<sup>6</sup>، ونتيجة لهذا التعظيم المفتعل قد يتمادى الطاغية فيعلن الألوهية أو الربوبية كما فعل فرعون: (وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحا لعلني أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين، واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون)<sup>7</sup>، وفي مشهد آخر يعلن فرعون أمام رعيته: (فحشر فنادى، فقال أنا ربكم الأعلى)<sup>8</sup>، وقد دفعه إلى هذا الطغيان استخفافه برعيته، وعدم وجود من ينصحه أو يعارضه، قال تعالى: (فاستخف قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوما فاسقين)<sup>9</sup>.

1 - الآيات (31-33) من سورة سبأ.

2 - الآية (34) من سورة سبأ.

3 - الآية (22) من سورة نوح.

4 - الكشاف (619/4)

5 - الآيات (94-99) من سورة الشعراء.

6 - الآية (44) من سورة الشعراء.

7 - الآيات (38-39) من سورة القصص.

8 - الآيات (23-24) من سورة النازعات.

9 - الآية (54) من سورة الزخرف.

وكذلك فعل من قبله الطاغية نمرود أمام إبراهيم عليه السلام، حيث ادعى القدرة على الخلق والإبادة، فأناه إبراهيم بحجة جعلته يقف أمامها فاغرا مشدوها حائرا، قال تعالى: (ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن آتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين)<sup>1</sup>.

ونتيجة لضغوط حزب الشيطان المتعددة على أهل الإيمان بالله ورسوله، يشعر المؤمنون بالرهبة والخوف، بيد أن الوعد الإلهي يتدخل ليبدد آثار ذلك الخوف، قال تعالى: (وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا)<sup>2</sup>.

وقد يقود التخويف إلى الغضب والإكراه، وهو ما لجأ إليه كثير من أئمة الكفر، فقد يحاولون إكراه الرسل عليهم السلام للعودة إلى الكفر عنوة حفاظا على حياتهم وممتلكاتهم، قال تعالى: (وقال الذين كفروا لرسلم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا)<sup>3</sup>، وقال أيضا: (قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أولو كنا كارهين، قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها)<sup>4</sup>.

وربما مارس أعداء الرسل عليهم السلام سياسة الإكراه مع العامة من أجل مصالحهم الدنيوية، فهذا فرعون يقهر الناس على تعلم السحر، قال تعالى على لسان السحرة يخاطبون فرعون: (إنا أمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر)<sup>5</sup>، بيد أن فرعون لم يقبل منهم هذا الموقف وصرخ فيهم مستنكرا ومتوعدا: (قال آمنتم له قبل أن آذن لكم)<sup>6</sup>، فكل شيء في عالم الذعر والإرهاب الذي يقوده الطغاة يحتاج إلى إذن، ويحتاج إلى قرار!

#### رابعا: الترغيب والإغراء

الترغيب في المنكر أسلوب من أساليب الضغط النفسي، وعندما يستخدم الترغيب في الشر يكون أثره السلبي على الإنسان مماثلا لأثر التهيب، ولأن حزب الشيطان يؤثر الدنيا ومباهجها ولذاتها فهو يصد عن سبيل الله لتحلوه له الدنيا كما يريد، قال تعالى: (الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهم بالآخرة كافرون)<sup>7</sup>.

1 - الآية (258) من سورة البقرة.

2 - الآية (55) من سورة النور.

3 - الآية (13) من سورة إبراهيم.

4 - الآيتان (88-89) من سورة الأعراف.

5 - الآية (73) من سورة طه.

6 - الآية (71) من سورة طه.

7 - الآية (45) من سورة الأعراف.

وطالما أن حزب الشيطان يصد عن سبيل الله، فهو لا يتورع عن التلاعب بالأديان كما قال تعالى: (الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا)<sup>1</sup>، لذا نجد أتباع حزب الشيطان يحرضون المؤمنين على اتباعهم، ويغرونهم بحمل ذنوبهم يوم القيامة، قال تعالى: (وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون)<sup>2</sup>.

ويستخدم حزب الشيطان ما بيده من مال وثروة لصد الناس عن الهدى، قال تعالى يذكر تحاور أهل النار، وكيف أضلهم أسيادهم بأسلوب الترغيب: (وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون، قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين، قالوا بل لم تكونوا مؤمنين، وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين)<sup>3</sup>، ومعنى اليمين في هذه الآية: أي من قبل الخير وناحيته، أو أنكم كنتم تأتوننا عن القهر والقوة وتقصدوننا عن السلطان والغلبة حتى تحملونا على الضلال وتقسرونا عليه<sup>4</sup>.

وربما عمد حزب الشيطان إلى الفتنة بالحيوانات الثقيلة، فصنع بهائم من ذهب ليعبدها الناس، وإنما هم يعبدون في الحقيقة بريق الذهب، وذلك كما فعل السامري الذي أضل قوم موسى حيث أخبر الله عنه: (فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي، أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا)<sup>5</sup>، وهذا العجل كان مصنوعا من الحلي والذهب كما قال تعالى: (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار)<sup>6</sup>، وهكذا الكفرة يفتنون بالجانب الحيواني المادي الثقيل الصفيق الذي له بريق الذهب فيعبده.

وقد حاول رؤوس الكفر قريش ثني النبي عليه السلام عن دعوته مستخدمين كل الأساليب، ومن ذلك أسلوب الإغراء، بيد أن رسول الله ثبت ولم يركع لمغريات الحياة، فقد بعث إليه أشرف قومه واجتمعوا إليه عند الكعبة وقالوا له: (يا محمد! إنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وإنا والله ما نعلم رجلا من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة، وسفهت الأحلام، وفرقت الجماعة، فما بقي لأمر قبيح إلا قد جئته فيما بيننا وبينك أو كما قالوا له - فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا ملكا، وإن كنت تطلب به الشرف فينا، فنحن نسودك علينا، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رثيا من الجن قد غلب عليك - وكانوا يسمون التابع من الجن رثيا - فربما كان ذلك، بذلنا لك أموالنا في طلب الطب حتى نبرئك منه، أو نعذر فيك، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتمكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولا، وأنزل علي كتابا،

1 - الآية (51) من سورة الأعراف.

2 - الآية (12) من سورة العنكبوت.

3 - الآيات (27-30) من سورة الصافات.

4 - بايجاز: الكشاف (4/40).

5 - الآيات (88-89) من سورة طه.

6 - الآية (148) من سورة الأعراف.

وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم، أو كما قال صلى الله عليه وسلم<sup>1</sup>.

### خامسا: رفض الحقيقة

رفض الحقيقة صورة من صور الحرب النفسية، إذ يجعل المؤمن في حيرة من هؤلاء المعاندين الذين يتعامل معهم، فهم يملكون قلوبا قاسية كأنها من حجر، لا تستيقظ من سباتها، ولا تلين من قسوتها، وترفض الحق لمجرد أنه الحق، ويتجلى رفض الحقيقة بأمر كثيرة، منها:

\* الكفر بعد الإيمان، كما قال تعالى: (إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم وأولئك هم الضالون)<sup>2</sup>، قال الزمخشري: (هم اليهود كفروا بعبسى والإنجيل بعد إيمانهم بموسى والتوراة، ثم ازدادوا كفرا بكفرهم بمحمد والقرآن)<sup>3</sup>.

\* وربما حاول أعداء الرسل عليهم السلام التفرقة بين الله ورسله والإيمان ببعضهم والكفر ببعضهم الآخر، وكأن القضية مجرد هوى أو مزاج، قال تعالى: (إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا، أولئك هم الكافرون حقا وأعدنا للكافرين عذابا مهينا)<sup>4</sup>.

\* وقد ينكرون النبوات جميعا، قال تعالى: (وما قدرنا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء)<sup>5</sup>.

\* وقد يعلنون الكفر بآيات الله والصد عنها، قال تعالى: (قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون، قل يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله من آمن وتبغونها عوجا وأنتم شهداء وما الله بغافل عما تعملون)<sup>6</sup>.

\* وربما صرحوا بمعاداة الله، وأعلنوا الحرب على الله ورسوله، قال تعالى: (إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا كما كبت الذين من قبلهم وقد أنزلنا آيات بينات وللكافرين عذاب مهين)<sup>7</sup>، ومعنى يحادون: يعادون ويشاقون، وكتبوا: أخزوا وأهلكوا<sup>8</sup>. وذلك لأن الحرب مع الله خاسرة، تدل على شقاء صاحبها، وسيخسر صاحبها في الدنيا والآخرة.

<sup>1</sup> - السيرة النبوية لابن هشام (36/2). دار الفكر، الطبعة الثانية.

<sup>2</sup> - الآية (90) من سورة آل عمران.

<sup>3</sup> - الكشاف (382/1).

<sup>4</sup> - الآيات (150-151) من سورة النساء.

<sup>5</sup> - الآية (91) من سورة الأنعام.

<sup>6</sup> - الآيات (98-99) من سورة آل عمران.

<sup>7</sup> - الآية (5) من سورة المجادلة.

<sup>8</sup> - انظر: الكشاف (489/4).

\* وهناك شريحة تعرف صدق النبي عليه السلام، بيد أنها جحدت الحقيقة حسدا وظلما، قال تعالى: ( قد نعلم إنه ليحزنك الذين يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون)<sup>1</sup>.

\* وهناك شريحة أخرى تظاهرت بالإسلام، بيد أنها ترفض التحاكم إلى شريعة الله، قال تعالى: (وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا)<sup>2</sup>.

\* ومن صور رفض الحقيقة الإعراض عنها، وعدم المبالاة بها، كما قال تعالى: الإعراض (ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى والذين كفروا عما أنذروا معرضون)<sup>3</sup>، وقال أيضا: (وما يأتيهم من ذكر من الرحمن محدث إلا كانوا عنه معرضين)<sup>4</sup>.

\* وربما هرب الكافرون من سماع الحقيقة، وأصابهم الهلع من رؤية صاحبها، فهربوا كما تهرب الحمير الوحشية من اللبؤة زوجة الأسد!، وهو هروب يدل على مدى الذعر والنفور من هذه الدعوة الجديدة، قال تعالى: (فمالهم عن التذكرة معرضين، كأنهم حمر مستنفرة، فرت من قسورة)<sup>5</sup>.

ومن أسوأ صور الهروب من سماع الحقيقة صك الأذان عند سماعها، وتغطية الرؤوس عند رؤية صاحبها كما كان يصنع قوم نوح عليه السلام، قال تعالى: (قال رب إنني دعوت قومي ليلا ونهارا، فلم يزدهم دعائي إلا فرارا، وإنني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا)<sup>6</sup>، قال الزمخشري في شرح الآية: (واستغشوا ثيابهم: وتغطوا بها، كأنهم طلبوا أن تغشاهم ثيابهم أو تغشيهم كراهة النظر إلى وجه من ينصحهم في دين الله)<sup>7</sup>، وأية جهالة أكبر من صك الأذان، والتغطي بالثياب، إنه فعل من لا يثق بنفسه ومعتقده، فيريد أن يسد كل منافذ النور التي يمكن أن تبدد له ظلام ذلك المعتقد.

\* ومن صور رفض الحقيقة تقديم تفسيرات غير صحيحة للدعوة، كدعوى أن النبي يريد الزعامة من وراء النبوة، وهذا ما ادعاه قوم نوح: (فقال المأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ولو شاء الله لآنزل ملائكة ما سمعنا بهذا في آياتنا الأولين)<sup>8</sup>.

1 - الآية (33) من سورة الأنعام.

2 - الآية (61) من سورة النساء.

3 - الآية (3) من سورة الأحقاف.

4 - الآية (5) من سورة الشعراء.

5 - الآيات (49-51) من سورة المدثر.

6 - الآيات (5-7) من سورة نوح.

7 - الكشاف (4/616).

8 - الآية (24) من سورة المؤمنون.

\* ومن صور رفض الحقيقة التشبث بالعقائد الفاسدة والتقليد الأعمى للسابقين ولو كانوا على ضلال!، وهو موقف تفقه الجاهلية في كل عصر، حيث تفترض في آباءها وأجدادها الصواب المطلق، وترفض الانعتاق من رق العبودية لفهم الآباء والأجداد، وتحارب أي دعوة لإعمال العقل والتفكير السليم، وهو موقف اتخذته ثمود مع نبيها صالح عليه السلام، حيث: (قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإنما لفي شك مما تدعونا إليه مريب)<sup>1</sup>، وكذلك اتخذ أهل مدين، حيث: (قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا وأن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد)<sup>2</sup>، وسارت عليه قريش كما قال تعالى: (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين)<sup>3</sup>، وقد استنكر القرآن هذا الاتباع الأعمى للآباء بعد نزول الهدى يقول تعالى: (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون)<sup>4</sup>، وتكرر هذا الاستنكار في أكثر من موضع كما في قوله تعالى: (وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون)<sup>5</sup>.

\* ومن صور رفض الحقيقة التكذيب بها، فهذا هود يخاطب عادا خطابا مهذبا واضحا ناصحا فيقول: (أتبنون بكل ريع آية تعبثون، وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون، وإذا بطشتم بطشتم جبارين، فاتقوا الله وأطيعون)<sup>6</sup>، فأجابوه بكل صفاقة: (قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين، إن هذا إلا خلق الأولين، وما نحن بمعذبين)<sup>7</sup>، وهذا النبي محمد عليه السلام يلاقي التكذيب من قومه أيضا، قال تعالى مواسيا له: (وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك وإلى الله ترجع الأمور)<sup>8</sup>، وقال تعالى: (فويل ليومئذ للمكذبين، الذين هم في خوض يلعبون)<sup>9</sup>.

وسبب هذا التكذيب أن الكافرين أصلا يحبون الافتراء والكذب حتى صار ديدنهم وجيلة فيهم، فلا يتورعون عن رمي الصادقين به كما قال تعالى: (ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون)<sup>10</sup>، والتكذيب هذا خلق أعداء الله جميعا، وقد عانى منه الأنبياء والمرسلون عليهم السلام جميعا، وربما قاد إلى الاستهزاء بهم، وبما يدعون إليه، قال تعالى بشأن

1 - الآية (62) من سورة هود.

2 - الآية (87) من سورة هود.

3 - الآية (43) من سورة سبأ.

4 - الآية (170) من سورة البقرة.

5 - الآية (104) من سورة المائدة.

6 - الآيات (128-131) من سورة الشعراء.

7 - الآيات (136-138) من سورة الشعراء.

8 - الآية (4) من سورة فاطر.

9 - الآيتان (11-12) من سورة الطور.

10 - الآية (103) من سورة المائدة.

قريش: (فقد كذبوا فسيأتهم أنباء ما كانوا به يستهزئون)<sup>1</sup>، وقال أيضا: (يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون)<sup>2</sup>.

\* ويمتزج الإعراض بالتكذيب ليؤديان إلى الاستهزاء، قال تعالى: (وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين، فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون)<sup>3</sup>.

وطالما كذب حزب الشيطان بالرسول عليهم السلام، فلا عجب بأن نجد لديه رغبة جامحة في ردة المؤمنين عن دينهم كما قال تعالى: (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره إن الله على كل شيء قدير)<sup>4</sup>، وربما تطورت هذه الرغبة إلى حد القتل كما سيأتي.

\* والنعم التي ينعمها الله عز وجل على عباده تقود حزب الشيطان إلى الاستكبار واستخدام المال والزينة في المعصية كما قال تعالى: (وقال موسى ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم)<sup>5</sup>، ويتجلى الاستكبار في رفض الحقيقة المطلقة وهي التوحيد والدينونة لله رب العالمين كما قال تعالى: (إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون)<sup>6</sup>.

ومن أشد المستكبرين وألعنهم الطاغية فرعون، يقول تعالى: (وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين)<sup>7</sup>. وكان الاستكبار يلفه هو وحاشيته وجنوده، كما قال تعالى: (ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملئه بآياتنا فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين)<sup>8</sup>، وكانوا ينظرون إلى الأنبياء عليهم السلام وكأنهم يريدون نزع الزعامة منهم، فقد قالوا لموسى وهارون عليهما السلام: (قالوا أجبئنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين)<sup>9</sup>.

1 - الآية (6) من سورة الشعراء.

2 - الآية (30) من سورة يس.

3 - الآيتان (4-5) من سورة الأنعام.

4 - الآية (109) من سورة البقرة.

5 - الآية (88) من سورة يونس.

6 - الآية (35) من سورة الصافات.

7 - الآية (83) من سورة يونس.

8 - الآية (75) من سورة يونس.

9 - الآية (78) من سورة يونس.

ومن الأمم المستكبرة عاد كما تقدم، وقد غرثها قوتها المادية فطغت في الأرض ظلما وفسادا، قال تعالى: (فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون)<sup>1</sup>

وينهمك المستكبرون عادة في لذائذ الدنيا وشهواتها متناسين نعيم الآخرة وعذابها، يقول تعالى: (ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون)<sup>2</sup>، وفي غمرة الشهوات يرفضون الحقائق الخالدة المنزلة من السماء، يقول تعالى: (ومأواكم النار ومالكم من ناصرين، ذلكم بأنكم اتخذتم آيات الله هزوا وغرثكم الحياة الدنيا فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون)<sup>3</sup>، وربما جادلوا في هذه الحقائق الخالدة من ألوهية وربوبية ودين ونبوة ومعاد بلا أدلة ليدحضوها ظلما وبغيا كما قال تعالى: (ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، ثاني عطفه ليضل عن سبيل الله)<sup>4</sup>، قال الزمخشري: (ثني العطف: عبارة عن الكبر والخيلاء، كتصعير الخد ولي الجيد)<sup>5</sup>، فاجتمع في موقفهم الجهل العلمي المتمثل بالجدل الباطل الذي لا يستند إلى حقائق، والمرض النفسي المتمثل بالخيلاء والانتفاش الفارغ الذي لا يسنده شيء.

\* ومن صور رفض الحقيقة نبذ الدعاء عند المحن والشدائد، وهو نابع أساسا من الاستكبار، قال تعالى: (ولقد أرسلنا إلى أمم قبلك فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون، فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ولكن قست قلوبهم وزيين لهم الشيطان ما كانوا يعملون)<sup>6</sup>، فهؤلاء السفهاء يرفضون الدعاء، لأنه في تصورهم سلاح الضعفاء، وهم مغرورون بقوتهم وأعمالهم.

\* ومن صور رفض الحقيقة السخرية من أصحابها وحملتها، قال تعالى: (زين للذين كفروا الحياة الدنيا ويسخرون من الذين آمنوا والذين اتقوا فوقهم يوم القيامة والله يرزق من يشاء بغير حساب)<sup>7</sup>، وقال تعالى: (قال اخسئوا فيها ولا تكلمون، إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آنا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين، فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون، إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون)<sup>8</sup>، ومعنى: (أنسوكم ذكري) أي حملكم بغضهم على أن نسيتم معاملتي<sup>9</sup>، فهو عدوان على المخلوق ينسى المعتدي من خلاله خالقه، ويضيع في نشوة الظلم والعدوان.

1 - الآية (15) من سورة فصلت.

2 - الآية (20) من سورة الأحقاف.

3 - الآيتان (34-35) من سورة الجاثية.

4 - الآيتان (8-9) من سورة الحج.

5 - الكشاف، (146/3).

6 - الآية (42-43) من سورة الأنعام.

7 - الآية (212) من سورة البقرة.

8 - الآيات (108-111) من سورة المؤمنون.

9 - مختصر ابن كثير (578/2)

\* ومن أقبح أنواع السخرية الضحك عند سماع القرآن، قال تعالى: (أفمن هذا الحديث تعجبون، وتضحكون ولا تبكون)<sup>1</sup>، وكذلك التهكم بأهل الصلاح والضحك منهم، قال تعالى: (إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون، وإذا مروا بهم يتغامزون، وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين، وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون)<sup>2</sup>، والضحك من الأنبياء عليهم السلام جبلة الطغاة وعلى رأسهم الطاغية المغرور فرعون، قال تعالى: (ولقد أرسلنا موسى بآيتنا إلى فرعون وملئه فقال إني رسول رب العالمين، فلما جاءهم بآيتنا إذا هم منها يضحكون)<sup>3</sup>.

\* ومن صور رفض الحقيقة الاستهزاء بها وبأهلها، والهزاء في اللغة: مزح في خفية، وقد يقال لما هو كالمزح<sup>4</sup>، وقد استهزأ الكفرة بالنبي محمد عليه السلام، قال تعالى: (وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا وهذا الذي بعث الله رسولا، إن كاد ليضلنا عن آلهتنا لولا أن صبرنا عليها وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلا)<sup>5</sup>، وقال تعالى: (وإذا رآك الذين كفروا إن يتخذونك إلا هزوا)<sup>6</sup>، كما استهزئ بكافة الرسل عليهم السلام، قال تعالى: (ولقد استهزئ برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون)<sup>7</sup>، وقال أيضا: (وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون)<sup>8</sup>.

ووقع الاستهزاء على أتباع الرسل عليهم السلام أيضا، قال تعالى في صفة المنافقين الذين يظهرون الإيمان خديعة ويخفون الكفر بين جوانحهم بغرض الاستهزاء: (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون، الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون، أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين)<sup>9</sup>، وأمام هذا الاستهزاء بالدين وشعائره التعبدية يحذر الله عباده المؤمنين من موالة أئمة الكفر والركون إليهم، فيقول عز وجل: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعبا من الذين أتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء واتقوا الله إن كنتم مؤمنين، وإذا ناديتم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ذلك بأنهم قوم لا يعقلون)<sup>10</sup>.

1 - الأيتان (59-60) من سورة النجم.

2 - الآيات (29-32) من سورة المطففين.

3 - الأيتان (46-47) من سورة الزخرف.

4 - انظر: المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة (هزؤ).

5 - الأيتان (41-42) من سورة الفرقان.

6 - الآية (36) من سورة الأنبياء.

7 - الآية (41) من سورة الأنبياء.

8 - الآية (11) من سورة الحجر.

9 - الآيات (14-16) من سورة البقرة.

10 - الأيتان (57-58) من سورة المائدة.

### سادسا: تأثيرات نفسية مختلفة

إضافة إلى ما ذكرناه فيما سبق، فإن هنالك العديد من التأثيرات النفسية المختلفة التي تدخل في الحرب النفسية، ويمكن إضافتها هنا، ومن ذلك:

\* الطيرة: وهي التشاؤم من الرسل عليهم السلام وأتباعهم، وهو أسلوب يزرع الإحباط في نفوس أهل الإيمان، فهذا النبي صالح عليه السلام يخاطبه قومه: (قالوا اطيننا بك وبمن معك قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون) <sup>1</sup> والمعنى: (أي تشاءمنا وكانوا قد قحطوا) <sup>2</sup>، وهؤلاء ثلاثة من الرسل عليهم السلام بعثهم الله إلى قرية من القرى يدعون أهلها، فكان جواب أهل القرية: (قالوا إنا تطيرنا بكم لنن لهم لفتنة لهم) <sup>3</sup>، وهؤلاء آل فرعون يتشاءمون من موسى ومن معه، قال تعالى: (وإن تصيبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه) <sup>4</sup>.

\* وهناك الشماتة، وهي خلق يدل على التشفي بالآخرين عندما تنزل فيهم المصائب، كما قال تعالى: (إن تمسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها) <sup>5</sup>، قال الزمخشري: (الحسنة: الرخاء والخصب والنصرة والغنيمة ونحوها من المنافع، والسيئة ما كان ضد ذلك، وهذا بيان لفرط معاداتهم حيث يحسدونهم على ما نالهم من الخير، ويشمتون بهم فيما أصابهم من الشدة) <sup>6</sup>، وقد تكررت الإشارة إلى الشماتة في أكثر من موضع في القرآن الكريم، كما في قوله تعالى: (إن تصيبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولون قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون) <sup>7</sup>.

\* والزهو والفرح والمرح أمور تزرع الطمأنينة والخيلاء والتكبر في نفوس أعداء المؤمنين، فيظنون بأنفسهم أنهم على حق، قال تعالى موبخا أهل النار: (ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون، ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين) <sup>8</sup>، وتجد واحد منهم يمشي ممشوق القامة، مصعر الخد، متبخترا في مشيته، كما قال تعالى: (فلا صدق ولا صلى، ولكن كذب وتولى، ثم ذهب إلى أهله يتمطى) <sup>9</sup>، ومعنى: (يتمطى): يتبختر، وأصله: يتمطم، أي يتمدد، لأن المتبختر يمد خطاه <sup>10</sup>.

1 - الآية (47) من سورة النمل.

2 - الكشاف (371/3).

3 - الآية (18) من سورة يس.

4 - الآية (131) من سورة الأعراف.

5 - الآية (120) من سورة آل عمران.

6 - الكشاف (406/1).

7 - الآية (50) من سورة التوبة.

8 - الآيات (75-76) من سورة غافر.

9 - الآيات (31-33) من سورة القيامة.

10 - الكشاف (664/4).

وربما ظن ذلك الكافر المغرور عمله صالحا نتيجة فرحه ومرحه، يقول تعالى: (أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء)<sup>1</sup>، وليس هذا السلوك قاصرا على فرد، بل هو سلوك الكافرين جميعهم: (الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا)<sup>2</sup>.

\* والغرور بالنعم يدفع الكافر للاستعلاء على المؤمنين، قال تعالى: (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون)<sup>3</sup>، قال الزمخشري: ((فلما نسوا ما ذكروا به): أي من البأساء والضراء، أي تركوا الاتعاض به فلم ينفعهم ولم يزرهم، [فتحنا عليهم أبواب كل شيء]: من الصحة والسعة وصنوف النعمة، ليزاوج عليهم بين نوبتي الضراء والسراء كما يفعل الأب المشفق بولده، يخاشنه تارة ويلطفه أخرى، طلبا لصلاحه، [حتى إذا فرحوا بما أتوا]: من الخير والنعم، لم يزيديا على الفرح والبطر، من غير انتداب لشكر ولا تصد لتوبة واعتذار، [أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون]: واجمون متحسرون آيسون)<sup>4</sup>.

وتجد أئمة الكفر يفتخرون بالجاه والقوة، قال تعالى: (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا، وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورعبا)<sup>5</sup>. المقام: موضع الإقامة والمنزل، والندي: المجلس الجامع لوجوه قومهم وأعاونهم وأنصارهم، والأثاث: متاع البيت، ورئيا: هو المنظر والهيئة<sup>6</sup>، وربما دفعهم هذا الجاه إلى الشقاق كما قال تعالى: (بل الذين كفروا في عزة وشقاق)<sup>7</sup>، أو إلى الظلم كما قال تعالى: (إن الذين كفروا وظلموا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم طريقا)<sup>8</sup>.

كما نجدهم يغترون بالثروة والعلم بكيفية جمعها، فهذا قارون المتكبر يقول لمن وعظه: (قال إنما أوتيته على علم عندي أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون)<sup>9</sup>، وقصارى علم هؤلاء الجهلة مقصور على الدنيا دون سواها، قال تعالى: (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون)<sup>10</sup>.

1 - الآية (8) من سورة فاطر.

2 - الآية (104) من سورة الكهف.

3 - الآية (44) من سورة الأنعام.

4 - الكشاف (23/2)

5 - الآيتان (73-74) من سورة مريم.

6 - الكشاف (36/3-38).

7 - الآية (2) من سورة ص.

8 - الآية (168) من سورة النساء.

9 - الآية (78) من سورة القصص.

10 - الآية (7) من سورة الروم.

والخلاصة في هذا المبحث أن الكفرة والمنافقين هم قوم مرضى نفسياً، كما قال تعالى مؤكدا مرضهم: (في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً)<sup>1</sup>، وقال أيضاً مؤكدا تعطل حواسهم عن استقبال الهدى: (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة)<sup>2</sup>، ولا عجب إذا كان مريض القلب والروح يكد للهدى بمختلف السبل والوسائل، لأن المريض لا يدرك حقائق الأشياء، وقديماً قال المتنبي:<sup>3</sup>

ومن يك ذا فمٍ مريضٍ

يجد مرأً به الماء الزُّلالاً

<sup>1</sup> - الآية (10) من سورة البقرة.

<sup>2</sup> - الآية (7) من سورة البقرة.

<sup>3</sup> - ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري، (228/3).

## المبحث الثاني:

### الحرب الإعلامية

الحرب الإعلامية هي جزء من الخطة العدوانية الشاملة التي يتبناها أعداء المنهج الإلهي في الأرض، وتقوم الحرب الإعلامية على عدد من الأمور، سنفصلها في هذا المبحث إن شاء الله.

#### أولاً: انعكاس التصورات

إن أكبر الأسس التي يقوم عليها الإرهاب الإعلامي هي انعكاس المفاهيم والتصورات لأرباب هذا الإعلام، فالفساد عندهم صلاح!، والصلاح فساد!، ومن كانت هذه حاله أفسد في الأرض وهو يظن نفسه يعمرها، وأنكر على من يعمر الأرض عمراناً صحيحاً زاعماً بأنه يفسدها!، قال تعالى: (وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون، ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون)<sup>1</sup>.

وطالما أن هنالك انعكاساً بالمفاهيم، فلا غرابة في أن يطلق أهل الكفر والنفاق على أهل الإيمان الألفاظ النابية مثل لفظ السفهاء، قال تعالى: (وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون)<sup>2</sup>، ولا غرابة أيضاً في الترويج للملل والنحل الباطلة على أنها هي الطريق القويم والصراط المستقيم، قال تعالى يذكر قول هؤلاء المروجين للملل الباطلة: (وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين)<sup>3</sup>.

وأصحاب الملل الفاسدة، والتصورات المعكوسة يحملون الكراهية للحق وأهله، ومن هذا المنطلق تبدأ حملتهم الإعلامية ضد الهدى، قال تعالى: (والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم، ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم)<sup>4</sup>.

#### ثانياً: ترويج التهم والأباطيل

ترويج التهم والأباطيل هو دين حزب الشيطان، فليس لدى أهله حجة تقابل حجة، ولا برهان يقابل برهانا، ولذلك يلجؤون إلى ترويج التهم الباطلة، والألفاظ النابية، لصرف الناس عن دعوة الأنبياء عليهم السلام، ومن هذه التهم:

<sup>1</sup> - الآيتان (11-12) من سورة البقرة.

<sup>2</sup> - الآية (13) من سورة البقرة.

<sup>3</sup> - الآية (135) من سورة البقرة.

<sup>4</sup> - الآيتان (8-9) من سورة محمد.

\* السحر، وهو في الأصل من صناعة الشياطين كما قال تعالى: (ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر)<sup>1</sup>، وقد يعتمد الطغاة على السحرة في الترويج لفعالهم الخبيثة، ولكسر قلوب الناس، قال تعالى في وصف السحرة الذين اعتمد عليهم فرعون: (واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم)<sup>2</sup>، وإذا كان السحر من صناعة حزب الشيطان أساسا، فمن المستهجن أن تطلق أبواق الكفر الدعايات المغرضة حول الأنبياء عليهم السلام وتصفهم بأنهم سحرة، قال تعالى: (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون)<sup>3</sup>.

وإذا كان الاتهام بالسحر عاما للأنبياء عليهم السلام، فقد قص علينا القرآن تفصيلا لهذا الاتهام عند بعض الأنبياء عليهم السلام، فقد اتهم بالسحر موسى عليه السلام، وسجلت هذا الاتهام آيات عدة، منها قوله تعالى: (قالوا أجنبتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى)<sup>4</sup>، وقوله: (قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم)<sup>5</sup>، كما اتهم بالسحر أخاه هارون أيضا، قال تعالى: (قالوا إن هذا لساحران يريدان أن يخرجاك من أرضك بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى)<sup>6</sup>، والعجب أن هذه القرية التي ألصقت بموسى وهارون قد ألصقت أيضا بمحمد عليه السلام!، وسجلت هذا الاتهام آيات عدة، منها قوله تعالى: (أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين)<sup>7</sup>، وقوله: (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب)<sup>8</sup>.

ولكن كيف يكون الرجل ساحرا عظيما ومسحورا في آن واحد؟ هذا هو التناقض الذي لم تأبه به أبواق الدعاية الفرعونية حين وصفت موسى بأنه مسحور، قال تعالى: (فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحورا)<sup>9</sup>، ومثل هذا الخلط بين الساحر والمسحور وقع به كفار قريش حين زعم بعضهم أن محمدا مسحور، قال تعالى: (نحن أعلم بما يستمعون به إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى إذ يقول الظالمون إن تتبععون إلا رجلا مسحورا)<sup>10</sup>، ويلاحظ هنا تناقض المشركين في وصف الرسول مرة بساحر وأخرى بمسحور! ومثل هذا التناقض كثيرا ما تقع به أجهزة الدجل الإعلامي في حزب الشيطان.

1 - الآية (102) من سورة البقرة.

2 - الآية (116) من سورة الأعراف.

3 - الآية (52) من سورة الذاريات.

4 - الآية (57) من سورة طه.

5 - الآية (109) من سورة الأعراف.

6 - الآية (63) من سورة طه.

7 - الآية (2) من سورة يونس.

8 - الآية (4) من سورة ص.

9 - الآية (101) من سورة الإسراء.

10 - الآية (47) من سورة الإسراء.

\* ومن التهم التي يفيض بها قاموس حزب الشيطان وصف الأنبياء والرسل عليهم السلام بالجنون، وهذا الاتهام الظالم لم يسلم منه رسول ولا نبي من الأنبياء عليهم السلام، قال تعالى: (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون)<sup>1</sup>.

وإذا كان الاتهام بالجنون عاما للأنبياء عليهم السلام، فقد قص علينا القرآن تفصيلا لهذا الاتهام عند بعض الأنبياء عليهم السلام، قال تعالى عن قوم نوح عليه السلام: (كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر)<sup>2</sup>، وتكرر ذلك منهم، فقال تعالى عنهم في موضع آخر: (وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون)<sup>3</sup>، واتهم موسى عليه السلام أيضا بالجنون، قال تعالى على لسان فرعون: (قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون)<sup>4</sup>، وقال أيضا: (فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون)<sup>5</sup>، وقد اتهم النبي محمد عليه السلام بهذا الاتهام، قال تعالى: (فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون)<sup>6</sup>، وقال يحكي مقولة الكفار عن نبيه محمد عليه السلام: (ويقولون أننا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون)<sup>7</sup>.

وقد يصاحب الاتهام بالجنون نظرات حاقدة تطفح غيظا وعداوة، قال تعالى: (وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون إنه لمجنون)<sup>8</sup> قال الزمخشري في تفسير هذه الآية: (يعني أنهم من شدة تحديقهم ونظرهم إليك شزرا بعيون العداوة والبغضاء يكادون يزلون قدمك أو يهلكونك، من قولهم: نظر إلي نظرا يكاد يصرعني، ويكاد يأكلني، أي لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل لفعله)<sup>9</sup>.

\* ومن التهم التي يفيض بها قاموس حزب الشيطان وصف النبي عليه السلام بأنه شاعر، قال تعالى: (بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر)<sup>10</sup>، وقال أيضا: (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون)<sup>11</sup>، وقال عز من قائل: (ويقولون أننا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون)<sup>12</sup>، وكيف يكون المرء شاعرا ومجنونا في آن واحد؟ ما أبعد هذا عن محمد صلى الله عليه وسلم!.

1 - الآية (52) من سورة الذاريات.

2 - الآية (9) من سورة القمر.

3 - الآية (6) من سورة الحجر.

4 - الآية (27) من سورة الشعراء.

5 - الآية (39) من سورة الذاريات.

6 - الآية (29) من سورة الطور.

7 - الآية (36) من سورة الصافات.

8 - الآية (51) من سورة القلم.

9 - الكشف (597/4).

10 - الآية (5) من سورة الأنبياء.

11 - الآية (30) من سورة الطور.

12 - الآية (36) من سورة الصافات.

\* ومن التهم التي يفيض بها قاموس حزب الشيطان وصف النبي بأنه كاهن، قال تعالى: (فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون)<sup>1</sup>، وقال أيضا ينفى الكهانة عن نبيه عليه السلام: (وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون، ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون)<sup>2</sup>.

\* ولا يقتصر حزب الشيطان على إطلاق الأوصاف النابية على الأنبياء عليهم السلام، بل تتسع الدائرة لتشمل أتباعهم، فهؤلاء قوم نوح يقولون له في تبرير عدم إيمانهم: (قالوا أنؤمن لك واتبعك الأزدلون)<sup>3</sup>، والردالة: الخسة والدناءة، قال الزمخشري: (وإنما استرذلوا المؤمنين لفقرهم وتأخرهم في الأسباب الدنيوية)<sup>4</sup>، ويفيض الزمخشري في تفصيل أسباب هذا الموقف السلبي من المؤمنين، فيقول: (وإنما استرذلوهم لاتضاع نسبهم وقلة نصيبهم من الدنيا، وقيل: كانوا من أهل الصناعات الدنية كالحياسة والحجامة، والصناعة لا تزري بالديانة، وهكذا كانت قريش تقول في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما زالت أتباع الأنبياء كذلك حتى صارت من سماتهم وأماراتهم، ألا ترى إلى هرقل حين سأل أبا سفيان عن أتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما قال: ضعفاء الناس وأرذلهم. قال: ما زالت أتباع الأنبياء كذلك)<sup>5</sup>، فالفقر والتخلف المهني أو الصناعي لا يعيب الإنسان عند بداية إيمانه، ولكن لا يعني هذا بأن الدين يحبذ بأن يبقى المؤمن فقيرا ضعيفا لا حيلة له ولا سعي، فالمؤمن مطالب بأن يكون في مقام القدوة وصاحب المبادرة حيثما كان، وذلك لأن المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، واليد العليا خير من اليد السفلى.

### ثالثا: اعتماد أساليب متعددة للتضليل الإعلامي ومن هذه الأساليب:

\* تشويه الحقائق، واتهام حملتها الصادقين من الأنبياء والمرسلين عليهم السلام بالكذب والضلال، وهو ديدن الكافرين من الأمم السابقة مع الأنبياء والرسل عليهم السلام، قال تعالى في شأن قوم نوح عليه السلام: (لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم، قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين)<sup>6</sup>، وقال أيضا في شأن قوم هود عليه السلام: (وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون، قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين)<sup>7</sup>، وقال

1 - الآية (29) من سورة الطور.

2 - الآيتان (41-42) من سورة الحاقة.

3 - الآية (111) من سورة الشعراء.

4 - الكشاف (388/2).

5 - الكشاف (324/3).

6 - الآيتان (59-60) من سورة الأعراف.

7 - الآيتان (65-66) من سورة الأعراف.

تعالى في شأن قوم صالح عليه السلام: (كذبت ثمود بالنذر، فقالوا أبشرا منا واحدا نتبعه إنا إذا نفي ضلال وسعر، ألقى عليه الذكر من بيننا بل هو كذاب أشر)<sup>1</sup>، ومعنى أشر: بطر متكبر، حمله بطره وشطارته وطلبه التعظم علينا على ادعاء ذلك<sup>2</sup>، وقال تعالى في شأن كفار قريش: (ولئن جنتهم بأية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون)<sup>3</sup>.

\* ومن أساليب التضليل الإعلامي تشويه الخطاب الرباني، وذلك من خلال لي الألسنة في التلاوة، كما قال تعالى: (وإن منهم لفريقا يلوّن ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون)<sup>4</sup>، قال الزمخشري: (يلون: يفتلون بقراءته عن الصحيح إلى المحرف)<sup>5</sup>، ويدخل في التشويه اللغو في القرآن، قال تعالى: (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون)<sup>6</sup>، والمعنى: (أي إذا تلى لا تسمعوا له كما قال مجاهد، [والغوا فيه] يعني بالمكاء والصفير والتخليط في المنطق على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت قريش تفعله)<sup>7</sup>.

\* ومن أساليب التضليل الإعلامي إبراز الكفر وكأنه الحقيقة المسلمة في هذا الكون، والإسراع إليه، كما هو شأن بعض العتاة من الكفرة، قال تعالى: (ولا يحزنك الذين يسارعون في الكفر إنهم لن يضروا الله شيئا)<sup>8</sup>.

\* ومن أساليب التضليل الإعلامي الثرثرة الإعلامية والاجترار الطويل للكلام، والمتمثل بالجدل بالباطل، ويدخل فيه الجدل بغير علم، قال تعالى: (يا أهل الكتاب لم تحاجون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون، ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون)<sup>9</sup>، وكثيرا ما يكون هذا الجدل بوحى من الشياطين، قال تعالى: (وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون)<sup>10</sup>، وتمكن الكافرين في الأرض هو الباعث على هذا الجدل، قال تعالى: (ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد)<sup>11</sup>، وربما جادل أولئك الكفرة بما يضربه الله من أمثال، قال تعالى: (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها فأما الذين آمنوا

1 - الآيات (23-25) من سورة القمر.

2 - الكشاف (437/4).

3 - الآية (58) من سورة الروم.

4 - الآية (78) من سورة آل عمران.

5 - الكشاف (377/1).

6 - الآية (26) من سورة فصلت.

7 - مختصر تفسير ابن كثير للصابوني، (261/3).

8 - الآية (176) من سورة آل عمران.

9 - الآيتان (65-66) من سورة آل عمران.

10 - الآية (121) من سورة الأنعام.

11 - الآية (4) من سورة غافر.

فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين، الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون)<sup>1</sup>.

ومن العجب أن الكفرة الذين تجذر فيهم الجدل، يتهمون أنبياءهم عليهم السلام به، قال تعالى عن قوم نوح: (قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين)<sup>2</sup>

\* ومن أساليب التضليل الإعلامي التشكيك بالحقائق والمسلمات، فقد شكك الكافرون بالقرآن، فادعوا بأنه حديث مفترى، قال تعالى: (أم يقولون افتراه قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئا هو أعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم)<sup>3</sup>، ومرة أخرى ادعوا بأنه إفك قديم، قال تعالى: (وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم)<sup>4</sup>. وكان أبو جهل أحد حاملي راية التشكيك بالدعوة الجديدة، فقد فكان (إذا سمع بالرجل قد أسلم له شرف ومنعة أنبه وأخزاه، وقال: تركت دين أبيك وهو خير منك، لنسفهن حلمك، ولنقلين رأيك، ولنضعن شرفك، وإن كان تاجراً، قال له: والله لنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك، وإن كان ضعيفاً ضربه وأغرى به)<sup>5</sup>.

ومن التشكيك المبندل، ما أثارته قريش حول جلوس الرسول صلى الله عليه وسلم مع رجل نصراني بمكة، مما أغرى قريشا بدعوى منكرة، وهي أن النصراني يعلم محمداً، متجاهلين أن الكتاب الذي أنزل على محمد إنما هو بلسان عربي مبين، وهو معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم التي تحداهم بها، بينما كان ذلك النصراني لا يحسن العربية، مما يبطل حججهم ويسقط دعواهم، قال ابن إسحاق: (وكان رسول الله فيما بلغني كثيرا ما يجلس عند المروة إلى مبيعة غلام نصراني، يقال له جبر، عبد لبني الحضرمي، فكانوا يقولون: والله ما يعلم محمداً كثيرا مما يأتي به إلا جبر النصراني غلام بني الحضرمي، فأنزل الله في ذلك قوله: [ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين]<sup>6</sup>)<sup>7</sup>.

\* ومن أساليب التضليل الإعلامي تزويق الخطاب الإعلامي، بحيث يبدو الكلام الجميل المنمق وكأنه يحمل الحقائق في طياته، وما هو إلا كجلد الأفعى الذي يغري منظره، فإذا أعجبت به ولمسته، قتلتك الأفعى بزعافها، قال تعالى يصف تعاون حزب الشيطان في الصناعة الإعلامية

1 - الآيتان (26-27) من سورة البقرة.

2 - الآية (32) من سورة هود.

3 - الآية (8) من سورة الأحقاف.

4 - الآية (11) من سورة الأحقاف.

5 - السيرة النبوية لابن هشام (86/2). دار الفكر، الطبعة الثانية.

6 - الآية (103) من سورة النحل.

7 - السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، (393/1). مؤسسة علوم القرآن.

المنمقة لصرف الناس عن الدعوة: (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون)<sup>1</sup>.

ومن الكلام المنمق: الشعر، وهو سلاح يصلح للخير والشر، وكثيرا ما يلجأ إليه الكفر لبيت الضلال من خلاله ولا سيما في فجر الدعوة الإسلامية، حيث لم يكن للنبي عليه السلام شعراء يذودون عنه، ثم تغير الأمر بالمدينة بعد وجود ثلاثة من الشعراء وهم: حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة في صف النبي عليه السلام، مما سمح بالاستثناء للحكم العام بشأن ضلال الشعراء، قال تعالى: (والشعراء يتبعهم الغاؤون، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون، وأنهم يقولون ما لا يفعلون، إلا الذين آمنوا)<sup>2</sup>، ويدخل في حكم الشعر الغناء وبعض الفنون الجميلة في حالة استخدامها لاستصراخ الغرائز، وتهيج الشهوات، قال تعالى: (ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزا أولئك لهم عذاب مهين)<sup>3</sup>، قال الزمخشري في تفسير الآية: (لهو الحديث نحو السمر بالأساطير والأحاديث التي لا أصل لها والتحدث بالخرافات والمضاحيك وفضول الكلام... ونحو الغناء وتعلم الموسيقى)<sup>4</sup>.

\* ومن أساليب التضليل الإعلامي استخدام لغة مزدوجة في الحياة، بمعنى أن يفصح الإنسان من خلال لسانه عن شيء جميل، بيد أن قلبه سلوكه وعمله بخلاف ذلك، مما يجعله يأسر الآخرين بالشعارات الجميلة التي يرفعها، وهو في حقيقته مارق بطل، يستخدم هذه الشعارات مطية ليقود الناس ويحقق مصالحه من خلالها، ولا يقبل توجيهها ولا نصحا بعد ذلك، قال تعالى: (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد، وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد)<sup>5</sup>، وهكذا كان المنافقون أيضا، أصحاب لغة مزدوجة في الحياة، قال تعالى: (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون، اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون)<sup>6</sup>.

\* ومن أساليب التضليل الإعلامي الاعتماد على الحلف الكاذب والأيمان الخادعة في لغة حزب الضلال، قال تعالى: (ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويلفون على الكذب وهم يعلمون، أعد الله لهم عذابا شديدا إنهم ساء ما كانوا يعملون، اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين)<sup>7</sup>، والإكثار من القسم سمة الدجالين الذين

1 - الآية (112) من سورة الأنعام.

2 - الآيات (224-227) من سورة الشعراء.

3 - الآية (6) من سورة لقمان.

4 - الكشاف (490/3).

5 - الآيات (204-206) من سورة البقرة.

6 - الآيتان (1-2) من سورة المنافقون.

7 - الآيات (14-16) من سورة المجادلة.

يريدون ترويح ضلالهم بالحلف، والشيطان عمدة حزبه في هذا الأمر، فقد أقسم لأدم كاذبا، وكان من نتيجة قسمه ما كان عقب ذلك من شقاء لبني آدم، قال تعالى: (وقاسمهما إني لكما من الناصحين)<sup>1</sup>.

\* ومن أساليب التضليل الإعلامي التبييت والتأمر الخفي، حيث يعمد المخططون على وضع برامجهم الفاسدة ومؤامراتهم اللفظية عبر الظلام، ومن وراء الكواليس كما يقال، قال تعالى: (يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم إذ يبيتون ما لا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطاً)<sup>2</sup>، ويدخل في التأمر: النجوى بالإثم، وتحية النبي بغير التحية الطيبة المعهودة من عند الله تعالى، قال تعالى: (ألم تر إلى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير)<sup>3</sup>.

ويدخل في التبييت والتأمر الوسوسة، وقد يكون صاحبها من الجن أو الإنس، وقد تتجاوز حدود الأمر بالمعاصي لتكون أداة لتنفيذ الخطط والجرائم ضد الدعوة، قال تعالى مبينا خطورة الوسوسة وضرورة الالتجاء إليه للخلاص من ضررها: (قل أعوذ برب الناس، ملك الناس، إله الناس من شر الوسواس الخناس، الذي يوسوس في صدور الناس، من الجنة والناس)<sup>4</sup>.

#### رابعاً: حرب إعلامية شاملة

عندما تبدأ شعلة النور تتوهج، ويصحو الناس من غفلتهم، ويتواردون على منهل الدين الحق، وتخشى أئمة الكفر على مصالحها، فإنها تقود حرباً إعلامية شاملة ضد الهدى، وتتمثل لغة الحرب عندها بالوعيد، فهذا شعيب يخاطب قومه مندداً بقعودهم في طريق الهدى وصددهم للناس عن الإيمان بلغة الوعيد، فيقول: (ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجاً واذكروا إذ أنتم قليلاً فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين)<sup>5</sup>.

ولا تقتصر الحرب الإعلامية على الكافرين بل ويقودها المنافقون أيضاً، وهم طابو خامس يعيش في جسم المسلمين، قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون)<sup>6</sup>.

<sup>1</sup> - الآيات (21) من سورة الأعراف.

<sup>2</sup> - الآية (النساء) من سورة 108.

<sup>3</sup> - الآية (8) من سورة المجادلة.

<sup>4</sup> - سورة الناس، الآيات (1-6).

<sup>5</sup> - الآية (86) من سورة الأعراف.

<sup>6</sup> - الآية (118) من سورة آل عمران.

وتتمثل الحرب الإعلامية في صور مهينة من إسكات الرسل عليهم السلام ورفض الاستماع إليهم، فلا حوار ولا رأي آخر ولا منطق ولا عدالة عند حزب الشيطان، قال تعالى: (ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله جاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرتم بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب)<sup>1</sup>، قال الزمخشري في تفسير الآية: (فردوا أيديهم في أفواههم: فعضوها غيظاً وضجراً مما جاءت به الرسل، كقوله: [عضوا عليكم الأنامل من الغيظ] أو ضحكا واستهزاء كمن غلبه الضحك فوضع يده على فيه، أو أشاروا بأيديهم إلى أسنتهم وما نطقت من قولهم: [إنا كفرنا بما أرسلتم به] أي هذا جوابنا لكم ليس عندنا غيره إقناطاً من التصديق، ألا ترى إلى قوله: [فردوا أيديهم في أفواههم وقالوا إنا كفرتم بما أرسلتم به] وهذا قول قوي، أو وضعوها على أفواههم يقولون للأنبياء: اطبقوا أفواهكم واسكتوا. أو ردوها في أفواه الأنبياء يشيرون لهم إلى السكوت، أو وضعوها على أفواههم يسكتونهم ولا يذرونهم يتكلمون)<sup>2</sup>.

وتتمتد الحرب الإعلامية لتطال بنارها اتهام المؤمنين بأسوأ الألفاظ، فهذا هو الإعلام الفرعوني يتهم المؤمنين بأنهم شرذمة! وما أحسنها من شرذمة!، يقول تعالى: (وأوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي إنكم متبعون، فأرسل فرعون في المدائن حاشرين، إن هؤلاء لشرذمة قليلون، وإنهم لنا لغائظون، وإنا لجميع حذرون)<sup>3</sup>، ومعنى الشرذمة: الطائفة القليلة، وقوله: ([حذرون]: أراد أنهم أقوىاء وأشداء، وقيل: مدججون في السلاح)<sup>4</sup>، فالقيادة الفرعونية الضالة على أهبة الاستعداد لمقاومة موسى ومن معه.

وتتواصل التهمة الفرعونية للمؤمنين لتشمل تهمة التآمر وقلب النظام العام، مما يبرر للرأي العام قتل المؤمنين وإبادتهم، قال تعالى: (قالوا إن هذا لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى، فأجمعوا كيدكم ثم اتوا صفا وقد أفلح اليوم من استعلى)<sup>5</sup>، وبالفعل فإن فرعون حشد كل إمكاناته للنزال ضد موسى عليه السلام، فهياً السحرة، وبت الدعاية في المدائن، وتم تحديد الموعد والمكان والوقت، واجتمع الناس لذلك، وهو ما عبر عنه الله تعالى في قوله: (فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى)<sup>6</sup>.

1 - الآية (9) من سورة إبراهيم.

2 - الكشاف، (542/2).

3 - الآيات (52-56) من سورة الشعراء.

4 - الكشاف (315/3)

5 - الآيتان (63-64) من سورة طه.

6 - الآية (60) من سورة طه.

## الضغوط الاقتصادية

لا تقل الضغوط الاقتصادية عن الحربين النفسية والإعلامية خطورة، فحين لا تجدي الحرب النفسية تبدأ الحرب الإعلامية، وحين لا تجدي الحرب الإعلامية تبدأ الضغوط الاقتصادية، وربما اجتمعت الحروب كلها في آن واحد كما في غزوة الأحزاب، وتتمثل الضغوط الاقتصادية في أمور منها:

## أولاً: تبرير الفقر والتردي الاقتصادي

يرى قادة حزب الشيطان أن الفقر قضاء وقدر، وذلك من أجل تبرير اكتنازهم للمال من جهة، والتردي الاقتصادي من جهة أخرى والذي يعيشه عامة الناس، قال تعالى: (وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه إن أنتم إلا في ضلال مبين)<sup>1</sup>.

ودأب هؤلاء الطغاة اكتناز المال الذي يحسونه وسيلة السعادة والخلود، كما قال تعالى: (ويل لكل همزة لمزة، الذي جمع مالا وعدده، يحسب أن ماله أخلده)<sup>2</sup>، وهم يحسبون هذا المال عن مستحقه من اليتامى والمساكين، قال تعالى: (أرأيت الذي يكذب بالدين، فذلك الذي يدع اليتيم، ولا يحض على طعام المسكين)<sup>3</sup>، ويرون أن تملكهم للمال وسيطرتهم عليهم سيجعل المسلمين ينفضون عن نبيهم عليه السلام، فهم يتعاملون مع الإنسان كما لو أنه جسد فقط بلا ضمير ولا روح!، ولا يبحث إلا عن لقمة العيش!، قال تعالى: (هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا والله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون)<sup>4</sup>.

وطالما أنهم أصحاب المال والسيطرة على السوق الاقتصادية فلا غرابة من أن يسخروا من ضعف إمكانات المسلمين المادية، قال تعالى: (الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم)<sup>5</sup>.

1 - الآية (47) من سورة يس.

2 - الآيات (1-3) من سورة الهمزة.

3 - الآيات (1-3) من سورة الماعون.

4 - الآية (7) من سورة المنافقون.

5 - الآية (79) من سورة التوبة.

### ثانيا: الإنفاق ضد الحق

الغالب على أئمة الكفر الترف، فهم كانوا مكنتزون، قال تعالى في صفة أهل النار: (إنهم كانوا قبل ذلك مترفين)<sup>1</sup>، وعندما تقرر أئمة الكفر الإنفاق، فسيكون ليس للأرامل والأيتام، وإنما إنفاق ضد الهدى!، قال تعالى: (إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون حسرة ثم يغلبون)<sup>2</sup>.

وإنفاق المال ضد الدعوة إلى الله قديم، فهذا فرعون يعد السحرة بالأموال الطائلة والزلفى عنده إذا غلبوا موسى، قال تعالى: (فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين، قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين)<sup>3</sup>. وهكذا نجد أن المال العام يحرم منه أهله ومستحقوه، ويكون موجها لحماية الأمن الفرعوني تحت شعار حماية مصلحة الأمة.

وقد يكون الإنفاق بقصد الرياء والشهرة، كما قال تعالى: (والذين ينفقون أموالهم رياء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ومن يكن الشيطان له قرينا فساء قرينا)<sup>4</sup>، وعلى الحالتين فالمال لا ينفق من أجل مسح الدموع والأحزان، وإنما ينفق ضد من جاءوا لمسح تلك الدموع والأحزان عن جبين الإنسانية من الرسل والأنبياء عليهم السلام تحت شعار حماية الأمة ومصالحها الحيوية.

### ثالثا: تبرير التنافس الحر المجرد من الأخلاق

الأصل في العمليات الاقتصادية أن تكون محكومة بقواعد الأخلاق، وأن يكون المال وسيلة لبناء العلاقات الاجتماعية وليس لتفكيكها، بيد أن النهم لجمع المال بأي أسلوب كان يجعل حزب الشيطان يحل جمعه بأية طريقة كانت!، فمن ذلك الربا الذي يزيد الفقير فقرا، والغني غنى، وقد عمد إليه اليهود منذ القدم، وسعوا إلى جمع المال من كل السبل المحرمة، وقد كان هذا كان سببا في تحريم الطيبات التي أحلت لهم، قال تعالى: (فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا، وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما)<sup>5</sup>.

كما سجل القرآن بعض الانحرافات الاقتصادية التي وقعت فيها الأمم الأخرى، ومن ذلك:

1 - الآية (45) من سورة الواقعة.

2 - الآية (36) من سورة الأنفال.

3 - الآيتان (41-42) من سورة الشعراء.

4 - الآية (38) من سورة النساء.

5 - الآيتان (160-161) من سورة النساء.

\* بخس الحقوق في الكيل والميزان ونحو ذلك، قال تعالى: (وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين)<sup>1</sup>.

\* ومن ذلك اغتصاب حقوق الآخرين ظلماً وعدواناً، قال تعالى: (وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا)<sup>2</sup>، ومن الظلم تلاعب بعض رجال الدين بأوامر دينهم بغية الاكتناز للمال، قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبئسهم بعذاب أليم)<sup>3</sup>.

#### رابعاً: الحصار الاقتصادي

عندما لا يجدي جمع المال واكتنازه بأيدي حزب الشيطان في صرف الناس عن الدعوة، أو تسخيرهم في الحرب ضد الدعوة لأصرف الناس عنها، يأتي دور الحصار والمقاطعة الاقتصادية، وهو عمل لم يلجأ إليه حزب الشيطان إلا لأصرف الناس عن هدي الأنبياء عليهم السلام، وفلسفة الحصار لا تتفق والدين، فمعلوم بأن الدين يؤيد الإنفاق في ساعات الشدة وأيام الجوع حرصاً على الإنسانية ورحمة بها، قال تعالى: (فلا اقتحم العقبة، وما أدراك ما العقبة، فك رقبة، أو إطعام في يوم ذي مسغبة، يتيماً ذا مقربة، أو مسكيناً ذا متربة)<sup>4</sup>، بيد أن أعداء الرسل عليهم السلام هم الذين يقومون بصنع الشدائد وتجويع الناس، وقد حاصرت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن يلوذ به في سنة سبع للبعثة، (قال ابن إسحاق: فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزلوا بلداً آمناً وقراراً، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم، وأن عمراً قد أسلم فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وجعل الإسلام يفشو في القبائل، اجتمعوا وائتمروا أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني المطلب، على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم، فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم)<sup>5</sup>.

وفي خضم هذا الحصار تبرز عنجهية أبي جهل وفحولته الجاهلية، (وقد كان أبو جهل فيما يذكرون لقي حكيم بن حزام بن خويلد بن أسد، معه غلام يحمل قمحاً، يريد به عمته خديجة بنت خويلد، وهي عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه في الشعب، فتعلق به، وقال: أتذهب بالطعام إلى بني هاشم؟ والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة، فجاء أبو البخترى بن هاشم بن الحارث بن أسد، فقال: مالك وله؟ فقال: يحمل الطعام إلى بني هاشم، فقال أبو البخترى: طعام كان لعمته عنده، بعثت إليه فيه، أفتمنعه أن يأتي بطعامها؟ اخل سبيل الرجل. فأبى أبو جهل

1 - الآية (85) من سورة الأعراف.

2 - الآية (79) من سورة الكهف.

3 - الآية (34) من سورة التوبة.

4 - الآيات (11-16) من سورة البلد.

5 - السيرة النبوية لابن هشام (101/2). دار الفكر، الطبعة الثانية.

حتى نال أحدهما من صاحبه)<sup>1</sup>. إنها الجاهلية التي لا تقيم وزنا لكل القيم الإنسانية، ولا تحقق ذاتها إلا بإلحاق الأذى بالآخرين.

---

<sup>1</sup> - السيرة النبوية لابن هشام (113/2). دار الفكر، الطبعة الثانية.

## المبحث الرابع

## ترويج جرائم الشرف والانحرافات الجنسية

يلجأ حزب الشيطان إلى المراهنة على إنسانية الإنسان، وذلك بإثارة غرائزه الحيوانية، وتهيجها من أجل قطع الطريق على الرسل عليهم السلام الذين يريدون تهذيب الغرائز الحيوانية، وإيقاظ الروح الإنسانية، وجعلها تنطلق حرة مرفرفة نحو عالم الملكوت، ويعتمد حزب الشيطان الخطوات التالية:

## أولاً: التجارة بالشهوات وإشاعتها

حب الشهوات فطرة في قلوب الناس، قال تعالى: (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عند حسن المناب)<sup>1</sup>، بيد أن هذه المحبة تحتاج إلى التوجيه والتهذيب، وليس إلى الانفلات وراء الشهوات، ولكن حزب الشيطان يستغل حب الناس لهذه الشهوات، من أجل نشر الفساد الخلقي والاجتماعي، ونشر السعار الجنسي الذي يحطم القيم والأخلاق، قال تعالى: (والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً)<sup>2</sup>، ونتيجة لهذا لفساد المتولد من الانفلات وراء الشهوات الجامحة، تشيع الفواحش بين الناس، وهو ما تخطط له قوى البغي والعدوان التي تستخدم مختلف الوسائل لإشاعة الفاحشة، قال تعالى: (إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم)<sup>3</sup>.

## ثانياً: رمي المحصنات

وفي خطوة أخرى تعقب نشر الفواحش في المجتمعات الإنسانية، يبدأ حزب الشيطان في تدنيس سمعة المؤمنين الأطهار الذين لم ينزلقوا في مستنقعات الرذيلة، قال تعالى: (إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا في الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم)<sup>4</sup>.

وقد اتهم بالفاحشة بعض من صفوة الله في خلقه، مثل السيدة مريم التي اتهمها اليهود بها، قال تعالى: (وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيماً، وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم)<sup>5</sup>، وقد صور القرآن سوء ظنهم واستعجالهم باللاتهام لمريم بالخطيئة، قال تعالى: (فأتت به قومها تحمله قالوا يا مريم لقد جننت شيئاً فرياً، يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً)<sup>6</sup>. ورغم تبرئة الله لمريم فقد بقي اليهود يتهمونها بالفاحشة إلى يومنا هذا.

1 - الآية (14) من سورة آل عمران.

2 - الآية (27) من سورة النساء.

3 - الآية (19) من سورة النور.

4 - الآية (23) من سورة النور.

5 - سورة النساء، الآيتان (156-157).

6 - سورة مريم، الآيات (27-28).

كما اتهمت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أيضا ظلما وعدوانا، وأنزل الله في ذلك آيات تتلى يبىرئ فيها عائشة، قال تعالى: (إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم) <sup>1</sup>. وهكذا حين لا يجد أعداء الهدى حجة يواجهون بها الرسل عليهم السلام، يلجأون إلى تلويف سمعة الأنبياء والمرسلين عليهم السلام بقذف بعض زوجاتهم، أو من يلوذ بهم، بغية صرف الناس عنهم.

### ثالثا: محاولة الاغتصاب الجنسي

ومن أسوأ صور العدوان والحرب على الأنبياء عليهم السلام أن يزج بأحدهم بالسجن لأنه لم يقبل الخيانة، ومحاولة الاغتصاب الجنسي لمن يلوذ بهم، وفي القرآن خبرين عن هذا الأمر:

الأول: يتعلق بقصة امرأة العزيز التي تحاول أن ترغم فتاها يوسف عليه السلام على الفاحشة معها وهو يرفض، فتعلن بكل صفاقة: (ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين، قال رب السجن أحب إلي مما يدعونني إليه) <sup>2</sup>.

والثاني: يتعلق بقوم لوط، الذين بلغ من صفاقتهم أنهم حاولوا اغتصاب ضيوف نبيهم، وهو ما يرسمه المشهد التالي من الآيات القرآنية: (ولما جاءت رسلنا لوطا سييء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب، وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي أليس منكم رجل رشيد، قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد) <sup>3</sup>، ولم يكن طلبهم للضيوف استجداء، وإنما كان عن طريق القهر والإجبار كما تصرح به الآيات التالية: (وجاء أهل المدينة يستبشرون، قال إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون، واتقوا الله ولا تخزون، قالوا أولم ننهك عن العالمين) <sup>4</sup>، والشاهد في الآية الأخيرة، وفي تفسيرها يقول الزمخشري: (عن العالمين: عن أن تجير منهم أحدا، أو تدفع عنهم، أو تمنع بيننا وبينهم، فإنهم كانوا يعترضون لكل أحد، وكان يقوم صلى الله عليه وسلم بالنهي عن المنكر والحجر بينهم وبين المتعرض له) <sup>5</sup>، وهكذا لم يتورع أولئك الفجرة من حزب الشيطان عن إعلان رغبتهم في العدوان الجنسي على ضيوف نبيهم، وهو إجرام يستحق عقوبة السماء، حيث جعل الله قريتهم عاليها سافلها، وإنه لعقاب لم نعهد أحدا عوقب به غيرهم.

<sup>1</sup> - الآية (11) من سورة النور.

<sup>2</sup> - الآيتان (32-33) من سورة يوسف.

<sup>3</sup> - الآيات (77-79) من سورة هود.

<sup>4</sup> - الآيات (67-70) من سورة الحجر.

<sup>5</sup> - الكشاف (585/2).

## المبحث الخامس

### التصفية المادية الشاملة للوجود الديني

تشمل التصفية الشاملة إنهاء الوجود الفعلي لأصحاب الصراط المستقيم من الأنبياء والمرسلين عليهم السلام وأتباعهم على المستوى الفردي والجماعي، وتدمير بيوت العبادة، وفيما يلي تفصيل ذلك:

#### أولاً: هدم دور العبادة

ويبدأ الطريق إلى ذلك بالصد عن دور العبادة وفي مقدمتها المسجد الحرام الذي جعل الله فيه أول بيت وضع للناس، وهذا هدم معنوي لتلك الدور لتكون مقفرة من الناس، قال تعالى: (إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام)<sup>1</sup>.

يلي ذلك السعي في هدم المساجد، وطردها من أراضيها، قال تعالى: (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين)<sup>2</sup>.

وربما حول أئمة الكفر هدم أفضلها وأعظمها وهو المسجد الحرام الذي فيه الكعبة المشرفة، كما في محاولة أبرهة الحبشي الذي أهلكه الله تعالى قبل البعثة، قال تعالى: (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل، ألم يجعل كيدهم في تضليل، وأرسل عليهم طيراً أبابيل، ترميهم بجارة من سجيل، فجعلهم كعصف مأكول)<sup>3</sup>.

وقد تقتضي مصلحة المفسدين بناء المساجد للدعاية والأذى، لتكون شركا يسطادون فيه الأنبياء عليهم السلام ويقتلونهم، كما هو حال مسجد ضرار الذي بناه المنافقون لاغتيال النبي محمد عليهم السلام عند صلاته فيه، وفيه يقول تعالى: (والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون)<sup>4</sup>.

#### ثانياً: التصفية الجسدية

التصفية الجسدية تبدأ من التعذيب، وتنتهي بالقتل والإبادة، والتعذيب مهما تكن أسبابه أمر معيب ابتليت به البشرية، روى هشام بن عروة، عن أبيه، أن هشام بن حكيم مر بالشام على أناس من الأنباط - فلاحه الأعاجم - وقد أقيموا في الشمس، وصب على رؤوسهم الزيت، فقال: ما

<sup>1</sup> - الآية (25) من سورة الحج.

<sup>2</sup> - الآية (114) من سورة البقرة.

<sup>3</sup> - سورة الفيل.

<sup>4</sup> - الآية (107) من سورة التوبة.

هذا؟ قيل: يعذبون في الخراج. فقال هشام: أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا)<sup>1</sup>.

وإذا كانت الشرائع السماوية ترفض تعذيب الناس، فإن شرائع الطاغوت الوضعية تقره وتبرره، ولا سيما بحق المؤمنين والصالحين، وأول من لقي التعذيب في سبيل الله، هم الأنبياء والمرسلون عليهم السلام، فهذه أم جميل امرأة أبي لهب تؤذي رسول الله عليه السلام، فينزل فيها قوله تعالى: (وامراته حمالة الحطب، في جيدها حبل من مسد)<sup>2</sup>، قال ابن عباس والضحاك: (كانت تضع الشوك في طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم)<sup>3</sup>، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستحضر صور الأنبياء من قبله وما لاقوه من الأذى فيخفف ذلك عنه، روى ابن مسعود، قال: كأني أنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكي نبيا من الأنبياء، ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: (اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون)<sup>4</sup>.

ويتعدى الإيذاء الأنبياء عليهم السلام ليشمل أتباعهم، فهم يعذبون إلى حد ينطقون فيه بالكفر مرغمين، وقد نزل في ذلك قوله تعالى: (من كفر بالله بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم)<sup>5</sup>، نزلت هذه الآية في عمار بن ياسر حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم، فوافقهم على ذلك مكرها وجاء معتذرا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله هذه الآية<sup>6</sup>، وقد لاقى المسلمون في عهد النبي من العنت والمشقة ما لم يلقه غيرهم، ويصف ابن عباس ما كان يلاقيه المسلمون من عذاب قریش فيقول: (والله إن كانوا ليضربون أحدهم، ويجيعونه، ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالسا من شدة الضر الذي نزل به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة، حتى يقولوا له: آلات والعزى إلهك من دون الله؟ فيقول نعم، حتى إن جعل ليمر بهم، فيقولون له: أهدا جعل جعل إلهك من دون الله؟ فيقول نعم، افتداء منهم مما يبلغون من جهده)<sup>7</sup>.

\* يلي التعذيب: السجن، وهو تعذيب نفسي وروحي للإنسان، وقد ابتلي به الأخيار والصالحون فأعانهم الله، فهذا يوسف يحبس بتهمة هو بريء منها، قال تعالى: (فلبث في السجن بضع سنين)<sup>8</sup>، وهذا فرعون يتوعد موسى عليه السلام، فيقول له: (قال لئن اتخذت إلها غيري لأجعلنك من المسجونين)<sup>9</sup>. هكذا القضية إذا إجبار على الشرك، أو عقوبة في السجن، ولا منزلة ثالثة بينهما!

\* عقب السجن يأتي القتل، وهو أسلوب يلجأ إليه أعداء الرسل والأنبياء عليهم السلام للتخلص من الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، قال تعالى: (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو

1 - رواه مسلم، انظر: مشكاة المصابيح، للتبريزي، بتحقيق الألباني، (1045/3).

2 - الأيتان (4-5) من سورة المسد.

3 - مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني، (690/3).

4 - متفق عليه، انظر: مشكاة المصابيح، للتبريزي، بتحقيق الألباني، (1416/3).

5 - الآية (106) من سورة النحل.

6 - مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني، (348/2).

7 - السيرة النبوية لابن هشام (68/2-69). دار الفكر، الطبعة الثانية.

8 - الآية (42) من سورة يوسف.

9 - الآية (29) من سورة الشعراء.

يقتلوك أو يخرجوك)<sup>1</sup>، ومعنى ليثبتوك: ليسجنوك، أو يوثقوك، أو يثخنوك بالضرب والجرح<sup>2</sup>، فقد حاول أعداء النبوة قتل النبي محمد عليه السلام، ولكنهم فشلوا، وقد تعرض النبي عليه السلام لعدد من محاولات القتل في المعارك وغيرها، فنجاه الله من ذلك، وتكررت المحاولة لقتله عليه السلام مرة أخرى بواسطة السم، وقدمت امرأة يهودية شاة مسمومة إلى النبي صلى الله عليه وسلم يوم خيبر، فلما سألها عن سبب ذلك، قالت: إن كنت نبيا لم يضرك، وإن لم يكن نبيا استرحنا منه، فعفا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يعاقبها، وتوفي أصحابه الذي أكلوا من الشاة<sup>3</sup>.

وقد سرى السم في جسده الشريف، وبقي أثره حتى وفاته عليه الصلاة والسلام، فكان في سلك الشهداء، وجمع الله له أجر النبوة والشهادة معا، (قال الأزهرى: قال جابر: واحتجم رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ، حجه مولى بني بياضة بالقرن والشفرة، وبقي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده ثلاث سنين، حتى كان وجعه الذي توفي فيه، فقال: [ما زلت أجد من الأكلة التي أكلت من الشاة يوم خيبر عدادا، حتى كان هذا أوان انقطاع أبهرى] وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم شهيدا)<sup>4</sup>، ونقل ابن إسحاق عن مروان بن عثمان بن أبي سعيد بن المعلى قوله في التعقيب على محاولة المرأة اليهودية سم النبي عليه السلام يوم خيبر: (فإن كان المسلمون ليرون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مات شهيدا، مع ما أكرمه الله من النبوة)<sup>5</sup>.

وأول من قتل من أتباع النبي محمد عليه السلام كانت سمية أم عمار بن ياسر، أول شهيدة في الإسلام، وقتلها أبو جهل لعنه الله<sup>6</sup>.

وقد تعرض الأنبياء السابقون عليهم السلام لمحاولات القتل، فهذا فرعون يريد موافقة من حوله على قتل موسى: (وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه)<sup>7</sup>، ويأتي رجل ناصح ليقول لموسى: (قال يا موسى إن الملائمة يأترون بك ليقتلوك)<sup>8</sup>، ولم تكن فكرة القتل مقصورة على قتل موسى عليه السلام، بل تجاوزت إلى قتل أبناء المؤمنين معه، من أجل وضع الألم والحرق في نفوس المؤمنين من الآباء، قال تعالى: (ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين، إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب، فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال)<sup>9</sup>.

1 - الآية (30) من سورة الأنفال.

2 - الكشاف (215/2)

3 - مشكاة المصابيح، للتبريزي، بتحقيق الألباني، (1668-1667/2)، الحديث رقم (5931)، وقد رواه أبو داود والدارمي، قال الألباني: وهو حديث صحيح.

4 - البداية والنهاية، لابن كثير، (210/4).

5 - السيرة النبوية، لابن هشام، (44/4).

6 - الروض الأنف للسهيلى، (78/2).

7 - الآية (26) من سورة غافر.

8 - الآية (20) من سورة القصص.

9 - الآيات (23-25) من سورة غافر.

ويبدو أن عقدة القتل انتقلت من الفراعنة إلى اليهود، فإذا بهم بعد أن مكن الله لهم في الأرض يقتلون الأنبياء عليهم السلام ظلما وعدوانا، حتى صار ذلك جبلة فيهم، وطبعا لهم، وإلى هذا تشير آيات كثيرة من القرآن الكريم، فهم ينسبون إلى أنفسهم قتل المسيح الذي نجاه الله منهم، قال تعالى: (فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم غلب بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا، وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاننا عظيما، وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم)<sup>1</sup>، وهم يقتلون كل نبي لا يوافق هواهم، قال تعالى: (أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففرقا كذبتم وفرقا تقتلون)<sup>2</sup>، ودافعهم للقتل هذا العصيان الذي تمرغوا فيه، قال تعالى: (وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون)<sup>3</sup>.

وقد اشتهر اليهود بقتل الأنبياء عليهم السلام وأتباعهم، قال تعالى: (إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم)<sup>4</sup>، وهذه الآية نزلت فيهم، وقد روى ابن أبي حاتم وابن جرير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأبي عبيدة بن الجراح: (يا أبا عبيدة، قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا من أول النهار في ساعة واحدة، فقام مائة وسبعون رجلا من بني إسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف، ونهوه عن المنكر، فقتلوه جميعا من آخر النهار من ذلك اليوم، فهم الذين ذكر الله عز وجل)<sup>5</sup>.

وهذا التاريخ الدموي لبني إسرائيل يجعلهم يستكبرون عن اتباع النبي العربي محمد صلى الله عليه وسلم، فهم كما قال الله عنهم: (وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين)<sup>6</sup>

ولا يقتصر قتل المشركين للمؤمنين وحدهم، بل يتجاوزهم إلى قتل الطفولة البريئة، قال تعالى: (وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم)<sup>7</sup>، هذا في بني إسرائيل، وأما العرب فحسبك بأن بعضهم كانوا يئدون بناتهم، وهو جرم عظيم يدل على قلوب سوداء!، قال تعالى: (وإذا الموعدة سنلت، بأي

1 - الآيات(155-157) من سورة النساء.

2 - الآية (87) من سورة البقرة.

3 - الآية (61) من سورة البقرة.

4 - سورة آل عمران، الآية (21).

5 - مختصر تفسير ابن كثير للصابوني، (1/274).

6 - الآية (91) من سورة البقرة.

7 - الآية (49) من سورة البقرة.

ذنب قتلت)<sup>1</sup>، وربما قتلوا أولادهم خشية الفقر، وقد نهاهم الله عن ذلك، قال تعالى: (وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم)<sup>2</sup>

\* ومن عقوبة القتل إلى عقوبة الرجم، قال الراغب: (الرَّجَامُ: الحجارة، والرجم: الرمي بالرجام، يقال رجم فهو مرجوم)<sup>3</sup> وهو صورة مهينة من صور القتل، حيث يرمى المقتول بالحجارة إلى حد الموت، وقد هدت أمم كثيرة أنبياءها بهذه الميثة الشنيعة، فهذا نوح عليه السلام يقول له قومه متوعدين: (قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين)<sup>4</sup>، وهذا إبراهيم عليه السلام يتوعده أبوه بالرجم، فيقول له: (قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك)<sup>5</sup>، وقد فسر الرجم هنا بالشتم والذم وهو قول ابن عباس، أو الرمي بالحجارة، أو الطرد<sup>6</sup>، وهذا شعيب عليه السلام يمن عليه قومه بعدم رجمه، وذلك بسبب وجود أتباع له لا تكريما لمقامه، فيقولون بكل صفاقة: (قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزير)<sup>7</sup>، وهذا موسى عليه السلام يستعيز بالله من الرجم وهو يواجه فرعون وملأه، فيقول: (وانني عدت بربي وربكم أن ترجمون)<sup>8</sup>، وهؤلاء الرسل الذين أرسلهم الله إلى إحدى القرى يتهددهم أهل القرية بالرجم، قال تعالى: (قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم)<sup>9</sup>.

ولا يقتصر التهديد بالرجم على الأنبياء عليهم السلام، بل قد يعاقب به المؤمنون أيضا، ولذلك كان الخوف من الرجم يدب في كيان أهل الكهف، وهم فتية من المؤمنين الصالحين، حيث قالوا بعد نوم طويل لم ينسهم طغيان قومهم: (إنهم إن يظهروا عليكم يرموكم أو يعيدوكم في ملتهم)<sup>10</sup>.

\* ومن أساليب التصفية الجسدية: الحرق، وقد ابتلي به إبراهيم عليه السلام، حين قرر قومه بأن يعاقبوه عقوبة لا يعاقب بمثلها إلا الله رب العالمين، قال تعالى: (قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين، قلنا يا نار كوني بردا وسلاما على إبراهيم)<sup>11</sup>، وهناك آية أخرى تبين

1 - الآيتان (8-9) من سورة التكوير.

2 - الآية (137) من سورة الأنعام.

3 - المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة (رجم).

4 - الآية (116) من سورة الشعراء.

5 - الآية (46) من سورة مريم.

6 - انظر: المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة (رجم)، والكشاف للزمخشري، (14/3)، ومختصر تفسير ابن كثير للصابوني (454/2).

7 - الآية (91) من سورة هود.

8 - الآية (20) من سورة الدخان.

9 - الآية (18) من سورة يس.

10 - الآية (20) من سورة الكهف.

11 - الآيتان (68-69) من سورة الأنبياء.

تردد قومه بين أن يقتلوه أو يحرقوه، بيد أنهم اختاروا العذاب الأشد والأنكى! وهو الحرق، قال تعالى: (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار)<sup>1</sup>.

\* ومن أساليب التصفية الجسدية: الصلب، وهو تعليق الإنسان للقتل، قيل هو شد صلبه على خشب، وقيل إنما هو من صلب الودك<sup>2</sup>، وقد توعد به فرعون السحرة حين أعلنوا إيمانهم بالله واتباعهم لموسى وهارون عليهما السلام، يقول تعالى: (فألقي السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى، قال آمنتم له قبل أن آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلا تقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى، قالوا: لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضي هذه الحياة الدنيا)<sup>3</sup>.

\* ومن أساليب التصفية الجسدية: إخراج الداعية من وطنه، وقد توعدت كثير من الأمم أنبياءها بالنفي والإخراج الإجماعي، وهو عقاب عام لكل الرسل عليهم السلام من أقوامهم كما قال تعالى: (وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا)<sup>4</sup>.

وقد جاءت حكاية التوعد بالإخراج مفصلة عن عدد من الأقوام، فمنهم قوم لوط عليه السلام، وكانوا يتعاطون الفواحش القبيحة، ويرفضون مواطنة من لم يتعاطاها معهم!، قال تعالى: (ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين، أننكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون، وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون)<sup>5</sup>، وتصور آية أخرى ببلدة قومه وحسبهم الغليظ حين قرروا إخراج لوط وأهله بسبب طهارتهم!، قال تعالى: (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم إنهم أناس يتطهرون)<sup>6</sup>.

ومنهم قوم شعيب عليه السلام، قال تعالى: (قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أولو كنا كارهين، قد افترينا على الله كذبا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها)<sup>7</sup>.

وكذلك سعى كفار قريش لإخراج النبي محمد عليه السلام، قال تعالى: (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها)<sup>8</sup>، ومعنى الاستفزاز: الازعاج، أي كاد أهل مكة ليزعجونك بعداوتهم ومكرهم لتخرج من أرض مكة<sup>9</sup>، وقد تم للمشركين ما أرادوا فأخرجوا الرسول عليه السلام من أرض مكة، وأخرجوا معه صحابته الكرام، وجريرتهم جميعا الإيمان

1 - الآية (24) من سورة العنكبوت.

2 - انظر: المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة (صلب).

3 - الآيات (70-72) من سورة طه.

4 - الآية (13) من سورة إبراهيم.

5 - الآيات (80-82) من سورة الأعراف.

6 - الآية (56) من سورة النمل.

7 - الآيات (88-89) من سورة الأعراف.

8 - الآية (76) من سورة الإسراء.

9 - انظر: الكشاف (685/2)

بالله وحده!، وفي هذا قال تعالى: (يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم)<sup>1</sup>، وضيق قريش على من بقي من المؤمنين المستضعفين بمكة، حتى صارت أكفهم ترتفع إلى الله، وألسنتهم تلهج بهذا الدعاء: (ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها)<sup>2</sup>.

والإخراج من الأوطان جريمة كبرى، قال تعالى: (وأخرج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا)<sup>3</sup>، قال الزمخشري: (الفتنة: الإخراج أو الشرك... [ولا يزالون يقاتلونكم]: إخبار عن دوام عداوة الكفار للمسلمين وأنهم لا ينفكون عنها، حتى يردوهم عن دينهم، وحتى معناها التعليل، كقولك: فلان يعبد الله حتى يدخل الجنة، أي يقاتلونكم كي يردوكم)<sup>4</sup>، ومثل هذه الجريمة ربما كانت أسوأ من القتل، قال تعالى: (وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل)<sup>5</sup>، قال الزمخشري: (أي المحنة والبلاء الذي ينزل بالإنسان يتعذب به أشد عليه من القتل، وقيل لبعض الحكماء: ما أشد من الموت؟ قال: الذي يتمنى فيه الموت، جعل الإخراج من الوطن من الفتن والمحن التي يتمنى عندها الموت)<sup>6</sup>.

وحتى لو هاجر المؤمن وترك بلاده لحزب الشيطان، فإن حزب الشيطان سيتعقبه في هجرته، ويطلب استرداده من غربته، ليوقع به الهوان والأذى!، وهو ما حصل لمن هاجروا إلى الحبشة، (قال ابن إسحاق: فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمنوا واطمأنوا بأرض الحبشة، وأنهم قد أصابوا بها داراً وقراراً، انتمروا بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش جليدين إلى النجاشي، فيردهم عليهم ليفتنوهم في دينهم، ويخرجوهم من دارهم التي اطمأنوا بها وأمنوا فيها، فبعثوا عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص بن وائل، وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقته، ثم بعثوهما إليه فيهم)<sup>7</sup>، وهكذا تصيح البلاد وكأنها بلادهم وحدهم، ويصبح جند الله في العراق!

\* ومن الجرائم التي يرتكبها حزب الشيطان: تهديد الأمن العام كقطع الطرق مثلاً، وفي هؤلاء نزل قوله تعالى: (إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا)<sup>8</sup>، وقطع الطريق هو من عمل قوم لوط، قال تعالى: (أنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديك المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين)<sup>9</sup>، قال الزمخشري: (قطع السبيل: عمل قطاع الطريق من قتل الأنفس وأخذ

1 - الآية (1) من سورة الممتحنة.

2 - الآية (75) من سورة النساء.

3 - الآية (217) من سورة البقرة.

4 - الكشاف (259/1).

5 - الآية (191) من سورة البقرة.

6 - الكشاف، (236/1).

7 - السيرة النبوية لابن هشام (86/2). دار الفكر، الطبعة الثانية.

8 - الآية (33) من سورة المائدة.

9 - الآية (29) من سورة العنكبوت.

10 الكشاف (452/3)

وبعد: فهذه هي طريق الأنبياء والرسل عليهم السلام، شوك وابتلاء، ومحن وشدائد، لا يرتاح المؤمن منها إلا عندما يلقي ربه، قال تعالى: (لتبلون في أموالكم وأنفسكم ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور)<sup>1</sup>، قال الزمخشري في تفسير الآية: (والبلاء في الأنفس: القتل والأسر والجراح، وما يرد عليها من أنواع المخاوف والمصائب، وفي الأموال: الإنفاق في سبيل الخير وما يقع عليها من الآفات، وما يسمعون من أهل الكتاب المطاعن في الدين الحنيف، وصد من أراد الإيمان، وتخطئة من آمن، وما كان من كعب بن الأشرف في هجائه لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وتحريض المشركين، ومن فنحاص، ومن بني قريظة والنضير)<sup>2</sup>.

### ثالثا: الإبادة الجماعية

عندما يعجز حزب الشيطان عن تصفية الرسل والأنبياء عليهم السلام، وعندما تنتشر الدعوة انتشار الضوء في السماء، يلجأ حزب الشيطان إلى التصفية الجسدية الشاملة، أو بتعبيرنا العصري: (المحرقة).

فقد يتخذون قرارا جماعيا بالقتل، كما هو الحال مع موسى عليه السلام، قال تعالى: (وجاء رجل من أقصا المدينة يسعى قال يا موسى إن الملأ يأترون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين)<sup>3</sup>، وقد يسعون إلى التفرقة بين الطوائف ليقتل بعضها بعضا، كما صنع فرعون، قال تعالى: (إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم إنه كان من المفسدين)<sup>4</sup>، ومما جاء في معنى الآية أنه جعلهم (فرقا مختلفة قد أغرى بينهم العداوة وهم بنو إسرائيل والقبط، والطائفة المستضعفة: بنو إسرائيل)<sup>5</sup>، وقد يبیطشون أو يضربون بيد من حديد!، قال تعالى في وصف الظلم الفرعوني: (وقال الملأ من قوم فرعون أنذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون)<sup>6</sup>، وربما ألبسوا ظلمهم مظهر الوطنية والحرص على الناس، وذلك كما حاول فرعون، قال تعالى: (وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد)<sup>7</sup>.

1 - الآية (186) من سورة آل عمران.

2 - الكشاف(1/449-450).

3 - الآية (20) من سورة القصص.

4 - الآية (4) من سورة القصص.

5 - الكشاف (3/392).

6 - الآية (127) من سورة الأعراف.

7 - الآية (26) من سورة غافر.

وربما عمدوا إلى إشعال الحروب والتضحية بالأبرياء كما هو دأب اليهود، قال تعالى: (كلما أوقدوا نارا للحرب أطفاها الله ويسعون في الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين)<sup>1</sup>.

وقد لا يعتبر قادة حزب الشيطان بالمعجزات الظاهرة أمام أعينهم في سبيل القضاء على خصومهم من المرسلين عليهم السلام، فتجد أحدهم مثلا وهو فرعون يلاحق بجيشه موسى ومن معه رغم انفلاق البحر لموسى عليه السلام!، قال تعالى: (وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا)<sup>2</sup>.

ومن أسوأ صور المحرقة: الإبادة الجماعية لشعب آمن بالله، وهو الذي قصته سورة البروج، وهذا مقطع منها يصور الكارثة، قال تعالى: (والسماوات البروج، واليوم الموعود، وشاهد ومشهود، قتل أصحاب الأخدود، النار ذات الوقود، إذ هم عليها قعود، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد، الذي له ملك السموات والأرض والله على كل شيء شهيد)<sup>3</sup>، ولهذه الآيات قصة عجيبة، فقد روى صهيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (كان فيمن كان قبلكم ملك، وكان له ساحر، فلما كبر الساحر قال للملك: إني قد كبر سني وحضر أجلي، فادفع إلي غلاما لأعلمه السحر، فدفعت إليه غلاما كان يعلمه السحر، وكان بين الساحر وبين الملك راهب، فأتى الغلام على الراهب، فسمع من كلامه فأعجبه نحوه وكلامه، وكان إذا أتى الساحر ضربه، وقال: ما حبسك؟ وإذا أتى أهله ضربوه، وقالوا: ما حبسك؟ فشكا ذلك إلى الراهب، فقال: إذا أراد الساحر أن يضربك فقل: حبسني أهلي، وإذا أراد أن يضربوك فقل حبسني الساحر، قال: فبينما هو ذات يوم إذ أتى على دابة فظيعة عظيمة قد حبست الناس فلا يستطيعون أن يجوزوا، فقال: اليوم أعلم: أمر الراهب أحب إلى الله أم أمر الساحر؟ قال: فأخذ حجرا، فقال: اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر فاقتل هذه الدابة حتى يجوز الناس. ورماها فقتلها، ومضى الناس، فأخبر الراهب بذلك، فقال: أي بني أنت أفضل مني، وإنك ستبتلي، فإن ابتليت فلا تدل علي، فكان الغلام يبئ الأكمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيهم، وكان للملك جليس فعمي، فسمع به، فأتاه بهدايا كثيرة، فقال: اشفني ولك ما هاهنا أجمع، فقال: ما أنا أشفي أحدا، إنما يشفي الله عز وجل، فإن أمنت به دعوت الله فشفاك، فآمن، فدعا الله فشفاه، ثم أتى الملك، فجلس منه نحو ما كان يجلس، فقال الملك: يا فلان! من رد عليك بصرك؟ فقال: ربي! فقال: أنا؟ قال: لا، ربي وربك الله. قال: ولك رب غيري؟ قال: نعم، ربي وربك الله. فلم يزل يعذبه حتى دل على الغلام، فبعث إليه فقال: أي بني! بلغ من سحرك أن تبئ الأكمه والأبرص وهذه الأدواء؟ قال: ما أشفي أحدا، إنما يشفي الله عز وجل. قال: أنا؟ قال: لا. قال: ولك رب غيري؟ قال: ربي وربك الله. فأخذه أيضا بالعذاب، فلم يزل به حتى دل على الراهب، فأتى بالراهب، فقال: ارجع عن دينك. فأبى، فوضع المنشار في مفرق رأسه، حتى وقع شقاه إلى الأرض، وقال للغلام: ارجع عن دينك، فأبى، فبعث به مع نفر إلى جبل كذا وكذا، وقال: إذا بلغتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فدهوه، فذهبوا به، فلما علوا به الجبل، قال: اللهم اكفنيهم بما شئت، فرجع بهم الجبل، فدههوا أجمعون، وجاء الغلام يتلمس حتى دخل على

<sup>1</sup> - الآية (64) من سورة المائدة.

<sup>2</sup> - الآية (90) من سورة يونس

<sup>3</sup> - الآيات (9-1) من سورة البروج.

الملك، فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى، فبعث به مع نفر في قرقور، فقال: إذا لججتم به البحر، فإن رجع عن دينه وإلا فغرقوه في البحر، فلججوا به البحر، فقال الغلام: اللهم اكفنيهم بما شئت، فغرقوا أجمعون، وجاء الغلام حتى دخل على الملك، فقال: ما فعل أصحابك؟ فقال: كفانيهم الله تعالى، ثم قال للملك: إنك لست بقاتلي حتى تفعل ما أمرك به، فإن أنت فعلت ما أمرك به قتلنتي، وإلا فإنك لن تستطيع قتلي، قال: وما هو؟ قال: تجمع الناس في صعيد واحد، ثم تصلبني على جذع، وتأخذ سهمًا من كنانتي، ثم قل: باسم الله رب الغلام، فإنك إذا فعلت ذلك قتلنتي، ففعل، ووضع السهم في كبد قوسه، ثم رماه، وقال: باسم الله رب هذا الغلام، فوقع السهم في صدغه، فوضع الغلام يده على موضع السهم، ومات، فقال الناس: أما برب الغلام. فقيل للملك: أرايت ما كنت تحذر؟ فقد والله نزل بك، فقد آمن الناس كلهم، فأمر بأفواه السكك فحذت فيها الأخاديد، وأضرمت فيها النيران، وقال: من رجع عن دينه فدعوه، وإلا فأقحموه فيها، قال: فكانوا يتعادون فيها ويتدافعون، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه، فكأنها تقاعست أن تقع في النار، فقال الصبي: اصبري يا أمه فإنك على الحق<sup>1</sup>.

وهذا الحديث يبين مدى الظلم والإرهاب الذي تمارسه بعض السلطات الغاشمة الملحدة ضد الإيمان، فالملك الضال لم يكتف بما آتاه الله من الملك والنعمة، فادعى الربوبية، ليكون مصدر السلطات كلها لشعبه!، وحين انكشف عواره، وانفضح أمره، على يد غلام كان قد رشحه لتعلم السحر، ليكون أداة طيعة له، يستخدمها لتسويق الكفر والدجل، انسلخ من إنسانيته، وتجرد من كل مشاعر الرحمة والخير، ودفعته غريزة الانتقام إلى إحراق شعبه، ولكن ثمة بأس من هذا كله، فقد انتصرت العقيدة، وهوى الصنم، حتى إن الطفل الرضيع ليقول لأمه اصبري إنك على الحق، فالموت في سبيل العقيدة خير من الحياة بدونها.

وإذا كان الطغاة لا يتورعون عن حرق الناس وإيذائهم، لأن مناهجهم وعقولهم وسلوكهم يقوم على التعسف والظلم والأذى فإن المنهج الرباني بعكس هذا كله، فهو منهج بر ورحمة وإحسان للكائنات جميعا، وهو يرفض أساليب القتل الجماعي مثل الحرق ابتداء، بل إنه ليرفض أيضا حتى إيذاء بعض الحشرات التي تسبح الله مثل النمل ناهيك بالإنسان، روى أبو هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (قرصت نملة نبيا من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله تعالى إليه: أن قرصتك نملة فأحرقت أمة من الأمم تسبح؟) متفق عليه، وزاد في مسلم: (فهلا نملة واحدة!)<sup>2</sup>، هكذا يعلم الله نبيه بأن لا يبادر للقتل الجماعي حتى ولو كان المقتول هو النمل الذي تسبب بالأذى لذلك النبي، وهنا ينجلي الفرق الشاسع بين دين الله الذي يحرم الظلم وبين مناهج الطاغوت التي تبرر العدوان أحيانا لمجرد العدوان!

ونختم هذا الموضوع بالحديث عن الفكر العدواني والأسلوب الإرهابي الذي لقيه النبي الأمي صلى الله عليه وسلم من قومه، قد كانوا لا يخافون من ربهم، وإنما من قعقة السلاح، ولذلك وصى الله نبيه والمؤمنين بالحدز الدائم، قال تعالى: (ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة)<sup>3</sup>، وبين له بأنهم أصحاب سلوك إرهابي عند

<sup>1</sup> - أخرجه أحمد، ورواه مسلم والنسائي بنحوه، انظر: مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني، (623/3-624).

<sup>2</sup> - متفق عليه، انظر: مشكاة المصابيح، للتبريزي، بتحقيق الألباني، (1202/2).

<sup>3</sup> - الآية (102) من سورة النساء.

النصر، قال تعالى: (كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون، اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون، لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون)<sup>1</sup>، ومعنى الإلّ: الحلف والعهد، وقيل القرابة<sup>2</sup>، وأما هدفهم من الحرب فهو تصفية الدعوة ورجالها، قال تعالى: (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط)<sup>3</sup>، قال الزمخشري: (هم أهل مكة حين خرجوا لحماية العير، فأتاهم رسول أبي سفيان وهم بالجدفة: أن ارجعوا فقد سلمت عيركم، فأبى أبو جهل، وقال: حتى نقدم بدرا، نشرب بها الخمر، وتعزف علينا القيان، ونطعم بها من حضرنا من العرب)<sup>4</sup>.

وقد ساعد المشركين طابور المنافقين الذين يتخاذلون عند الشدائد، ويبثون الوهن في نفوس المؤمنين، فهم كما وصفهم الله تعالى: (قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا، أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا، يحسبون الأحزاب لم يذهبوا وإن يأت الأحزاب يوعدوا لو أنهم بادون في الأعراب يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا)<sup>5</sup>.

وفي غزوة الأحزاب تكالبت كل قوى الأرض على المؤمنين ونبههم فنصرهم الله تعالى بعد محنة ومصابرة، قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا، إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا، هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا)<sup>6</sup>.

ولا يزال هذا ديدن حزب الشيطان، وهو قتال المؤمنين حتى النهاية، قال تعالى: (والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا)<sup>7</sup>، وهم البادئون بالعدوان، قال تعالى: (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين)<sup>8</sup>، ولن يتورعوا عن الحشد الجماعي للمعركة ضد المؤمنين، قال تعالى: (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا أن الله مع المتقين)<sup>9</sup>، وهم على الاستعداد التام للمعركة، يتحصنون للقتال، قال

1 - الآيات(8-10) من سورة التوبة.

2 - انظر: الكشاف(2/250).

3 - الآية (47) من سورة الأنفال.

4 - الكشاف (2/227).

5 - الآيات(18-20) من سورة الأحزاب.

6 - الآيات (9-11) من سورة الأحزاب.

7 - الآية (217) من سورة البقرة.

8 - الآية (190) من سورة البقرة.

9 - الآية (36) من سورة التوبة.

تعالى: (لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون)<sup>1</sup>، ويأخذون بأسباب القوة المادية، حتى إنهم ليعتمدون عليها دون الله، قال تعالى: (وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله)<sup>2</sup>، وهم عند الظفر لن يتورعوا عن الفتك والإبادة، قال تعالى: (إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون)<sup>3</sup>، ومعنى يثقفوكم: يظفروا بكم ويتمكنوا منكم<sup>4</sup>، فإذا ظفروا كانت المجازر الجماعية، والأعمال الوحشية، حتى إنهم ليمثلون بالجثث، ويبقرون بطون الحوامل من النساء!.

وعلى العكس من هذا كله سلوك المؤمنين الموحدين، فدينهم يمنعهم من الفتك، روى أبو هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الإيمان قيد الفتك، لا يفتك مؤمن)<sup>5</sup>، بل إن دينهم ليأمرهم بالأخذ على أيدي الظالم ولو كان أخا أو قريبا ورده إلى الحق، فعن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (انصر أخاك ظالما أو مظلوما)، فقال رجل: يا رسول الله! انصره ظالما، فكيف أنصره مظلوما؟ قال: (تمنعه من الظلم، فذلك نصرك إياه)<sup>6</sup>، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه سلوك أصحاب الصراط المستقيم في الأرض، وهو أن تكون الجماعة المؤمنة مصدر الخير والإحسان والالتزام بمنهج الله في هذا العالم المتخبط في الظلمات، فعن حذيفة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تكونوا إمعة، تقولون إن أحسن الناس أحسنا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أسأؤوا فلا تظلموا)<sup>7</sup>.

وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حريصا على أن يعلم أصحابه قواعد الخلق والرحمة حتى وهم يتوجهون للجهاد في سبيل الله، فعن سليمان بن بريدة، عن أبيه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا، ثم قال: (اغزوا بسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا فلا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال - أو خلال - فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم...)<sup>8</sup>، ولا عجب أن يوصي الرسول الكريم بترك الظلم والابتعاد عنه في كل الحالات، أليس هو القائل: (الظلم ظلمات يوم القيامة)<sup>9</sup>؟.

1 - الآية (14) من سورة الحشر.

2 - الآية (2) من سورة الحشر.

3 - الآية (2) من سورة الممتحنة.

4 - الكشاف (513/4)

5 - رواه أبو داود، انظر: مشكاة المصابيح، للتبريزي، بتحقيق الألباني، (1053/2).

6 - متفق عليه، انظر: مشكاة المصابيح، للتبريزي، بتحقيق الألباني، (1385/3).

7 - رواه الترمذي، انظر: مشكاة المصابيح، للتبريزي، بتحقيق الألباني، (1418/3).

8 - رواه مسلم، انظر: مشكاة المصابيح، للتبريزي، بتحقيق الألباني، (1150/2).

9 - متفق عليه عن ابن عمر، انظر: مشكاة المصابيح، للتبريزي، بتحقيق الألباني، (1417/3).

## الخاتمة

تبين لنا من خلال هذا البحث بأن الناس حزبان: أصحاب الصراط المستقيم وهم حزب الله وأصحاب الجحيم وهم حزب الشيطان، والحزب الأول هو حامل لواء الحق، وهو قوي بربه، ضعيف بإمكاناته المادية، وأما الحزب الثاني، فهو حامل لواء الهوى والتمرد على سلطان الله في هذه الأرض، راياته كثيرة، وفحواها واحد، وهو حزب ضعيف بحجته، قوي بإمكاناته المادية.

والصراع بين الحزبين قائم عبر التاريخ وإلى قيام الساعة، حيث يستخدم الحزب الأقوى عادة بإمكاناته المادية كافة سبل الظلم والإرهاب بأشكاله المتعددة من: نفسية، وإعلامية، واقتصادية، وأخلاقية، وحرابية متمثلة بالتصفية الجسدية الشاملة، وذلك من أجل القضاء على أصحاب الصراط المستقيم، ولا يتورع حزب الشيطان عن إقامة محرقة شاملة لكل من آمن بالله واليوم الآخر.

وقد كان سلاح الأنبياء والمرسلين عليهم السلام هو الدعوة بالحسنى، والكلمة الطيبة، والالتجاء إلى الله، وربما قُتل بعضهم ظلماً وعدواناً، فنال إحدى الحسنين وهي الشهادة في سبيل الله تعالى، وربما دافع بعضهم عن نفسه وأصحابه بما رزقه الله من حيلة، ولكن النصر كان حليفهم في النهاية، لأن الله معهم، والحقيقة في صدورهم، والحق على ألسنتهم، والخير في أيمانهم، والنور في وجوههم، والصواب في مناجاتهم، والفطرة في ندائهم، وقد ثبتوا على دينهم حتى لقاء بارئهم بلا تغيير ولا تبديل ولا تحريف، وقد انتقم الله من ظالمهم في الدنيا، وسوف ينتقم منهم في الآخرة، قال تعالى: (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد)<sup>1</sup>.

وإذا كانت ثمة أمنية في نهاية هذا البحث، فإننا نود وقد بلغت البشرية طور الرشد وأخذت بأسباب العلم والتقدم أن يعيش الناس أحراراً ولو يوماً واحداً في هذا العالم تحت لواء الحرية التي هي أئمن ما في الوجود، وليتذكروا جهاد الأنبياء وصبرهم وما لاقوه من أذى الطواغيت، لعل البشر إذا عاشوا أحراراً، يرفضون العبودية إلا لله رب العالمين، وينتهي الظلم والعدوان الذي يمارسه الناس بحق بعضهم البعض، وأكثر ما يمارسونه ضد أتباع الرسل والأنبياء عليهم السلام من المستضعفين في الأرض.

\* \* \*

<sup>1</sup> - الآية (51) من سورة غافر.

**البحث السادس:**

**معركة القرآن مع الجمود والتخلف**

## مقدمة

عند قراءة القرآن من أوله إلى آخره، ومن ألفه إلى يائه، ولدى التمعن في مقاصده وأهدافه، وتشريعاته وأحكامه، وأخباره وقصصه، ووعدته ووعيده، وأمره ونهيه، ومفصله ومجمله، وعامه وخاصه، وناسخه ومنسوخه، وبيانه وأسلوبه، ولفظه ومعناه، يتبين للمرء من خلال ذلك كله بأن القرآن جاء للقضاء على التخلف بكافة أبعاده، ولتطوير الحياة الإنسانية في كافة أوجه النشاط فيها، من فكر وحركة وسلوك وشعور، ومن عقيدة وعبادة واقتصاد وسياسة وغير ذلك.

فالشرك والكفر والنفاق بكافة صورته لون من ألوان التخلف الفكري والعقدي الذي قامه القرآن.

والمعاصي السلوكية كلها من الكبائر والصغائر تندرج في ألوان التخلف الاجتماعي والاقتصادي.

والاستبداد والظلم والفتك يدخل ضمن التخلف السياسي.

وقد كان القرآن حرباً على مظاهر التخلف هذه كلها بالحجة والبرهان، لا بالسيف والسنان، ينقد ويفند ما هو فاسد في واقع الناس وواقع من قبلهم من الأمم والحضارات، قال تعالى: (فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً) (الفرقان: 52). وهو يطرح الرؤية البديلة لذلك كله التي تدل الناس على ما هو خير لهم في دينهم ودنياهم، قال تعالى: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) (الاسراء: من الآية 9).

وهذا البحث يأتي لتأكيد فكرة حرب القرآن للجمود والتخلف، لنثبت من خلاله أن القرآن كتاب لكل عصر ومصر، وهو الذي يقود البشر إلى الحضارة الراشدة، وينقذهم مما هم فيه من آلام ومشكلات.

## منهج البحث

إن هدف البحث هو معالجة مشكلات التخلف بعامة والمتعلقة بالعرب والمسلمين على وجه الخصوص، وقد حاولت أن أقدم جديداً وأن أنأى عن التكرار، ومشكلة التخلف في الفكر والسلوك والقول لدى الفرد والجماعة هي موضوع القرآن برمته، فكل سورة منه، بل كل آية إنما جاءت لتضرب التخلف أيا كانت صورته في مقتل، ولتبصر الإنسان وتنبير له درب الحق والخير والجمال، وهو الصراط المستقيم درب السعادة والتقدم والنجاح في الدنيا والآخرة، وقد اتبعت في هذا البحث منهجاً تحليلياً يقوم على تحليل الأمثلة والنماذج وليس على السرد والاستقصاء، لأن التفصيل سيجعل البحث طويلاً، وهو أمر خارج عن القصد هنا، فالقصد هنا أن نقدم معالماً

ونماذج لا أكثر ضمن منهجية علمية موضوعية ينتفع بها القارئ الكريم ويتفياً ظلالها الباحثون، وهذا البحث مقسم إلى تمهيد وأربعة مباحث وخاتمة.

والله من وراء القصد.

## تمهيد

سنتناول في هذا التمهيد بعض الأمور ذات الصلة بالبحث، وهي كالتالي:

## أولاً: حقيقة الإسلام

الإسلام بالمفهوم الشامل هو دعوة أصيلة فطرية ربانية كاملة متجددة عالمية للرفيق بالحياة الإنسانية والحضارة البشرية في مختلف أوجه النشاط التعبدية والاجتماعي والسياسي والاقتصادي والعلمي والأدبي.

## وفيما يلي تفصيل التعريف السابق

فهو دعوة أصيلة لأنه دين الأنبياء والمرسلين جميعاً، قال تعالى: (إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ) (آل عمران:19).

وفطرية لأنه دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها وهي التوحيد لله عز وجل، قال تعالى: (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتِ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) (الروم:30).

وربانية لأن مصدره العلي القدير الذي خلق الإنسان، قال تعالى: (قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً) (الفرقان:6) وكاملة لأنها تشمل أمور الدين والدنيا معاً، قال تعالى: (وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) (النحل:89).

ومتجددة لأنها ملائمة لكل زمان ومكان بما يفي بتطور الحياة البشرية، قال تعالى: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً) (الاسراء:9).

وعالمية لأنها خطاب للبشر جميعاً دون تفریق بين جنس أو لون، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات:13).

وتقدمية لقوله تعالى: (لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ، نَذِيراً لِلْبَشَرِ) (المدثر:36-37). قال الزمخشري: " (أن يتقدم): في موضع رفع بالابتداء، و(لمن شاء): خبر مقدم عليه، كقولك: لمن توضع أن يصل، ومعناه مطلق لمن شاء التقدم أو التأخر أن يتقدم أو يتأخر، والمراد بالتقدم والتأخر: السبق إلى الخير والتخلف عنه،، ويجوز أن يكون (لمن شاء) بدلا من (للشعر) على أنها

منذرة للكافرين الممكنين، الذين إن شاعوا تقدموا ففازوا، وإن شاعوا تأخروا فهلكوا<sup>1</sup>. وعند ابن كثير: "أي لمن شاء أن يقبل النذارة ويهتدي للحق، أو يتأخر عنها ويولي ويردها"<sup>2</sup>، وقال أبو السعود: "أي نذيرا لمن شاء منكم أن يسبق إلى الخير فيهديه الله تعالى، أو لم يشأ ذلك فيضله"<sup>3</sup>.

فمن تقدم نحو الخير فقد تقدم نحو الحق والتوحيد والهدى والصالح في أمور الدنيا والآخرة، ومن ثم تقدم نحو الجنة، ومن تأخر، فقد تفهقر وتراجع عن قبول الدعوة وتخلف عن ركب الحق والتوحيد والهدى والصالح، وابتعد عن منهج الخير والسلام، ومن ثم كان مصيره إلى النار، فالجنة مقر أهل التقدم في العقيدة والفكر والقول والسلوك من لدن آدم حتى قيام الساعة، كما أن النار مثنى لكل المتخلفين في العقيدة والعبادة والسلوك، من أول الخلق إلى آخرهم، وما أكثرهم!، والتقدم والتأخر ليس في ناطحات السحاب وصناعة الأسلحة الفتاكة، والرقي الدنيوي فقط، وإنما هو عملية رقي في مختلف جوانب الحياة، وفي مقدمة ذلك حياتنا الروحية والشعورية، بحيث نصنع الإنسان المتوازن الخير الذي يحمل الحب والخير للآخرين، ولا يكون هذا إلا عندما تعيش البشرية في ظلال الإسلام ودوحة القرآن، قال تعالى: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا) (الاسراء:9). وأما التخلف فهو العيشة بعيدا عن هدي القرآن، قال تعالى: (وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا) (الفرقان:30)، فما هي قيمة الإنسان إذا صعد إلى القمر ببذنه، ولم يصعد إلى الملاء الأعلى بروحه؟ وإذا استطاع اكتشاف أدق تفاصيل الخلق، ثم تجاهل الخالق المبدع الكبير، وإذا كان يستخدم المجهر لرؤية الأحياء الدقيقة، ولا يرى عيوبه وعوارفه، ما قيمة الإنسان إذا انفلت من الدين الحق، وراح يأكل لحم إخوانه في الإنسانية، هل غاية التقدم أن تصبح الأرض جحيما مهددة بالتلوث والفتك والأمراض بفضل الفلسفات المادية المتخلفة التي يزعم أصحابها برغم فسادهم أنهم مهتدون وصالحون ويقودون الناس إلى الفلاح، وما هم إلا كما قال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ، أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ) (البقرة:11-12)

### ثانيا: الإسلام دين الحضارة الشاملة

جاء الإسلام في بيئة أمية جاهلة متخلفة، فعلمها وثقافتها ورباها وهذبتها، قال تعالى: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (الجمعة:2).

وصنع الإسلام من أمة الجهل والتخلف خير أمة أخرجت للناس، قال تعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ) (آل عمران:110).

وقد نقل القرآن العرب نقلة بعيدة، وأمرهم بشكر هذه النعمة، قال تعالى: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ

1- تفسير الكشاف، (654/4).

2- مختصر تفسير ابن كثير، (572/3).

3- إرشاد العقل السليم، (61/9).

بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (آل عمران:103)، وحذرهم من العودة للتخلف والجاهلية في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، منها: قوله تعالى محذرا من نسيان شرعه ومنهجه شأن الأمم الأخرى: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (الحشر:19)، وقال تعالى محذرا من التفرق في الدين بعد الهدى: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (آل عمران:105)، وقال تعالى محذرا من عدم الاستجابة الفعلية لدينه: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ) (الأنفال:1)، وقال تعالى محذرا من التراجع عن السلوك القويم بعد التمكن فيه: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَفَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَخَذُونَ آيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِهِ وَلِيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ) (النحل:92)، "قال السدي: هذه امرأة خرقاء كانت بمكة كلما غزلت شيئا نقضته بعد إبرامه. وقال مجاهد وقاتدة: هذا مثل لمن نقض عهده بعد توكيده. وهذا القول أرجح وأظهر، سواء كان بمكة امرأة تنقض غزلها أم لا... وقال مجاهد: كانوا يحالفون الحلفاء، فيجدون أكثر منهم وأعز، فينقضون حلف هؤلاء، ويحالفون أولئك الذين هم أكثر وأعز، فنهوا عن ذلك."<sup>1</sup>

وقال تعالى محذرا من الشرك: (مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (الروم:31)

### ثالثا: محاور حرب القرآن على الجمود التخلف

والإسلام بطبيعته يرفض الجمود والتخلف بكافة صورته وألوانه، فحيث كان الجمود والتخلف تكون معركة القرآن، يبدو هذا واضحا في نصوص كتابه المقدس: القرآن الكريم، قال تعالى: (فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا) (الفرقان:52).

فالدين هو حياة وبعث جديد للفرد والمجتمع على حد سواء، قال تعالى: (أَوْ مَنْ كَانَ مُبْتَلًى فَآخِذِينَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (الأنعام:122).

ولا ينبغي لمن بعث ودبت فيه الحياة وهي هنا نور الوحي والهداية أن يعود إلى الموت المتمثل بظلمات الشرك والجهالة، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) (الأنفال:24).

والعودة للجهالة والتخلف قد تكون بالسلوك والعقيدة، أو بالسلوك دون العقيدة، فالتبرج ظاهرة سلوكية جاهلية قد تخلص منها المسلمون، فلا ينبغي التراجع والتقهقر باتجاهها مرة أخرى، قال تعالى: (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى) (الأحزاب: من الآية33).

والجمود نوع من التخلف فهو من ذكر الخاص قبل العام، كما في قوله تعالى على لسان نوح عليه السلام: (رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ

<sup>1</sup>- مختصر تفسير ابن كثير، (345/22).

الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَاراً) (نوح:28)، فالدعاء للمؤمنين والمؤمنات يشملهم ويشمل والديه ومن دخل بيته مؤمناً، وإنما تقدم ذكره لمزيد العناية بهم، وعليه فالجمود هو روح التخلف، وقد تقدم ذكره في هذا البحث لنثبت أن القرآن في معركة دائبة معه، فالقرآن كتاب ذكر وحياة وحركة، وهو يرفض جمود الحياة وجمود الفكر وجمود المجتمع، قال تعالى مندداً بالاتباع الأعمى للأبواء ولو كانوا جهلة لا يملكون من الحقيقة شيئاً: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ) (البقرة:170)، وفي القرآن آيات كثيرة ترفض موقف الكافرين وجمودهم على دين آباؤهم المشركين، وتمسكهم بعبادات آباؤهم، منها قوله سبحانه: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ) (المائدة:104)، وقال أيضاً: (قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ) (الأنبياء:53)، وقال: (قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) (الشعراء:74)، وقال: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ) (لقمان:21)، وقال: (وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ) (الزخرف:23).

والله تعالى يريد التنافس في الخيرات، قال تعالى: (خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكِ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ) (المطففين:26) ويدعو إلى السرعة في عمل الفضائل، قال تعالى: (وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ) (آل عمران:133)، ويعيب على المشركين جمودهم عند سماع القرآن وعدم انكبابهم ساجدين لله الذي أنزله، قال تعالى: (وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ) (الانشقاق:21).

والحياة لا ينبغي أن تتوقف لموت نبي أو رسول، قال تعالى: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) (آل عمران:144)، وعلى الأمة الاستمرار في نهجه من بعده من غير نكوص إلى الجاهلية، والتبديل في الدين فمرفوض لأنه عودة للتخلف الذي نجى الله عباده منه، قال تعالى: (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَنْعُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) (المائدة:50)، وليس ثمة إلا حق وباطل، وإسلام وجاهلية، فمن نكص عن دينه فقد عاد للجاهلية التي هي منتهى التخلف وقعر الباطل.

### وقد حارب القرآن التخلف على أربعة محاور، هي:

**المحور الأول:** من خلال ذكر تجارب الأمم السابقة مع أنبيائها، قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لَأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ) (يوسف:111)، وهذه القصص أفضل القصص في تاريخ البشرية لما فيها من التنبيه والعبرة، قال تعالى: (تَحُنُّ نَفْصُكَ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ) (يوسف:3). ولكل مجموعة من البشر ظروفها ومشكلاتها، وكان القاسم المشترك الأعظم بين مشكلات الجميع هو الشرك بالله تعالى، قال تعالى:

(وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) (يوسف:106).

**المحور الثاني :** من خلال المواجهة بين الدعوة وخصومها في مكة والمدينة، وقد ذكر القرآن كثيراً من تفاصيل تلك الأحداث، قال تعالى مصوراً حال المشركين ببدر وهزء الشيطان بهم: (وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآتِ الْفِتْنَانَ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (الأنفال:48). وقال تعالى مبينا سبب الهزيمة يوم أحد: (أَوْلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (آل عمران:165)، وقال تعالى مبينا ثبات المؤمنين يوم الخندق: (وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا) (الأحزاب:22)، وقال تعالى مبينا الانتكاسة النفسية التي مني بها المسلمون يوم حنين: (لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغِنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمُ مُدْبِرِينَ) (التوبة:25)، ولا تكاد تجد شيئاً ذا بال في حياة المسلمين مما يسبب تخلفهم أو تخلف أعداءهم إلا وذكره القرآن، وسدد الجميع إلى ما هو أفضل لهم في الدنيا والآخرة.

**المحور الثالث:** من خلال التشريعات التي فرضها الإسلام والتشريعات الجاهلية التي أبطلها، قال تعالى عقوبة جريمة الزنا: (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيْشِهَذَا عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ) (النور:2)، وقال تعالى محرماً للخمر والميسر وبعض العادات والمعتقدات الجاهلية: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (المائدة:90)

وجميع الفواحش تزري بالفرد والمجتمع والأمة، قال تعالى: (قُلْ تَعَالَوْا أَنزِلْ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرِزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَفْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (الأنعام:151)، وبالعكس من ذلك، فإن مكارم الأخلاق تنهض بلفرد والمجتمع الأمة، قال تعالى: (وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ) (فصلت:34)

**المحور الرابع:** من خلال دعوته لتطوير الحياة الإنسانية، فالدين أساساً جاء لبناء حياة إنسانية متكاملة، وليتم نقص الحياة، وليجيب على أسئلة الإنسان ويبين له سر وجوده، ويوجه البشر لما فيه مصلحتهم، فهو تقويم للحياة وتوجيه وتهذيب وتكميل، قال تعالى على لسان نوح عليه السلام: (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً) (نوح:10)، وتكون النتيجة عطاء ونماء في البيئة والإنسان: (يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً، ويمدكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً) (نوح:11-12).

وقال تعالى على لسان هود عليه السلام يخاطب عادا : (وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ ثُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ) (هود:52). فالإيمان قوة للبشر، وحفظ لهم ولحضارتهم، وتكميل لهم وعز وبقاء.

فدعوة الأنبياء فيها الخير والنماء للبشر جميعا، وفيها القوة والحضارة الراشدة، والسعادة للإنسانية جمعاء، وبهذا الصدد كانت دعوة النبي محمد هي خلاصة هذا الخير الذي قدمه الأنبياء والرسول عليهم السلام للناس جميعا، قال تعالى مبينا صفات النبي الخاتم محمد عليه الصلاة والسلام، وما في دينه من تحرر من الأغلال وتجديد في التشريع : (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَاَلَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (الأعراف:157).

#### رابعا: التخلف الذي تعيشه البشرية في العصر الحديث

يمكن تلخيص حالة التخلف الذي تعيشه البشرية في العصر الحديث بصورتين:

**الأولى:** وهي خاصة بالمسلمين، وتتمثل بنكوص كثير منهم عن تعاليم دينه حتى صار القرآن كتابا للأموال وليس للأحياء، وللزينة وليس للممارسة، وللبركة وليس للحركة، والدين هنا يشمل حركة الحياة كلها بما فيها الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، ولكن القرآن لم يعد يشكل حياة المسلمين بكافة أبعادها، وكأنهم قد نسوه بل تناسوه، وقد حذر الله من ذلك فقال عز وجل: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (الحشر:19)، وقد استشرى التخلف في حياة المسلمين في كل اتجاه، حتى صاروا لا يعرفون إلا به، فأساءوا إلى أنفسهم وشوهوا دينهم الجميل بممارساتهم القبيحة.

**والثانية:** وهي خاص بمن سواهم من الأمم والشعوب التي تجهل الإسلام فتحاربه، أو تعرف سر قوته وجماله فتحسده، أو تظن أن واقع المسلمين هذا هو من صنع الإسلام فتمقتته، وتعيش تلك الأمم والشعوب في ظلام دامس بمعزل عن نور الحقيقة، وتسلك مسلك صعبا في حياتها بالسير وراء المادة والتقدم العلمي من جهة، بينما تتنكر للخالق الكبير الذي وهبها تلك النعم وتعيش في خواء روحي بمعزل عن هدي السماء من جهة أخرى، وهي حياة تسبب خلافا نفسيا وعدم توازن في حركة الفرد والمجتمع، وإذا تلك المنجزات مهددة كلها بالفناء، وحياة الإنسان وبقائه على وجه الأرض صار مهددا أيضا، وهذا كله بسبب عقلية الطغيان التي استولت على البشر حتى صار لسان حال بعضهم يقول: (فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) (النازعات:24) وفرعون أول من قالها وليس آخرهم.

#### خامسا: ماذا يريد القرآن من البشر

القرآن كتاب إلهي معجز، تكفل الله بحفظه رحمة للبشر، وهو يهدف في البداية والنهاية إلى سعادة الإنسانية وتحقيق التقدم والازدهار لها، ولا يكون هذا إلا بفك الأغلال من أعناقها، فلا تكون العبودية لحجر ولا لبشر ولا لشهوة ولا لمال ولا لهوى... وإنما تكون خالصة لله رب العالمين، وهو دعوة تحترم العقل ولا تلزم الناس على الإيمان بها، فلهم حرية الاختيار على أن يتحملوا مسؤولية القرار بعد ذلك، قال تعالى: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (البقرة: 256)

ويمكن إيجاز أهم الأهداف القرآنية بما يلي:

- 1- التعاون والتعارف بين الأمم والحضارات (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات: 13).
- 2- الهداية للجميع من غير وصاية ولا إكراه (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرَهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ) (يونس: 99)  
(وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنْ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا (الأعراف: من الآية 56) وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا (النساء: 131).
- 3- التطور العلمي والأدبي الشامل، فالعلم نعمة تطلب من الله الاستزادة منها، قال تعالى: (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا) (طه: من الآية 114) والبيان نعمة قال تعالى: (الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان) (الرحمن: 1-4). والله سبحانه هو الذي جعل الإنسان في الأرض خليفة لينهض بعمارته: (هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) (هود: من الآية 61) ( وأمر الإنسان بالحفاظ على البيئة وسلامتها من الفساد (وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا) (الأعراف: من الآية 56).
- 4- تحقيق العدالة وذلك بإنهاء المظالم على وجه الأرض، وتحقيق الأمن النفسي والأسري والغذائي والاجتماعي للبشر، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (النحل: 90).
- 5- القضاء على الجمود والتخلف وهو موضوع بحثنا هذا.

وهذا البحث مقسم إلى أربعة مباحث وخاتمة، وهي تعالج منهج القرآن في مواجهة التخلف في كافة أشكاله الفكرية والعقدية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

## التخلف الفكري والعقدي

التخلف الفكري والعقدي هو أسوأ أنواع التخلف، حيث يعيش الإنسان كالبهيمة على وجه الأرض، لا يدري له هدفا غير الطعام والشراب والجنس، ولا يبحث عن سبب خلقه وإلى أين يصير بعد الموت، وهذه حال شريحة كبيرة من أهل الكفر والعناد قال تعالى: (ذَرُّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهَهُمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ) (الحجر:3)

وهناك نوع آخر من هذا التخلف وهو أن يعيش الإنسان حياته البهيمية من ناحية وهو يملك تصورات دينية مشوهة وقيما باطلة يؤقلم حياته من خلالها وهذه التصورات والقيم ما أنزل الله بها من سلطان، وهي تتحكم في سلوك الإنسان وتجعله يتخبط في الظلمات، قال تعالى: (ثَمَانِيَةَ أَرْوَاحٍ مِّنَ الضَّالِّينَ وَمِنَ الْمَعْرِزِ اثْنَيْنِ قُلْ الذَّكَّرِينَ حَرَّمَ أَمَّا الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ، وَمِنَ الْأَيْلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ الذَّكَّرِينَ حَرَّمَ أَمَّا الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (الأنعام:143-144)

ومن أهم جوانب التخلف الفكري والعقدي التي واجهها القرآن بالحجة والبرهان ما يأتي:

## أولاً: التخلف في معرفة الذات الإلهية العظمى

الله سبحانه وتعالى في التصور الإسلامي هو الرب الإله المالك المعبود الموصوف بصفات الجمال والكمال، الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية، له الأسماء الحسنى، بديع السموات والأرض، يسبح كل شيء بحمده، ولا يشبهه شيء من خلقه، قال تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (الشورى: من الآية11).

والتخلف في معرفة ذات العلي القدير له صور عدة، وفيما يلي أهمها:

## الصورة الأولى: وهي الشرك بالله تعالى

وهذه الصورة تأتي في مقدمة صور التخلف، والشرك هو أكبر الكبائر وأسوأ الذنوب، وهو على أنواع كثيرة، فمنها:

أ- أن ينسب لله ولد تعالى الله عن ذلك، فكيف يكون له ولد وليس له زوجة ولا صاحبة، قال تعالى: (بَدِيعَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (الأنعام:101).

ولو كان له ولد لكان ولده إلهاً، والإله لا يكون مخلوقاً محدثاً، وإنما هو قيوم أزلي هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الشراكة في الألوهية تقتضي الصراع بين المتشركين، ويؤدي هذا إلى فساد الكون بالضرورة، ولما كانت قوانين الكون في منتهى التوحد والانسجام فهذا ينفي الصراع، فالشراكة التي هي سببه، قال تعالى: (مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ

بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ) (المؤمنون:91)  
 ب - ومن الأخطاء البشعة التي وقع بها بعض البشر نسبة بعض الأنبياء والصالحين إلى الله  
 وليس إلى آبائهم، قال تعالى: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزِيرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ  
 قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) (التوبة:30). والله أجل  
 وأعظم من أن يكون له ولد سبحانه وتعالى. والأنبياء والمرسلون بريئون من الشرك وأهله، وهم  
 أبعد الناس عنه، قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِهْيَيْنِ  
 مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي  
 نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ، مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ  
 رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ  
 شَيْءٍ شَهِيدٌ) (المائدة:116-117).

ج - ويبالغ بعض المنحرفين عن منهج الرسل عليهم السلام في تزكية أنفسهم، فيدعون القرابة  
 والنسب إلى الله تعالى الله عن ذلك، قال تعالى: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ  
 قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ  
 وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) (المائدة:18)

د - ومن الشرك صرف العبادة لبعض مظاهر الطبيعة المختلفة، حيث يقف الإنسان مبهورا في  
 محراب الطبيعة البديع، فيظن أن بعض أجزائها آلهة له تهبه الحياة والاستمرار، فيعبدها من دون  
 الله، ويسجد لها ويتقرب، مثل السجود للشمس، وهكذا كان قوم سبأ، قال تعالى مخبرا عن هدهد  
 سليمان عليه السلام: (إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ، وَجَدْتُهَا  
 وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا  
 يَهْتَدُونَ) (النمل:23-24).

هـ - ومن الشرك عبادة الحيوانات والبهائم كما فعل السامري الذي أضل قوم موسى، قال تعالى:  
 (فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِي، أَفَلَا يَرَوْنَ إِلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ  
 قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا) (طه:88-89).

و - ومن الشرك عبادة الأشجار، قال تعالى: (كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ) (الشعراء:176).  
 قال الزمخشري: "وروي أن أصحاب الأيكة كانوا أصحاب شجر ملتف، وكان شجرهم الدوم".<sup>1</sup>  
 وعند ابن كثير أنهم هم أهل مدين، وقد نسبوا إلى عبادة الأيكة وهي شجرة، وقيل شجر ملتف  
 كالغيضة كانوا يعبدونها".<sup>2</sup>

ز - ومن الشرك صرف العبادة للأصنام والطغاة، قال تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ  
 أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ

<sup>1</sup> - تفسير الكشاف (3/332).

<sup>2</sup> - مختصر تفسير ابن كثير، (2/657).

لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ) (البقرة:165) قال الزمخشري في تفسير الآية: (أندادا: أمثالا من الأصنام وقيل من الرؤساء الذين كانوا يتبعونهم ويطيعونهم وينزلون على أوامرهم ونواهيهم)<sup>1</sup>.

ومن ذلك ما فعله قوم نوح، قال تعالى: (وَقَالُوا لَا تَدْرُنَّ إِلَهَتَكُمْ وَلَا تَدْرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسراً، وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيراً وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالاً) (نوح:23-24) قال الزمخشري: "كأن هذه المسميات كانت أكبر أصنامهم وأعظمها عندهم، فخصوها بعد قولهم: (لا تدرن إلهتكم) وقد انتقلت هذه الأصنام عن قوم نوح إلى العرب، فكان ود لكلب، وسواع لهمدان، ويغوث لمذحج، ويعوق لمراد، ونسر لحمير، ولذلك سمت العرب بعبد ود وعبد يغوث، وقيل: هي أسماء رجال صالحين، وقيل: من أولاد آدم ماتوا، فقال إبليس لمن بعدهم: لو صورتم صورهم فكنتم تنظرون إليهم، ففعلوا فلما مات أولئك قال لمن بعدهم: إنهم كانوا يعبدونهم، فعبدوهم"<sup>2</sup>.

ومن ذلك ما فعله قوم إلياس من دعوتهم للبعل، قال تعالى: (أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ) (الصفوات:125) قال الزمخشري: "وهو علم لصنم كان لهم كمناة وهبل، وقيل: كان من ذهب"<sup>3</sup>.

ومن ذلك ما فعله مشركو العرب، قال تعالى: (أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى، وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى، أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى، تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى) (النجم:19-22) وهذه أصنام كانت لهم، وهي مؤنثات، فاللات كانت لتقيف بالطائف، وقيل كانت بنخلة تعبدها قريش، والعزى كانت لغطفان، وهي تأنيث الأعز، ومناة صخرة كانت لخزاعة، وعن ابن عباس رضي الله عنهما: لتقيف، و (الأخرى) ذم، وهي المتأخرة الوضيعة المقدار، قال الزمخشري: "كانوا يقولون إن الملائكة وهذه الأصنام بنات الله، وكانوا يعبدونهم ويزعمون أنهم شفعاؤهم عند الله تعالى، مع وأدهم البنات، فقيل لهم: (أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَى). ويجوز أن يراد: أن اللات والعزى ومناة إناث، وقد جعلتموهن لله شركاء، ومن شأنكم أن تحتقروا الإناث وتستنكفوا من أن يولدن لكم، وينسبن إليكم، فكيف تجعلون هؤلاء الإناث أندادا لله وتسمونهن آلهة؟"<sup>4</sup>

والأصنام حجارة لا تضر ولا تنفع، لذا يحذر إبراهيم عليه السلام أباه من عبادتها، ويقول له بحنان الولد المشفق مستهجننا تلك العبادة: (إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً) (مريم:42)

وقد استنكر الله عبادة حجارة لا تضر ولا تنفع فهي جامدة عمياء صماء لا تدري ماذا يدور حولها، فقال عز وجل: (إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنَّكُمْ صَادِقِينَ، أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونَ) (الأعراف:194-195).

1 - تفسير الكشاف (211/1)

2- تفسير الكشاف، (619/4).

3- تفسير الكشاف، (60/4).

4- تفسير الكشاف، (423/4).

قال الزمخشري: "أي قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء، فإن ثبت ذلك فهم عباد أمثالكم، لا تفاضل بينكم، ثم أبطل أن يكونوا عباداً أمثالهم فقال: (أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا). وقيل: (عباد أمثالكم): مملوكون أمثالكم"<sup>1</sup>

وقد يخوفون الرسل عليهم السلام من الأوثان التي يعبدونها، ويزعمون لها الضر والنفع، قال تعالى: ( وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) (الزمر: من الآية36)، وهذه الأوثان هي جزء من لحمة المجتمع الجاهلي ونظامه الاجتماعي، فالمساس بها مساس ببنية المجتمع الأساسية، قال تعالى على لسان نبيه إبراهيم عليه السلام: (وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَأَكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) (العنكبوت:25)

ومن السخرية أن يقوم العاقل بصناعة صنم ثم يسجد لما صنعه ويقدم له القرابين، ومثل هذا العمل يدل على فقدان حاسة الوعي والإدراك عند صاحبه، ولا بد من مساعدته للتخلص من عقدة الوهم الذي يحمله على عبادة تلك الأصنام، ولذلك نجد إبراهيم عليه السلام يهرع لتحطيمها، ليحرر قومه من عقدة الوهم والاعتقاد بالخرافة والجهل، ولكنهم بدلاً من أن ينتبهوا استمروا بسكرتهم، شأن المدمن على التخدير الذي لا يصحو أبداً، وهنا ينتصر الله عز وجل لخليله، وينقذه من النار التي قذفه فيها، قال تعالى: (فَرَاغَ إِلَى آلِهِتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ، مَا لَكُمْ لَا تَنْتَقُونَ، فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ، فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزْفُونَ، قَالَ أتعبدون ما تحتون، والله خلقكم وما تعملون، قالوا فابنوا له بنيانا فألقوه في الجحيم، وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين) (الصافات:91-98).

ح - ومن الشرك الأمر بعبادة غير الله، قال تعالى: (قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ تُأْمُرُونِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ) (الزمر:64)، ولا تنبغي العبادة لأحد غيره عز وجل، حتى ولو كان ملكاً مقرباً أو نبياً مرسلًا، قال تعالى: (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَاداً لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ، وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) (آل عمران:79-80).

ط - ومن الشرك أيضاً الإشمئزاز من ذكر الله وحده، قال تعالى: (وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ) (الزمر:45)

ك - ويدخل في الافتراء التشريعات الباطلة التي لم يأذن بها الله، قال تعالى في شأن طائفة من أهل الكتاب: (اتَّخِذُوا أَحِبَارَهُمْ وَرُهَيْبَاتِهِمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (التوبة:31).

### الصورة الثانية: الإلحاد بأسماء الله وصفاته وأفعاله

ومن الإلحاد بأسماء الله عز وجل إنكار أسمائه الحسنى، قال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا) (الفرقان:60).

<sup>1</sup> - تفسير الكشاف، (2/189).

ومن الإلحاد في صفات الله عز وجل نفي ما وصف به نفسه، فهو سبحانه سميع بصير له الصفات العلاء، قال تعالى: (قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى) (طه:46). أو وصفه بما لا يليق به سبحانه كالفقر مثلا، وقد ادعى ذلك اليهود، قال تعالى: (لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُونِ عَذَابِ الْحَرِيقِ) (آل عمران:181)، أو وصفه بالبخل تعالى الله عن ذلك حيث قال: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ يُدُّ اللَّهُ مَغْلُولَةً غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلَعْنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْأَقْيِنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ) (المائدة:64).

ومن ذلك البحث عن حقيقة الذات الإلهية، وتشبيهها بالخلق المحدث، قال تعالى: (وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ) (الرعد:13) جاء في سبب النزول عن مجاهد، قال: "جاء يهودي، فقال: يا محمد! أخبرني عن ربك، من أي شيء هو؟ من نحاس هو؟ أم من لؤلؤ؟ أو ياقوت؟ قال: فجاءت صاعقة فأخذته، وأنزل الله: (وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ) الآية<sup>1</sup>. والعاقل يعلم أن الله لا يشبهه شيء من خلقه، وهو سبحانه أجل وأعظم من كل شيء، قال تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (الشورى: من الآية11).

ومن ذلك الافتراء على الله، ونسبة الأمر بفعل الفواحش إليه، قال تعالى: (وَإِذَا فَعَلُوا فَاجِسَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (الأعراف:28).

ومن الإلحاد نسبة الأفعال الإلهية في تصريف الكون وأموره لغيره عز وجل، علما أنه لا خالق غيره ولا فاعل سواه، قال تعالى: (اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ) (الزمر:62). وقال تعالى: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) (الروم:40). وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) (فاطر:3). وقال تعالى: (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ) (الصفافات:96).

وعليه فلا تأثير للنجوم ولا للسحرة، ولا للكهان، ولا للعرافين، ولا للأولياء والصالحين، ولا للملائكة أو الأنبياء المقربين في أمور الكون البتة، قال تعالى: (إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا) (مريم:93). وقال تعالى: (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ، وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) (آل عمران:79-80).

### الصورة الثالثة: الإلحاد بالذات العلية

1 - مختصر تفسير ابن كثير، (274/2-275).

ومن أسوأ صور التخلف في معرفة الله تعالى هي الإلحاد به عز وجل، وقد كثر هذا في عصرنا بسبب وجود الشيعوية في القرن العشرين وبقاء بعض أنظمتها في القرن الحادي والعشرين، وبسبب انتشار المذاهب المادية والعلمانية الضالة المضلة أيضاً، فهؤلاء لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن الحقيقة، وألحدوا وعاشوا كالبهائم، وهو أمر معيب بالإنسان فعلة، فكيف يجحد من خلقه؟ وكيف يصرف تدبير أمو الكون إلى الدهر أو الطبيعة؟ قال تعالى: (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) (الجناتية:24). قال الزمخشري: "كانوا يزعمون أن مرور الأيام والليالي هو المؤثر في هلاك الأنفس، وينكرون ملك الموت وقبضه الأرواح بإذن الله، وكانوا يضيفون كل حادثة تحدث إلى الدهر والزمان، وترى أشعارهم ناطقة بشكوى الزمان"<sup>1</sup>. وقال ابن كثير: "يخبر تعالى عن قول الدهرية من الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا) أي ما ثم إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثم معاد ولا قيامة، وهذا ما يقوله مشركو العرب المنكرون المعاد، وتقوله الفلاسفة الدهرية المنكرون للصانع، المعقدون أن في كل سنة وثلثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه، وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا العقول وكذبوا المنقول، ولهذا قالوا: (وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ) قال الله تعالى: (وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) أي يتوهمون ويتخيلون"<sup>2</sup>.

ومما يقود الإلحاد أيضاً طلب رؤية الله جهرة، وجعلها سبيلاً وحيداً لليقين، قال تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا) (الفرقان:21).

### ثانياً: التخلف في معرفة الملائكة عليهم السلام

الملائكة عباد الله تعالى وجنده المكرمون، خلقهم من نور، وميزهم بالجمال، وقد أمرهم الله بالسجود لآدم فامتثلوا طائعين، قال تعالى: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ) (البقرة:34)، وهم يحملون العرش ويستغفرون للمؤمنين، قال تعالى: (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ) (غافر:7) والملائكة لهم أجنحة، قال تعالى: (الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (فاطر:1)، ولهم وظائف كثيرة، قال تعالى في صفة الحفظة منهم: (كِرَامًا كَاتِبِينَ، يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ) (الانفطار:11-12).

وقد نسب المشركون الملائكة إلى الله تعالى، ومن ألوان الشرك زعمهم أن الملائكة بنات الله، وأن الله تزوج بالجن فولدت الملائكة تعالى الله عن ذلك، قال تعالى: (وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ) (الصافات:158). وقال تعالى منكرًا دعواهم بأن

<sup>1</sup>- تفسير الكشاف، (4/291).

<sup>2</sup>- مختصر تفسير ابن كثير، (3/311).

الملائكة بناته سبحانه، وهو ادعاء لا دليل عليه: (وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاتًا  
 أَشْهُدُوا خَلْقَهُمْ سَنَّكْتُبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ) (الزخرف:19)  
 وقديما عادى بنو إسرائيل جبريل عليه السلام فقال تعالى: (قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ  
 عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ) (البقرة:97)، بل هنالك من  
 يتجاوز عداوة جبريل إلى عداوة بقية الملائكة، قال تعالى: (مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ  
 وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ) (البقرة:98)

### ثالثا: التخلف في الموقف من الكتب السماوية

أنزل الله الكتب السماوية: (التوراة والزبور والإنجيل والقرآن) لتهدى الناس، وتعلمهم،  
 وتدلهم على ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، والقرآن هو خاتم تلك الكتب، وهو المحفوظ بعناية الله  
 إلى يوم القيامة، قال تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (الحجر:9).  
 وتتجلى عقلية التخلف في مواقفها من كتب السماء بأمر منها:

أ – رفض الإيمان بالكتب جملة، وهو منهج أهل الكفر والملاحدة، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا  
 آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ  
 وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا) (النساء:136).

ب – رفض الإيمان بما أوصت به بعض الكتب السماوية قبل القرآن، فقد بشر الله فيها ببعثة  
 محمد عليه السلام، قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ  
 مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ  
 قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ) (الصف:6)، وقال أيضا: (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ  
 مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ) (الأعراف: من الآية157) وطالما أن اسم محمد مكتوب في  
 التوراة والإنجيل فهذا يقتضي من أهل الكتاب الإيمان بالنبي محمد وبالقرآن الذي أنزل عليه،  
 وعندما يذكرهم النبي عليه السلام بضرورة الإيمان بالله يرفضون ذلك، مع أن الإيمان به يقتضي  
 الإيمان بكتبهم لأن القرآن يصدق بما فيها، قال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُوْمِنُ  
 بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ  
 كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (البقرة:91).

ولقد جحد أكثرهم البشارة بمحمد عليه السلام، وكذبوا بدينه الحق، وكانت هنالك طوائف  
 تقوم بكتمان الحق الذي يعرفونه جيدا كما قال تعالى: (الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ  
 أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (البقرة:146)  
 وهم جراء هذا الفعل الشنيع يستحقون لعنة الله وغضبه، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا  
 مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ، إِلَّا الَّذِينَ  
 تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُّوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (البقرة:159-160).

والباعث على كتمان الحقيقة هو المصالح المادية العاجلة التي تجعلهم يشتركون دنياهم بأخرتهم،  
 قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي  
 بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (البقرة:174)

وربما طلب بعضهم من النبي عليه السلام أن ينزل لهم كتابا محسوسا من السماء استهزاء وعتوا، قال تعالى: (يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ) (النساء: من الآية 153).

ج - ومن أسوأ صور تزييف الحقائق تحريف كلام الله المنزل من السماء، وهو ما عمد إليه بعض أهل الكتاب، قال تعالى: (أَفَنْظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) (البقرة: 75).

وسبب هذا التحريف مصلحة دنيوية عاجلة تتمثل في مكسب مادي بسيط كما قال تعالى: (فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ) (البقرة: 79).

ولا يخفى بأن التبديل في دين الله وكتبه ظلم يستحق أشد العقاب، ولذلك قال تعالى منددا بما فعله بعض أهل الكتاب: (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) (البقرة: 59).

د - الإعراض عن سماع ما أنزل الله، وربما هرب الكافرون من سماع الحقيقة، وأصابهم الهلع من رؤية صاحبها، فهربوا كما تهرب الحمير الوحشية من اللبوة زوجة الأسد، وهو هروب يدل على مدى الذعر والنفور من هذه الدعوة الجديدة، قال تعالى: (فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ، كَانَتْهُمْ حُمْرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ، فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ) (المدثر: 49-51). ومن أسوأ صور الهروب من سماع الحقيقة صك الأذان عند سماعها، وتغطية الرؤوس عند رؤية صاحبها كما كان يصنع قوم نوح عليه السلام، قال تعالى: (قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا، وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا) (نوح: 5-7). قال الزمخشري في شرح الآية: (واستعشوا ثيابهم: وتغطوا بها، كأنهم طلبوا أن تغشاهم ثيابهم أو تغشيهم كراهة النظر إلى وجه من ينصحهم في دين الله)<sup>1</sup>، وأية جهالة أكبر من صك الأذان، والتغطي بالثياب، إنه فعل من لا يثق بنفسه ومعتقده، فيريد أن يسد كل منافذ النور التي يمكن أن تبدد له ظلام ذلك المعتقد.

هـ - المواقف الهزلية من كلام الله، فمن ذلك الضحك عند سماع القرآن، قال تعالى: (أَفَمَنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعَجُّبُونَ، وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَتَّبِعُونَ) (النجم: 59-60). ولا بد لمن أراد أن ينتفع بكلام ربه من الخشوع والتدبر، وهو ما يفتقده المشركون، قال تعالى: (مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ) (الانبياء: 2).

#### رابعاً: التخلف في الموقف من الرسل وأتباعهم

الرسول في القرآن رجال أوحى الله إليهم، وهم خيرة خلق الله، ولهم حظ كبير من الفصاحة والجمال والكمال، قال تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ) (يوسف: من الآية 109)، وينبغي الإيمان بهم دون تفریق، قال تعالى: (قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ

<sup>1</sup> - الكشاف (616/4).

رَبَّهُمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ) (البقرة:136) ، وقال أيضاً: (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلُّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ) (البقرة:285).

ومن أسوأ صور التخلف في الموقف من الأنبياء والرسل عليهم السلام ما يلي:

أ- إنكار النبوات جميعاً، وكأن الله خلق البشر ليكونوا كالهوام السائمة على سطح الأرض، قال تعالى: (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا بَشَرًا مِنْ شَيْءٍ) (الأنعام: من الآية91).

ب- وقد يحاول أولئك المتخلفون تقديم تفسيرات غير صحيحة للدعوة، كدعوى أن النبي يريد الزعامة من وراء النبوة، وهذا ما ادعاه قوم نوح، قال تعالى: (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَى) (المؤمنون:24).

ج- الهوى والمزاجية، إذ ربما اقترحوا نزول القرآن على رجل بعينه، قال تعالى: (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) (الزخرف:31)، وينسى أولئك الجهلة بأن الله العليم الحكيم هو الأدرى بما يحقق مصلحة دينه وخلقته، وهو الذي يختار من يقوم بتحقيق المصلحة أحسن اختيار، قال تعالى: (اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ) (الأنعام: من الآية124).

د- رفض البراهين العقلية واعتماد الخوارق أدلة لإثبات النبوة، إذ يبلغ التخلف الفكري مداه الأقصى عندما يطلبون من الرسول عليه الصلاة والسلام الخوارق والمعجزات الحسية، وهو الذي يخاطبهم بلغة العقل والفطرة، وما يكون له أن يأتي بالمعجزات من تلقاء نفسه عليه السلام، لأن المعجزات الحسية لا تأتي وفق أهواء البشر و رغباتهم، قال تعالى: (وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا، أَوْ يُقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا، انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا) (الفرقان:7-9)، وقال أيضاً: (وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا، أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا، أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتْ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِلَهُ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا، أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرَفِيِّكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَأَهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا) (الاسراء:90-93).

ونشير هنا إلى أن معجزة الرسول الكبرى قائمة بين أيديهم وإلى قيام الساعة وهي هذا الكتاب الخالد الذي تعجز البشرية على أن تأتي بسورة من مثله، قال تعالى: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا النَّارَ الَّتِي وَفُودَهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) (البقرة:23-24). إن أعناق البشر لا تستطيع أن تتناول إلى سماء البلاغة القرآنية، والله يعلم ذلك، فقال عز وجل: (قُلْ

لَنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً) (الاسراء:88)، ومعجزة القرآن قد جاء معها العشرات من المعجزات الحسية الأخرى التي يقيمها الله عز وجل عند الضرورة أو الدعاء في مواطن الشدة، ولكنها تبقى القرآن هو المعجزة الأعظم للنبي الكريم، لأنه المعجزة الباقية إلى قيام الساعة، ويستطيع أي باحث منصف، أن يدرك من خلاله بأن رجلا أميا لا يتأتى له أن يقول القرآن من تلقاء نفسه، وإنما هو كتاب رب الأرباب، قال تعالى: (قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً) (الفرقان:6)

هـ - الانتقائية في الإيمان بالأنبياء والرسول عليهم السلام، وهو منهج لبعض المتخلفين من أهل الكتاب، إذ ربما حاول بعضهم التفرقة بين الله ورسوله والإيمان ببعضهم والكفر ببعضهم الآخر، وكان القضية مجرد هوى أو مزاج، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا، أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِينًا) (النساء:150-151).

و - رفض التعايش مع الرسول عليهم السلام وإعلان الحرب عليهم، إذ قد يحاولون إكراه الرسول عليهم السلام للعودة إلى ملة الكفر عنوة حفاظا على حياتهم وممتلكاتهم، قال تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ) (إبراهيم:13). وقال أيضا يذكر همة قوم شعيب في الشر، وسعيهم لإخراج نبيهم والعصبة المؤمنة التي التفت من حوله: (قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ، قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ) (الأعراف:88-89)، وكم قتل من الأنبياء والمرسلين عليهم السلام؟! قال تعالى: (لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَارْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ) (المائدة:70). وقد حاول أعداء النبي محمد عليه الصلاة والسلام قتله مرارا، قال تعالى: (وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُبْنِيَنَّوْكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ) (الأنفال:30). كما لقي النبي عليه الصلاة والسلام أذى شديدا من قومه، قال السهيلي: "فمنها: حثو سفهائهم التراب على رأسه، ومنها أنهم كانوا ينضدون الفرث والأفحاث والدماء على بابه، وي طرحون رحم الشاة في برمته، ومنها بصق أمية بن خلف في وجهه، ومنها وطء عقبة بن أبي معيط على رقبته، وهو ساجد عند الكعبة حتى كادت عيناه تبرزان، ومنها أخذهم بمخنقه حين اجتمعوا له عند الحجر، وقد ذكره ابن إسحاق، وزاد غيره الخبر أنهم خنقوه خنقا شديدا، وقام أبو بكر دونه فجبذوا رأسه ولحيته، حتى سقط أكثر شعره، وأما السب والهجو والتلقيب وتعذيب أصحابه وأحبائه وهو ينظر، فقد ذكر ابن إسحاق من ذلك في الكتاب، وقد قال أبو جهل لسمية أم عمار بن ياسر: ما أمنت بمحمد إلا لأنك عشقته لجماله، ثم طعنها بالحربة في قبلها حتى قتلها، والأخبار في هذا المعنى كثيرة"<sup>1</sup>.

<sup>1</sup> - الروض الأنف، (48/2).

ز - رفض الحنيفية المسلمة، إذ يببالغ بعض المتخلفين في باطلهم حين يطلبون من الآخرين اتباعهم في غيهم وترك الملة الإبراهيمية المستقيمة، قال تعالى: (وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) (البقرة:135)

ح - التشكيك بالنبوة والأنبياء، فربما عمدوا إلى إظهار الإيمان بمحمد ثم تراجعوا عنه، وذلك بغية زرع الشك في قلوب المؤمنين، ومن ثم ردتهم عن دينهم، قال تعالى: (وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَيَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَجَهِ النَّهَارِ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (آل عمران:72)

ط - المواقف العبثية والهزلية، فقد يعمد المتخلفون من أعداء الأنبياء والرسول عليهم السلام إلى مواجهة الحقيقة والدعوة الجادة إلى الإصلاح والتوحيد والتغيير بمواقف هزلية كوميدية ساخرة تدل على فساد الطبقة الأرستقراطية المترفة التي لا تكثرث بالحقائق ولا تنتبه إلا ساعة وقوع العذاب، فمن ذلك نجد الضحك من الأنبياء عليهم السلام جبلة الطغاة وعلى رأسهم الطاغية المغرور فرعون، قال تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ) (الزخرف:46-47). ويلي الضحك الاستهزاء بالأنبياء، والهزاء في اللغة: مزح في خفية، وقد يقال لما هو كالمزح<sup>1</sup>، وقد استهزأ الكفرة بالنبي محمد عليه السلام، وبكافة الرسل من قبله أيضا عليهم السلام، قال تعالى: (وَلَقَدْ اسْتَهْزَأَ بِرُسُلِ مَنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) (الأنعام:10).

#### خامسا: التخلف في الموقف من اليوم الآخر.

يتصور بعض أهل الكتاب أن العذاب في النار سيكون إلى أجل محدود، وهذا يدل على جهلهم بالآخرة، قال تعالى: (وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّاماً مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (البقرة:80).

أما المشركون والمنافقون وهما شريحتان كبيرتان من العرب، فقد ينسوا من الآخرة، ولا يرجون لها قياما، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَنسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَبِئْسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ) (المتحنة:13).

وهم يستغربون إحياء العظام بعد فنائها، قال تعالى: (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ) (يس:78)، وهذا الاستغراب هو موقف جماعي للكفر قاطبة، وقد بين الله تعالى قصور عقول أهل الكفر وتخلفهم وعماهم عن إدراك الحقائق، فكيف يعجز الذي خلقهم أول مرة عن إعادتهم مرة أخرى؟! قال تعالى: (وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا، قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا، أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا) (الاسراء:49-51).

<sup>1</sup> - انظر: المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة (هزؤ).

### سادسا: التخلف فهم القدر وحركة الحياة

ويدخل في الجهل والتخلف والافتراء على الله نسبة جرائمهم إلى القدر، وكأنه ليس لهم ثمة دخل فيها، قال تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ) (النحل:35). ولا حجة لأحد بالقدر، فقد وهب الله الإنسان العقل، وأعطاه الحواس والقدرة على الكسب، قال تعالى: (إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) (الإنسان:3)، وبعث له الرسل عليهم السلام ليرشده، قال تعالى: (مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا) (الاسراء:15)، وإنما من شأن العاجز أن يحمل وزره للقدر فرارا من المسؤولية وتجنباً لتحمل القرار.

والقدر سر الله في خلقه، وهو لا ينفى السعي والكسب، وكان النبي عليه الصلاة والسلام قد انتبه إلى أن نفرا من الناس سيذهبون إلى التواكل وترك العمل بحجة القدر، فحذر من ذلك، ففي الحديث عن علي رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة). قالوا: يا رسول الله! أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: (اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة فسييسر لعمل السعادة، وأما إن كان من أهل الشقاوة فسييسر لعمل الشقاوة، ثم قرأ: (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ) (الليل:5-6) الآية<sup>1</sup>.

### سابعا: التخلف في منهجية التفكير وإعمال العقل

رفض الحقيقة صورة من صور التخلف العقلي، إذ من شأن العقل السليم أن يهدي صاحبه إلى الحق، فما فائدة العقل إذا هदानا إلى الحق ولم نقر بذاك الحق أو نتبعه؟ ويتجلى رفض الحقيقة بأمور كثيرة، منها:

أ- الكفر بعد الإيمان، كما قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ نُقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ) (آل عمران:90)، قال الزمخشري: (هم اليهود كفروا بعباسي والإنجيل بعد إيمانهم بموسى والتوراة، ثم ازدادوا كفرا بكفرهم بالقرآن)<sup>2</sup>.

وقد يعلنون الكفر بآيات الله والصد عنها، قال تعالى: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبِعُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ) (آل عمران:98-99)

ب- ومن صور رفض الحقيقة الإعراض عنها، وعدم المبالاة بها، كما قال تعالى: الإعراض (وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ) (الشعراء:5)

ج- ومن صور رفض الحقيقة التشبث بالعقائد الفاسدة والتقليد الأعمى للسابقين ولو كانوا على ضلال!، وهو موقف تقفه الجاهلية في كل عصر، حيث تفترض في آبائها وأجدادها الصواب

<sup>1</sup> - متفق عليه، انظر: مشكاة المصابيح، (32-31/1).

<sup>2</sup> - الكشاف (382/1).

المطلق، وترفض الاعتقاد من رق العبودية لفهم الآباء والأجداد، وتحارب أي دعوة لإعمال العقل والتفكير السليم، وهو موقف اتخذته ثمود مع نبيها صالح عليه السلام، حيث: (قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ) (هود:62)، وكذلك اتخذها أهل مدين، حيث: (قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ) (هود:87)، وسارت عليه قريش كما قال تعالى: (وَإِذَا تَنَلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصِدَّكُمْ عَمَّا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاؤَكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرٍ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ) (سبأ:43)

وهذا الموقف اتخذته كافة المنكرين للرسول والبعث وعقيدة التوحيد، قال تعالى: (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْوِيَ لَكُمْ مِنْ دُونِكُمْ وَيُوحِرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَنْ مَا كَانُوا يَعْبُدُ آبَاؤَنَا فَأَتُونَا بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) (ابراهيم:10). وقد استنكر القرآن هذا الاتباع الأعمى للآباء بعد نزول الهدى يقول تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلَوْ كَانُوا آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) (البقرة:170)

د- ومن صور رفض الحقيقة التكذيب بها، فهذا النبي محمد عليه السلام يلاقي التكذيب من قومه كما لقيه من قبله من الرسل عليهم السلام، قال تعالى مواسيا له: (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) (فاطر:4)، وسبب هذا التكذيب أن الكافرين أصلا يحبون الافتراء والكذب حتى صار دينهم وجيلة فيهم، فلا يتورعون عن رمي الصادقين به كما قال تعالى: (وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ) (المائدة: من الآية103) وطالما كذب حزب الشيطان بالرسول عليهم السلام، فلا عجب بأن نجد لديه رغبة جامحة في ردة المؤمنين عن دينهم كما قال تعالى: (وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (البقرة:109).

هـ - ومن صور رفض الحقيقة الاستكبار عن قبولها، قال تعالى: (إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ) (الصفوات:35)، والاستكبار يسبب نبذ الدعاء عند المحن والشدائد، قال تعالى: (قَالُوا إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنًا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (الأنعام:43). فهو لاء السفهاء يرفضون الدعاء، لأنه في تصورهم سلاح الضعفاء، وهم مغرورون بقوتهم وأعمالهم.

و - ومن صور رفض الحقيقة السخرية من أصحابها وحملتها، قال تعالى: (زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ) (البقرة:212).

وفي نهاية هذا المبحث نقول: إن عقلية الكفر عقلية مادية طاغية وتفكيره سقيم عقيم، ومنهجه جدال وباطل، لا تقوم له حجة، وليس له برهان، وقد وقف حزب الشيطان موقفا سلبيا

من الأنبياء والرسل عليهم السلام وأتباعهم، ففسروا النبوة بأنها ضرب من السحر أو الجنون، قال تعالى: (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ) (الذريات:52)، وأعرضوا عن كل آية حتى لم تعد تؤثر فيهم أي آية، قال تعالى: (وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ) (القمر:2)، وعطلوا حواسهم التي وهبهم الله إياها، فلم يروا الحق ولم يسمعه ولم يفقهوه، قال تعالى: (وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ) (الأعراف:179)، وقد عاش هؤلاء على الأرض يمارسون الأكل والمشرب والجنس كما تعيش البهائم التي لم تزود بحواس التأمل والتفكير، قال تعالى: (إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ) (الأنفال:22)، وهم يرفضون الحق رفضاً مطلقاً، وقد قال بعضهم من كفار قريش بلغة لا تخلو من التحدي: (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) (الأنفال:32). نعوذ بالله من الخذلان.

## المبحث الثاني

## التخلف الاجتماعي

الإسلام دين مكارم الخلاق، أو دين تجويد العلاقة مع الآخر سواء أكان ربا يُعبد وهو الله العزيز العليم، أو مخلوقا يُعبد كالبشر وسائر المخلوقات، فهو بالمنظار الحضاري تواصل مع المجتمع والبيئة والكون وما وراء البيئة المحسوسة من عالم الغيب، قال تعالى: (لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) (البقرة:177).

وقد حرص الدين على إقامة النظام الاجتماعي على قيم ثابتة من الخير والتكافل والتعاقد له، قال تعالى: (وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (آل عمران:104). وفي مقابل ذلك ندد الدين بقيام المجتمعات على الهوى والضلال، لأن الإنسان إذا غُيب عنه نور الوحي رأى الخير شرا، والشرا خيرا، قال تعالى: (الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (التوبة:67).

وفيما يلي أهم مظاهر التخلف الاجتماعي الذي يسود الأمم والشعوب، وبيان لموقف الإسلام منه.

## أولاً: النزاعات القبلية والطائفية

النزاع بين الناس لعارض ما أمر واقع في كل المجتمعات، ولكن التخلف في عملية فض النزاع هو عدم الاحتكام إلى مرجعية المجتمع لفضه، ولا سيما إذا كان النبي عليه الصلاة والسلام هو رأس تلك المرجعية، قال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا) (النساء:61).

ومن التخلف أن يعلن أهل الضلال وصايتهم على أهل الصلاح، فيهددون بإخراجهم من أوطانهم إذا لم يغيروا سلوكهم، قال تعالى حكاية عن قوم لوط الذين كانوا يمارسون أفبح الفواحش: (قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ) (الشعراء:167)، والعجيب أن سبب الإخراج هو طهارة آل لوط عليه السلام، فلم يغمسوا في حمى الشذوذ والإباحية التي انغمس فيها قومهم، قال تعالى: (فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَبْغِضُونَ) (النمل:56). وقد كان قوم لوط متلبسين بعدة من الآفات الاجتماعية، فكانوا: "يقطعون الطريق، ويخونون الرفيق، ويأتون في ناديهم - وهو مجتمعهم ومحل حديثهم وسمرهم المنكر من الأقوال والأفعال على اختلاف أصنافه"<sup>1</sup>

<sup>1</sup> 0 قصص الأنبياء، لابن كثير، تحقيق سعيد اللحام، ص (200).

ومن ذلك ما فعله كفار قريش بأصحاب النبي عليه السلام، "قال ابن إسحاق: ثم إنهم عدوا على من أسلم واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب، والجوع والعطش، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر، من استضعفوا منهم يفتنونهم عن دينهم، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه، ومنهم من يصلب لهم والله يعصمه منهم"<sup>1</sup>

والدين الحق يرفض تقسيم المجتمع إلى طوائف يستعبد بعضها بعضاً، ويتحكم بعضها برقاب بعض، فالعدل والمساواة هما قاعدة البناء الاجتماعي في الإسلام، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَّوْا أَوْ تُعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا) (النساء:135).

وظيفة الحاكم أن يحكم بالحق لا بأهواء الناس، قال تعالى: (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا الْحِسَابَ) (ص:26).

وفي حال العقوبة ينبغي الترفع عن التشفي والحقد والتمثيل بالآخرين، قال تعالى: (وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ) (النحل:126)

وإذا كانت الفئات التي تعيش مع المسلمين غير راضية عنهم حتى يتركوا دينهم، فعلى المسلمين ألا يفعلوا ذلك، وأن يصبروا في تعایشهم مع الآخر، قال تعالى: (وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ) (البقرة:120)

وقد يكون الآخر لا يقبل بالحجة والبرهان، وهنا يبقى كل على معتقده في جو من الحوار لا الصراع، قال تعالى: (وَلَئِن أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ) (البقرة:145).

وظيفة النبي عليه الصلاة والسلام أن يقيم حكم الله في أتباعه، قال تعالى: (وَأَنْ أَحْكُمَ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ) (المائدة:49)، وعليه بالاستقامة على منهج الله، والتعايش مع الآخرين والحوار معهم، إلى أن يحكم الله بين الجميع يوم القيامة، قال تعالى: (فَلِذَلِكَ فَادُعْ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ) (الشورى:15). وعليه فالمجتمع الإسلامي مجتمع متقدم يستوعب الآخرين ويحاورهم، ويبعد عن تكريس الطائفية والصراع بين الناس وهو ما تلجأ إليه السياسات المتخلفة عبر التاريخ.

ثانياً: توسع الطبقات المسحوقة في المجتمع

<sup>1</sup> 0 السيرة النبوية، لابن هشام، (67/2).

عمد التشريع الرباني إلى قسمة عادلة لموارد الدولة، ومن ذلك الغنائم، قال تعالى: (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ أَجْمَعِينَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) (أنفال: 41).

ومع إقرار الشريعة بالفوارق بين الطبقات في المجتمع، حيث قال عز وجل: (وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ) (النحل: من الآية 71) بيد أن الله تعالى شرع الصدقات من أجل تقريب الفجوة بين الأغنياء والفقراء، قال تعالى: (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ) (التوبة: 60)، وأوصى في مواضع متعددة من كتابه الكريم بالفقراء والمساكين والمسحوقين من أبناء المجتمع، قال تعالى: (وَأْتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا) (الاسراء: 26)

أما المتخلفون من البشر، فهم يستباحون جمع المال من أي طريقة ولو كانت لقمة من أفواه اليتامى يغتصبها أولئك المتخلفون، مما حذر منه القرآن الكريم، قال تعالى: (وَأْتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا الْخَبِيثَاتِ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا) (النساء: 2)، وبين عقوبة أكل أموال اليتامى فقال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلُونَ سَعِيرًا) (النساء: 10) وندد عز وجل بسلوك تلك الطغمة التي تمسك المال ولا تمسح به دموع المحتاجين، قال تعالى: (وَلَا يَحْضُ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ) (الحاقة: 34)، وبين لوم أهل النار لأنفسهم لأنهم كانوا يمسكون هذا المال عن مستحقه، قال تعالى: (وَلَمْ نَكُ نَطْعِمُ الْمِسْكِينَ) (المدثر: 44)، فالمال ينبغي أن يكون سببا للتواصل وبناء العلاقات الاجتماعية، وليس وسيلة للتطاحن والعداوات والصراع الطبقي الذي يهدد أمن المجتمعات، وينذر بنشوء الحروب الأهلية في الأمة الواحدة والبلد الواحد في ظل الفلسفات الوضعية التي لا تستند إلى الذكر الحكيم.

### ثالثا: التخلف في دور المرأة ووظيفتها الاجتماعية

لم يكن للمرأة قبل الإسلام شأن يذكر، وذلك بسبب الروى الجاهلية التي تنظر إلى المرأة على أنها متاع رخيص، وسبب للعار، فهم لا يرحبون بولادتها أساسا، قال تعالى: (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ) (النحل: 58)، وكان منهم من يند البنت وهي وليدة، قال تعالى: (وَإِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ، بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ) (التكوير: 8-9)

وكان هنالك من يأكل مهرها، وقد نهى الله عن ذلك، قال تعالى: (وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِينًا مَرِيئًا) (النساء: 4).

ونهى الله عز وجل عن أكل مال المرأة بصورة محرمة، أو فعل ما يؤدي إلى ذلك، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْنَهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا) (النساء: 19). قال الزمخشري: "أي أن تأخذوهن على سبيل

الإرث كما تحاز المواريث، وهن كارهات لذلك. أو مكرهات، وقيل: كان يمسكها حتى تموت، فقيل: لا يحل لكم أن تمسكوهن حتى ترثوا منهن وهن غير راضيات بامساكم. وكان الرجل إذا تزوج امرأة ولم تكن من حاجته حبسها مع سوء العشرة والقهر، لتفتدي منه بمالها وتختلع<sup>1</sup>

وكثيرا ما تتبذل النساء ويتحدثن إلى الرجال بلغة فيها تذلل وانكسار مما يطمع بهن الرجال، وقد نهى الله عز وجل عن ذلك لما يلحق بالمرأة من الأذى، قال تعالى: (يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَحْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا) (الأحزاب:32).

وأمر الله بالحجاب حفاظا على المرأة وتنزيها لها عن خبيثة التبرج الذي كانت عليه المرأة في الجاهلية، قال تعالى: (وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى) (الأحزاب: من الآية33).

وشرع عقوبة الزنا حفاظا على الأعراض، ودفعاً لكل أسباب تفكك الأسرة والمجتمع، قال تعالى: (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ) (النور:2).

ورفض الإباحية الجنسية والشذوذ وكل ما من شأنه أن يصرف الرجل عن العلاقة السوية مع المرأة ضمن نطاق الزوجية، قال تعالى منددا بقوم لوط المتخلفين: (قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ) (هود:79).

وأشار القرآن إلى فتنة المرأة وكيدها، منبها ومحذرا للرجال من الاندفاع معها في عاطفتها المدمرة، قال تعالى: (وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) (يوسف:23).

وأساس الخلل في التعامل مع المرأة يعود إلى أمرين:

الأول: جردها حقوقها والتعامل معها على أنها دون الرجل في الإنسانية.

والثاني: الإسراف في إعطائها حقوقها وتفضيلها على الرجل حتى صار عبدا لها، وهو ما فعله المعاصرون.

وكلا الموقفين متخلفان، والصواب هو ما عليه الشريعة من العدل واحترام الجنسين، قال تعالى: (وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا) (النساء:124).

#### رابعاً: التخلف في الخطاب الإعلامي

الخطاب الإعلامي جزء أساسي في حياة الأمة الاجتماعية، وهو عند أهل الجاهلية ومن اتبعهم خطاب مشوه متخلف يقوم على ما يلي:

<sup>1</sup> - تفسير الكشاف، (1/490).

الحياة عندهم لهو ومرح، قال تعالى: (ذَلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ) (غافر: 75)

الجدل، قال تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ) (الحج: 3)، وهذا الجدل لا يستند إلى أي مصدر علمي رصين، ولا إلى منهج قويم، أو حقيقة ثابتة، قال تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ) (الحج: 8) الترويج للباطل قال تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ) (لقمان: 6)

مصادرة الآخر وتشويبهه، قال تعالى: (وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (البقرة: 111)

الإشاعات والأوهام الفاسدة، قال تعالى: (أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ) (الانبياء: 24)، وقال تعالى: (أَمْ نَبِئْتُكَ أَنْ يَبْدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلِلَّهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) (النمل: 64)

خيانة المعرفة، كما هو شأن أحد علماء بني إسرائيل، وهو بلعام بن باعوراء، قال تعالى: (وَأْتَى عَلَيْهِمْ نَبَأُ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرُكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ) (الأعراف: 175-176) جاء في التفسير: "قال ابن عباس رضي الله عنه: هو رجل من أهل اليمن يقال له بلعم، أتاه الله آياته فتركها، وقال مالك بن دينار كان من علماء بني إسرائيل، وكان مجاب الدعوة يقدمونه في الشدائد، بعثه نبي الله موسى عليه السلام إلى ملك مدين يدعو إلى الله، فأقطعاه وأعطاه، فتنبع دينه وترك دين موسى عليه السلام"<sup>1</sup>

### خامسا: التخلف الأخلاقي والقيمي

الأخلاق عماد الأمم، وأساس قيام الحضارات، والتخلف فيها موجب لزوال الأمم والحضارات، ويشمل التخلف فيها أمور كثيرة منها:

#### أ- أمهات الجرائم

هنالك جرائم مدمرة، وهي أساس لكل انحراف بالقول والسلوك، فمن ذلك الشرك والقتل والزنا والفواحش والبغي، قال تعالى: (وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا) (الفرقان: 68). وقال تعالى: (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرِزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَفْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (الأنعام: 151)، وقال تعالى: (قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ

<sup>1</sup> - مختصر تفسير ابن كثير، (65/2).

تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (الأعراف:33)

ومن أمهات الجرائم: الخمر والميسر والأنصاب والأزلام، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ، إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ) (المائدة:90-91).

ومنها الفرار عند الزحف، وترك الدفاع عن العقيدة والوطن، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا فَلَا تُولُوهُمُ الْآدْبَارَ) (الأنفال:15)

### ب - التشبث بالقيم والتقاليد البالية

إن من عادة أهل الضلال التشبث بالقيم والتقاليد البالية، والجمود عند العقائد والأوهام الفاسدة، رافضين أي دعوة للإصلاح، أو لتحريك هذا المستنقع الساكن الذي يغوصون في وحله، قال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أُولَئِكَ كَانُوا آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) (المائدة:104).

ويدفعهم جمودهم هذا إلى السخرية من المؤمنين، والتهكم بالصالحين، وهم ينظرون إلى طلائع المؤمنين من المهاجرين والأنصار نظرة لا تخلو من استهزاء، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ، وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ) (المطففين:29-30). ففهم في حاله فرض مزمن للإصلاحات العقدية والأخلاقية والسلوكية التي يفوقها الأنبياء عليهم السلام.

### ج - شيوع القيم الاجتماعية الفاسدة

من مهازل مجتمعات الضلال ودلائل تخلفها شيوع قيم فاسدة في النفوس، كالتكبر الذي يطمس عيون أصحابه فلا يهتدون إلى الحق، قال تعالى: (سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلًّا آيَةً لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْعُغْيِ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ) (الأعراف:146). وقد يكون المتكبرون أصحاب قوة وسلطان في الأرض حتى إنهم ليتحدون أنبياء الله ويرفضون الانقياد له سبحانه كما هو شأن عاد حيث قال تعالى في شأنهم: (فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ) (فصلت:15).

ومن القيم الفاسدة: التكذيب، وهو عملية متخلفة لرفض سلطان الحق، قال تعالى: (وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّهُمْ مُسْتَقَرٌّ) (القمر:3)، ولا يضير الحقيقة أن يكذب بها أهل الباطل، كما لا يضير ضوء الشمس جحود الأعمى، قال تعالى: (وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ) (الأنعام:66).

ومن القيم الفاسدة الجهل، فالجهل محور العقيدة التي يتشبث بها المتخلفون من أهل الجاهلية، فقد زعموا أن الله تعالى تزوج الجن فولدت له الملائكة، فالملائكة بناته سبحانه (وَجَعَلُوا

بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَقَدْ عَلِمَتْ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ) (الصفات:158)، "قال مجاهد: قال المشركون: الملائكة بنات الله تعالى. فقال أبو بكر رضي الله عنه: فمن أمهاتهن؟ قالوا: بنات سروات الجن".<sup>1</sup> وقد ندد الله بعبادتهم للجن واتخاذهم شركاء له سبحانه، قال تعالى: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَفُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ) (الأنعام:100).

ولأن الجهل متغلغل في أعماق أهل الجاهلية، فقد حذر القرآن من ردة فعلهم عند التعامل معهم ومع آلهتهم المزيفة، ورفض القرآن شتم آلهتهم، ليس لأنها لا تستحق الشتم، ولكن لكي لا يقوم المشركون بالشتم المتبادل فيسيبوا الله العزيز العليم، قال تعالى: (وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (الأنعام:108)

ومن القيم الفاسدة اتباع الهوى، وهو من خصائص أهل الجاهلية، قال تعالى: (بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) (الروم:29)، والأسوأ من ذلك أن يكون الهوى إليها يعبد من دون الله تعالى، قال تعالى: (أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا) (الفرقان:43)، وإعراض ملة الجاهلية عن الهدى القرآني والتفاعل معه هو بسبب الهوى، قال تعالى: (قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) (القصص:49-50).

ومن القيم الفاسدة الصد والإعراض عن سبيل الله تعالى، قال تعالى بشأن المنافقين الذين يرفضون العودة إلى المرجعية النبوية وقت الأزمات: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُؤُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ) (المنافقون:5)، والإعراض في الأصل صفة من صفات أهل الكفر أخذها عنهم المنافقون، قال تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ) (الاحقاف: من الآية3).

#### د - اقرار الآثام والموبقات

من خصائص المجتمع الجاهلي المتخلف اقرار الآثام والموبقات، أو الكبائر التي حرّمها الله في القرآن الكريم، حيث قال: (إِنْ تَجَنَّبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا) (النساء:31)، وهذه الكبائر لها أمهات سبق ذكرها، ولها عناصر أخرى مما يتفرع عنها من تضيع حَقِّ الله أو حق العباد، وهي في مجموعها تزري بالإنسان العاقل والمجتمع المتمدن، وتهدد أمن وسلامة الفرد والأسرة والمجتمع.

فمن ذلك: عقوق الوالدين، وهو أمر مقيت ولا سيما إذا كانا يدعوانه إلى الحق وهو يرفض ذلك، قال تعالى: (وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفْ لَكُمْ أْتَعِدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَعْجِلَانِ اللَّهَ وَيَلُكُ آمِنٌ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) (الاحقاف:17).

<sup>1</sup> - مختصر تفسير ابن كثير، (193/3).

ومن ذلك قتل الأولاد خوفاً من الفقر، قال تعالى: (وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ) (الأنعام:137).

ومن ذلك الظن والتجسس والغيبة، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْنَاهُ وَإِنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ) (الحجرات:12)

ومن ذلك رفع الصوت أثناء الكلام: قال تعالى: (وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ) (لقمان:19)، وأسوأ حالات رفع الصوت مع النبي صلى الله عليه وسلم، مما يوجب إحباط العمل والعياذ بالله تعالى، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) (الحجرات:2)

ومن ذلك الحلف كذبا، والغيبة والنميمة، قال تعالى: (وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ، هَمَّازٍ مَّشَاءٍ بِنَمِيمٍ) (القلم:10-11).

ومن ذلك: البخل وعدم دفع الزكاة الشرعية والصدقات لمستحقيها، قال تعالى: (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) (آل عمران:180).

ومن ذلك: ترك الواجبات الشرعية، كالصلاة والحج مثلا، مما يوجب أشد العقوبة في الآخرة، قال تعالى: (مَا سَأَلَكُمْ فِي سَقَرٍ، قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ) (المدثر:42-43)، وقال تعالى: (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) (آل عمران: من الآية97).

ومن ذلك الغناء والمزامير، قال تعالى: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ) (لقمان:6) ورد عن ابن مسعود في تفسير الآية: "الغناء، والله الذي لا إله إلا هو، يرددتها ثلاث مرات، وقال الحسن البصري: نزلت هذه الآية: (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ) في الغناء والمزامير"<sup>1</sup>

<sup>1</sup>- مختصر تفسير ابن كثير، (63-62/3).

## التخلف الاقتصادي

المال قوام الحياة، قال تعالى: (وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا) (النساء: من الآية5)، وهو زينتها أيضا: قال تعالى: (الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) (الكهف: من الآية46).

وحب المال مركز في جيلة الإنسان، قال تعالى: (زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ) (آل عمران:14). وهو شديد الحرص عليه، ضنين به، قال تعالى: (وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ) (العاديات:8). والمراد بالخير: "المال، من قوله تعالى: (إِنْ تَرَكَ خَيْرًا) (البقرة: من الآية180)، والشديد البخيل الممسك"<sup>1</sup>

هذا المال جعله الله لعمارة الأرض، ولخدمة مصالح الناس، ولبتم التعاون والتبادل من خلاله، وهو أيضا وسيلة للقربى والزلفى عند الله تعالى، وذلك عندما ينفق ابتغاء وجهه تعالى، فتمسح به دموع المحتاجين، أو ينشر من خلاله نور الحق المبين حينما ينفق في أبواب العلم والجهاد ونحو ذلك من أعمال البر، قال تعالى: (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (البقرة:261).

ولكن المال عند أهل الجاهلية، والمتخلفين من أتباعهم في عصرنا، ومن تبعهم من سائر الماديين والطغاة والملحدين هو وسيلة للغي والغطرسة والتعالي على الآخرين، يجمعونه من أي وسيلة ولو بتجارة الخمر والممنوعات، ويسعون للمه ولو بالحروب والمشاحنات، وينفقونه للتباهي والتعالي، ويفسدون من أجله البيئة بقطع غاباتها ورمي النفايات النووية في بحارها، وتعد قيمة الإنسان من خلال ما يملكه لا ما يعقله ويعلمه، بل صار العلم وسيلة للمال وليس العكس في الوضع العالمي المنكوس المقلوب على عقبيه، حتى صار السفلة من البشر يتحكمون بمصائر الأمم والشعوب.

وقد تكلم القرآن عن التخلف في النظرة إلى المال والفساد الاقتصادي بأشكاله المختلفة، فمن ذلك:

## أولا: التنافس الحر بمعزل عن الأخلاق

يعمد عبید المال إلى جمعه من كل وسيلة ولو بالسرقة، ولذلك جعل الله تعالى عقوبة السارق قطع يده، لأن اليد التي تسرق لا تستحق إلا القطع، فهي تدمر اقتصاد الأمة، وتحرم المالك الأصلي من ماله الذي تعب في تحصيله وهو في حاجة إليه، قال تعالى: (وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ) (المائدة:38).

<sup>1</sup> - تفسير الكشاف، (788/4).

وهناك من يجمعه عن طريق التلاعب بالقانون وبمساعدة المحامين المزييفين، أو بواسطة الرشوة، وهذا أسلوب متخلف للكسب غير المشروع، قال تعالى: (وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (البقرة: 188). والمعنى: "ولا تلقوا أمرها والحكومة فيها إلى الحكام (لتأكلوا) بالتحاكم (فريقاً) طائفة (من أموال الناس بالإثم) بشهادة الزور أو باليمين الكاذبة، أو بالصلح، مع العلم بأن المقضي له ظالم... وقيل: (وتدلوها بها) وتلقوا بعضها إلى حكام السوء على وجه الرشوة"<sup>1</sup>.

وهناك من يريد أكل مال الآخرين بأية صورة ممكنة، فتارة بالشيكات التي لا رصيد لها، أو بجدد الديون، أو بالمماطلة في أداء الدين، أو أكل حقوق العمال والمستضعفين، أو بالاحتكار ونحوه، وكل هذا من الأساليب المتخلفة المقيتة في جمع المال والتي تولد الحقد والكراهية بين الناس، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا) (النساء: 29).

وهناك فئة لا تتورع حتى عن أكل أموال الأيتام الذين هم بحاجة إلى من يربهم ويرعاهم، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالِ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا) (النساء: 10)، ويدخل في هذا الوعيد أيضا الذين يأكلون أموال الجمعيات الخيرية التي تجمع أموالها لليتامى والمساكين ونحوهم من المعوزين.

وهناك من يجمع المال بواسطة الربا، وهو عملية استغلالية مقيتة لحاجات الناس، قال تعالى: (الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) (البقرة: 275).

وهناك من يريد جمع المال عن طريق التلاعب بالموازين، كما هو حال قوم شعيب، قال تعالى على لسان نبيه شعيب عليه السلام: (أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ، وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ، وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ) (الشعراء: 181-183). قال ابن كثير: "وكان أهل مدين كفارا يقطعون السبيل ويخيفون المارة، ويعبدون الأيكة، وهي شجرة من الأيكة حولها غيضة ملتفة بها، وكانوا من أسوأ الناس معاملة، يبخسون المكيال والميزان، ويطفون فيهما، ويدفعون بالناقص"<sup>2</sup>.

### ثانياً: المال هدف بحد ذاته

المال في يد المؤمن وسيلة لتضميد جراح الناس وتخفيف معاناتهم عندما ينفق في وجوه البر والطاعات، وقد مدح الله عباده المنفقين، وذم الإمساك، فقال تعالى: (وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ) (البقرة: 195).

<sup>1</sup> - تفسير الكشاف، (1/233).

<sup>2</sup> 0 قصص الأنبياء، تحقيق سعيد اللحام، ص (213).

ولكن طغمة الكفر المتخلفة لا ترى في المال إلا البداية والنهاية والوسيلة والغاية فلا تطلب من الله إلا الدنيا، ولا ترغب في شيء مثل المال، قال تعالى: (فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ) (البقرة: من الآية 200).

وهؤلاء المتخلفون إذا دخل الدرهم خزائهم أمسكوه بها، فلا يبرحها إلى وجوه الخير أبداً، إنه البخل الذي سيقرب أموالهم عليهم عذاباً يوم القيامة، قال تعالى: (وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ لِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) (آل عمران: 180).

وفلسفة البخل لا تقتصر على صاحبها، بل تجعله يبشر بها، ويأمر الآخرين بها، وكأنه قد خلق لهذه الغاية، قال تعالى: (الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا) (النساء: 37).

وعشاق المال هؤلاء سيصرخ أحدهم بأعلى صوته قائلاً كما قال تعالى: (مَا أَعْنَى عَنِّي مَالِيَه) (الحاقة: 28)، فالمال سيكون وبالاً على صاحبه يوم القيامة إذا جنده للباطل أو حرم منه مستحقه.

والإسلام يحب العفة، ويكره السؤال في غير ضرورة، قال تعالى: (لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ) (البقرة: 273)، وهو مع الغنى وتطوير المجتمعات اقتصادياً، وهيئات أن تكون هنالك آية تمدح الفقر لذاته، وإنما مدحت الفقراء الصابرين الذين كان فقرهم بسبب الهجرة وترك أموالهم بمكة، فالفقر في هذه الحال عارض كالموت والجراحات والأذى التي تصيب المؤمن في حياته، فهي محمودة لا لذاتها، وإنما لثوابها الجزيل عند الصبر عليها، وذلك لأنها كانت في سبيل العلي القدير، قال تعالى: (لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) (الحشر: 8).

### ثالثاً: عدم رعاية حقوق الأمة في المال

المال عند المتخلفين من المشركين والمرتدين كنز يجب الحفاظ عليه، والإنفاق عندهم يبدد المال ويذهب، ويجلب الفقر والتعاسة، وقد قال تعالى داحضاً هذه الرؤية الشيطانية للإنفاق ومبيناً أنه سيجود على المنفقين: (الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) (البقرة: 268).

وقد دأب أهل الشرك والتخلف على منع زكاة أموالهم كما قال تعالى: (الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ) (فصلت: 7)، وهم لا يطعمون مسكيناً ولا يغيثون ملهوفاً، قال تعالى: (وَلَا يَحْضُرُ عَلَى طَعَامِ الْمُسْكِينِ) (الحاقة: 34). وأنى لهم أن يطعموا المساكين وهم الذين يجمعون أموالهم من عرق الكادحين، وجوع الفقراء والمستضعفين.

ويبرر هؤلاء الفقر بأنه قضاء وقدر من السماء لا يد لهم فيه، وأن الله لو شاء لأطعم الجميع، قال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (يس:47)، ولا حجة لأحد بالقدر، فإن الله تعالى ابتلى عباده في الدنيا ورفع بعضهم فوق بعض لتعاونوا ويتكاملوا فيما بينهم، وليبلوهم ويختبرهم من خلال ذلك، قال تعالى: (أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ) (الزخرف:32)، وقال أيضا: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكَم خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلِغَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) (الأنعام:165).

وقد حرص القرآن على توزيع الثروات الإنسانية بالعدل، فلا ينبغي أن تتركز الثروات كلها بأيدي ثلة قليلة بينما لا يملك الآخرون من أفراد المجتمع إلا الفتات، وفي هذا الصدد جاءت آية توزيع الفيء تخصه بالفئات الفقيرة أو ذات الدخل المحدود دون الأغنياء، قال تعالى: (مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (الحشر:7)، قال الزمخشري: "كيلا يكون الفيء الذي حقه أن يعطى الفقراء ليكون لهم بلغة يعيشون بها جدا بين الأغنياء يتكاثرون به، أو كيلا يكون دولة جاهلية بينهم، ومعنى الدولة الجاهلية: أن الرؤساء منهم كانوا يستأخرون بالغنيمة، لأنهم أهل الرياسة والدولة والغلبة، وكانوا يقولون: من عز بز. والمعنى: كيلا يكون أخذه غلبة وأثرة جاهلية، ومنه قول الحسن: اتخذوا عباد الله خولا، ومال الله دولا، يري من غلب منهم أخذه واستأثر به"<sup>1</sup>

#### رابعا: رفض القيم الإنسانية والضوابط الشرعية

ينظر كثير من أصحاب الأموال من الجاهلين والمتخلفين منهم إلى المال وكأنه روح الخلود في أيديهم أو إكسير الحياة، قال تعالى: (وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ، الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ، يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ) (الهمزة:1-3) وتجدهم يمارسون الطغيان في أفضع أشكاله، ويتيهون على العباد فسقا وتجبرا بسبب هذا المال الذي في أيديهم، قال تعالى: (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ، أَن رَّاهُ اسْتَعْجَىٰ، أَن رَّاهُ اسْتَعْجَىٰ) (العلق:6-7).

ولهؤلاء أسلوب متخلف في استخدام المال بين كنز، أو تبديد وإسراف، وكثيرا ما يستخدمون المال وسيلة للضغط على الدعوة ولابتزاز الناس وصرفهم عن نبيهم عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: (هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ) (المنافقون:7).

وتجدهم في المناسبات العامة والأعياد يختلون كالطواويس في زينتهم وحليهم وهم يشمخون أنفة واستكبارا على المستضعفين في الأرض، ومثال ذلك ما فعله قارون أمام قومه، قال تعالى: (فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) (القصص:79).

<sup>1</sup>- تفسير الكشاف، (4/502-503).

واستخدام المال في الخيلاء والاستعلاء الكاذب شأن الأقوام أيضا كما هو شأن الأفراد، فهذه عاد تعمر بأموالها الأرض، وتستثمر وتتباهى، ويقودها هذا إلى العبثية والبطش والروح الانتقامية ورفض الغيب والتسليم بالبعث والمعاد، قال تعالى: (أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ، وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ، وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ) (الشعراء: 128-130) والريح: المكان المرتفع، والمصانع: مأخذ الماء. وقيل: القصور المشيدة والحصون.<sup>1</sup>

وكثيرا ما تبدد ثروات الأمم في الفساد والصد عن سبيل الله تعالى، فهذا فرعون مثال للقائد الفاسد الذي يبدد أموال شعبه في تزيين المنكر، وتعبيد الجماهير له من دون الله، ومحاربة موسى عليه السلام ومن معه، قال تعالى: ( وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) (يونس: 88). من ذلك ما وعد به السحرة عندما سأله عن مكافأتهم لو انتصروا على موسى، قال تعالى: (وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ) (الأعراف: 113). وكان جواب فرعون أنه وعدهم بالمال والزلفى عنده، حيث سيقتربون من حضرة صاحب البلاط الفرعوني، قال تعالى: (قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ) (الأعراف: 114).

وهذا الترف والفساد في تبديد الثروات يقود إلى هلاك الأمم والشعوب في الدنيا، قال تعالى: (وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاَهَا تَدْمِيرًا) (الاسراء: 16) ويقود أصحاب الترف إلى العقاب الخالد في الآخرة، قال تعالى: (إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ) (الواقعة: 45). فالمترفين والمبذرين لا يستحقون إلا الفناء والرحيل عن هذه الحياة، والعقاب الخالد يوم الدين.

#### خامسا: عدم تطوير البيئة واستثمار خيرات الأرض

خلق الله الإنسان ليعمر الأرض، قال تعالى: (هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) (هود: من الآية 61)، وسخر له الماء والثروات المعدنية والشمس والقمر والسحاب والرياح كلها لخدمته، قال تعالى: (وَسَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (الجاثية: 13).

وبين سبحانه للإنسان بأنه سيساعده على عمارتها إذا تاب إليه ووحده سبحانه، قال تعالى على لسان نوح عليه السلام: (فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا، يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا، وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا) (نوح: 10-12).

وجعل الله تعالى في الأرض المعادن والحديد لينتفع بها الناس، قال تعالى: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ) (الحديد: 25).

وقد علم الله تعالى نبيه داود عليه السلام صنعة الدروع، قال تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالِ أَوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ، أَنْ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ) (سبأ: 10-11)، وبين الحكمة من تعليمه الدروع وهي حفظ الدم الإنساني عند الحرب، قال تعالى: (وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ) (الانبيا: 80).

1- انظر: تفسير الكشاف، (326-325/4).

ومن الله على عباده بالتجارة، لما في التبادل من المنافع، قال تعالى: (إِيْلَافِ قُرَيْشٍ، إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ) (قریش: 1-2)، وأمر بالسعي لطلب الرزق عقب صلاة الجمعة، فقال: (فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) (الجمعة: 10).

وعليه فإن أي تقصير في الأنشطة والاستثمار لموارد البيئة الطبيعية يخالف الغاية التي وضع الإنسان لأجلها في الأرض وهي عمراتها، وما عليه واقع الأمة اليوم من التخلف الزراعي والصناعي والتجاري أمر مناف تماما لروح الإسلام الذي يحث دوما على التطوير والإبداع وقيادة ركب الحياة، قال تعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ) (آل عمران: 110). ولا ينبغي لخير أمة أن تعتمد على غيرها في الزراعة والصناعة والتجارة حتى أصبحت تستورد من الإبرة إلى المدفع، ومن لعب الأطفال إلى الطائرات، وقد أرهق هذا الاعتماد على الآخرين ميزانيات الدول، فأصبحت دولا مدينة فقيرة، وذلك لأنها لا تملك التكنولوجيا ولا الخبرة ولا المعلومات، وصارت بعض الدول تتكى على المساعدات الخارجية لإطعام شعوبها، وهذا كله نتيجة التخلف الذي ينبذه الإسلام بل يحاربه، فالإسلام يريد أمة قوية منفقة في وجوه البر تقود العالم نحو الخير والسلام، ولا يريد أمة محطمة متقاعسة يرمي لها الناس بفتات أموالهم، وبزجاجة الماء والدواء في أحيان كثيرة.

إن الأمة المتخلفة اقتصاديا لا يمكن لها أن تقود سفينة الحياة، ولا يمكن لها أن تحمل رسالة الإسلام بشكل حضاري يجعل الآخرين يقدرونها ويدخلون في هذا الدين أفواجا، لقد أصبح الفقر والمسلمين قراء، وهو أمر لا يمكن للإسلام أن يقره، فالإسلام يريد أمة قوية رائدة في هذه الحياة، تكون محل القدوة للنخبة فما أدراك بمن سواها، قال تعالى: (وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا) (الفرقان: من الآية 74)

## المبحث الرابع

## التخلف السياسي

الأساس في العملية السياسية هي تنظيم شئون الناس بما يحقق غايتهم من الوجود ومصالحهم الحياتية، واستمرار وجودهم وبقائهم، ولا يكون هذا إلا باتباع الحق الذي أنزله الله، أو بعبارة أخرى بسيادة الشرع الإلهي الذي لا يتحيز إلى فئة ضد أخرى، ولا تغيب عن منزله عز وجل أية معلومة في الأرض ولا في السماء، وبذلك تكون شريعته هي الحق الكامل والعدل الكامل، قال تعالى: (يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا الْحِسَابَ) (ص:26).

والعدل هو جوهر السياسة وقسطاس الحياة من وجهة نظر الدين، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ) (النحل:90)

بمعنى آخر إن الدين لا يعنيه رفع راية إسلامية لا رصيدها في الواقع، بل لا بد من ممارسة مقتضيات الشعار الإسلامي في الواقع من خلال حكم العدالة، والعدالة في فحواها تعني تنفيذ القانون دون تحيز، وهي هنا تعني تنفيذ حكم الله بين الناس سواسية، وهي عدالة متكاملة، لأن التشريع الإلهي بالأصل قائم على معرفة الله بحقيقة خلقه وما يضرهم وما ينفعهم، فشرع لهم ما يتواءم مع فطرتهم وحقيقتهم وواقعهم وغايتهم من الوجود، بعكس القانون الوضعي فهو متفاوت ومتقلب من مكان لآخر ومن زمن لآخر بسبب ارتكازه على أهواء البشر، وقد يكون القانون الوضعي مجحفا ظالما، أو قاصرا مقصرا بحقوق العباد، ثم إن الخلق سواسية أمام الله، فهو لم يحاب بالتشريع طائفة من عباده على حساب الأخرى، بينما يراعي التشريع البشري في أعرق التجارب الديمقراطية المعاصرة مصلحة الأكثرية دون الأقلية.

وحيث كان الظلم لا يكون الإسلام، وكثيرا ما يوصي الدين الحنيف أتباعه بالتزام العدل واجتناب الظلم، قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا) (النساء:58)

وأما السياسة المجردة عن الدين فهي لا تضع هدفا لها إلا مصالحها الآنية العاجلة، وفي سبيل تلك المصالح قد تكرر الفساد وتستبيح المحرمات، وقد كان للقرآن موقف عظيم في مجاهدة التخلف السياسي من خلال أمور عدة سنتناولها في هذا المبحث.

أولا: التنديد بالقيم السياسية الفاسدة

يظن بعض الساسة وأهل الأهواء أن الحياة لا تصلح إلا بمجموعة من القيم الفاسدة منها:

#### أ- الظلم

الظلم هو: "وضع الشيء في غير موضعه المختص به إما بنقصان أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته أو مكانه ... والظلم يقال في مجاوزة الحق الذي يجري مجرى نقطة الدائرة، ويقال فيما يكثر وفيما يقل من التجاوز، ولذلك يستعمل في الذنب الكبير وفي الذنب الصغير"<sup>1</sup>

والظلم وسيلة أساسية لسياسة الطغيان التي تفرض آيات الله تعالى والانصياع لأمره، ومن هنا يبدأ الظلم، فعدم الانصياع للشرع الإلهي هو الخطوة الأولى لاستباحة أموال الناس وأعراضهم، قالتعالى: (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) (الأعراف: 103)

وكثيرا ما يلجأ الظلمة والجبارون إلى ظلم الضعفاء ونهب أموالهم، حقا إن عيونهم لا تشبع من حطام الدنيا، حتى لو كان المنهوب سفينة صغيرة لمساكين يتكسبون منها، قالتعالى في قصة موسى والخضر عليهما السلام: (أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا) (الكهف: 79)

ومن سنة الظلمة من الولاة استباحة القرى والأعراض عند النصر، وكان نشوة النصر تحلل لهم فعل ما يريدون بالأخر، قالتعالى على لسان بلقيس ملكة سبأ: (قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ) (النمل: 34) وهذا الحكم عام لا يستثنى منه إلا الصالحين منهم الذين يتبعون المنهج الإلهي، وأما من جعل منهجه هواه، وافتقد المرجعية التشريعية الإلهية، فإن سلوكه سيكون سلوكا ظالما فاتكا مدمرا، لأن السلوك الواقعي صدى للرؤى والعقائد التي يؤمن بها الإنسان.

#### ب - الطغيان

وهو "تجاوز الحد في العصيان... وقوله تعالى: (إِنَّا لَمَّا طَغَا الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ) (الحاقة: 11) فاستعير الطغيان فيه لتجاوز الماء الحد"<sup>2</sup>

والطغيان سنة في الأمم المستكبرة مثل عاد وثمود، وفي الملوك المستكبرين مثل فرعون، فهؤلاء تغرهم قوتهم، ويتطامنون إلى ما اتخذوه من أسباب الملك الدنيوية، ولا يكثرثون لنشرهم الفساد في الأرض، بيد أن سلوكهم هذا يجعلهم في مرمى الغضب الإلهي كي يغسل الأرض من رجسهم ويستأصلهم عن بكرة أبيهم، قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ، إِرْمَ دَاتِ الْعِمَادِ، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ، وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ، وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ، الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ، إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمُرْصَادِ) (الفجر: 6-14)

ولا يكون العذاب إلا بعد تنبيهه ووعظ، قال تعالى مخاطبا موسى عليه السلام: (أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ

1 - المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة (ظلم).

2 - المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة (طغى).

إِنَّهُ طَعَى) (طه:24)، ولكن أنى للطاغية الفاسد أن يعتبر وهو يسأل بغرور: (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ) (الشعراء:23)

### ج - التكذيب

وهو أسلوب متخلف رخيص يلجأ إليه الساسة لرفض دعوة الله تعالى، ولتعبيد الناس للأوثان الحجرية أو البشرية، وذلك لأن أعداء الرسل لا حجة لهم، لذا فهم يلجؤون إلى التكذيب بالآيات الساطعة والبراهين الصادقة بغية بقائهم في السلطة، قال تعالى: (كَذَّابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (الأنفال:52). وهؤلاء الطغاة الدجالون يعلمون أن ما يقوله الأنبياء حق وصدق، ولكنه العناد من أجل البقاء على التحكم برقاب العباد ومصير البلاد وفق أهوائهم دون مرجعية دينية، قال تعالى: (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ وَإِنِّي لِأَظُنُّكُمْ يَا فِرْعَوْنُ مُثَبَّرًا) (الاسراء:102)

### د - العلو والتكبر

العلو والتكبر لا يليق إلا بمن خلق الأرض والسماوات العلاء، وأما البشر فهم بحاجة إلى التواضع أمام الخالق المتكبر، ولكن المتخلفين من الساسة يظنون السلطة جليباب عظمة يمنحهم حق التناول على رقاب العباد، قال تعالى بشأن العلو الفرعوني المزيف الذي دفعه إلى اضطهاد المستضعفين من بني إسرائيل: (فَمَا أَمَّنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ) (يونس:83)

والاستكبار يقود إلى الجريمة، قال تعالى: (ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ بِآيَاتِنَا فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ) (يونس:75)

ويكون الاستكبار في السلطة السياسية كما يكون في أرباب الأموال أصحاب السلطة الاقتصادية في المجتمعات، وربما صنع الاقتصاد السياسة، ولعل هذا هو السبب في تقديم اسم هارون صاحب المال على فرعون صاحب السلطة في قوله تعالى: (وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ) (العنكبوت:39)

والاستكبار قد يلف شعبا بعينه أو أمة بأكملها، فإذا بها لا تنصاع لرسول كريم مثل هود عليه السلام، قال تعالى في صفة قوم هود: (فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ) (فصلت:15))

### هـ - الإسراف

السرف: "هو تجاوز الحد في كل فعل يفعله الإنسان، وإن كان ذلك في الإنفاق أشهر"<sup>1</sup>، وكثيرا ما يلجأ الساسة إليه، فيبددون المال العام في مصالحهم الشخصية، والبذخ والترف، وهذا منتهى

<sup>1</sup> - المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة (سرف).

التخلف السياسي، وذلك أن شقاء الشعب لينعم السلطان أمر ترفضه الشرائع السماوية، لأن الأصل هو أن يكون السلطان في خدمة الأمة وليس العكس، قال تعالى: (مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ) (الدخان:31))

#### و - التضليل

وهو أن تقود السلطة شعبها بالاتجاه الخاطئ، فتفسد عليه دينه ودنياه، وهي توهمه بأن ما تفعله هو الصواب، وما هو إلا الخطأ المبين، مما يسبب زوال الملك في النهاية، وهو ما فعله فرعون بقومه حيث قادهم إلى الهلاك، وكان الغرق عاقبة الجميع، والعذاب الخالد بانتظارهم في الآخرة، قال تعالى: (وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى) (طه:79).

#### ز - البطانة الفاسدة

البطانة من أعمدة الحكم، وعادة ما يبحث السلطان عن البطانة التي تواليه وتنصحه، ولكن كثيرا ما يبتلى السلطان ببطانة فاسدة تغشه وتكذب عليه، وهي تدعوه إلى سفك الدماء بغير حق، وتزين له أن عمله هذا هو لمصلحة الأمة، وتدفعه إلى الإجماع دفعا، قال تعالى: (وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْتَرِ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَدْرُكْ وَالْهَتَّكَ قَالَ سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَ هُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ) (الأعراف:127). جاء في التفسير: "الواو هنا حالية، أي أتذره وقومه يفسدون في الأرض، وقد ترك عبادتك؟ وقيل: هي عاطفة، أي أتدعهم يصنعون من الفساد ما قد أقررتهم عليه وعلى تركك آلهتك؟ وقرأ بعضهم: إلهتك، أي عبادتك. قال الحسن البصري: كان لفرعون إله يعبده في السر"<sup>1</sup>. وعلى أي من الوجهين فإن موسى سواء عدل عن عبادة فرعون أو الصنم الذي يعبده فرعون، فإن هذا أمر تعتبره البطانة فسادا في الأرض، وهي تحت فرعون ليتخذ قرارا استئصاليا بحق موسى وقومه.

واللعبة الفاسدة بين السلطان المتخلف والبطانة الفاسدة قد تتكرر على أكثر من وجه، ففي المشهد السابق تظهر البطانة رغبتها في القضاء على موسى عليه السلام، وفي المشهد التالي يظهر فرعون رغبتة في ذلك، وكأنه يريد أن ينتزع قرارا من البطانة الفاسدة لكي يستأصل موسى ومن معه، وهنا يبدو المشهد السياسي في البلاط الفرعوني وكأن عملية القرار لعبة شد ورخي بين السلطة والحاشية لإبرام قرار سياسي متفق عليه بين الطرفين في هذه اللعبة البرلمانية الساذجة، قال تعالى: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ) (غافر:26).

ولا ريب أن عملية تصفية نبي كريم مثل موسى عليه السلام تكون موضوع حوار طويل بين فرعون وحاشيته في أزمنة وأمكنة متعددة، وقد نقل القرآن لنا جوانب من ذلك الحوار بما يفى

<sup>1</sup> - مختصر تفسير ابن كثير للصابوني، (2/45-46).

بالغرض، ليعلم الإنسان كيف تدير السلطة الفرعونية المستبدة أمورها، وكيف تتخذ قراراتها التعسفية المتخلفة في دولة الرعب.

### ح - الهواجس والرعب

تعيش السلطة الطاغية برعب دائم، فهي في حالة حذر وخوف من رعيته قبل أي شيء آخر، ومن هذا المنطلق كانت مملكة فرعون في حالة رعب دائم وحذر شديد، ابتداء من فرعون رأس السلطة، ومرورا بهامان الوزير الأمر، وانتهاء بالجنود الذين يمثلون أدوات القمع والتنفيذ، قال تعالى: (وَنُمَكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ) (القصص:6).

ولا تبالي السلطة المتخلفة من أن تحشد كل إمكاناتها لساعة الصفر بقصد منازللة القلة من عباد الله الغالبين، قال تعالى يصف استعداد فرعون لمنازلة موسى أمام الشعب في يوم الزينة وهو من أعيادهم آنذاك: (فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى) (طه:60)

### ط - الخروج على قوانين الفطرة

لم يرسل الله نبياً إلا ومعه آية أو معجزة، وأما موسى عليه السلام فقد أرسل بتسعة آيات، قال تعالى: (وَأَنْحَلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) (النمل:12)، والآيات هي: "العصا، واليد، والسنين، والبحر، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، آيات مفصلات، قاله ابن عباس<sup>1</sup>

ويبدو أن كثرة الآيات كانت بقصد قطع الطريق على فرعون وحاشيته، فلا يدع لهم مجالاً للشك أبداً، ولأن مهمة موسى كانت صعبة جداً، فلا بد له من مجموعة من البراهين الصادقة التي تجعله يواجه فرعون بكل ثقة، قال تعالى: (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ وَإِنِّي لأُظَنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مُثْبُوراً) (الاسراء:102)، ولكن فرعون أبى وتولى شأن كل سلطان غشوم ظالم مستبد لا يقبل الحق ولا يعبأ بالبرهان، وإنما يلجأ إلى السيف ليحاكم خصومه، وهذا بسبب الفسق الذي هو في حقيقته خروج عن منطق الفطرة، وذلك أن من شأن العاقل البصير إذا رأى الضوء أن ينتفع بها ويهتدي، لا أن يغمض عينيه ويطلب من الآخرين إغماض عيونهم، فهذا هو منتهى التخلف في تعطيل الحواس التي توصل إلى الحقيقة، قال تعالى: (أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ) (البلد:8)

### ثانياً: التنديد بسياسة الطائفية

إن سياسة (فرقد تسد) سياسة فرعونية قديمة، يمكن تطبيقها على الأعداء والأصدقاء في آن واحد، وقد طبقها فرعون على رعيته، فإذا هو يقسم الشعب إلى طوائف متصارعة، يذوق بعضها

<sup>1</sup> - مختصر تفسير ابن كثير للصابوني، (403/2).

بأس الآخر، قال تعالى: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ) (القصص:4).

واللعبة الطائفية لعبة سياسية غبية، تولد الحقد والكراهية بين الناس، وتشيع جوا من الكآبة وحب الانتقام لدى الشعب الواحد، فإذا به فئات متصارعة تتربص كل فئة بالأخرى، وكم من الحروب والمذابح في التاريخ كان سببها الصراع الطائفي؟!.

إن الذي يؤمن المُلك والبلاد والعباد هو إشاعة العدل بين الناس، وسيادة القانون وتطبيقه على الجميع، وليست سياسة الطائفية التي سنها فرعون، فهي تدفن النار تحت الرماد، وتعصف بالممالك وأهلها في أقرب أزمة، قال تعالى: (لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) (النساء:123).

إن السياسة الطائفية تدمر الغرض من المجتمع المدني وهو التعارف وبناء الحضارة الإنسانية الراشدة التي تقوم على الإيمان بالله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات:13) إن إذكاء نار الصراعات الطائفية لدى الرعية والتي استخدمها فرعون سياسة متخلفة فاسدة، قد تحفظ للسلطان كرسيه لوقت ما، ولكنها تزرع الكراهية والصراع بين الرعية، مما يجعل الأمن الاجتماعي مهددا بالانفجار في أي لحظة.

### ثالثا: رفض الآخر وتصفيته

رفض الآخر وتصفيته تبدأ بالتهكم به ونبذه ووصفه بالتهمة الكثيرة التي يناقض بعضها بعضا، وتنتهي بتصفيته جسديا أو إخراجة من وطنه، وهو يدين أعداء الله جميعا، فكم تهكم أعداء الله بالأنبياء والرسل عليهم السلام وبالصالحين من أتباعهم، قال تعالى: (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاجِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ) (الذريات:52)

وكم امتدت الأيدي الأثمة لتبتش بالأنبياء والصالحين، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَسَّرْنَاهُمْ بَعْدَابٍ أَلَيْسَ (آل عمران:21)

وكم تعرض الأنبياء والرسل عليهم السلام للنفي والتهجير القسري من أوطانهم، قال تعالى: (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ) (ابراهيم:13)

وسياسة رفض الآخر وإرهابه أو إقصائه أو قتله سياسة جاهلة متخلفة تبدد طاقات أبناء الأمة الواحدة، وتحرمها من طاقات جميع أبنائها، وتولد الجمود العقلي والفكري لدى الناس، وهي سياسة يرفضها الدين الحق الذي يسمح للناس بالحرية ويدعوهم إلى التعايش السلمي، قال تعالى مشرعا للحرية الدينية: (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي) (البقرة: من الآية256)، وقال تعالى محددًا وظيفة النبي عليه السلام وهي التذكير وليس الإلزام: (لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) (البقرة: من الآية272)، وقال تعالى مقررا حقوق الآخرين من المتعاشين من أهل الأديان الأخرى مع أهل الدعوة ولا يرفعون السيف في وجهها: (لا ينهاكم الله عن الذين لم

يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ  
(المتحنة:8)

ونعود إلى ضرب من السياسة المتخلفة لنرى بعض النماذج من رعونتها ورفضها للآخر:

فقد أرسل الله تعالى نبيه موسى عليه السلام مؤيدا بالآيات البيّنات إلى فرعون، فرفض فرعون قبول الحق، وراح يطلق مختلف الدعايات الرخيصة والمتناقضة فيما بينها حول شخصية موسى عليه السلام وذلك بغرض تشويه تلك الشخصية وجعل الناس ينفضون عنها، فمرة يقول عن موسى عليه السلام هو ساحر عليم، قال تعالى: (قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ) (الأعراف:109). ومرة هو رجل مسحور، قال تعالى: (وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْتَأْذَنَّا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا) (الاسراء:101)، ومرة ثالثة هو ساحر كذاب، قال تعالى: (إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ) (غافر:24)

وقد عمد فرعون إلى تصفية قوم موسى عليه السلام من قبل ولادته وبعدها، قال تعالى: (وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكَ سُوءَ الْعَذَابِ يُدَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ) (البقرة:49)، قال ابن كثير: "وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح أن بني إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأترونه عن إبراهيم عليه السلام، من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك مصر على يديه. وذلك - والله أعلم - حين كان جرى على سارة امرأة الخليل ملك مصر، من إرادته إياها على السوء وعصمة الله لها. وكانت هذه البشارة مشهورة في بني إسرائيل، فتحدث بها القبط فيما بينهم، ووصلت إلى فرعون، فذكرها له بعض أمرائه وأساورته، وهم يسمرون عنده، فأمر عند ذلك بقتل أبناء بني إسرائيل، حذرا من وجود هذا الغلام، ولن يغني حذر من قدر"<sup>1</sup>.

وقد حاول فرعون قتل موسى وهو طفل في المهدي، قال تعالى: (وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقُولُوهُ عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَسْتَعْرِفُونَ) (القصص:9).

وحاول فرعون تصفية كل من يتبع موسى عليه السلام، حيث نجد السلطة المتخلفة تنقلب على أتباعها من السحرة عندما يتبعون الحق، وتهدهم بأقصى العقوبات، قال تعالى: (قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَأَلْصَلْبَتِكُمْ أَجْمَعِينَ) (الشعراء:49)

كما حاول تصفية موسى عليه السلام ومن معه في الجولة الأخيرة من المطاردة الجماعية عند البحر، قال تعالى: (فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ) (طه:78)

ومن شأن الطغاة تكذيب الرسل، قال تعالى: (كَذَّابٌ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (آل عمران:11)، وهم يسخرون من دعوة الرسل ويحاولون دحضها عن طريق الشبه والافتراءات، قال تعالى: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانَ ابْنِ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أبلغُ الْأَسْبَابَ، أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلَعَ إِلَى إِلِهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زَيَّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ) (غافر:36-37)

<sup>1</sup> 0 قصص الأنبياء، تحقيق سعيد اللحام، ص (306).

ويتخذ الساسة من السجون وسيلة لتغطية عوراتهم، كما حصل مع يوسف عليه السلام الذي زج به في السجن بسبب جريمة لم يرتكبها، قال تعالى: (ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِ لَيْسَجْنَتَهُ حَتَّىٰ جِئَ (يوسف:35)

جاء في التفسير: "ثم ظهر لهم من المصلحة فيما رأوه أنهم يسجنونه إلى حين أي إلى مدة، وذلك بعد ما عرفوا براءته وظهرت الآيات، وهي الأدلة على صدقه في عفته ونزاهته، وكأنهم والله أعلم إنما سجنوه لما شاع الحديث إيهاما أنه راودها عن نفسها، وأنهم سجنوه على ذلك، ولهذا لما طلبه الملك الكبير في آخر المدة امتنع من الخروج، حتى تتبين براءته مما نسب إليه من الخيانة، فلما تقرر ذلك خرج وهو نقي العرض صلوات الله عليه وسلامه"<sup>1</sup>.

وكثيرا ما يودع الساسة مستشاريهم أو أعوانهم في السجون بسبب شبهة أو ظن سيئ، كما هو حال صاحبي يوسف عليه السلام، قال تعالى: (يَا صَاحِبِ السِّجْنِ أَمَا أَحَدُكُمْ فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ) (يوسف:41)  
"قال قتادة: كان أحدهما ساقى الملك والآخر خبازه، قال السدي كان سبب حبس الملك إيهاما أنه توهم أنهما تمالأ على سمه في طعامه وشرابه"<sup>2</sup>

#### رابعاً: الاستبداد السياسي

من أسوأ صفات التخلف السياسي أن تصبح الدولة ملكا للفرد، فلا يرى إلا صورته حيث نظر، فهو الدولة والدولة هو، فيصرخ متشدقا كما قال تعالى حكاية عن فرعون: (وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ) (الزخرف:51)

وهذا فرعون المستبد ينكر ألوهية الله تعالى، ويريد أن يثبت للعالم بأنه إله لهم عن طريق التجربة الفاشلة والاستدلال الخادع، قال تعالى: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أُطْعَمُ إِلَىٰ إِلَهِي مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ) (القصص:38).

جاء في التفسير: "يعني أمر وزيره هامان مدير رعيته أن يوقد له على الطين يعني يتخذ له اجرا لبناء الصرح، وهو القصر المنيف العالي"<sup>3</sup>، وكأنه قد غاب عن ذاك الطاغية أن في جبال الدنيا ما هو أعلى من صرحه، وأنه لو تسلق أعلى جبل في الدنيا لن يستطيع أن يرى الله، وذلك أن الطريق إلى معرفة الله لا تكون بالرؤية والمشاهدة، وإنما بالعقل والاستدلال.

وقد بلغ هذا المستبد الطاغية الذي ادعى الألوهية مبلغا صار الناس يقسمون به وينسون ربهم العلي الكبير، قال تعالى في وصف المبارزة بين موسى عليه السلام والسحرة: (فَأَلْقُوا جِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْعَالِيُونَ) (الشعراء:44). ولكن الله نصر رسوله موسى عليه السلام على السحرة وإفكهم، فخروا ساجدين لرب العالمين، وآمنوا مع موسى عليه السلام،

<sup>1</sup> - مختصر تفسير ابن كثير للصابوني، (249/2).

<sup>2</sup> - مختصر تفسير ابن كثير للصابوني، (249/2).

<sup>3</sup> - مختصر تفسير ابن كثير للصابوني، (14/2).

وهنا يفسر فرعون المستبد إيمان السحرة بالله تفسيراً دنيوياً رخيصاً، مفاده أن ثمة مؤامرة بين موسى والسحرة لعمل انقلاب سياسي، قال تعالى: (قَالَ فِرْعَوْنُ أَمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آدَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُتُمْ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَا أَهْلَهَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ) (الأعراف: 123) والمعنى: "أي تجتمعوا أنتم وهو، وتكون لكم دولة وصولاً، وتخرجوا منها الأكابر والرؤساء، وتكون الدولة والوصول لكم"<sup>1</sup>، ويتوعد المستبد السحرة بأشد العقاب، قال تعالى: (لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ) (الأعراف: 124).

وقد فند العلامة ابن كثير التهمة الفرعونية للسحرة وموسى عليه السلام، فقال: "وهذا الذي قال من البهتان الذي يعلم كل فرد عاقل ما فيه من الكفر والكذب والبهتان، بل لا يروج مثله على الصبيان، فإن الناس كلهم من أهل دولته وغيرهم يعلمون أن موسى لم يره هؤلاء يوماً من الدهر، فكيف يكون كبيرهم الذي علمهم السحر؟ ثم هو لم يجمعهم ولا علم باجتماعهم، حتى كان فرعون هو الذي استدعاهم، واجتباهم من كل فج عميق، وواد سحيق، ومن حواضر بلاد مصر والأطراف، ومن المدن والأرياف"<sup>2</sup>

ولا تعدم أن تجد في البلاط الفرعوني الفاسد رجلاً مؤمناً، يحاول أن يصحح المسيرة وأن يمنع المواجهة بين الحق والباطل وأن يتدارك الأمور قبل فوات الأوان، ولكن الطاغية يرفض كل حوار ومناقشة، ويصر على الكفر والاستكبار، مستبداً برأيه، مستخفاً بقومه وبكل الأعراف والقيم، قال تعالى: (وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ، يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ) (غافر: 28-29)، قال ابن كثير: "وهذا الرجل هو ابن عم فرعون، وكان يكتُم إيمانه من قومه خوفاً منهم على نفسه... فلما هم فرعون لعنه الله بقتل موسى عليه السلام، وعزم على ذلك وشاور ملاًه فيه، خاف هذا المؤمن على موسى، فتلطف في رد فرعون، بكلام جمع فيه الترغيب والترهيب، فقال على وجه المشورة والرأي"<sup>3</sup>.

### خامساً التشريع حق لله تعالى

إن الله تعالى الذي خلق الخلق هو الذي يشرع لهم ما يصلح أمرهم، قال تعالى: (إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) (الأعراف: 54)

ولكن بعض الطغاة من الرعاة الظالمين يطمحون إلى تعبيد الناس لهم من دون الله، فينازعون الله في ربوبيته من أجل أن تنقاد له البشر، ومن النماذج الرديئة في هذا الصدد نموذ الذي ادعى القدرة على الإحياء والإماتة، قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ

<sup>1</sup> - مختصر تفسير ابن كثير للصابوني، (43/2).

<sup>2</sup> 0 قصص الأنبياء، تحقيق سعيد اللحام، ص (335).

<sup>3</sup> 0 قصص الأنبياء، تحقيق سعيد اللحام، ص (340).

إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (البقرة: 258))

وهذا فرعون يدعي الألوهية ثم الربوبية، قال تعالى: (فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى) (النازعات: 24)، "قال ابن عباس ومجاهد: وهذه الكلمة قالها فرعون بعد قوله: (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي) (القصص: من الآية 38) بأربعين سنة"<sup>1</sup>

ويبدو أن فرعون كان يعبد إلهها بالسر كما ذكر الحسن البصري في تفسير قوله تعالى: (وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَنْتَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَدْرُكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنَقْتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ) (الأعراف: 127). جاء في التفسير: "قال الحسن البصري: كان لفرعون إله يعبده في السر"<sup>2</sup>.

وقد ادعى فرعون الألوهية بعد ذلك، ثم ترقى إلى ادعاء مقام الربوبية، وقد عاقبه الله على ذلك، قال تعالى: " (فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى) (النازعات: 25) ، "وعن ابن عباس: نكال كلمتيه الآخرة وهي قوله (أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى)، والأولى وهي قوله: (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي)"<sup>3</sup>

وهنا يحسن أن نفرق بين مصطلحي رب وإله، أما "الرب في الأصل التربوية وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً إلى حد التمام، يقال: رَبَّه، وَرَبَّاهُ وَرَبَّبَهُ، وقيل: لأن يريني رجل من قريش أحب إليّ من أن يريني رجل من هوازن. فالرب مصدر مستعار للفاعل، ولا يقال الرب مطلقاً إلا الله تعالى المتكفل بمصلحة الموجودات... وبالإضافة يقال له ولغيره"<sup>4</sup>

وفي القاموس: "ورب كل شيء: مالكة أو مستحقة أو صاحبه"<sup>5</sup>

"والله جعلوه اسماً لكل معبود لهم، وكذا الذات، وسموا الشمس إلهة لاتخاذهم إياها معبوداً، وأله فلان ياله: عبد، وقيل: تأله، فالإله على هذا هو المعبود"<sup>6</sup>

وعليه فالرب هو صاحب الخلق والإماتة ونحوها من الأفعال العظيمة، وأما الإله فهو المعبود، وقد اتفق معظم البشر على أن الله ربهم، ولكنهم أشركوا في الألوهية فعبدوا معه غيره، فلا يصح أن يكون هنالك رب ومعبود في الوجود غير الله، ولكن البشر وقعوا في شرك الألوهية كما أشرك بعضهم بالربوبية أيضاً، وذلك عندما استجابوا لرؤسائهم وقبلوا منهم أن يشرعوا لهم ما لم يأذن به الله، قال تعالى: (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (التوبة: 31). ورد عن عدي بن حاتم رضي الله عنه، قال: "انتهيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب،

1 - مختصر تفسير ابن كثير للصابوني، (597/3).

2 - مختصر تفسير ابن كثير للصابوني، (46-45/2).

3 - تفسير الكشاف، (696/4).

4 - المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة (رب).

5 - القاموس المحيط، مادة (رب).

6 - المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، مادة (أله).

فقال: (أليسوا يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرمه فتحلوناه؟). قلت: بلى. قال: فتلك عبادتهم<sup>1</sup>!

وعليه نجد فرعون قد تنقل من سلطة إلى أخرى، يبدأ وثنياً، ثم يتوق ليكون إليها معبوداً بدلاً من الوثن، فربما بعد ذلك ليدعي بأن له أمر كل شيء، والغرض الخبيث من هذه السياسة الفرعونية الطائشة أن يحتكر كل السلطات بيده، ولا يرى في الوجود غير ذاته وسلطانه، فيشرع للناس ما يريد، ويكون له التسبيح والتمجيد، فهو لا يكتفي بتعبيد الناس له، وأن يكون إليهم، بل يدعي الربوبية أيضاً، فهو الذي يحيي ويميت في زعمه، وهو مصدر بقائهم ووجودهم، حتى إنه لينكر وجود رب للوجود سواه، قال تعالى: (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ) (الشعراء: 23).

ومن المعلوم بأن توحيد الربوبية حق عند سائر الأمم والشعوب، وذلك "كالإقرار بأنه خالق كل شيء، وأنه ليس للعالم صانعان متكافئان في الصفات والفعال، وهذا التوحيد حق لا ريب فيه، وهو الغاية عند كثير من أهل النظر والكلام وطائفة من الصوفية، وهذا التوحيد لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم، بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات، كما قالت الرسل فيما حكى الله عنهم: (قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (إبراهيم: من الآية 10). وأشهر من عُرف تجاهله وتظاهره بإنكار الصانع فرعون، وقد كان مستيقناً به في الباطن، كما قال له موسى: (قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ) (الاسراء: من الآية 102). وقال تعالى عنه وعن قومه: (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا) (النمل: من الآية 14)<sup>2</sup>

وأما الرعية فقد كانت مهزوزة جبانة لا تستطيع أن تواجه فرعون، بل هي في استسلام كامل لسياسته الملعونة، وسلوكه الأهوج الطائش، قال تعالى: (فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَّاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ) (الزخرف: 54)

### سادسا التنديد بالفساد الارستقراطي

كثيراً ما يعيش الفساد في بعض القصور الحاكمة، وتكون المرأة أداته الأولى، وهذا من الجهل والتخلف الذي يقع به الساسة، فكيف يؤدب هؤلاء رعاياهم ويهدبون شعوبهم وبيوتهم مرتع للفساد، قال تعالى حكاية عن واقع بيت العزيز: (وَرَاودَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ) (يوسف: 23).

وسرعان ما شاع خبر المراودة في الرعية، قال تعالى: (وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ) (يوسف: 30) وتحاول امرأة العزيز تبرئة نفسها بأن تجعل تلقي السبب على يوسف وما آتاه الله من حسن وجمال، قال تعالى: (فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكأً وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ

<sup>1</sup> - رواه الترمذي وابن أبي شيبة والطبراني والطبري والبيهقي وغيرهم. انظر: تفسير الكشاف (تخريج ابن حجر في الحاشية)، (264/2).

<sup>2</sup> - شرح العقيدة الطحاوية، ص (79).

سَكِينًا وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيَّهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (يوسف:31) . ثم تعلن قرارها القاطع بالاستمرار في طريق الهوى والغى: (قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا أَمْرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ الصَّاغِرِينَ) (يوسف:32) . وعندما انكشف الأمر أمام العزيز، وظهر كيدها وهي تجذب يوسف من قميصه وهو يدفعها، تم تلبس التهمة ليوسف ووضعه في السجن، وذلك حرصاً على سمعة الأسرة المالكة، قال تعالى: (ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ) (يوسف:35) إنه الفساد الذي ينتشر في القصور منذ القدم، وذلك بسبب الفراغ والنعمة التي يرتع بها آل السلطان، فالترف أصل كل بلاء، قال تعالى في صفة أهل النار: (إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتْرَفِينَ) (الواقعة:45). وهذا الترف هو الذي يوقع السلطة بالفساد فيكشف أمرها أمام رعيته ولو بعد حين.

## الخاتمة

تكون هذا البحث (معركة القرآن مع الجمود والتخلف) من مقدمة و تمهيد وأربعة مباحث وخاتمة.

أشرت في المقدمة إلى أن القرآن جاء للقضاء على التخلف بكافة أبعاده، ولتطوير الحياة الإنسانية في كافة أوجه النشاط فيها، من فكر وحركة وسلوك وشعور، ومن عقيدة وعبادة واقتصاد وسياسة وغير ذلك.

وهذا البحث يأتي لتأكيد فكرة حرب القرآن للجمود والتخلف، لنتثبت من خلاله أن القرآن كتاب لكل عصر ومصر، وهو الذي يقود البشر إلى الحضارة الراشدة، وينقذهم مما هم فيه من آلام ومشكلات.

وفي التمهيد تناولت بعض الأمور ذات الصلة بالبحث، وهي كالتالي:

حقيقة الإسلام، والإسلام دين الحضارة الشاملة، ومحاور حرب القرآن على الجمود والتخلف، والتخلف الذي تعيشه البشرية في العصر الحديث، وماذا يريد القرآن من البشر

وفي المبحث الأول، تحدثت عن التخلف الفكري والعقدي، وأنه أسوأ أنواع التخلف، وتحدثت فيه عن التخلف في معرفة الذات الإلهية العظمى، والتخلف في معرفة الملائكة عليهم السلام، والتخلف في الموقف من الكتب السماوية، والتخلف في الموقف من الرسل وأتباعهم، والتخلف في الموقف من اليوم الآخر، والتخلف فهم القدر وحركة الحياة، والتخلف في منهجية التفكير وإعمال العقل

وفيالمبحثالثاني، تحدثت عن التخلف الاجتماعي، وذكرت أهم مظاهر التخلف الاجتماعي الذي يسود الأمم والشعوب، وبيان لموقف الإسلام منه، فتحدثت عن النزاعات القبلية والطائفية، وتوسع الطبقات المسحوقة في المجتمع، والتخلف في دور المرأة ووظيفتها الاجتماعية، والتخلف في الخطاب الإعلامي، والتخلف الأخلاقي والقيمي.

وفي المبحث الثالث تحدثت عن التخلف الاقتصادي، وقد تكلم القرآن عن التخلف في النظرة إلى المال والفساد الاقتصادي بأشكاله المختلفة، فمن ذلك: التنافس الحر بمعزل عن الأخلاق، وأن المال هدف بحد ذاته، وعدم رعاية حقوق الأمة في المال، ورفض القيم الإنسانية والضوابط الشرعية، وعدم تطوير البيئة واستثمار خيرات الأرض

وفيالمبحث الرابع، تحدثت عن التخلف السياسي، وذكرت أن السياسة المجردة عن الدين لا تضع هدفا لها إلا مصالحها الأنبية العاجلة، وفي سبيل تلك المصالح ربما تكرر الفساد وتستبيح المحرمات، وقد كان للقرآن موقف عظيم في مجاهدة التخلف السياسي من خلال أمور عدة منها: التنديد بالقيم السياسية الفاسدة، كالظلم والطغيان والتكذيب والعلو والتكبر، والإسراف، والتضليل، والبطانة الفاسدة، والهواجس المرعبة، والخروج على قوانين الفطرة، وذكرت تنديد القرآن بسياسة الطائفية، ورفضه لفكرة تصفية الآخر والاستبداد السياسي، وأن التشريع حق لله تعالى، والتنديد بالفساد الأرستقراطي.

وقد توصلت من خلال البحث إلى النتائج التالية:

- 1- إن التخلف هو ظاهرة موجودة في حياة البشر جميعا، ولها صور مختلفة، فقد يكون التخلف عقديا، أو اجتماعيا، أو اقتصاديا، أو سياسيا، أو شاملا كما هو الحال في الجاهلية.
- 2- إن قوانين التخلف واحدة في المجتمعات، قال تعالى: (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ، أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ) (الذاريات:52-53). كما أن قوانين الرقي والتقدم واحدة، وجميعها من سنن الله عز وجل، قال تعالى: (سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا) (الفتح:23).
- 3- إن القرآن الكريم قد حارب جميع أنواع التخلف، ودلنا على أسباب الرقي والتقدم، ونبهنا إلى ضرورة تجنب أسباب الهلاك والتأخر، فهو كتاب قائد للحضارة والرشد والحق والخير في كل زمان ومكان إلى قيام الساعة، قال تعالى: (إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ) (الاسراء: من الآية9).
- 4- إن أسباب تأخر المسلمين في هذا العصر في جانب العلم والحياة والتكنولوجيا وبناء المجتمعات المتحضرة هو بسبب الابتعاد عن مضمون فهم مقاصد القرآن الكريم ومنهجه ومدرسته، فقد كان هنالك قصور معرفي في فهم القرآن، وتم تداوله وقراءته للبركة وللآخرة وليس لتوجيه دفة الحياة الدنيا وتقويم مسارها.
- 5- إن أعداء المسلمين الذين يرمون القرآن الكريم بمفترياتهم ويجعلونه سببا لتأخر الأمة هم إما جهلة لا يعرفون ما في القرآن من قوة وقدرة وشمول وأفاق وسعة ومعارف تستوعب الحياة كلها، أو يعلمون ذلك ولكنهم يريدون من المسلمين الابتعاد عن مدرسة القرآن حتى يبقوا فريسة سهلة لكل كاسر أو مفترس يريد نهب ثرواتهم، ونشتيت جموعهم، وكسر ضلوعهم.
- 6- إن الحضارة المعاصرة يمكن لها أن تقدم للناس السعادة والخير لو اهتمت بمنهج القرآن الكريم، وتداركت ما فيها من خلل وثغرات من خلال اتباعها لهداه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

البحث السابع:

القيم الحضارية العليا  
في الدعوة الإسلامية  
(دراسة في ضوء الكتاب والسنة)

بسم الله الرحمن الرحيم

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم

سورة البقرة، الآية (32).

## مقدمة:

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على نبيه الكريم، والتابعين له بإحسان إلى يوم الدين.  
وبعد: تعيش البشرية اليوم على أعتاب الألفية الثالثة للميلاد، وقد تهيأت الأمم والشعوب للدخول إلى المرحلة القادمة، وهاهي تتسابق فيما بينها في شتى مجالات العلم والمعرفة والإبداع من أجل تحقيق غد أفضل لأبنائها، وإبراز صورتها الحضارية بصورة تكون أقرب للكمال لكي تنال الريادة في هذا العالم.

### الأمة الإسلامية أمة الحضارة :

والأمة الإسلامية لها ميراث عريق من الحضارة، وتجارب تاريخية طويلة تساعدها في السير نحو المستقبل، وأجمل ما في تاريخنا كله هو تلك الفترة الذهبية من عمر الرسالة المحمدية، حيث كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم الأمة طريق العزة والكرامة، ويرسم لها طريق الحياة، ويمارس تطبيق تلك المبادئ التي يدعو إليها وينادي بها خير ممارسة في حياته اليومية صلى الله عليه وسلم. فلا فصام بين الفكر والسلوك أو بين المبدأ والواقع أو بين النظرية والتطبيق في حياته صلى الله عليه وسلم.

### تميز الحضارة الإسلامية:

ولا عجب وقد وجدت المبادئ الصالحة المستمدة من وحي السماء، والقيم العليا، مع التطبيق العملي لها على أرض الواقع، في أن تتحول أمة لم تكن تملك من مقومات الحضارة شيئاً إلى خير أمة أخرجت للناس. لأن هذه المبادئ والقيم التي نادى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم هي المبادئ المتفق عليها بين الأنبياء والمصلحين جميعاً في شتى العصور، وهي التي يسعى إليها العقلاء من كل الأمم محاولين تطبيقها في مجتمعاتهم. والفرق بين حضارة المسلمين وغيرهم في هذا الصدد، هو في ثلاثة أمور، وهي:

1- إن هذه المبادئ والقيم الحضارية التي نادى بها الإسلام جاءت كاملة شاملة في تعاليمه، بينما جاءت ناقصة بتراء عند الأمم الأخرى، فاليهودية مثلاً تتطرف في اتجاه المطالب المادية للإنسان، بينما نجد في المقابل النصرانية تتطرف باتجاه المطالب الروحية، وكذلك الحال بالنسبة لبقية الأديان والمذاهب، فمنها ما يحرم الجسد من حقوقه الطبيعية، ومنها ما يغرقه في الإباحية والانحلال.

2- إن هذه المبادئ والقيم العليا التي نادى بها الإسلام بقيت صافية نقية لم تمتزج بقيم أخرى من قيم الجاهلية فتشوهها، بينما هي تلوثت بالفلسفات المادية والتفسيرات الأرضية عند الأمم الأخرى فأفسدتها.

3- لقد طبقت هذه المبادئ بشكل صحيح كامل في حياة النبي صلى الله عليه وسلم وما تلاه من عهود، بينما هي لم تطبق تطبيقاً صحيحاً كاملاً عند الأمم الأخرى، اللهم إلا في فترات محددة من حياة أصحابها فقط، وسرعان ما كان الأتباع يشوهون تلك المبادئ أو يحرفونها أو يستبدلونها في حياة أصحابها، فاليهود مثلاً اتخذوا العجل في حياة موسى عليه السلام وهو يناجي ربه! وأخوه هارون عليه السلام مائل بينهم، والنصارى قالوا ما قالوا بحق المسيح وأشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً، وإذا كان هذا قد حصل لليهودية والنصرانية وهما من الشرائع السماوية الثلاث<sup>1</sup>، فما بالك ببقية المذاهب والأديان!؟.

### دعوة إلى البناء الحضاري من جديد:

والمسلمون اليوم لو مارسوا تطبيق المبادئ والقيم التي نادى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم تطبيقاً واعياً صحيحاً كاملاً، لاستطاعوا أن يقدموا النموذج الأمثل الذي تتطلع إليه عيون الناس في كافة القارات، ولعادوا أساتذة الدنيا كما كانوا في يوم ما من تاريخهم، ولذلك فهم مدعوون قبل الأمم الأخرى إلى بعث الإسلام بعثاً حياً في سلوكهم وواقعهم، وإدراك عناصر القوة فيه، والتمسك بالقيم الحضارية التي نادى بها دينهم، لأنهم لو فعلوا ذلك لأنقذوا أنفسهم من المعاناة الطويلة التي يذوقون مرارتها، ولأنقذوا العالم من ورائهم هذا العالم الذي نكبته الحروب والويلات والفلسفات المادية وأنانية الفرد أو ظلم الجماعة في الشرق والغرب على حد سواء.

### مساوئ الإلحاد والإباحية:

إن الإلحاد والفسق والإباحية التي تملأ العالم اليوم لم تصنع حضارة تليق بالكرامة الإنسانية، وهي لا يمكن أن تؤدي إلا إلى مزيد من الفوضى والدمار للإنسانية قاطبة، لا يقول هذا رجال الدين وحدهم، بل كثير من علماء العلوم البحتة وعلماء النفس والاجتماع، وعلى سبيل المثال نذكر هنا ما قاله الأستاذ كريسي موريسون رئيس أكاديمية العلوم في نيويورك سابقاً: "إن تقدم الإنسان من الوجهة الخلقية وشعوره بالواجب إنما أثر من آثار الإيمان بالله، والاعتقاد بالخلود، وإن غزارة التدين لتتكشف عن روح الإنسان، وترفعه خطوة خطوة، حتى يشعر بالاتصال بالله، وإن دعاء الإنسان الغريزي لله بأن يكون في عونه، هو أمر طبيعي، وإن أبسط صلاة تسمو به لتقربه من خالقه. إن الوفاق والكرم والنبيل والفضيلة والإلهام، وكل ما يسمى بالصفات الإلهية، لا تنبعث عن الإلحاد أو الإنكار الذي هو مظهر مدهش من مظاهر الفرد، يضع الإنسان في مكان الله. وبدون الإيمان كانت المدنية تفسد، وكان النظام ينقلب إلى فوضى، وكان كل ضابط وكل كبح يضيع، وكان الشر يسود العالم. فعلياً إذا أن تثبت على اعتقادنا بوجود الله.

1 - لا ينبغي أن يقال أديان سماوية لأن الدين واحد لجميع الأنبياء والمرسلين وهو الإسلام، وإنما الشرائع مختلفة، فكل أمة شرعة ومنهاج خاص بها.

وعلى محبته وعلى الأخوة الإنسانية، فإن ذلك يسمو بنا نحوه تعالى. إذ ننفذ مشيئته كما نعرفها، ونقبل تبعة اعتقادنا بأننا بوصفنا خلقه، جديرون بعنايته الإلهية<sup>1</sup>

### وحدة الدين والعلم:

إذا كان الإيمان ضروريا لهذه الحياة، ولاستمرار هذه الحضارة وتقويم عوجها، فإن طاقة هذا الإيمان وسحره وجماله لا تكون كاملة إلا تحت لواء الدين الإسلامي الحنيف، هذا الدين الذي يبارك العقل ويتفق مع العلم ومعطياته، يقول موريس بوكاي: "علينا أن نعترف بأن العلماء قد لاقوا مصاعب جمة من السلطات الدينية لبعض الأديان، ففي الوسط المسيحي وعبر قرون كثيرة بادرت سلطات مسؤولة ودون الاعتماد على أي نصوص حقيقية للكتب المقدسة بمعارضة تطور العلوم، اتخذت هذه السلطات ضد العلماء الذين كانوا يحاولون تطوير العلوم الإجراءات التي نعرفها، تلك التي دفعت بعض العلماء إلى المنفى تلافيا للموت حرقا أو إلى طلب المغفرة بتعديل مواقفهم وبالتماس العفو... أما في الإسلام فعموما كان الموقف إزاء العلم مختلفا، إذ ليس هناك أوضح من ذلك الحديث الشهير للنبي صلى الله عليه وسلم الذي يقول: اطلب العلم ولو في الصين. أو ذلك الحديث الذي يقول: إن طلب العلم فريضة على كل مسلم وكل مسلمة. هناك أمر رئيسي: القرآن كما سنرى فيما بعد في هذا الجزء من الكتاب إلى جانب أنه يدعو إلى المواظبة على الاشتغال بالعلم، فإنه يحتوي أيضا على تأملات عديدة خاصة بالظواهر الطبيعية وبتفاصيل توضيحية تتفق تماما مع معطيات العلم الحديث، وليس هناك ما يعادل ذلك في التوراة والإنجيل"<sup>2</sup>.

### الإسلام دين حضارة المستقبل:

لقد اجتمعت في الدين الإسلامي ثلاثة أمور تؤهله للاستمرار وإنقاذ مركب الإنسانية التائه، وهذه الأمور هي: الحق والخير والجمال، فهو دين يتفق مع العقل ويؤمن بالحقائق العلمية الثابتة، لأن العلم يقود للإيمان، ومصدر العلم والدين واحد، وهو الله الذي علم بالقلم، وأكرم البشرية بالرسالات السماوية من أجل هدايتها. وهو دين الخير الذي يسعى لمصلحة الإنسان أيا كان، وفي أي موقع كان، بغض النظر عن هوية هذا الإنسان أو دينه أو بلده أو قبيلته. وهو دين الجمال، فكل ما فيه من تشريع وعبادات وأحكام وقيم وأخلاق تفيض جمالا عند التأمل بها، كما أنه يدعونا إلى اكتشاف أسرار الجمال والإبداع في هذا الكون الذي أتقن صنعه بديع السماوات والأرض، لكي نزداد جمالا وإعجابا في هذا الكون مما يؤدي إلى زيادة إيماننا بالخالق العظيم. وبهذه الصفات التي اكتملت في الإسلام وحده، يكون الإسلام هو المرشح الوحيد لإيجاد الحضارة البديلة عن حضارتنا المادية اليوم.

<sup>1</sup> - العلم يدعو للإيمان، ص (205).

<sup>2</sup> - دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص (140).

## القيم الحضارية في الإسلام:

ويبقى السؤال: ما هي هذه القيم الحضارية التي نادى بها الإسلام؟

والمأمل لتعاليم هذا الدين يجد أن كل المبادئ والقيم التي نادى بها تتفق مع مصلحة الإنسان وتحققها في العاجل أو الأجل، وتسمو به وتحرره من أغلال الهوى والشيطان والردائل، وتجعله سيدا في هذا الكون، فقد سجدت له الملائكة، وسخر الله له ما في السماوات وما في الأرض، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، كل هذا من أجل أن يكون هذا الإنسان متحضرا في سلوكه وأخلاقه ومشاعره، وهذا لا يتم إلا تحت لواء العبودية لله، والعبودية لله لا تتحقق إلا بتنفيذ ما أمر الله به على وجه الأرض، أي باتباع الدستور القرآني الذي أمر الله به، ففي القرآن نجد كافة القوانين التي أمر الله بها، فاتباع هذه القوانين هو الحضارة، لأن الإنسان المتحضر هو الذي يعيش مع الجماعة ويتبع القوانين التي تحكم تلك الجماعة. والجماعة هنا المجتمع المسلم في أي مكان أو زمان، والقانون شريعة الله التي تنزهت عن الهوى والنقص والضلال، فاتباع أي مجموعة مسلمة لهدى دينها في شرق الأرض وغربها هو الحضارة الكاملة التي تحقق السعادة لأفراد هذه المجموعة بلا استثناء.

ولكننا في هذا البحث سنختار أهم القيم والمبادئ التي تقوم عليها الحضارة الإسلامية من بين جملة تعاليم الإسلام التي تسهم جميعا في إيجاد الحضارة الفاعلة الكاملة التي تحقق السعادة للإنسان، فما هي هذه القيم؟!، هذا ما نحاول الإجابة عنه من خلال هذا البحث.

## القيمة الأولى: العدالة

العدالة شعار الإسلام، وقد أمر الله بها في قوله تعالى: (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى)<sup>1</sup> فهي أهم خصائص الإسلام، لأن توحيد الله تعالى هو جزء من العدالة الإسلامية الشاملة، والعدالة ثلاثة أقسام :

1- عدالة في التصور والاعتقاد، وهذه أعلى صور العدالة، فالله الذي خلق الخلق، وعلم الإنسان ما لم يعلم، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وأمد الإنسان بالحياة، وطلب من الملائكة أن تسجد للإنسان الأول وهو آدم، وسخر له كل ما في الكون، أبى من هذا المخلوق أن يسجد إلا لربه، أو يعبد إلا الله، وذلك لأن صرف العبادة لغير المستحق لها، هو غاية الظلم، ومنتهى الفجور، قال تعالى: {إن الشرك لظلم عظيم} <sup>2</sup>، وقد استدلل النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الآية على أن الظلم المقصود في قوله تعالى: (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم)<sup>3</sup> هو الشرك، فحين نزلت (الذين آمنوا ولم يلبسوا...) الآية، شق ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا: أينا لم يلبس إيمانه بظلم؟ فقال رسول الله: (إنه ليس بذلك، ألا تسمع إلى قول لقمان لابنه: إن الشرك لظلم عظيم)<sup>4</sup>. وقد عقب الحافظ ابن حجر على هذا الحديث بقوله: (المراد بالظلم أعلى أنواعه وهو الشرك)<sup>5</sup> وأضاف في حديثه عن فوائد الحديث: (درجات الظلم تتفاوت كما ترجم له، وإن المعاصي لا تسمى شركا، وإن من لم يشرك بالله شيئا فله الأمن، فهو مهتد)<sup>6</sup>. وهذا القسم من العدالة خاص بالإسلام والأديان السماوية، وأما المذاهب المادية المعاصرة التي تنكر الأديان وتؤمن بالمحسوس والمادة فقد ارتكبت أكبر جناية بحق الفطرة والإنسان والخالق العظيم، حين قطعت أواصر الصلة بين الله وعباده، وأقامت كل تصوراتها بعد ذلك على الأهواء والشهوات والمصالح الآنية البحتة، فكانت كل أنشطتها وأنظمتها مصابة بالخلل لأنها قائمة على الظلم أساسا، هذا الظلم الذي ضيع حق الله في العبادة الخالصة له من عباده، ومن ضيع حق الخالق، فهو لحق أخيه الإنسان أضيع.

2- عدالة مع النفس، فينبغي للإنسان أن يلي مطالب جسده وروحه بالقسط، ولا يزهق روحه بأي صورة من صور القتل بطيئا كان بتناول السموم والخمور والأغذية الضارة، أو سريعا بالانتحار ونحوه، قال تعالى: (ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيمًا)<sup>7</sup>، كذلك ينبغي أن يعطي حق جسمه من الطعام والشراب والراحة والتسليّة والرياضة، وحق روحه من العبادة والعلم والفكر وغير ذلك، ويكون ذلك كله بتوازن دقيق دون إسراف ولا تقريط، فلا يسرف في الطعام مثلا لأنه ضار للبدن، ولا يقل منه دون الحاجة المألوفة لأنه ضار أيضا، وفي هذا الصدد نذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن لجسدك عليك حقا، وإن لعينك عليك حقا، وإن لزوجك عليك حقا، وإن لزورك عليك حقا، أعط كل ذي حق حقه)<sup>8</sup>، وكمثال على هذا نذكر أن الإسلام قدم مصلحة الجسم على ركن من أركانه وهو الصيام عند السفر، فأباح للصائم الإفطار في السفر حتى لا يجمع عليه مشقتين: السفر والصيام، يقول النبي صلى الله

1 - سورة النحل، الآية (90).

2 - سورة لقمان، الآية (13).

3 - سورة الأنعام، الآية (82).

4 - رواه البخاري، انظر: فتح الباري (372/8). وانظر أيضا (109/1).

5 - فتح الباري، (110/1).

6 - فتح الباري، (111/1).

7 - سورة النساء، الآية (29).

8 - رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص، انظر: صحيح البخاري، ضبطه الدكتور مصطفى أديب البغاء، (697/2)، وصحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، (24/2) عن أبي الدرداء، وفيه: (إن لربك عليك حقا، ...) وأخرجه الترمذي أيضا.

عليه وسلم: (ليس من البر الصيام في السفر)<sup>1</sup>. وكذلك منع الرسول صلى الله عليه وسلم قيام الليل كله لأنه مرهق للبدن، وهكذا ينبغي للإنسان أن يحفظ هذا الجسد من كل ما يؤذيه ويضره، ويؤدي له حقوقه كاملة، وكذلك الحال مع مطالب الروح، وينبغي أيضا أن لا يدفعه حبه لذاته إلى إثارة مصلحته على الآخرين، أو ظلمهم، بل عليه أن يتخذ العدل شعارا حتى مع نفسه، وأقرب المقربين إليه، قال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين أو الأقربين)<sup>2</sup>. وهذا النوع من العدالة لا تعرفه الأمم الإباحية التي تجعل مصلحة الفرد فوق مصلحة المجتمع، فيظلم الإنسان أخاه باسم القانون وتحت شعار الديمقراطية، وتبيح تلك الأمم لأبنائها تناول الكحول والمخدرات ولحم الخنزير وفعل الدعارة وغير ذلك من الأشياء التي تدمر صحة الفرد النفسية والجسمية تحت ظل القانون.

3- عدالة مع الآخر، سواء كان ذلك صديقا أو عدوا، قريبا أو بعيدا، وقد أرشدت إلى ذلك عدد من الآيات الكريمة منها قوله تعالى: (اعدلوا هو أقرب للتقوى)<sup>3</sup>، وقوله: (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا)<sup>4</sup>، وقوله: (ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا)<sup>5</sup>. ويشمل هذا القسم من العدالة أصنافا كثيرة من المجتمع منها:

أ- الأسرة، يجب أن تكون العطايا والمعاملة للأولاد جميعا بالعدل دون محاباة لواحد على حساب الآخر، يقول النبي صلى الله عليه وسلم موصيا بالعدل في هذا الصدد: (فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم)<sup>6</sup>

ب- الجيران، أوصت الآيات القرآنية برعاية الجار منها قوله تعالى: (والجار ذي القربى والجار الجنب)<sup>7</sup>، وفي الحديث: (والذي نفسي بيده، لا يدخل الجنة عبد، لا يأمن جاره بوائقه)<sup>8</sup>، فالإيمان الكامل لا يكون في قلب رجل يظلم جيرانه أو يؤذيهم.

ت- الأصدقاء، أوصت الآيات القرآنية برعاية الصديق، منها قوله تعالى: (والصاحب بالجنب)<sup>9</sup>، وللصداقة في الإسلام حقوق وواجبات، وعلى الصديق أن يقف مع صديقه عند الأزمات، وأن تسمو علاقة الصداقة عن المنفعة المادية والاستغلال، وإنما إذا توافقت المصالح المادية مع الصداقة فهذا أمر محمود، وفي غير هذه الحالة، فلا ينبغي تحطيم الصداقة من أجل المصلحة الزائلة.

ث- عامة أفراد المجتمع. أوصت الآيات القرآنية بالعدل المطلق بين الناس جميعا منها قوله تعالى: (وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل)<sup>10</sup>، دون تفرقة في الحكم بسبب الدين أو اللون أو الجنس أو القبيلة أو غير ذلك من الأمور التي تدفع الناس إلى الظلم بسببها أحيانا.

ج- الأعداء، أوصت الآيات القرآنية بالعدالة معهم، مثل قوله تعالى: (وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولنن صبرتم لهو خير للصابرين)<sup>11</sup>، وهذه قمة الأخلاق الإسلامية، وهو أمر لم تعرفه أمة من الأمم كما عرفه الإسلام، وأما حضارة اليوم فهي تقوم على اضطهاد الشعوب وإذلالها، فنحن نلمس جوع الأفارقة وكدح الآسيويين، وعرق العمال والفلاحين في كل

1 - صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، (317/8). عن ابن عمر، وأخرجه ابن ماجة والطبراني أيضا.

2 - سورة النساء، الآية (36).

3-سورة المائدة، الآية (8).

4-سورة النساء، الآية (36)

5 سورة المائدة، الآية (2).

6 - من حديث رواه البخاري عن النعمان بن بشير، انظر : فتح الباري (250/5).

7 - سورة النساء، الآية (36)

8 - صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، (364/2). وأخرجه أحمد والحاكم أيضا.

9 - سورة النساء، الآية (36).

10 - سورة النساء، الآية (58).

11 - سورة النحل، الآية (126).

مكان، والحروب والدماء التي تراق هنا وهناك ظلما وعدوانا من أجل حفنة من الرأسماليين لا يشبعون من جمع حطام الدنيا. وميزة الإسلام هنا واضحة ومنقردة، فهو لا يعامل الشعوب الأخرى إلا بالتسامح والعدل وليس بالأساليب الدبلوماسية الخبيثة أو بالدهاء السياسي الذي يتعامل به الغرب اليوم، حيث نجده يكرس الحرية والأمن في بلاده، ويعزز الديكتاتورية والإرهاب خارج حدوده إذا كان هذا يحقق مصالحه، ويتباكى على حقوق الإنسان وهو الذي يصنع الأسلحة التي تبيد المدن وتزيل الممالك.

أخيرا: لا بد أن نتأمل هذه الصورة الرائعة من صور العدالة التي غرسها النبي محمد صلى الله عليه وسلم في علاقاته مع الناس في شتى الظروف والأحوال، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: ( ما رأيت رسول الله ضرب خادما قط، ولا ضرب امرأة له قط، ولا ضرب بيده شيئا قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا نيل منه شيء قط فينتقمه من صاحبه، إلا أن يكون لله، فإن كان الله انتقم له، ولا عرض له أمران، إلا أخذ بالذي هو أيسر، حتى يكون إثما، فإذا كان إثما كان أبعد الناس عنه )<sup>1</sup>. هذا هو الخلق الكريم في المعاملة مع الآخرين التي تقوم على الرعاية التامة والاحترام الكامل من النبي صلى الله عليه وسلم إلى الناس جميعا على اختلاف منازلهم ومراتبهم، فلا ضرب ولا أذى ولا تعالي ولا إجحاف بحقوق الآخرين، اللهم إلا إذا تجاوز أحدهم القانون الإسلامي الذي شرعه الله، فيكون عقابه وفقا لما شرع الله بلا زيادة أو نقصان.

<sup>1</sup> - صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، (240/2). وأخرجه أحمد، والبيهقي والترمذي. وقوله: (ولا عرض له أمران ...) رواه مسلم بلفظ آخر، انظر: صحيح مسلم بشرح النووي، تحقيق الشيخ خليل مأمون شيجا، (82/15).

## القيمة الثانية : الرحمة

وهي رحمة كونية شاملة لأهل الأرض والسماء، قال تعالى: (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين)<sup>1</sup>، وليست رسالة الرحمة إلا جزء من رحمة الله التي وسعت كل شيء، قال تعالى: (ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما)<sup>2</sup>. وهذه الرحمة على أنواع كثيرة منها:

- 1- رحمة الإنسانية: بكافة ألوانها وأعمارها وأديانها وأحوالها من حرب وسلم ومجاعة وغير ذلك. وفي هذا الصدد يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)<sup>3</sup>، وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الرحمة لا تنزع إلا من شقي)<sup>4</sup>، وعن أبي هريرة، قال: أبصر الأقرع بن حابس التميمي النبي صلى الله عليه وسلم يقبل الحسن بن علي، فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبلت أحدا منهم، فقال نبي الله: (من لا يرحم الناس لا يرحمه الله عز وجل)<sup>5</sup>، فقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم في الأحاديث السابقة أن الرحمة شعار المسلم وجبلته فيه، وأنها تمتد حتى تشمل كل شيء ابتداء بعالم الطهر والبراءة وهو عالم الطفولة، وتمتد هذه الرحمة حتى تسع الأعداء المعتدين الذين يستحقون القصاص العادل على ما اقترفت أيديهم، وقد كان رسول الله قدوة في عفو مع اقتداره على العقوبة، فكم مرة حاول أعداؤه قتله وهو يعفو ويصفح عنهم؟!، من ذلك على سبيل المثال ما رواه جابر قال: غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوة قبل نجد، فأدركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في واد كثير العضاء<sup>6</sup>، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة، فعلق سيفه بغصن من أغصانها، قال: وتفرق الناس في الوادي يستظلون بالشجر، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن رجلا أتاني وأنا نائم، فأخذ السيف، فاستيقظت وهو قائم على رأسي، فلم أشعر إلا بالسيف صلتا في يده، فقال لي: من يمنعك مني؟ قال: قلت: الله. ثم قال في الثانية من يمنعك مني؟ قال: قلت: الله. قال: فشام السيف<sup>7</sup> وجلس، فما هو ذا جالس، ثم لم يعرض له رسول الله صلى الله عليه وسلم<sup>8</sup>، ومثل هذه الرحمة لا نجد لها نظيرا عند غير النبي صلى الله عليه وسلم.
- 2- رحمة الحيوان والمحافظة عليه ومساعدته على البقاء. وفي هذا الصدد نذكر بعض التشريعات الإسلامية، وهي:

أ - النهي عن تشويه الحيوانات أو إيلاها، فقد روى جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه مر عليه بحمار قد كوي على وجهه، فلعن النبي صلى الله عليه وسلم من فعل ذلك، ثم قال: (سبحان الله، لا تضربوها على وجوهها)<sup>9</sup>.

1 - سورة الأنبياء، الآية (107).

2 - سورة غافر، الآية (7).

3 - رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح، وأخرجه أبو داود وأحمد والحاكم، انظر: تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، للمباركفوري، (51/6).

4 - صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، (213/2) وأخرجه أبو داود وأحمد والترمذي.

5 - رواه مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، تحقيق الشيخ خليل مأمون شيا، (76/15) وصحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، (202/2). وأخرجه الترمذي وأبو داود أيضا.

6 - العضاء: كل شجرة ذات شوك.

7 - شام السيف: أغمده، ولفظ شام من الأضداد، يقل شام السيف إذا سله، وشام السيف: إذا أغمده.

8 - رواه مسلم واللفظ له، انظر: صحيح مسلم بشرح النووي، تحقيق الشيخ خليل مأمون شيا، (46/15)، وهو في البخاري أيضا انظر: صحيح البخاري، ضبطه الدكتور مصطفى أديب البغا (1515/4)، وهو أيضا في صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان (400-399/10).

9 - صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان (438/12).

ب - النهي عن اتخاذها غرضاً يرمى، فقد روى ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: (لا تتخذوا شيئاً فيه الروح غرضاً)<sup>1</sup>.

ج- النهي عن حبسها حتى الموت، لأن ذلك يؤدي إلى غضب الخالق عز وجل، فقد روى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: (دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت هزلاً)<sup>2</sup>.

د - النهي عن قتلها بلا سبب، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (من قتل عصفوراً عبثاً عجز إلى الله يوم القيامة، يقول: يا رب! إن فلانا قتلني عبثاً ولم يقتلني منفعة)<sup>3</sup>.

هـ - مساعدة الحيوان وتقديم الخدمة له، فعن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (غفر لامرأة مومسة، مرت بكلب على رأس ركي - أي: بئر - يلهث، قال: كاد يقتله العطش، فنزعت خفها، فأوثقته بخمارها، فنزعت له من الماء، فغفر لها بذلك)<sup>4</sup>.

وفي رواية ابن حبان: (دنا رجل إلى بئر فنزل فشرّب منها، وعلى البئر كلب يلهث، فرحمه، فنزع إحدى خفيه، فغرف له فسقاه، فشكر الله له، فأدخله الجنة)<sup>5</sup>.

ومن هذه التشريعات نجد حرص الإسلام على تعاهد الحيوان ورعايته واستخدامه لمصلحة الإنسان لا للعبث به وتعذيبه كما يحصل في رياضة مصارعة الثيران التي ترعاها الدول الغربية.

### 3- رحمة الطبيعة، ونعني بذلك استخدام الطبيعة برفق، لأنها مسخرة للإنسان، فعليه أن يحافظ

على مقدراتها وينتفع بها ولا يفسدها ولا يتعامل معها باستعلاء كاذب، أو بما يسمونه أسلوب قهر الطبيعة، وهنا نذكر ما روته عائشة، قالت: قال رسول الله (إن الله تعالى يحب الرفق بالأمر كله)<sup>6</sup>، والرفق لا بد أن يشمل البيئة التي نعيش فيها، ويتمثل هذا فيما يلي:

أ- الإبقاء على الماء وهو أساس الحياة، وعدم الإسراف في استعماله، وعدم تلوّثه حتى ينتفع منه الآخرون، قال تعالى: (وجعلنا من الماء كل شيء حي)<sup>7</sup>، وقال تعالى: (ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين)<sup>8</sup>، وروى أبو هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ثم يغتسل منه)<sup>9</sup>، فقطرة ماء واحدة قد يحتاج إليها الإنسان في الصحراء أو غيرها، ولذلك وجب المحافظة على نظافة الماء.

ب - زيادة الرقعة الخضراء فوق الأرض، والمحافظة على الأشجار وظلها والانتفاع به، والاهتمام بالزرع والدعوة إلى الإكثار منه. وقد رويت آثار كثيرة بهذا الصدد، فعن عائشة، أن

1 - رواه مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، تحقيق الشيخ خليل مأمون شيحا، (109/13). صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان (422/12) وأخرجه أحمد والنسائي وغيرهم.

2 - رواه مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، تحقيق الشيخ خليل مأمون شيحا، (75/17). صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، (439-438/12). وأخرجه أحمد وابن ماجه أيضاً.

3 - صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان (214/13) والحديث عند أحمد والطبراني أيضاً.

4 - صحيح البخاري، ضبطه الدكتور مصطفى أديب البغا، (126/3).

5 - صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، (301/2).

6 - صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، (307/2) وأخرجه أحمد والطبراني وابن ماجه أيضاً.

7 - سورة الأنبياء، الآية (30).

8 - سورة الأنعام، الآية (141).

9 - صحيح مسلم بشرح النووي، تحقيق الشيخ خليل مأمون شيحا، (178/3)، مختصر صحيح مسلم للمنذري، بتحقيق الألباني، ص (39)، وصحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، (60/4) وقد روى معناه عن جابر، وأخرجه أيضاً: أحمد وابن ماجه وغيرهم.

النبي صلى الله عليه وسلم مر بأرض تسمى غدره، فسامها خضرة<sup>1</sup>، وتغيير التسمية هنا تفاؤلا بأن ينعكس الاسم على المسمى، وفي حديث آخر: (إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفل) <sup>2</sup>، فمع شدة كرب يوم القيامة، وهو يوم ما عاد ينفع فيه العمل يحث الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم على زراعة الأرض ولو في ذلك الوقت، وأن لا نترك تلك الفسيلة تموت، وما هذا في حقيقته إلا حث على العمل الصالح، والاكتفاء الذاتي لتكون أمة الإسلام هي التي تطعم الأمم الأخرى وتتصدق عليها وليس العكس.

ج - المحافظة على الطبيعة من التلوث. نهى الإسلام عن الإفساد في الأرض بكل أشكاله وألوانه، قال تعالى: (ولا تعثوا في الأرض مفسدين)<sup>3</sup>، ووصف سلوك أحد المنحرفين عن منهج الله بأنه يفسد في الأرض ويدمر الحياة، قال تعالى: (وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد)<sup>4</sup>، ومن صور المحافظة على البيئة الاهتمام بنظافتها وقد روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (اتقوا اللعائين) . قالوا وما اللعائين يا رسول الله؟ قال: (الذي يتخلى في طريق الناس أو في ظلهم)<sup>5</sup>. فالدين يريد طرقات نظيفة، لكي تبقى المدن نظيفة بعيدة عن التلوث ومسببات الأمراض. ومثل هذه التشريعات التي أوجبها الدين إنما هي من أجل الحفاظ على الطبيعة جميلة نظيفة، فلا يشوهها الإنسان بسوء استخدامه، وهذه غاية الرحمة في هذا الدين التي امتدت للحفاظ على البيئة الصامتة بعيدة عن كل مسببات الأذى التي قد تلحق بالآخرين ممن ينتفعون بها نتيجة سوء استخدام لها من بعض الناس.

1 - صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، (136/13).

2 - رواه أحمد، عن أنس، انظر: المسند (191/3). و (181/3).

3 - سورة البقرة، الآية (60)، وهود، الآية (85).

4 - سورة البقرة، الآية (205).

5 - صحيح مسلم بشرح النووي، تحقيق الشيخ خليل مأمون شيا، (154/3)، مختصر صحيح مسلم للمنذري، بتحقيق الألباني، ص (38)، وصحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، (262/4-263) وأخرجه أحمد أيضا.

### القيمة الثالثة: التكافل الاجتماعي

ينظر الإسلام للمجتمع على أنه وحدة متكاملة، ولكل فرد من أفراده دور يؤديه لا غنى عنه، والمجتمع الرشيد هو المجتمع الذي يتماسك أبنائه كالجسد الواحد، فيشعر الغني بألم الفقير فيواسيه بماله، ويشعر الحاكم بتطلعات الرعية فيسوسها بالعدل والحكمة، وأبناء المجتمع المسلم إخوة توحدتهم أخوة الإيمان، قال تعالى: (إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم)<sup>1</sup>، وهم يتبادلون الاحترام فيما بينهم، روى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ليس منا من لم يوقر الكبير، ويرحم الصغير، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر)<sup>2</sup>، وأساس الإسلام معايشة الآخرين بالحسنى والتعاون معهم فيما يحقق مصالحهم الدينية والدنيوية، روى أنس، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (المؤمن من آمنه الناس، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هاجر السوء، والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة عبد حتى يأمن جاره بوائقه)<sup>3</sup>. وينبغي على الإنسان أن يؤدي دوره في خدمة الجماعة الإنسانية ومساندتها، يقول النبي صلى الله عليه وسلم موصيا بالجار والضيف ونحوهم: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصمت)<sup>4</sup>. فإذا لم يجد ما يكرم به الناس، ففي الكلمة الطيبة، والابتسام المشرقة ما يغنيه، فالرسول صلى الله عليه وسلم يريد من المسلمين أمة متحابية متماسكة، وليس أمة متجهمة متنافرة يضرب بعضها رقاب بعض، روى أبو ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تحقرن من المعروف شيئا، فإن لم تجد فلاين الناس ووجهك إليهم منبسطة)<sup>5</sup>.

والمسلمون يعيشون مع إخوانهم في الإنسانية من أبناء الديانات السماوية الأخرى متعاونين مترابطين، قال تعالى: (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم)<sup>6</sup>، ويجوز لنا مواساتهم وزيارتهم عند المرض والشدائد، روى أنس قال: عاد النبي صلى الله عليه وسلم يهوديا<sup>7</sup>، ولنا أن نتبادل معهم الطعام فيأكلون طعامنا ونأكل طعامهم ولا سيما في المناسبات السعيدة، قال تعالى: (وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لهم وطعامكم حل لهم)<sup>8</sup>.

ولا يجوز إيذاء اليهود والنصارى في دينهم وإنما ندعوهم بالحسنى إلى ديننا، فإن أبوا فذلك شأنهم، ولا نلحق بهم أي ضرر، بل يتمتعون بحقوقهم كاملة، روى أبو موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من سمع يهوديا أو نصرانيا دخل النار)<sup>9</sup>، فيحرم تسميعهم حول دينهم ما يكرهون، وإنما يكون الحوار معهم بالعلم والمنطق والحكمة لا غير، وإذا كان إيذاؤهم بالكلام

1 - سورة الحجرات، الآية (10).

2 - صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، (204/2).

3 - صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، (364/2). وأخرجه أحمد والحاكم أيضا.

4 - صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، (274-273/2). وأخرجه أحمد وأبو داود والترمذي.

5 - صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، (214/2). وأخرجه أحمد والترمذي أيضا.

6 - سورة الممتحنة، الآية (8).

7 - صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، (242/11).

8 - سورة المائدة، الآية (5).

9 - صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، (238/11)، وقد أورد ابن حبان هذا الحديث تحت باب بعنوان: ذكر إيجاب النار لمن أسمع أهل الكتاب ما يكرهونه.

يحرم صاحبه من دخول الجنة، فمن باب أولى الاعتداء عليهم بالقتل وما سواه، روى أبو بكره عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من قتل نفساً معاهداً، لم يرح رائحة الجنة)<sup>1</sup>. هذا هو خلق الإسلام وهو خلق يقوم على التسامح والمحبة بين الناس، وليس على المقت والكرهية والفتن والطائفية وغيرها من الأساليب الدنيئة التي تلجأ إليها قوى الاستعمار في عالمنا المتحضر من أجل تحقيق مكاسب مادية رخيصة على حساب كل القيم السماوية والمثل العليا التي تعارف عليها الناس. لقد تعايش المسلمون مع غيرهم من الناس من مختلف القارات، وفتحوا بلداناً بعيدة مثل جزر جاوة والفلبين بأخلاقهم لا بسيوفهم، وبقيت كنائس اليهود والنصارى في الحواضر الإسلامية أكبر شاهد على هذا، بينما عجزت الأمم الأخرى عن تحقيق هذا التعايش بين أفراد شعوبها ولا سيما إذا كانوا من الأقليات الدينية والعرقية، فحيث نظرنا نجد الدم الإسلامي ينزف بلا ثمن. مما يؤكد أن التعايش لم يتحقق بشكله الكامل إلا في ظل الإسلام وهو ما أكدته زيغريد هونكة في قولها: "إن التسامح العربي العريق هو الذي حمل فاتح مصر القائد عمرو بن العاص على تحاشي أي أعمال سلب أو نهب أو تدمير للمدن المفتوحة، بل آلى على نفسه المحافظة على ضمان ممارسة حضارتهم المتوارثة، كما جاء في وثيقة الاستسلام المبرمة حريفاً، وللوقوف على البعد الحقيقي لهذا التسامح غير المعهود في أوروبا، ربما يجلوه هذا النص المأخوذ من إحدى عقود السلام العربية نصاً: هذه الاتفاقية تشمل جميع الرعايا المسيحيين: قساوسة، رهباناً، وراهبات. إنها تمنحهم الأمن والحماية لكنائسهم، ومساكنهم، وأماكن الحج. كما يشمل أولئك الذين يقومون بزيارتها من: جورجيين، يعقوبيين، أريوسيين، أحباش، وسائر الذين يعترفون بنبوة المسيح، جميعهم يستحق الرعاية لأنهم في وقت مضى كرموا بوثيقة من قبل النبي صلى الله عليه وسلم مهرها بخاتمه، وفيها يوصينا بأن نكون رحماء معهم، وأن نضمن لهم الأمن."<sup>2</sup>

بقي أن ننبه على أن ما يسمى بالنظم الديمقراطية اليوم: هي قريبة إلى حد ما من النظام الإسلامي في هذا الشأن، ولكن يبقى هنالك تحيز وتلاعب على القانون لمصلحة الأكثرية، فهي ليست إلا صورة شكلية للعدالة، وأما مضمون العدالة والتعاون فلا نجده إلا في الإسلام الذي جعل العدوان على اليهودي والنصراني الذي يعيش تحت العلم الإسلامي يحرم صاحبه من الجنة! فلم تعد هنالك فرصة للتحايل على القانون في ظل الإسلام لأن حرية غير المسلمين أمر تفرضه العقيدة الإسلامية، ولا يمكن المساس به.

وننبه على ما يثيره البعض من حساسية تجاه لفظ أهل الذمة، وأن هذا قد يعني أنهم مواطنون من الدرجة الثانية، وهذا غير صحيح، لأن الذمة والعهد وما سواها من ألفاظ أطلقت لحماية هؤلاء، وبيان أن لهم عهداً مشروعاً من المسلمين بحمايتهم ورعايتهم، فلا يتجرأ أحد على المساس بهم، وهو لفظ يشبه في استعمالنا اليوم لفظ: الأقليات الدينية، أو العرقية، لا يراد منه انتياد هؤلاء، وإنما المحافظة عليهم ورعاية حقوقهم كي يحافظوا على هويتهم القومية أمام الجمهور الكبير من المجتمع، وأما ما يثار عن الجزية المضروبة عليهم، فهي ليست أكثر من ضريبة يؤديونها مقابل حماية الدولة لهم ورعايتها لشؤونهم، ولم يقصد من هذه المصطلحات امتنانهم أو الإساءة إليهم.

### القيمة الرابعة: الحرية

<sup>1</sup> - صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، (239/11) وأخرجه النسائي والحاكم أيضاً.  
<sup>2</sup> - العقيدة والمعرفة، ص (117).

الحرية من أعظم نعم الله على عباده، وقد خلقهم أحراراً، ولم يجبرهم على شيء، حتى لو كان ذلك اتباع دينه الذي فيه مصلحتهم في الدنيا والآخرة، قال تعالى: (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي)<sup>1</sup>، وفي خطاب هود عليه السلام إلى قومه تنويه بالحرية التي وهبها الله لعباده، وأن اتباعهم للدين يجب أن يكون نابعا عن رغبة منهم وليس عن قهر خارجي من قبل خالقهم، قال تعالى على لسان نبيه هود: (قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون)<sup>2</sup>، وهذه الآية تبين أن العقل البشري من شأنه أن يكون حرا طليفا لا يلزم بشيء ولا يقهر على شيء، لأن إلزامه بشيء لا يتقبله يعني إلغاء حرية، والله خلق الناس ليلوهم فيعرف من يؤمن منهم ومن يرفض، وليس ليجبرهم على الإيمان سبحانه وتعالى. وما دام الأمر كذلك فليس لنبيه أن يجبر أحدا على الإيمان، قال تعالى: (فذكر إنما أنت مذكر، لست عليهم بمسيطر)<sup>3</sup>، وقال: (نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار)<sup>4</sup>، (أي وما أنت مسلط عليهم، تقسرهم على الإيمان وتقل بهم ما تريد وإنما أنت منذر)<sup>5</sup>، وما دام الأمر كذلك، فالناس أحرار فيما يعملون، قال تعالى: (اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير)<sup>6</sup>، وقال أيضا: (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون)<sup>7</sup>، قال الألوسي في تفسير الآية: (ذرهم: اتركهم... وفي تقديم الأكل إيذان بأن تمتعهم إنما هو من قبيل تمتع البهائم بالمأكل والمشارب)<sup>8</sup>، فالرسول صلى الله عليه وسلم لا يملك إلا أن يطل من عل على هذه البشرية الضالة ويتألم لأحوال السائمة في أهوائها وهي تبحث عن مطالبها الحيوانية وشهواتها البهيمية ولا تنفك من أغلالها لتتطلع نحو السماء وتتأمل في الأفق الأعلى.

والإسلام أكبر ثورة في تاريخ البشرية ضد الظلم والتعسف والإكراه واستعباد الآخرين، فقد دعا إلى التسوية بين كافة الناس أسيادا وعبيدا، ودعا إلى تحرير العبيد من أول يوم بدأ، لأن الناس عبيد لربهم دون سواه، فكانت أول آية في سورة الفاتحة: ( الحمد لله رب العلمين ) فالربوبية والملك الأبدي والسيادة المطلقة لله وحده دون سواه! ولذلك وجد العبيد في هذا الدين ضالتهم التي ينشدونها، فكانوا أسرع إلى الإسلام من ساداتهم الذين قاموا هذا الدين حتى يوم الفتح الأكبر، وهو يوم فتح مكة.

وإذا كانت الحرية في الاعتقاد والسلوك مصونة في ظل الإسلام، فهي فيما سوى ذلك من باب أولى، فالحرية في الإسلام حدودها واسعة، تشمل كافة أطر الحياة، وشتى الشعوب والجماعات، ولنأخذ مثلا قضية الأسماء، فقد كان الجاهليون يسمون أنفسهم بأسماء الحيوانات والجمادات ونحوها، والرسول المربي صلى الله عليه وسلم كان يغير تلك الأسماء، ويأتي بأسماء تدل على معاني حسنة فيسمي بها أصحابه، وفي إحدى الحالات رفض أحدهم أن يغير اسمه، فلم يغضب منه النبي صلى الله عليه وسلم ولم يلزمه بتغيير اسمه، وإنما ترك له حرية الاحتفاظ بالاسم

1 - سورة البقرة، الآية (256).

2 - سورة هود، الآية (28).

3 - سورة الغاشية، الأيتان (21-22).

4 - سورة ق، الآية (45).

5 - روح المعاني، للألوسي (95/26).

6 - سورة فصلت، الآية (40).

7 - سورة الحجر، الآية (3).

8 - روح المعاني، للألوسي، (19/14).

الأصلي كما يشاء، وهذا منتهى التقدير لحرية الإنسان، روى سعيد بن المسيب عن أبيه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجدّه (ما اسمك؟). قال: حزن، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (بل أنت سهل)، قال: لا أغير اسما سمانيه أبي، قال سعيد: فما زالت فينا حزونة بعد<sup>1</sup>

وخلاصة الأمر: إن الحرية مصونة في الإسلام شريطة أن لا تلحق الضرر بالعباد والبلاد، وألا تروج في الأرض الفساد تحت شعار الحرية، وهو أمر حققه الإسلام، وعجزت عنه حضارة اليوم التي فتحت أبواب الحرية على مصراعيها، حتى ولج فيها كل الفئات الدنيا من المجتمع، فراجت المخدرات والإباحية والجرائم تحت شعار الحرية الجميل.

### القيمة الخامسة: العلم

الإسلام دين العلم والاكتشاف، وهذه حقيقة لا مرأى فيها، فأول ما أنزل الله على نبيه قوله تعالى: (اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق)<sup>2</sup>، وطلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعو ربه بأن يزيد علماء، فقال تعالى: (وقل رب زدني علما)<sup>3</sup>، وبين أن من مهمات النبي صلى الله عليه وسلم أن يعلم أصحابه، قال تعالى محذرا وظائفا النبي صلى الله عليه وسلم: (يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة)<sup>4</sup>، والكتاب الذي يتلوه النبي صلى الله عليه وسلم هو القرآن الذي نجد فيه تنويرها بشأن العلم والعلماء، فلا يستوي العلماء مع من سواهم أبدا، قال تعالى: (قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون)<sup>5</sup>، وما ذلك إلا لأن العلم هو الطريق لمعرفة الخالق وخشيته عز وجل، قال تعالى: (إنما يخشى الله من عباده العلماء)<sup>6</sup>، وقد دعا الله في القرآن الكريم إلى النظر والتأمل في السماوات والأرض وما فيهما من الآيات والعبر، قال تعالى: (قل انظروا ماذا في السماوات والأرض)<sup>7</sup>، كما وصف عباده المؤمنين بأنهم يتفكرون في خلق السماوات والأرض، قال تعالى (ويتفكرون في خلق السماوات والأرض)<sup>8</sup>، فالمسلمون مطالبون بالبحث والتعرف على آيات الله في الأفاق وفي أنفسهم، وأن يكونوا سباقين في ميادين المعرفة الدينية والدنيوية.

وتتميز الدعوة إلى العلم في الإسلام عن سواه بميزتين:

الأولى: بأنها متكاملة تشمل العلم الديني والدنيوي، فهي ليست دعوة خاصة بمعرفة الدين وحده دون الدنيا كما في المسيحية، وليست معرفة دنيوية محدودة كما هو الحال عند الماديين والملحدّين الذين اقتصرُوا في علومهم وبحوثهم على ما يتعلق بالدنيا وحدها دون سواها فهم كما وصفهم

1 - صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، (137/13) ورواه أحمد وأبو داود والطبراني وغيرهم.

2 - سورة العلق، الأيتان (1-2).

3 - سورة طه، الآية (114).

4 - سورة آل عمران، الآية (164).

5 - سورة الزمر، الآية (9).

6 - سورة فاطر، الآية (28).

7 - سورة يونس، الآية (101).

8 - سورة آل عمران، الآية (191).

القرآن (يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون)<sup>1</sup>. وفي هذا الصدد تقول زيغريد هونكة في حديثها عن السبب الثاني من أسباب تطور العلم العربي في عصر الحضارة الإسلامية، وهو: "استعداد النبي صلى الله عليه وسلم بالوحي، وعبر الهداية الدينية الخاصة والعالمية، لا لقبول المعرفة البشرية العقلانية فقط، بل والحث عليها، حتى إن مداد طالب العلم ارتفع إلى درجة التقديس، وأصبح بمثابة دماء الشهداء، هذا بدلا من حشر المؤمنين في حيز عقائدي ضيق بعيدا عن المتنفس كما فعلت المسيحية"<sup>2</sup>

والثانية: بأنها تشمل العلوم التي تخدم الإنسانية دون سواها من العلوم الضارة كالسحر مثلا الذي يستخدم في إيقاع الأذى بالآخرين، قال تعالى: (ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر)<sup>3</sup>.

والعلوم الحديثة في ظل حضارتنا المادية لا غاية لها من دين أو خلق، كما أنها تشمل العلوم النافعة والضارة على حد سواء، مما لحق بسببها أذى كثير بالإنسانية ومصالحها الأساسية.

1 - سورة الروم، الآية (7).

2 - العقيدة والمعرفة، ص (117).

3 - سورة البقرة، الآية (102).

## القيمة السادسة: العمل والإنتاج

الإسلام دين العمل، والعمل ضرب من الجهاد، والإسلام يشترط في العمل صلاحه، قال تعالى (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً)<sup>1</sup>، وأمر نبيه أن يحض المؤمنين على العمل، قال تعالى: (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون)<sup>2</sup>.

والعمل يشمل أمور الدين والدنيا، وقد أمر الله نبيه داود أن يعمل في نسج الدروع من أجل حماية الحياة الإنسانية عند الحروب، قال تعالى: (أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحاً)<sup>3</sup>، وأثنى على داود وآله، حيث تكامل في دولتهم: الإيمان والملك الرشيد والعدل، فأمرهم أن يستمروا على هذا المنوال، قال تعالى: (اعملوا آل داود شكراً وقليل من عبادي الشكور)<sup>4</sup>.

والعمل في الإسلام مسئولية، والجزاء من جنس العمل، قال تعالى: (فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره)<sup>5</sup>.

وقد تبدو أعمال الكفار أمام أعينهم مغرية براقعة، إلا أنها بلا مغزى في النهاية، فلا خير في عمل يصدر عن غير عقيدة، قال تعالى: (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء)<sup>6</sup>، وكثيراً ما تصد أعمال الكافرين أصحابها عن الهدى بتأثير من الشيطان الرجيم، قال تعالى: (وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل)<sup>7</sup>.

والخلاصة أن الإسلام يريد العمل النافع الذي يراد به وجه الله، والذي يحقق الفائدة للفرد والأسرة والمجتمع، وهو ما لا تشترطه القيم المادية السائدة على وجه الأرض اليوم، فهي لا تبحث إلا عن العمل الذي يؤدي بأقل جهد ويرجع بأعظم عائد مادي، دون النظر إلى نوعية هذا العمل وأثاره السلبية والإيجابية، كما أنها تستبعد أي عمل يرجى به وجه الله والدار الآخرة، لأنها لا تؤمن إلا بالعاجل المحسوس فقط.

يبقى أن نشير إلى أن الإسلام نظم العلاقة بين رب العمل والعمال، فلا استغلال ولا شحناء بينهما، فابتعد عن مساوئ الشيوعية التي توجب نار العداوة في صدور الفقراء ضد الأغنياء، وابتعد عن مساوئ الرأسمالية التي تسمح للفرد أن يأكل عرق الآخرين ويستغلهم تبعاً للعرض والطلب وأحوال السوق الاقتصادية، فالعامل أخ لرب العمل في الدين، يؤدي له العمل بإخلاص، فيما يؤدي إليه رب العمل أجره غير منقوص قبل أن يجف عرقه<sup>8</sup>.

1 - سورة المؤمنون، الآية (51).

2 - سورة التوبة، الآية (105).

3 - سورة سبأ، الآية (11).

4 - سورة سبأ، الآية (13).

5 - سورة الزلزلة، الآيتان (7-8).

6 - سورة النور، الآية (39).

7 - سورة العنكبوت، الآية (38).

8 - انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي، (563/1) الحديث: (1146).

## القيمة السابعة: المحافظة على الوقت

الوقت هو الحياة، وقد جعل الله تعاقب الليل والنهار لغرض عظيم وهو السعي في النهار والراحة في الليل، ثم لتأريخ الحوادث والأيام، ومعرفة الحساب من خلالها، قال تعالى: (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب)<sup>1</sup>.

وقد اهتم الإسلام بعنصر الزمان فأقام عباداته كلها بناء عليه، فالصلاة التي هي عماد الدين محددة بأوقات معلومة في اليوم واللييلة، قال تعالى: (وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفا من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين)<sup>2</sup>، وقال أيضا، (أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر)<sup>3</sup>، والزكاة تكون مرة في الحول، وكذلك الصيام، قال تعالى: (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس)<sup>4</sup>، والحج مرة في العمر ويكون في أشهر معينة، قال تعالى: (الحج أشهر معلومات)<sup>5</sup>، وهناك أربعة أشهر في العام تسمى الأشهر الحرم، قال تعالى: (إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله)<sup>6</sup>، وهناك ليلة مخصصة بعينها بالفضل، وهي ليلة القدر، قال تعالى: (ليلة القدر خير من ألف شهر)<sup>7</sup>، كما أن هنالك أياما وليالي مخصصة بالفضل وهي العشر الأوائل من ذي الحجة، قال تعالى: (والفجر وليال عشر)<sup>8</sup>، وهذه العناية من الشارع الحكيم بالوقت حين جعل أهم العبادات محددة في أوقات معينة، ترشدنا إلى ضرورة اغتنام الوقت ومعرفته بشكل جيد لأن شعائر الدين مرهونة به، قال تعالى: (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين)<sup>9</sup>.

وفي السياق ذاته أرشد النبي صلى الله عليه وسلم إلى ضرورة اغتنام الوقت بفعل الأعمال الصالحة، فقال صلى الله عليه وسلم: (بادروا بالأعمال فتنتا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا، ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا، يبيع دينه بعرض من الدنيا)<sup>10</sup>. وبين النبي صلى الله عليه وسلم أن الفراغ نعمة يجب استغلالها، فقال صلى الله عليه وسلم: (نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ)<sup>11</sup>. ودعا إلى استغلال كل لحظات العمر وطاقت الإنسان قبل فوات الأوان، فقال صلى الله عليه وسلم: (اغتنم خمسا قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك

1 - سورة الإسراء، الآية (12).

2 - سورة هود، الآية (114).

3 - سورة الإسراء، الآية (78).

4 - سورة البقرة، الآية (185).

5 - سورة البقرة، الآية (197).

6 - سورة التوبة، الآية (36).

7 - سورة القدر، الآية (3).

8 - سورة الفجر، الأيتان (1-2).

9 - سورة آل عمران، الآية (133).

10 - صحيح مسلم بشرح النووي، تحقيق الشيخ خليل مأمون شيحا، (314/2)، مختصر صحيح مسلم للمنذري، بتحقيق الألباني، ص (335) وصحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، (96/9). وأخرجه أحمد والترمذي وغيرهم.

11 - رواه البخاري عن ابن عباس، انظر: صحيح البخاري، ضبطه الدكتور مصطفى أديب البغا، (2357/6) ورواه أيضا الترمذي وابن ماجه والنسائي عن ابن عباس، انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي (288/6).

قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك<sup>1</sup>، فالمسلم بناء على توجيه القرآن والسنة له مطالب بتحقيق أعظم الانجازات في هذا العمر القصير، حتى ينال جنة عرضها السماوات والأرض. والإسلام حريص على الوقت وميزته على ما سواه من العقائد والفلسفات البشرية بما يلي:

- 1- أنه وزع الوقت بين الدين والدنيا، فلم يجعله لأحدهما دون الآخر، وهذا من وسطية الإسلام.
  - 2- أنه نهى عن تضييع الوقت من دون فائدة، كالنوم الطويل واللعب الكثير.
  - 3- أن وقت الراحة والتسلية يجب أن يكون في أمور مباحة من اللهو وليست محرمة.
- وقد كان الصحابة رضي الله عنهم يمزحون فيما بينهم، ويتركون فسحة من أوقاتهم للمرح واللهو البريء، فإذا كانت الحرب أو الجد كانوا هم الرجال، وقد حققوا من الإنجازات القياسية أشياء كثيرة، منها نشر الإسلام خلال زمن وجيز بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وهو ما لم تحققه الأمة مجتمعة عبر القرون التي جاءت بعدهم.

<sup>1</sup> - رواه الحاكم والبيهقي في شعب الإيمان عن ابن عباس، وأحمد في الزهد وأبو نعيم في الحلية، وكذا النسائي ورمز له السيوطي بالحسن، انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي، (16/2).

### القيمة الثامنة: المساواة وسيادة القانون

الناس في ميزان الإسلام جميعا سواء لا فضل لأحد على الآخر بسبب عرقه أو لونه أو قبيلته أو قارته أو جنسيته، فشعار الإسلام قول الله تعالى: (إن أكرمكم عند الله أتقاكم)<sup>1</sup>، وهذه المساواة فرضها الإسلام قبل أن تعرفها المنظمات الدولية التي تعنى بحقوق الإنسان في عصرنا الحاضر بأربعة عشر قرنا، في وقت كانت فيه العصبية القبلية هي التي تدير سفينة المجتمع وتتحكم فيه.

والناس جميعا أمام الشريعة سواء، فلا وساطات ولا رشاوى، ولا قرابات تنفع، يقول النبي صلى الله عليه وسلم: (وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)<sup>2</sup>.

وليس لمسلم أن يظلم معاهدا أو غيره، وإذا وقع شيء من ذلك فلا بد للعدالة أن تأخذ مجراها، وإذا التبس الأمر على الحاكم في الأرض، فإن يد السماء سرعان ما تتدخل لمصلحة المظلوم ضد الظالم، وقد أنزل الله عز وجل عددا من الآيات، في تبرئة يهودي اتهمه أحد الأنصار بالسرقة ظلما وعدوانا، وهذه الآيات هي من قوله تعالى: (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما) إلى قوله: (ومن يكسب خطيئة أو إثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً، ولو لا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك وما يضلون إلا أنفسهم، وما يضرونك من شيء، وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة، وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً)<sup>3</sup>، والقصة باختصار أن نفرا من الأنصار: قتادة بن النعمان وعمه رفاعة غزوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض غزواته، فسرت درع لأحدهم: رفاعة، فحامت الشبهة حول رجل من الأنصار من أهل بيت يقال لهم بنو أبيرق، فأتى صاحب الدرع رسول الله، فقال: إن طعمة بن أبيرق سرق درعي. فلما رأى السارق ذلك عمد إلى الدرع فألقاها في بيت رجل يهودي اسمه زيد بن السمين، وقال لنفر من عشيرته: إنني غيبت الدرع وألقيتها في بيت فلان، وستوجد عنده، فانطلقوا إلى رسول الله فقالوا: يا نبي الله إن صاحبنا بريء، وإن الذي سرق الدرع فلان، وقد أحطنا بذلك علما، فاعذر صاحبنا على رؤوس الناس، وجادل عنه فإنه إن لم يعصمه الله بك يهلك. ولما عرف رسول الله أن الدرع وجدت في بيت اليهودي، قام فبرأ ابن أبيرق وعذره على رؤوس الناس، وكان أهله قد قالوا للنبي قبل ظهور الدرع في بيت اليهودي إن قتادة بن النعمان وعمه عمدا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت. قال قتادة: فأثيت رسول الله فكلمته. فقال: "عمدت إلى أهل بيت يذكر منهم إسلام وصلاح وترميهم بالسرقة على غير ثبت ولا بينة؟". قال: فرجعت، ولوددت أني خرجت من بعض مالي ولم أكلم رسول الله في ذلك. فأثاني عمي رفاعة، فقال: يا ابن أخي ما صنعت؟ فأخبرته بما قال لي رسول الله. فقال: الله المستعان. فلم نلبث أن نزلت: (إنا

<sup>1</sup> - سورة الحجرات، الآية (13).

<sup>2</sup> - رواه البخاري عن عائشة، انظر: صحيح البخاري، ضبطه الدكتور مصطفى أديب البغا، (1282/3)، ورواه مسلم: انظر: صحيح مسلم بشرح النووي، تحقيق الشيخ خليل مأمون شيحا، (186/11)، وصحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، (249-248/10). ورواه أبو داود والترمذي والنسائي أيضا.

<sup>3</sup> - سورة النساء، الآيات (106-113).

أنزلنا إليك ) الآيات<sup>1</sup>. وهذه الآيات تدل على عدل الشريعة وإنصافها حيث (في هذا الوقت الحرج، الخطر، الشديد الخطورة، كانت هذه الآيات كلها تنزل على رسول الله وعلى الجماعة الإسلامية لتتنصف رجلا يهوديا، اتهم ظلما بسرقة، ولتدين الذين تأمروا على اتهامه، وهم أهل بيت من الأنصار في المدينة، والأنصار يومئذ هم عدة الرسول صلى الله عليه وسلم وجنده في مقاومة هذا الكيد الناصب من حوله، ومن حول الرسالة والدين والعقيدة الجديدة... إن المسألة لم تكن مجرد تبرئة بريء، تأمرت عليه عصبية لتوقعه في الاتهام، وإن كانت تبرئة بريء أمرا هائلا في ميزان الله، إنما كانت أكبر من ذلك، كانت هي إقامة الميزان الذي لا يميل مع الهوى، ولا مع العصبية، ولا يتأرجح مع المودة والشنان أيا كانت الملابس والأحوال)<sup>2</sup>.

هذه شريعة الله التي لا تحابي أحدا على حساب الآخر، وأما شرائع الأرض اليوم التي تلبس مسوح الرهبان وتتستر بالعدالة وحقوق الإنسان، فهي التي تسمح للإنسان بممارسة التمييز ضد أخيه الإنسان، وقد رأينا الملائم العالمي محمد علي يعتنق الإسلام بعد أن وجد فيه المساواة الحقيقية بين الناس جميعا، وهو الأمر الذي لم تحققه حضارة الرجل الأبيض في هذا العالم بشكل فعلي حتى اليوم.

<sup>1</sup> - انظر: الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي، (215/2-219)، دار المعرفة، بيروت.  
<sup>2</sup> - في ظلال القرآن، (751/2-752).

### القيمة التاسعة: الشورى ومقاومة الاستبداد

الإسلام دين الشورى، فلا استبداد ولا قمع ولا سلطة فردية مطلقة للحاكم، والحاكم هو أجبر عند الأمة يرعى مصالحها وليس العكس، وقد أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بأن يمارس الشورى فعليا مع أصحابه، وذلك في قوله تعالى: (فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر)<sup>1</sup>، ووصف أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بأنهم يتخذون قراراتهم بالشورى، قال تعالى: (وأمرهم شورى بينهم)<sup>2</sup>، وقد مارس أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الشورى فيما بينهم في أمورهم الدينية والدنيوية، يقول الألوسي: (وقد كانت الشورى بين النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فيما يتعلق بمصالح الحروب، وكذا بين الصحابة رضي الله تعالى عنهم بعده عليه الصلاة والسلام، وكانت بينهم أيضا في الأحكام، كقتال أهل الردة، وميراث الجد، وعدد حد الخمر، وغير ذلك، والمراد بالأحكام: ما لم يكن لهم فيه نص شرعي)<sup>3</sup>. ونحن نضيف على ما قاله المفسر بأن الشورى كانت أيضا في انتخاب الخلفاء الراشدين، وقد حصل لأول مرة في تاريخ الإنسانية تداول للسلطة في عهد الراشدين، فبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأت أحد من أقربائه، وإنما انتقلت الخلافة إلى أبي بكر، ثم إلى عمر، ثم إلى عثمان، ثم إلى علي رضي الله عنهم أجمعين.

والإسلام ترك باب الشورى مفتوحا إلى يوم القيامة، يختار المسلمون حكامهم الذين يريدون بالطريقة التي يريدونها، والشورى هي شبيهة بالعملية الديمقراطية في العصر الحديث، وكان الإسلام أول من سبق إليها نظريا وعمليا في التاريخ. بيد أنها تتميز عن الديمقراطية بأمر كثيرة، منها:

- 1- الديمقراطية يكون فيها القرار للأكثرية، وأما في الشورى فالقرار يكون للرأي الأفضل ولو كان رأي الأقلية.
  - 2- إن ممارسة العملية الديمقراطية يكون بواسطة الأحزاب السياسية التي تزرع الشقاق والعداوات بين الأمة الواحدة، وأما الشورى فيمكن تقديمها مباشرة للحاكم.
  - 3- للديموقراطية شكل محدد في الحكم، في حين أن الشورى تسمح باتخاذ أشكال متعددة من الحكم، فهي ليست شكلا محددًا ولكنها مضمون وجوه قبل كل شيء.
  - 4- تخضع الانتخابات والأصوات إلى ابتزاز من قبل الناخبين والأحزاب السياسية، بينما تبقى الشورى عملية نظيفة من هذا الاستغلال السياسي.
- وقد اختلف العلماء في الشورى هل هي ملزمة للحاكم أم لا، فمنهم من نص على أن الشورى ملزمة، وهذا الرأي يتوافق مع ما تقتضيه ظروف عصرنا وتطوره، فمصير الأمة لا يمكن أن يكون بيد فرد وحده أيا كان.

ولكن ماذا إذا رفض الحاكم الشورى وسار بالأمة في طريق الاستبداد؟

1 - سورة آل عمران، الآية (159).

2 - سورة الشورى، الآية (38).

3 - روح المعاني، للألوسي، (46/25).

هنا يطلب الإسلام من الأمة أن تقول كلمة الحق عالية مدوية، ولو أدى هذا إلى إلحاق الأذى بصاحبها، فليس ثمة شيء أكرم من شهيد يقول كلمة الحق، وقد وصف الله جنده بأنهم مع الحق لا يأبهون لتأنيب ولا يخافون من وعيد، قال تعالى: (يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم) <sup>1</sup>، ويقول النبي صلى الله عليه وسلم: (إن من أعظم الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر) <sup>2</sup>. فالإسلام لا يريد أمة مسحوقة مستعبدة يلعب بها الحاكم كما يريد، وإنما يريد أمة قوية حرة، يقوم الحاكم بخدمتها وتحقيق مصالحها، فإذا أخطأ بحكم أنه بشر، رده الناس إلى الحق بالحسنى، أو بكلمة الحق المدوية، شريطة ألا يتعدى الأمر إلى العنف السياسي والافتتال الداخلي الذي يرفضه الإسلام لأنه يدمر قوى الأمة ويشرخ صفوفها ويجعلها ضعيفة أمام الآخرين، فالنهي عن المنكر يجب أن لا تؤدي إلى منكر أكبر، وينبغي على الأمر بالمعروف والناهي عن المنكر أن يتحلى بالرفق في أمره ونهيه، ويتعدى عن الشدة والخشونة في القول والعمل.

<sup>1</sup> - سورة المائدة، الآية (54).

<sup>2</sup> - أخرجه أحمد والترمذي وأبو داود والحاكم، انظر: تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، (296/6). وزاد المعاد لابن القيم، (94/3).

## القيمة العاشرة : العمران

الإسلام مع عمارة الأرض لأن الله هو الذي أسكن آدم الأرض وطلب منه ومن ذريته إعمارها، قال تعالى: (هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها)<sup>1</sup>، (أي هو الذي جعلكم عمارها وسكانها، فالاستفعال بمعنى الإفعال، يقال: أعمرته الأرض واستعمرته إذا جعلته عامرها وفوضت إليه عمارتها)<sup>2</sup>، وللعمارة أحكامها في الشريعة، قال الألويسي: (واستدل بالآية على أن عمارة الأرض واجبة لهذا الطلب، وقسمها في الكشاف إلى واجب، كعمارة القناطر اللازمة والمسجد الجامع، ومنسوب كعمارة المساجد، ومباح كعمارة المنازل، وحرام كعمارة الحانات وما يبني للمباهاة أو من مال حرام كأبنية كثير من الظلمة)<sup>3</sup>.

والعمران في الإسلام يشمل الأرض كلها، والنشاطات الإنسانية كافة التي تسهم في تطوير الحياة الإنسانية، ومن ذلك:

1- الدعوة إلى استثمار الأرض الخراب بتحويلها إلى أرض ينتفع بها، ومن أجل ذلك أباح الإسلام تملك الأرض لمن يعمرها ويستثمرها، ففي الحديث: (من أحيا أرضا ميتة فهي له)<sup>4</sup>

2- الدعوة إلى الاستفادة من معادن الأرض وتسخيرها في خدمة الإنسانية، فالأرض بما فيها من معادن مسخرة من أجل هذا الإعمار، قال تعالى: (وانزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس)<sup>5</sup>، وعلى الإنسان أن يعمل في هذه الأرض، ويستثمر ما فيها من خيرات ومعادن، وقد اعتبر الدين الحنيف أن خير الكسب ما كان مكتسبا بسعي اليد، وفي هذا حض على العمل والاستثمار، ففي الحديث: (ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده)<sup>6</sup>.

والصناعة قد تكون سبيلا للجنة كما في صناعة السلاح الذي يحمي الأمة من كيد أعدائها، ففي الحديث: (إن الله تعالى يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة: صانعه يحتسب في صنعته الخير، والرامي به، ومنبله)<sup>7</sup>، كما أنها يمكن أن تكون سبيلا للشقاء الأبدى كما في صناعة المسكرات والمخدرات، وكل ما يلحق الأذى بالإنسان أو الحيوان أو البيئة الحية.

3- دعوة الإسلام للتحضر لما في الاجتماع من فوائد لا نجدها في البدايات، ففي الحديث: (من سكن البادية فقد جفا)<sup>8</sup>، قال المباركفوري: "قوله: من سكن البادية فقد جفا، أي: جهل، قال تعالى:

1 - سورة هود، الآية (61).

2 - روح المعاني، للألويسي، (88/12).

3 - روح المعاني، للألويسي، (88/12).

4 - رواه أبو داود والترمذي وأحمد، ورمز له السيوطي بالصحة، انظر: فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي، (39/6).

5 - سورة الحديد، الآية (25).

6 - رواه البخاري، انظر: صحيح البخاري، ضبطه الدكتور مصطفى أديب البيغا، (730/2).

7 - رواه الترمذي وابن ماجه وأبو داود والدارمي، انظر: مشكاة المصابيح، للتبريزي، (1137/2).

8 - رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب، ورواه أبو داود أيضا، انظر: تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، (532/6-533).

(الأعراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله)<sup>1</sup> قاله القاري، وقال القاضي: جفا الرجل إذا غلظ قلبه، وقساء، ولم يرق لبر وصلة رحم، وهو الغالب على سكان البوادي، لبعدهم عن أهل العلم وقلة اختلاطهم بالناس، فصارت طباعهم كطباع الوحوش، وأصل التركيب للنبو عن الشيء<sup>2</sup>.

4- الدعوة إلى بناء المساجد ليجتمع فيها المسلمون، وقد أمر الله بعمارة المساجد حيث قال: (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر)<sup>3</sup>، ونهى عن هدمها بعد عمارتها، (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها)<sup>4</sup>، وكان أول ما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم في المدينة هو بناء مسجده الشريف، وعلى هذا درج المسلمون في بنائهم للمدن، فهم يختطون المسجد الجامع أولاً في وسط المدينة ثم يضعون المخططات حوله لمباني الحكومة وغيرها.

5- والعمران في التصور الإسلامي يكون مادياً وروحياً، وقد نعى الله على قوم عاد اهتمامهم بالعمران المادي دون الروحي، قال تعالى: (فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون)<sup>5</sup>، وكانت النتيجة دمار دولتهم وذهاب قوتهم، قال تعالى: (ألم تر كيف فعل ربك بعاد، إرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد)<sup>6</sup>، وما كان الله ليهدم قوم عاد لو أنابوا له، بل كان سيزيدهم قوة مادية وروحية إضافة إلى قوتهم، ولكنهم ضلوا السبيل، قال تعالى على لسان نبيه هود عليه السلام: (ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين)<sup>7</sup>، وليست عاد إلا نموذجاً واحداً من أمم كثيرة نسيت ربها، وعبدت دنيهاها، فلم ينفعها ذلك من الوقاية من بأس الله، قال تعالى: (أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون)<sup>8</sup>، فالإسلام ليس بحال من الأحوال ضد العمران والنمو المادي للحياة الإنسانية، بل هو يدعو إليه ويشجعه، وإنما هو يرفض أن يكون هذا النمو على حساب النمو الروحي، فلا بد من التكامل، ونمو الاثنين معاً، لتبقى الحياة سليمة، وتتحقق الحضارة المثلى التي يدعو لها، بخلاف حضارتنا المادية اليوم فهي حضارة تتعامل مع الإنسان على أنه جسد خالص، وتتناسى مطالبه الروحية، مما ولد فجوة كبيرة بين طموحات الإنسان وبين هذه الحضارة التي لم تف بكل تطلماته، ونجد هذا السخط واضحاً فيما كتبه العلماء والأدباء والشعراء في تشخيصهم لهذه الحضارة على مختلف اتجاهاتهم الفكرية، وانتماءاتهم الدينية، من ذلك ما قاله موريس بوكاي: "ازدادت الحجج القائلة بوجود الخالق بلاغة، ولكن الإنسان بدلاً من أن يمتلئ بالتواضع أمام هذه الوقائع ينتفخ تكبراً، هو يعتقد أن من سلطانه

1 - سورة التوبة، الآية (97).

2 - تحفة الأحوذني بشرح جامع الترمذي، (532/6).

3 - سورة التوبة، الآية (18).

4 - سورة البقرة، الآية (114).

5 - سورة فصلت، الآية (15).

6 - سورة الفجر، الآيات (5-8).

7 - سورة هود، الآية (52).

8 - سورة الروم، الآية (9).

السخرية من فكرة الله كما يسخر بكل ما يجد على طريقه إذا حدث أن شكل هذا عقبة أمام متعته وشهيته للتمتع، ذلك هو المجتمع المادي في تمام توسعه الآن في الغرب"<sup>1</sup>

---

<sup>1</sup> - دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص (142).

## القيمة الحادية عشرة: حقوق المرأة

المرأة في الإسلام هي أساس المجتمع الصالح، وقد وصى بها الإسلام سواء كانت أما أو زوجة أو بنتاً، قال تعالى: (ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن)<sup>1</sup>، وقال أيضاً: (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها)<sup>2</sup> وعن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن الصحبة؟ قال: (أمك). قال: ثم من؟ قال: (أمك). قال: ثم من؟ قال: (أبوك). قال: فيرون أن للأم ثلثي البر.<sup>3</sup> وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي)<sup>4</sup>، واستهجن النبي صلى الله عليه وسلم ضرب المرأة واستكرهه في مجتمع لم يكن يعرف وسيلة للتفاهم غير الضرب والأذى، يقول: (الإم يجلد أحدكم امرأته جلد العبد ولعله يضاجعها من آخر يومه؟!)<sup>5</sup> وقد بلغ من حرص الإسلام على المرأة ورحمته بها أن نهى عن قتلها في الحرب، عن ابن عمر (أن رسول الله رأى في بعض غزواته امرأة مقتولة، فأنكر ذلك، ونهى عن قتل النساء والصبيان)<sup>6</sup>. فالمرأة أساس الأسرة والعناية بها هو من أجل بناء المجتمع الصالح الرشيد.

والمرأة في الجاهلية لم تكن لها كرامة، ربما يئدها أبوها طفلة، وقد يزوجها مكرهة وهي شابة، ويمنعها أهلها من الميراث، ولم تكن حالها في الشعوب المجاورة بأحسن حالا مما هي عليه في بلاد العرب، فجاء الإسلام وأعطاهما كامل حقوقها، ونظم حياتها وكرمها، وجعل الجنة تحت أقدامها، ففي الحديث: (الجنة تحت أقدام الأمهات)<sup>7</sup>، وليس ثمة فضل وتكريم بعد هذا يمنحه دين مثل الإسلام للمرأة.

بقيت موضوعات تثار حول المرأة في هذا العصر، وهي تتعلق بالميراث، والحجاب، والطلاق، فأما في مسألة الميراث، فيقال لماذا لا تأخذ المرأة مثل الرجل تماماً، والسبب بسيط، وهو أن المرأة يدفع لها الرجل المهر، ويتحمل نفقتها هي وأولادها، وهي ليست ملزمة بشيء من النفقة، وليس عليها أن تعمل لتأكل، وبهذا يتحمل الرجل أعباء إنشاء الأسرة واستمرارها، فهو إذا أخذ من الميراث أكثر فسينفق على امرأة أخرى، وكذلك المرأة، فهي إذا أخذت من الميراث أقل، فسوف تأخذ مهراً من رجل آخر، وبهذا يتساوى الاثنان في المحصلة، وإنها لقسمة عادلة من لدن حكيم عليم.

1 - سورة لقمان، الآية (14).

2 - سورة الروم، الآية (21).

3 - صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، (176-175/2) وأخرج نحوه أيضاً مسلم وفيه كرر الجواب (أمك) ثلاثاً، وليس فيه الزيادة: فيرون للأم... انظر: صحيح مسلم بشرح النووي، تحقيق الشيخ خليل مأمون شيحا، (318/16)، ورواه ابن ماجه وأحمد أيضاً.

4 - رواه الترمذي وابن حبان وابن ماجه، انظر: زاد المعاد لابن القيم (152/1). والحديث أيضاً في صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان، (485/9) رقم (4177).

5 - رواه مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي، تحقيق الشيخ خليل مأمون شيحا، (186/17).

6 - صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان (344/1). ورواه مالك، وأحمد وابن ماجه أيضاً.

7 - قال المناوي في فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي (362/3): "أخرجه النسائي وابن ماجه، وكذا أحمد والحاكم وصححه".

وأما الاستثناءات فلا اعتبار لها في الحكم كأن يقال: ماذا لو لم تتزوج المرأة؟ فنقول: لا عبرة في الحالة الفردية والشاذة، فالتشريع يراعي عادة مصلحة الغالبية والسواد الأعظم من أبناء المجتمع.

وأما الطلاق فهو بيد الرجل، ليس من أجل أن يقهر المرأة ويتحكم فيها، فليس ثمة رجل عاقل يرضى أن يعيش مع امرأة بالإكراه، ولكنه جعل بيد الرجل من أجل مصلحة المرأة، فهي أكثر عاطفة من الرجل، ولو كان الطلاق بيدها فربما طلقت نفسها ثم ندمت على ذلك حين لا ينفع الندم، ولذلك جعل الله الطلاق بيد الرجل لأنه أكثر ضبطاً لانفعالاته من المرأة، وفي ذلك مصلحة عامة للأسرة والأطفال والمرأة نفسها، على أنه ينبغي أن ننوه هنا أن للمرأة عند كتابة عقد النكاح أن تطلب أن تكون العصمة بيدها وقد أقر بعض الفقهاء بذلك، وصرحوا أن للزوج أن يفوض زوجته في أن تطلق نفسها<sup>1</sup>.

وأما الحجاب فهو لمصلحة المرأة أيضاً وحمايتها من لصوص الأعراض وأذى المغرضين، وليس بقصد تشويها وإهانتها كما يدعي المغرضون، والمرأة المحجبة يمكن أن تمارس العمل من دون نزع الحجاب، وإذا كانت في مؤسسة نسائية فلها أن تخلع الحجاب وتعمل بدونه إذا لم يكن هنالك رجال، كما أن لها كشف وجهها عند أمن الفتنة وقد أفتى الفقهاء بذلك، فقد صرح ابن عباس ومالك والأوزاعي وأبو حنيفة والشافعي أن الوجه والكفين ليسا بعورة<sup>2</sup>.

إن الإسلام هو الذي أعطى المرأة حقوقها واعتباراتها<sup>3</sup>، وأما الحضارة المادية الحديثة فقد أهانت المرأة، وسخرتها للدعاية والإعلان، وتعاملت معها كأنها دمية يلعب بها الرجال، ولم تسو بالأجور بينها وبين الرجل، وحرمتها من كثير من حقوقها الشرعية فهي شريكة للرجل في العمل من أجل البقاء، وهي تعمل لتأكل، ولا ينفق عليها زوجها، وقد تتزوج وتتجب من غير عقد شرعي لما يترتب على العقد من حقوق وواجبات يفر منها الرجال في الغرب، فهم يخشون تبعات الطلاق المادية، ولذلك صاروا يتزوجون من غير عقود، وكانت النتيجة تفكك نظام الأسرة، وضياع المجتمع!

<sup>1</sup> - انظر: المغني، لابن قدامة، (299-287/8).

<sup>2</sup> - المغني، لابن قدامة، (637/1).

<sup>3</sup> - ننوه هنا بكتاب الدكتور عبد الكريم زيدان، المفصل في أحكام المرأة، وهو كتاب جامع مانع كما يقال، يستطيع من يريد التعرف على مزيد من أحكام المرأة في الإسلام أن يعود إليه، ويقع الكتاب في (11) مجلداً، ونشرت الطبعة الأولى مؤسسة الرسالة، 1413 هـ / 1993 م.

## القيمة الثانية عشرة: السلام

السلام هو أمل الشعوب اليوم بعد أن أرعبتها أشباح الحرب النووية القادمة. حيث نجد معظم الدول بدأت تنفق كثيراً من مقدراتها من أجل صناعة الأسلحة الذرية خوفاً من المستقبل المجهول.

والسلام في الإسلام له شأنه وأهميته، وذلك لأن الإسلام هو دين السلام الذي ستجد فيه البشرية أمنها ومستقرها ومستقبلها إن هي لاذت به، وهو الذي سيكفيها شرور الحروب وسفك الدماء، ويخلصها من جلاذيتها وظالميتها وسفاحيتها، ويقيم أوامر المودة والقربى بين كافة شعوب الأرض، لما فيه من مبادئ خالدة تصب كلها في مصلحة الإنسان، وتنقله إلى شاطئ الأمان.

وقبل أن نعرض للسلام في الإسلام، نطالع بعض معاني السلام في لغة العرب، فقد جاء في معجم لسان العرب حول هذه المادة:

السلام والسلامة: البراءة... ومنهم من يقول: سلام: أي أمري وأمرك المبارأة والمشاركة.

والسلام: الله عز وجل، اسم من أسمائه لسلامته من النقص والعيب والفناء.

والسلام: الاستسلام، وضد الحرب.

والإسلام والاستسلام: الانقياد.

والإسلام من الشريعة: إظهار الخضوع وإظهار الشريعة والتزام ما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم وبذلك يحقن الدم ويستدفع المكروه.

والسلم: الإسلام.<sup>1</sup>

نلاحظ هنا أن السلام والإسلام من مادة واحدة، ولهما نفس المعنى، فالإسلام هو الاستسلام لله، وهو الخلاص من كل ألوان الحروب والآثام والجرائم التي يقوم بها شياطين الإنس والجن، فيفسدون صفو الحياة، ويعكرون أمنها، ويذهبون بجمالها.

والسلام في الإسلام له شأنه العظيم، فإله وهو السلام، (هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام)<sup>2</sup>، ودينه هو السلام، قال تعالى: قال تعالى: (يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام)<sup>3</sup>، وجنته هي دار السلام، قال تعالى: (والله يدعوا إلى دار السلام)<sup>4</sup>، ودخولها يكون مصحوباً بالسلام، قال تعالى: (ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود)<sup>5</sup>، والسلام من الله على عباده في الجنة، قال

1 - لسان العرب، مادة (سلم).

2 - سورة الحشر، الآية (23).

3 - سورة المائدة، الآية (16).

4 - سورة يونس، الآية (25).

5 - سورة ق، الآية (24).

تعالى: (سلام قولاً من رب رحيم)<sup>1</sup>، والسلام هو أساس العلاقة بين المؤمنين وغيرهم، قال تعالى: (سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين)<sup>2</sup>، هذه بعض معاني السلام في اللغة والشرع.

إن الإسلام يريد الناس جميعاً أحراراً متعاونين، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (الخلق عيال لله، فأحب الخلق إلى الله من أحسن إلى عياله)<sup>3</sup>، ويقول عمر: (متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً)<sup>4</sup>، وهو من أجل تحقيق السلام الاجتماعي والدولي قدم تضحيات كبيرة في تاريخه، وما دعوته للجهاد وحروبه التي أقامها أو استجر إليها إلا من أجل السلام، فقريش هي التي نابذت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنعته من دعوته من أول يوم صدع بها، وهي التي قاتلته وأخرجته، وقد نعى أبو بكر على أهل الجاهلية إيدانهم للنبي صلى الله عليه وسلم ذات مرة وقال لهم مستنكراً: (أتقتلون رجلاً يقول ربي الله)<sup>5</sup>.

وقد ساندت قريشاً في بغيتها أحزاب العرب مجتمعة يوم الخندق، وأمام هذا العدوان القبلي السافر لرجل كان يقول ربي الله، وفي ظل مجتمع جاهلي ظالم لم تكن ثمة لغة يفقهها القرشيون ومن الأهم إلا لغة السيف، شرع الجهاد من لدن حكيم خبير، وجاهد النبي صلى الله عليه وسلم مدة عشر سنين تقريباً، وما أن انتصرت العدالة، وتحققت الحرية للناس، فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر، حتى أعمدت السيوف، وعاد الحق إلى أهله. ودل النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه على ما هو خير لهم من الجهاد وهو ذكر الله، فقال لهم: (ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والورق؟، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم؟). قالوا: بلى. قال: (ذكر الله)<sup>6</sup>.

واليوم وقد تكالبت كل قوى الشر في الأرض على هذا الدين، وعلى مسجد من أقدس مقدساته وهو المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين، فليس ثمة سبيل أمام المسلمين إلا القوة من أجل تحرير مقدساتهم وبلادهم، ولا يعني هذا أنهم ضد السلام، بل هم مع السلام العادل والشامل الذي يعيد فلسطين لأهلها، ويعيد أهلها إليها، ويرد عنها كيد الغزاة الطامعين.

وإذا أرادت البشرية لنفسها الأمن فسبيلها هو الإسلام فهو يحقق السلام الشامل مع النفس والكون والحياة وكافة الأمم والشعوب، وهو بخلاف السلام الذي ينادي به الغرب من أجل أن يذعن له العالم وينهب مقدراته، فالإسلام يقيم سلامه على العقيدة التي تقول: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)<sup>7</sup>.

1 - سورة يس، الآية (58).

2 - سورة القصص، الآية (55).

3 - رواه البيهقي في شعب الإيمان، وهو ضعيف كما ذكر الألباني، انظر: مشكاة المصابيح للتبريزي، (1392/3).

4 - ذكر ذلك في قصة الولد القبطي الذي تسابق مع ولد عمرو بن العاص أمير مصر، فسبقه، فما كان من ولد عمرو إلا أن ضرب القبطي قائلاً: أتسبقتني وأنا ابن الأكرمين؟ فسافر القبطي إلى عمر في المدينة شاكياً له، فأصفه عمر، والقصة في كتاب أخبار عمر للشيخ علي الطنطاوي وغيره من الكتب التاريخية.

5 - السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، (290/1)، دار الحكمة، دمشق.

6 - رواه مالك وأحمد والترمذي وابن ماجه، إلا أن مالكا وقفه على أبي الدرداء، قال الألباني: وإسناده صحيح مرفوع، انظر: مشكاة المصابيح للتبريزي، (702/2).

7 - سورة الحجرات، الآية (13).

والإسلام أيضا هو السبيل أمام الملوك والقادة لاستقرار ملكهم ودوامه، ولا سلام لهم إلا بالإسلام، وقد أكد هذه الحقيقة رسول الله في خطابه إلى هرقل عظيم الروم، حيث كتب له : (أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين)<sup>1</sup>

وهو السبيل أمام بني إسرائيل لكي يسلموا من غضب الرب وانتقام الشعوب، ففي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعشر يهود : (أسلموا تسلموا، واعلموا أن الأرض لله ورسوله، وإني أريد أن أجليكم من هذه الأرض، فمن يجد منكم بماله شيئا فليبعه)<sup>2</sup>.

وهو السبيل أمام الأمة العربية لكي تستعيد صحتها وعافيتها، قال تعالى: (إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم)<sup>3</sup>

وهو السبيل أمام البشرية كلها حتى تنال ثواب الدنيا والآخرة، (من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة)<sup>4</sup>.

1 - متفق عليه عن أبي هريرة، انظر: صحيح البخاري، ضبطه الدكتور مصطفى أديب البغا، (9/1)، وصحيح مسلم بشرح النووي، تحقيق الشيخ خليل مأمون شيحا، (311/12)، ومشكاة المصابيح للتبريزي، (1149/2).

2 - متفق عليه، صحيح البخاري، ضبطه الدكتور مصطفى أديب البغا، (115/3)، وصحيح مسلم بشرح النووي، تحقيق الشيخ خليل مأمون شيحا، (322/12)، ومشكاة المصابيح للتبريزي، (1186/2).

3 - سورة محمد، الآية (7).

4 - سورة النساء، الآية (134).

### خاتمة:

قدمت من خلال هذا البحث الموجز بعض القيم الحضارية العليا في الدعوة الإسلامية، وهذه القيم عليها قامت الحضارات الإنسانية عبر العصور، وهي موجودة في الإسلام على أتم وجه وأكمل صورة، فإذا أراد المسلمون اليوم إنقاذ أنفسهم أولاً مما هم فيه من تخلف وجوع وفقر، وإنقاذ العالم الذي يعيشون فيه مما يعتريه من إرهاب وظلم وطغيان، فإن عليهم الاحتذاء بما يمليه عليهم دينهم، وأن يكفوا عن الدعاية للنموذج الغربي الذي افتتن به كثيرون منهم، فإن في الإسلام ما هو أفضل وأقوم لهم وللعالم كله، فالإسلام هو دين الحضارة الإنسانية الرشيدة التي يتساوى في ظلها كافة شعوب الأرض، وهو دين المستقبل في عصر العلم والمعرفة عندما يجد المجتمعات الصالحة التي تتمثل به ويشكل قوام شخصيتها، وما ذلك على الله بعزيز.

\* \* \*

البحث الثامن:

دراسات في الإعجاز الخالد

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله العلي الأعلى العلام، والصلاة والسلام على النبي محمد بدر التمام، وعلى آله الأطهار الكرام، وصحبه الغر الميامين العظام، وعلى من دعا بدعوته إلى يوم الشدة والزحام، يوم يقوم الناس لرب العالمين!.

وبعد: فإن من أشرف ما شغلني الله به في سنين غربتي الأخيرة، هو: خدمة الكتاب والسنة، وذلك بخدمة علومهما، وبخاصة علم الإعجاز المتعلق بالكتاب العزيز، وعلم الأسلوب المتعلق ببيان سيدي الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه.

وأحمد الله أنني قدمت بعض الصوى في هذا الميدان، وأسأله القبول والرضا، وأن يعفو عني يوم النشور.

ومضاء على طريق خدمة الإعجاز... كنت قد نشرت مقالات متفرقة عدة حول هذا الموضوع، رأيت أن أجمع بعضها في هذا البحث الموسوم بـ: (دراسات في الإعجاز الخالد)، وكان غرضي من ذلك الجمع تسهيل وصول الباحثين والقراء الأعزاء إلى هذه المقالات، لعلهم يجدون فيها ما ينفعهم، راجياً ممن يصله بحثي أن يدعو لي، لعل دعوة تسعدني يوم الخلود، وقد قمت بتنقيح المقالات والإضافة عليها ضمن المباحث الآتية:

المبحث الأول: الإعجاز الحضاري في القرآن الكريم

المبحث الثاني: نظرية العكس في إثبات الإعجاز

المبحث الثالث: من خصائص البلد الأمين، معجزة المكان مكلمة لمعجزة الزمان والرسالة والرسول - صلى الله عليه وسلم - .

المبحث الرابع: المعجزات تشهد بعظمة الخالق، صور من الإعجاز العلمي  
المبحث الخامس: كروية الأرض حقيقة علمية أشار إليها القرآن الكريم، وأكدها العلماء المسلمون في بحوثهم الجغرافية

المبحث السادس: ضوابط هامة في دراسة إعجاز القرآن الكريم  
ثم ذيلت البحث بقائمة المصادر والمراجع

أسأل الله تعالى أن يوفقنا للمزيد من طاعته، وخدمة دينه وكتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وأن يسدد خطانا لما يحب ويرضاه، فإن خير ما نقضي به الأعمار هو ذكر الله والتفكير في كتاب الله عز وجل.

وأسأل الله أيضاً أن يوفق كل باحث مؤمن لخدمة دينه وكتابه وأمة رسوله وخلقه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

## المبحث الأول:

### الإعجاز الحضاري في القرآن الكريم

هذا الوجه من الإعجاز قد يكون هو الإعجاز الأعظم للقرآن الكريم<sup>1</sup>، فلا نعلم كتاباً صنع حضارة فوق الصحراء، امتدت إلى شتى أرجاء العالم، وأوجد أمة من عدم، غير القرآن الكريم، ويتجلى الإعجاز الحضاري في ما يلي:

أولاً: الإعجاز في صناعة النبي الذي كان خلقه القرآن

ثانياً: الإعجاز في صناعة الإنسان.

ثالثاً: الإعجاز في صناعة أمة .

رابعاً: الإعجاز في النظم الإسلامية.

خامساً: الإعجاز في فهم تجارب الأمم وحضاراتها

سادساً: الإعجاز في إدراك سنن التاريخ وحركة الحياة

سابعاً: قيم الحضارة الإسلامية

وسندرس هذه الموضوعات بإيجاز يتناسب مع حجم البحث.

### أولاً: الإعجاز في صناعة النبي الذي كان خلقه القرآن

كان النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - قبل النبوة فرداً من قومه، تميز عنهم بالصدق والأمانة ومكارم الأخلاق، ولكن في معظم أحواله كان بشراً مثلهم، ليس معه شيء من هذا

<sup>1</sup> - نشر هذا البحث في مجلة العربية التي تصدر عن جمعية حماية اللغة العربية، الشارقة، العددان 23 و 24، نوفمبر وديسمبر 2007م

القرآن، قال تعالى: (قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ) (يونس:16).

فلما أنزل الله الوحي على نبيه أنشأه خلقاً آخر، فإذا به عالم بالتوحيد والدين والخير والشر والدنيا والآخرة، قال تعالى: (وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا) (النساء: من الآية113). وقال أيضاً: (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ) (الشورى:52).

لقد تحول النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - بين عشية وضحاها إلى إنسان آخر، إنسان متميز يحمل الخير لأهله وقومه والناس أجمعين، ولما كان الداعية إلى الله يجب أن يسع الناس بأخلاقه، أوتي النبي - صلى الله عليه وسلم - محاسن الأخلاق، قال تعالى: (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) (القلم:4). وعندما سئلت عائشة عن خلق النبي - صلى الله عليه وسلم - قالت: (كان خلقه القرآن)<sup>1</sup>

وما كان لمحمد - صلى الله عليه وسلم - أن يكون معلماً ومربياً وقائداً وسيدا في الأرض والسماء لولا النبوة!

لقد تحول النبي محمد - صلى الله عليه وسلم - بعد الرسالة إلى:

- 1- شاهد
  - 2- مبشر
  - 3- نذير
  - 4- داع إلى الله
  - 5- سراج منير، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً، وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيرًا) (الأحزاب:45-46)
  - 6- شهيد، قال تعالى: (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) (البقرة: من الآية143).
  - 7- وصارت طاعته طاعة الله، قال تعالى: (مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا) (النساء:80).
  - 8- ووجب الإيمان به وتوقيره ونصرته، قال تعالى: (لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً) (الفتح:9).
- وخصائص النبي التي تحدث عنها القرآن كثيرة، قدمنا طرفاً منها، وما كان لرجل أن يتحول إلى معلم للناس ومرشد لهم في بيئة لا تملك من مقومات العلوم والتكنولوجيا شيئاً لولا أن معجزة حصلت، فإذا كان موسى قد صنع على عين الله، قال تعالى: (وَلِئَلْنُصَنَعَ عَلَى

<sup>1</sup> - رواه مسلم وأحمد وأبو داود، انظر: الجامع الصغير، للسيوطي، (1270/5)، نشر دار الفكر.

عَيْنِي) (طه: من الآية 39)، فإن محمداً صنع على عينه أيضاً سبحانه، وبمعجزة هذا القرآن الذي حوله إلى سيد الأولين والآخرين - صلى الله عليه وسلم -.

### ثانياً: الإعجاز في صناعة الإنسان

لم تكن معجزة القرآن ذات أثر في النبي - صلى الله عليه وسلم - وحده وحسب، وإنما كان أثرها في الإنسان حيث كان!، لقد أحيا الله بهذا الدين إنسانية الإنسان، قال تعالى: (أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَتَلَّهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (الأنعام: 122).

كان الإنسان قبل محمد - صلى الله عليه وسلم - ذرة تائهة يعيش على الأرض، فمرة يعبد مظاهر الطبيعة من حجر وشجر وشمس ونار وغير ذلك، ومرة لا يعبد شيئاً، فالعلاقة الرأسية مع الله منقطعة.

ويعيش بعقلية الغابة، فهذا حكيم العرب زهير، يقول<sup>1</sup>:

ومن لا يذد عن حوضه بسلاحه

يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم

أنانية بغيضة، وكره للأخر، قال عمرو بن كلثوم<sup>2</sup>:

وأنا الشاربون الماء صفوا

ويشرب غيرنا كدراً وطيناً

فالعلاقة الأفقية مع الناس منقطعة أو متكسرة.

وأما علاقته بنفسه، فكان محورها عشق اللذات الرخيصة، يجسدها قول طرفة<sup>1</sup>:

<sup>1</sup> - شرح القوائد العشر، للتبريزي، تحقيق د. فخر الدين قباوة، ص (196)، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الرابعة، 1400هـ/1980م.

<sup>2</sup> - شرح القوائد العشر، للتبريزي، تحقيق د. فخر الدين قباوة، ص (360).

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى  
 وجدك لم أحفل متى قام عودي  
 فمنهن سبق العاذلات بشربة  
 كميت متى ما ثعل بالماء تُزبد  
 وكري إذا نادى المضاف مُحنباً  
 كسيد الغضى نيهته المتورّد  
 وتقصير يوم الدجن والدجن معجب  
 ببهنكة تحت الطراف المعمد

ولكن الإنسان بعد القرآن صار شيئاً آخر، فقد صار يعرف ربه، والناس، ونفسه، فأما ربه فهو رب كريم سيلاقيه، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ) (الانشقاق:6).

وأما الناس فأخوانه في الجنس والإنسانية، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات:13).

وأما نفسه، فقد بدأ معها رحلة التخلية والتركية، لينال دار الخلود، قال تعالى: (وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) (النازعات:40-41).

هكذا ولد الإنسان من جديد، ليعانق النداء الإلهي الذي يدعوه لما فيه خيره وسعادته من غير قهر ولا إجبار، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) (النساء:170).

ولد الإنسان الذي كان بالأمس يند البنات، ليعلم أن المرأة شريكة له في صناعة الحياة، قال تعالى: (إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا) (الأحزاب:35).

<sup>1</sup> - شرح القوائد العشر، للتبريزي، تحقيق د. فخر الدين قباوة، ص (133-135).

هكذا تغير كل شيء في كينونة الإنسان بعد القرآن، فكأنه قد ولد من جديد، حيث راح يحمل قيم الإيمان والسمو والخير والمحبة للآخرين، أليست هذه أكبر معجزة تربوية في صناعة الإنسان المتحضر الإيجابي - والذي يستحق نعت الإنسان - عبر التاريخ كله!؟

ومن تأمل حياة الصحابة والتابعين، والسلف على وجه العموم، وجد نماذج إنسانية تستحق أن تنعت بوصف الملائكة، ولسنا هنا بصدد سردها، فذلك منثور في كتب الراجم والسير.

### ثالثاً: الإعجاز في صناعة أمة (ميلاد أمة) كان نواتها جيل الصحابة.

جاء الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى أمة بسيطة، كان معظمها من الحفاة العراة الأجلاف، يعانون شظف العيش، ويكابدون الأهوال في حياتهم الاجتماعية.

وأما حياتهم الدينية فكانت مزيجا من الوثنية والديانات الأخرى.

وأما حياتهم السياسية، فلم تكن لهم دولة ولا جيش وإنما هم تلة من القبائل المتناحرة، يلفها الجهل ويغشاها الظلام، وقد صورت كثير من الآيات حالة العرب في الجاهلية، فهم:

أ- أميون على ضلال، قال تعالى: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (الجمعة:2).

ب- وهم أعداء متناحرون على وشك الهلاك، قال تعالى: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (آل عمران:103).

ت- وهم مجتمع ذكوري يكره الإناث، قال تعالى: (وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ) (النحل:58).

ث- وهم أهل خصام وجدل وعناد، قال تعالى: (وَقَالُوا أَلَّهْتْنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِيمُونَ) (الزخرف:58).

ج- وهم يرفضون الحق، قال تعالى: (وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) (أنفال:32).

ح- وهم أمة كلاسيكية درجت على تقليد الآباء والأجداد، قال تعالى: (وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْلُو كَانُوا آبَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ) (البقرة:170).

خ- وهم مجتمع طريقي، يحتقر العبيد والطبقات الدنيا في المجتمع، وقد عرضوا على النبي مشروع الإيمان مقابل أن يطرد بعض أصحابه من العبيد والمستضعفين في الأرض، قال تعالى: (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ) (الأنعام:52).

**ولكن مع هذه الصفات السلبية، كانت هناك بعض القيم الإيجابية في المجتمع، من صدق الوعد، وحفظ الجوار، وإكرام الضيف ونحو ذلك.**

فلما جاء القرآن، أعاد بناء الأمة ممثلة بجيل الصحابة رضي الله عنهم، فثبت ما كان سائدا من قيم إيجابية، وهدم القيم السلبية، أو صححها، وأقام على أنقاض هذا المجتمع الجاهلي كله خير أمة أخرجت للناس!.

أمة شعارها التوحيد، ومنهجها العدل، يتساوى فيها الناس جميعا أمام دين الله تعالى.

أمة قامت على ضعف إمكاناتها المادية فنشرت نور الله في مشارق الأرض ومغاربها، وأطاحت بظلم كسرى وطغيان قيصر.

أمة كان رجالها رهبانا في الليل فرسانا في النهار!

أمة نعتها الله بقوله: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ) (آل عمران:110)

أليست هذه معجزة كبرى للقرآن الكريم؟! وهل ثمة كتاب عبر التاريخ كله صنع مثل هذا؟

**وحتى نعرف فضل القرآن على هذه الأمة، تعالوا نوازنها بغيرها، من خلال موقفين:**

الموقف الأول: في حياته - صلى الله عليه وسلم -، في غزوة بدر، حين استشار أصحابه في القتال، فكان للمقداد بن عمرو الكندي موقف سطره التاريخ، قال عبد الله بن مسعود: "لقد شهدت من المقداد مشهدا، لأن أكون أنا صاحبه أحب إلي مما عدل به، أتى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يدعو على المشركين، فقال: والله يا رسول الله! لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: {إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون} ولكننا نقاتل عن يمينك وعن

يسارك ومن بين يديك ومن خلفك. فرأيت وجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أشرق لذلك، وسره ذلك"<sup>1</sup>.

فله قوم يبايعون نبيهم - صلى الله عليه وسلم - على الجهاد والشهادة، وينصرونه ساعة العسرة، ويسطرون ملاحم المجد والخلود غير عابئين بهذه الحياة القليلة الفانية.

الموقف الثاني: بعد وفاته - صلى الله عليه وسلم - مقارنا بموقف بني إسرائيل في حياة موسى عليه السلام، فهؤلاء قوم موسى عليه السلام، يشاهدون معجزاته، ويغرق طاغية العصور فرعون أمام أعينهم، يتركهم رسولهم ليناخي ربه، ويترك فيهم أخاه هارون النبي الرسول قائدا لهم في غيابه، فماذا حصل؟ لقد انحرفت جمهرتهم لعبادة الأوثان مرة أخرى، وكادوا أن يقتلوا هارون، ولم تنفعهم كل المعجزات الحية التي رأوها بأب أعينهم، وذلك حين اتخذوا العجل معبودا لهم من دون الله، قال تعالى: (وَآتَخَذَ قَوْمٌ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلْمَ يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ) (الأعراف:148).

أما أمة محمد - صلى الله عليه وسلم - فحين مات نبيها، وقف أبو بكر يقولها مدوية: "أيها الناس! من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. قال: ثم تلا هذه الآية: (وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْفَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ) (آل عمران:144). قال: فوالله لكان الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذ"<sup>2</sup>

فالاتباع للمنهج وليس لشخص الرسول، وشتان شتان بين من يتبع شخصا يكفر إذا غيَّب عنه هذا الشخص، وبين من يتبع دعوة لا ينكص عنها حتى يموت!

من هذين الموقفين، ومن آلاف المواقف الأخرى التي لا نستطيع استعراض بعضها الآن، ندرك أن القرآن المعجز صنع أمة المعجزات، ولولا هذه الأمة لما وصل العالم اليوم إلى ما وصل إليه من تقدم علمي ومعرفي وتكنولوجي، فبفضلها قامت حضارة العصر الحديث، أليست هذه أم المعجزات التي صنعها القرآن الكريم؟!

#### رابعا: الإعجاز في النظم الإسلامية: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

1 - مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني، (503/1).

2 - السيرة النبوية لابن هشام، قدم لها طه عبد الرؤوف سعد، (260/4)، دار الفكر، بيروت، 1409 هـ/ 1989 م.

الإسلام دين كامل، قال تعالى: (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا) (المائدة: من الآية 3)

وقد شملت تعاليمه جانبي الدين والدنيا، فمن قضايا الإيمان، إلى مسائل العبادات، فالعبادات، فالمعاملات، كل ذلك تحدث عنه الدين الحنيف.

وقد صنف علماء السلف مسائل الدين والدنيا حسب الموضوعات، وكان للمحدثين تصنيف يختلف عن تصنيف الفقهاء، فعادة تبدأ كتب الحديث بكتاب الإيمان أو العلم أو بدء الوحي، وأما كتب الفقه فتبدأ بأحكام الطهارة لأنها مفتاح الصلاة.

في القرن الخامس جاء الإمام الغزالي فجعل كتابه الإحياء أربعة أقسام، وزعها على العبادات والعبادات والمهلكات، والمنجيات.

وهكذا اختلفت مناهج التأليف، من حيث الشكل والموضوع، كما اختلفت منهجية الفهم والتعامل مع النصوص، فنظرة المعتزلي للنص أحياناً تختلف عن نظرة السني، وأدى هذا إلى إثراء المعرفة الإسلامية، فكثرة التأليف والاجتهادات والآراء هي من مظاهر الثراء الفكري والنشاط العلمي على العموم.

أما في العصر الحديث، فكان هنالك من سار على مناهج القدماء، ووجد من سار بإطار مختلف، فبدأت دراسة الإسلام على أنه رسالة حياة، فيها جوانب روحية وتعبدية واجتماعية واقتصادية وسياسية ورياضية وصحية، وغير ذلك...

وأياً كانت المناهج المتبعة، فمن المؤكد أن القرآن غطى جميع جوانب الحياة على وجه العموم، وغطته السنة، على وجه التفصيل، وما استجد مما ليس فيهما يقاس على نظيره، فالمخدرات تقاس على الخمر مثلاً في الحرمة، لعدم وجود نص يحرمها أصلاً، إذ لم تكن معروفة في مجتمع مكة أو المدينة، وما لا يوجد له قياس يستنبط حكمه بالنظر إلى مقاصد الشريعة ومصالح الناس... وهكذا نجد أنه ليس ثمة شيء من أمور الدين والدنيا إلا ونص عليه الدين الحنيف.

وليست مزية التشريع الإسلامي في شموله ومرونته التي سببت توافقه مع مختلف البيئات والأزمنة وحسب، بل يضاف إلى ذلك ملائمة الفطرة، فليس ثمة شيء في الشريعة يجافي المنطق والعقل، أو يؤذي النفس والضمير.

ومزية أخرى هي التوازن بين شئون الفرد والجماعة، والحرب والسلام، انظر إلى صلاة الحرب مثلاً، كيف نظمها قوله تعالى: (وَإِذَا كُنْتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلَأَقِمْنَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ

مَعَكُمْ وَلِيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِنْ وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَى لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكُمْ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُمْ مَيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ كَانَ بِكُمْ أذىٌ مِنْ مَطَرٍ أَوْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَنْ تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً (النساء:102) ، فلا تسقط الصلاة في الحرب التي تتطير بها الرؤوس، كما أن الحرب لا تسقط بسبب الصلاة، فقد قال النبي - صلى الله عليه وسلم - "يوم بني قريظة حين جهز إليهم الجيش: (لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة)، فأدرکتهم الصلاة في أثناء الطريق، فقال منهم قائلون: لم يرد منا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلا تعجيل المسير، ولم يرد منا تأخير الصلاة عن وقتها، فصلوا الصلاة لوقتها في الطريق، وآخر آخرون منهم صلاة العصر فصلوها في بني قريظة بعد الغروب، ولم يعنف رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أحداً من الفريقين"<sup>1</sup>

لقد تكلم القرآن عن الوضوء والصلاة والخشوع والزكاة ومصارفها والميراث والشورى والعدل والظلم، ولم يترك صغيرة ولا كبيرة من أمهات المسائل إلا وعالجها ضمن آياته، مباشرة أو بشكل ضمني، فمن أين لكتاب جمع نظم الحياة كلها بكافة جوانبها الدينية والدينية لو لم يكن من عند الله؟!!

ثم إن هذه النظم والمناهج هي مجلبة الخير للإنسان في الدنيا والآخرة، والتاريخ خير شاهد على هذا، فكلما اقتربت البشرية من هذا الكتاب كلما اقتربت من الرحمة والبر والتواصل، وكلما تباعدت عنه كلما ازدادت طغياناً وكفراً، وما كان لهذا الكتاب أن يجمع جميع جوانب التشريع التي تحقق السعادة للإنسان إلا لأنه من لدن الذي يعلم السر وأخفى، إذ لم يتحقق لكتاب قبل القرآن ولا بعده أن يفعل معشار ما فعله هذا الكتاب التشريعي العظيم: القرآن الكريم.

وليست دراسة التشريع الإسلامي وما فيه من إعجاز وإنجاز ممكنة في هذا الموضوع، وإنما هذه لفظة دالة، والتفصيل يحتاج مجلدات، وقد كتب كثيرون عن عظمة هذا التشريع، ومن أفضل ما كتب في هذا الصدد: التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي، والله المستعان.

#### خامساً: الإعجاز في فهم تجارب الأمم وحضاراتها

<sup>1</sup> - مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني، (1/431).

في القرآن الكريم حديث عن أسباب صعود الأمم وتسئمتها قمة المجد، وحديث آخر عن أسباب تراجعها وتقهقرها، وقد تحدث القرآن عن هذه الأسباب من خلال عرضه لأحوال الأمم السابقة من العرب البائدة كعاد وثمود، أو من خلال تجارب أهل الكتاب مع أنبيائهم، أو من خلال تصحيح واقع المجتمع العربي في الجاهلية، والسير به نحو الإسلام، أو من خلال تجارب الأمم المعاصرة للمسلمين إبان البعثة المحمدية.

والحديث عن تجارب الأمم والشعوب، وصعود الحضارات أو اندثارها، وتحليل أسباب ذلك بدقة فائقة، أمر يحتاج إلى معاهد وجامعات ودارسين ومتخصصين، وذلك من أجل أن يعطونا نتائج دقيقة يمكن تحليلها والاعتماد عليها في وضع الخطط المستقبلية.

فكيف يمكن لمحمد - صلى الله عليه وسلم - وهو فرد من قومه، أن يقدم تفسيراً دقيقاً لسير الحضارات وتجارب الأمم، وأسباب تقدم الإنسانية وتخلفها، يقدم هذا كله وهو الذي لم يقرأ ولم يكتب ولم يعلمه أحد من البشر؟!

### ويمكن تحديد أهم معالم هذا الموضوع في الأمور الآتية:

أ - **التفسير العلمي لأسباب صعود الأمم والحضارات واندثارها، وذلك من خلال تجربة قوم سبأ، و عاد و ثمود و فراعنة مصر وغيرهم.**

ب - **تحدث القرآن عن عوامل البقاء والنصر والتمكين في الأرض، وأساس التمكين هو توحيد الله، لأنه يهب الإنسانية التفسير القويم للحياة وحركتهم فيها، ويهبهم القوة النفسية الخارقة في مواجهة أحداثها، وعمارة الأرض وفق منهج الله فيها.**

ت - **تحدث عن عوامل الفناء وذهاب الأمم والممالك، ويكون بأسباب عدة، في مقدمتها سبب الشرك الذي هو فوضى نفسية وفكرية داخل الإنسان تتحول إلى فوضى اجتماعية في سلوكه، تنذر بالزوال الحضاري والدمار الاجتماعي.**

ث - **العدل هو أساس الملك والبقاء، قال تعالى: (وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا) (سورة الكهف: الآية 59).**

ج - أشار إلى المناهج السوية في الحكم، كمنهج ذي القرنين، والنبي سليمان عليه السلام، والمنهج النبوي الكريم، قال تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا) (سورة الأحزاب: الآية 21).

ح - أشار إلى المناهج المنحرفة المستبدة كالمنهج الفرعوني، ودعا الحكام إلى أخذ العبرة والعظة من مصير الطغاة السابقين الذي قصمهم الله عز وجل بقدرته، قال تعالى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ، الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ، وَثَمُودَ، الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ، وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ، الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ فَأَكْتَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ، فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ، إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ) (سورة الفجر: الآيات 6-14).

خ - طلب من المسلمين أن يتعظوا بتجارب الأمم والشعوب، فيكونوا دائما خير أمة، ويحافظوا على البقاء في القمة بلا تغيير ولا تبديل، لكي لا يصيبهم ما أصاب غيرهم (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (سورة الحشر: الآية 19). وصار لسان حال المسلمين يقول:

### ملكنا فكان العدل منا سجية

فلما ملكتم سال بالدم أبطح

تلك هي أهم ملامح الإعجاز في فهم تجارب الأمم وحضاراتها، والتفصيل يحتاج إلى دراسات مستفيضة.

### سادساً: الإعجاز في إدراك سنن التاريخ وحركة الحياة

ليس التاريخ صراعا على البقاء كما يقول الماديون، ولا صراعا على لقمة العيش كما ظن ماركس، ولا هو صراع بين الشيء ونقيضه كما ظن هيجل، ولا هو صراع حضارات أو وفاقها، ولكنه صراع بين الحق والباطل والخير والشر في إطاره العام، وقد يقع صراعات جانبية كالصراع الداخلي بين أهل الحق بسبب رأي أو مصلحة أو صراع داخلي بين أهل الباطل، كما في صراع الروم والفرس قبل الإسلام.

وتمر حالات سلام يتحول فيها الصراع من شكله العسكري إلى شكل اقتصادي أو اجتماعي أو فكري... وعوامل صعود الأمم وهبوطها هو بقدر تمسكها بالقيم الإنسانية

والأسباب المادية، فالقيم تكتسب أهميتها كلما كانت أقرب إلى هدي السماء، وتتنكس الحضارات وتذهب الأمم لما تفرط بالقيم الإيجابية من زاوية، أو لما تترك أسباب القوة المادية من زاوية أخرى

لقد قدم القرآن تصوراً عاماً لسنن التاريخ وحركة الحياة، ومحال أن يصدر هكذا تصور في عمقه وشموليته وإدراكه لحقائق الأمور من بشر، وإنما هو كلام خالق القوى والقدر، ونستطيع تلخيص أهم معالم هذا التصور بالأمور الآتية:

أ - حركة التاريخ بشكل عام هي صراع بين الحق والباطل، كما هي حال الرسل والأنبياء - عليهم السلام - مع أقوامهم، قال تعالى يحكي قصة الصراع الأبدي بين الحق والباطل، وأصحاب الصراط المستقيم وحزب الشيطان: (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ، قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنَّ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأَثُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ، قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ، وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَىٰ اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا أَدْبَأْتُمُونَا وَعَلَىٰ اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ، وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ، وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ) (سورة إبراهيم: الآيات 9-14).

ب - وقد تكون صراعا بين باطلين أحدهما أقل شرا من صاحبه، وقد وردت إشارة إلى ذلك في سورة الروم وصراعهم مع الفرس. قال تعالى: (الم، غَلِبَتِ الرُّومُ، فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ، فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ) (سورة المؤمنون: 1-4).

ت - وقد يكون بين الظالمين أنفسهم، فيضرب بعضهم رقاب بعض، وينتقم الله منهم جميعاً، قال تعالى: (وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ). (سورة الأنعام: الآية 129)

ث - وقد يكون بين المؤمنين في حالات استثنائية: إذ قد يقع الخلاف داخل أهل الحق، ولذلك أمر الله سبحانه بالصلح بين المؤمنين، فإذا تعثر وجب قتال الفئة الباغية حتى تعود إلى الحق، قال تعالى: (وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاصِلِحَا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى

فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ) (سورة الحجرات: الآية 9).

وقد نهى الله تعالى المؤمنين عن الفرقة والاختلاف، كي لا يتكرر معهم ما حصل مع من سبقهم من الأمم السالفة، فالبشرية مادة واحدة، يشبه بعضها بعضاً، ولذلك ينبغي الاحتراز من تكرار تجارب السابقين، قال تعالى: (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (سورة آل عمران: الآية 105).

ج - البقاء للأصلح دائماً، قال تعالى: (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أوديةً بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلِيَّةٍ أَوْ مَتَاعِ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ) (سورة الرعد: الآية 17). وليس للأقوى كما يتوهم ديناصورات المال والأعمال مثل قارون وحزبه!

ح - التغيير الاجتماعي يبدأ من النفس أولاً: قال تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (سورة الأنفال: الآية 53).

خ - سنن الله لا تحابي أحداً، قال تعالى: (لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) (النساء: 123).

د - مسيرة الأمة خير شاهد على صدق القرآن الكريم، وهي دليل واقعي على الإعجاز في إدراك سنن التاريخ وحركة الحياة، فهناك ثلاث معجزات حضارية في مسيرة الأمة!.

**ففي مسيرة هذه الأمة انتصارات وهزائم، وصعود وهبوط على مدى خمسة عشر قرناً، لعل أبرز ثلاثة محطات في تاريخها كانت الآتية:**

- 1- مرحلة فجر الدعوة وظهورها إلى القرن السادس الهجري
- 2- مرحلة الانكسار الحضاري منذ دخول التتار بغداد سنة 656هـ حتى نهاية القرن الثالث عشر الهجري.
- 3- مرحلة محاولة لصعود مرة أخرى، وبدأت من القرن الرابع عشر الهجري حتى اليوم.

ثلاثة معجزات حضارية في تاريخ الأمة، بدأت من ولادة هذه الأمة من مكة المكرمة، وهي في واد غير ذي زرع ولا حياة، ولم تكن ثمة أي مقومات حضارية لهذا المكان في عمق الصحراء، فكان خروج هذا الدين العظيم من ذلك المكان الصحراوي معجزا كخروج ناقة صالح من صخرة في الجبل!

انتشر نور الدعوة، وعم العالم، وركن العرب والمسلمون إلى الدعوة والسكون، فكان لا بد لهذه الأرض الساكنة من أن تتحرك، فجاء الصليبيون ومن بعدهم التتار الذين استأصلوا جذور الخلافة الإسلامية من بغداد، وبدأ عصر الانحدار، فسنن الله لا تحابي أحدا، والله الذي يخرج الحي من الميت يخرج الميت من الحي أيضا، وهذا هو إعجاز القدرة الإلهية، فالحالة التي آلت إليها الأمة من الركون والاسترخاء والتكالب على الشهوات، وفرار أهل الصلاح من مواجهة المنكر وإيثارهم العزلة كل ذلك سبب ضعفا حضاريا، وسنن الله لا تتغير، قال تعالى: (لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِيَّ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا) (النساء: 123). وقال أيضا: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (الأنفال: 53)، وقال جل من قائل: (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) (ابراهيم: 7)، وفي الحديث عن زينب بنت جحش زوج النبي صلى الله عليه وسلم - قالت: استيقظ النبي - صلى الله عليه وسلم - من نومه وهو محمر وجهه وهو يقول: (لا إله إلا الله ويل للعرب من شر قد اقترب فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا) وخلق بأصبعيه: السبابة والإبهام، قلت يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: (نعم إذا كثر الخبيث)<sup>1</sup>. فكثرة الخبيث جعل طوفان التتار يجتاح الجميع، (سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا) (الأحزاب: 62).

في المرحلة الثالثة وتبدأ بعد الطوفان، انتصارات كثيرة على يد العثمانيين، وانكسارات أكبر بعد سقوط الخلافة العثمانية بفعل عوامل داخلية وخارجية عديدة، ووقع العالم الإسلامي فريسة للمستعمرين، ثم بدأت حركات التحرر والاستقلال، وقد بدأ المسلمون يتحسسون طريق النهضة بعد أن تحررت معظم بلدانهم من الغزو العسكري، بيد أنها ما زالت تترجح تحت الغزو الحضاري والفكري، ويقف المسلمون في انتظار المعجزة الثالثة، وهي نهضة العالم الإسلامي من جديد، فما زال في يده إكسير الحياة وهو القرآن الكريم، فلا يأس ولا قنوط برغم كثرة الجراحات.

هكذا هي دورة الحياة!

<sup>1</sup> - مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني، (437/2). وقال ابن كثير: هذا حديث صحيح اتفق البخاري ومسلم على إخرجه من حديث الزهري..

## سابعاً: قيم الحضارة الإسلامية

جاء القرآن الكريم بكل القيم الحضارية التي تسعد الإنسان وتطوره، كما نهى عن كل القيم السلبية التي تسبب الضرر والتعاسة للإنسان، فمن ذلك:

- أ- **العدل**، وهو قاعدة الحياة الاجتماعية عبر العصور لجميع الأمم، أمر الله به فقال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً) (النساء: 58)
- ب- **الرحمة**، وهي من صفات الرب الكريم والمجتمع السليم، قال تعالى: (الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ) (غافر: 7)
- ث- **التكافل الاجتماعي**، وهو دليل وحدة الأمة وترابطها، قال تعالى: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا) (آل عمران: من الآية 103)
- ح- **الحرية**، وهي قاعدة من قواعد التكليف، فلا عبرة لكفر المكره أو إيمانه، قال تعالى: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (البقرة: 256).
- خ- **العلم**، وهو الطريق المؤدي إلى سعادة الدارين، قال تعالى: (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً) (طه: من الآية 114).
- د- **العمل**، وهو تابع العلم، ومكمله، قال تعالى: (وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (التوبة: 105).
- ذ- **المحافظة على الوقت**، وهي تفيد في برمجة أعمال الإنسان، وتحمل المسؤوليات، قال تعالى: (هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) (يونس: 5).
- ر- **المساواة وسيادة القانون**، فالجميع عباد الله، ولا ميزة لجنس أو لون على آخر، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) (الحجرات: 13).
- ز- **الشورى**، وهي قاعدة الحياة السياسية للأمة المسلمة، قال تعالى: (وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) (الشورى: 38).

س- **العمران** ، فالأرض مسخرة للإنسان وعليه أن يعمرها، قال تعالى: (هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا) (هود: من الآية 61).

ش- **حقوق المرأة**، لأن المرأة شريكة الرجل في التكليف والمسئولية، قال تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (الروم: 21).

ص- **السلام**، وهو قاعدة الحياة الإنسانية في الإسلام، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ) (البقرة: 208).

وهذه القيم تكاد تشكل الهيكل الفقري لكل الحضارات عبر التاريخ، والقاسم المشترك بينها، فله ما أعظم هذه القيم التي نوه بها الكتاب الخالد، والتي من خلالها تستطيع أي أمة ان تجد لها مكانا تحت الشمس<sup>1</sup>.

إن احتواء هذا القرآن على هذه القيم بشكل أساسي، إضافة إلى عشرات القيم الإيجابية الأخرى، ونهيه عن كل ما يعكر صفو الحياة، ويكدر حياة الفرد والجماعة، لهو إنجاز معجز بحد ذاته، فله كيف يمكن لأي أن يحيط بمثل هذا علماً لو لم يكن يوحى إليه! فتبارك الله رب العالمين!

## خاتمة

هذا هو الإعجاز الحضاري، فقد جعل الإسلام من رعاة الغنم رعاة للأمم، ومن سكان الصحراء بناء لحضارة بغداد ودمشق والأندلس، فلنشده مع شاعر الإسلام محمد إقبال مزهوين بمجد الإسلام وإعجازه الحضاري<sup>2</sup>:

الدين لنا والحق لنا

والعدل لنا والكل لنا

أضحى الإسلام لنا ديننا

وجميع الكون لنا وطننا

<sup>1</sup> - تقدم شرح هذه القيم.

<sup>2</sup> - ديوان نشيدنا، ص (43-44).

توحيد الله لنا نور  
 أعددنا الروح له سكننا  
 بنيت في الأرض معابدها  
 والبيت الأول كعبتنا  
 الكون يزول ولا تمحى  
 في الأرض صحائف سؤددنا  
 علم الإسلام على الأيام  
 شعار المجد لأمتنا  
 قولوا لسماء الكون لقد  
 طاولنا النجم برفعتنا  
 وأذان المسلم كان له  
 في الغرب صدى من همتنا  
 روض الإسلام ودوحته  
 في أرض رواها دمننا  
 إن اسم محمد الهادي  
 روح الأمال لنهضتنا

رحم الله محمد إقبال، ورحم معه كل من تغنى بأمجاد المسلمين الخالدة، وكل من سعى لاستعادة  
 تلك الأمجاد من جديد، لتحل هذه الأمة مكانتها المرموقة تحت الشمس، ولتقود ركب البشرية  
 التائه إلى شواطئ الأمن والإيمان، والسعادة لهذه الإنسانية قاطبة.

## المبحث الثاني:

### نظرية العكس في إثبات الإعجاز

نتبع في هذا البحث منهجا جديدا في دراسة الإعجاز، وهو منهج أشار إليه القرآن، قال تعالى: (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) (النساء: 82)

فلو كان هذا القرآن من عند غير الله، لاقتضى أن نجد فيه ما في كلام البشر من تناقض وتباين، وقصور وفتور وغير ذلك مما يعتري الأساليب البشرية، ولو أنه من عند غير الله لوجدنا اهتمامات مؤلفه هي نفس اهتمامات البشر، ومقاصده هي مقاصد سائر الكتاب، وكذا موضوعاته، ولكان للبيئة أثر فيه، ولما كان القرآن خلو من ذلك كله، علمنا أن قائله هو خالق القوى والقدر، وانه أنزله من فوق سبع سماوات.

وهذا المنهج في هذا المبحث يعد منهجا جديدا في دراسة الإعجاز، جاء به القرآن، ولكن العلماء مروا به مرور الكرام، ولم يعمقوه ولم يؤسسوه.

#### أولاً: ما هي نظرية العكس؟

ماذا لو كان القرآن من عند غير الله كما يدعي المغرضون والمعاندون المبطلون؟

لو كان هذا القرآن من عند غير الله - وهو محال - لاقتضى أن نجد فيه اختلافا كثيرا، اختلافا في داخله، واختلافا عما هو في خارجه.

فأما الاختلاف في داخله، فهو أن يقع فيه ما في كلام البشر من تناقض وتباين، وقصور وفتور وغير ذلك مما يعتري الأساليب البشرية، ولو أنه من عند غير الله لوجدنا اهتمامات مؤلفه هي نفس اهتمامات البشر، ومقاصده هي مقاصد سائر الكتاب، وكذا موضوعاته، ولكان للبيئة أثر فيه، أي باختصار لكان كأي كتاب بشري فيه ما يعتري البشر من إيجابيات وسلبيات.

وأما الاختلاف مع ما في خارجه، فهو تناقضه مع سنن النفس والكون والحياة والحقائق العلمية والكشوفات التاريخية والمستقبل المستور.

ولما كان القرآن خلو من ذلك كله، علمنا أن قائله هو خالق القوى والقدر، وانه أنزله من فوق سبع سموات؛ فلماذا لا ندرس أساليب البشر واهتماماتهم التي تتجلى في أقوالهم، ثم لننظر بعد ذلك في القرآن، لنجده بريئاً من أي أسلوب بشري، فنعلم أنه من عند الله، هذا ما نعنيه بنظرية العكس في إثبات الإعجاز.

### ثانياً: المنهج السائد في دراسة الإعجاز

إن المنهج الأساسي السائد في إثبات الإعجاز هو طريق التحدي، فعجز العرب عن المجيء بمثل القرآن هو دليل صدقه، قال تعالى: (وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا نَارَ الَّتِي وَفُودَهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ) (البقرة: 23-24)

### ثالثاً: لماذا لا تتعدد المناهج؟

ذكرنا أن هنالك منهنجا آخر أشار إليه الرب سبحانه في إثبات إعجاز القرآن، ففي القرآن الكريم آية كريمة ترسم قاعدة بارعة لإثبات إعجاز القرآن وصدق مصدره الرباني، قال تعالى: (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) (النساء: 82).

إذ لو كان القرآن من عند غيره لكان ينبغي أن يكون على غير الحالة التي هو عليها، وكان فيه اختلاف كثير، فما هو المقصود بالاختلاف، هذا ما سنبحثه من خلال الاسترشاد بأقوال المفسرين، ولكن ثمة سؤال هنا، لماذا لا تتعدد المناهج في دراسة الإعجاز؟ فالمهم هو إثبات الإعجاز بطريقة برهانية صحيحة، والجمود عند طريقة واحدة معناه وقف الإبداع والاجتهاد، وهذا هو الذي جعل دراساتنا دون المستوى الذي يستحقه القرآن، والذي لا تنقضي عجائبه في كل عصر وكل مصر، ولكننا عن كنوزه غافلون.

### رابعاً: نظرة في أقوال المفسرين:

#### لنعد إلى المفسرين، ونقتبس من أقوالهم:

أ - فقد قال الزمخشري في تفسير الآية:

"تدبر الأمر: تأمله والنظر في إداره وما يؤول إليه في عاقبتهمونتهاه، ثم استعمل في كل تأمل، فمعنى تدبر القرآن: تأمل معانيه وتبصر ما فيه (لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا) لكان الكثير منه

مختلفاً متناقضاً قد تفاوت نظمه وبلاغته ومعانيه، فكان بعضه بالغاًد الإعجاز، وبعضهاقصرأ عنه يمكن معارضته، وبعضه إخباراً بغيب قد وافق المخبر عنه،وبعضه إخباراً مخالفألمخبر عنه، وبعضه دالاً على معنى صحيح عند علماء المعاني. وبعضهدالاً على معنى فاسد غير

ملتئم، فلما تجاوب كله بلاغة معجزة فائتة لقوى البلغاء، وتناصرت صفة معان وصدق أخبار، علم أنه ليس إلا من عند قادر على ما لا يقدر عليه غيره، عالم بما لا يعلمه أحد سواه.

فإن قلت: أليس نحو قوله: (فَإِذَا هِيَ تُعْبَانُ مُبِينٌ) (الأعراف: 107)، (كَأَنَّهَا جَانٌّ) (النمل: 10)، (فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ) (الحجر: 92)، (فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ) (الرحمن: 39)، من الاختلاف؟ قلت: ليس باختلاف عند المتدبرين<sup>1</sup>

ب - وقال القرطبي في تفسير الآية:

"(اختلافا كثيرا) أي تفاوتوا وتناقضا؛ عن ابن عباس وقتادة وابن زيد. ولا يدخل في هذا اختلاف ألفاظ القراءات وألفاظ الأمثال والدلالات ومقادير السور والآيات. وإنما أراد اختلاف التناقض والتفاوت. وقيل: المعنى لو كان ما تخبرون به من عند غير الله لاختلف. وقيل: إنه ليس من متكلم يتكلم كلاما كثيرا إلا وجد في كلامه اختلاف كثير؛ إما في الوصف واللفظ؛ وإما في جودة المعنى، وإما في التناقض، وإما في الكذب. فأنزل الله عز وجل القرآن وأمرهم بتدبره؛ لأنهم لا يجدون فيه اختلافا في وصف ولا ردا له في معنى، ولا تناقضا ولا كذبا فيما يخبرون به من الغيوب وما يسرون"<sup>2</sup>

ت - وقال البيضاوي في تفسير الآية:

"اختلافا كثيرا من تناقض المعنى وتفاوت النظم وكان بعضه فصيحاً وبعضه ركيكاً وبعضه يصعب معارضته وبعضه يسهل ومطابقة بعض أخباره المستقبلية للواقع دون بعض وموافقة العقل لبعض أحكامه دون بعض على ما دل عليه الاستقراء لنقصان القوة البشرية ولعل ذكره هاهنا للتنبيه على أن اختلاف ما سبق من الأحكام ليس لتناقض في الحكم بل لاختلاف الأحوال في الحكم والمصالح"<sup>3</sup>

ث - وقال ابن كثير:

"يقول تعالى أمراً لهم بتدبر القرآن ونهاياً لهم عن الإعراض عنه وعن تفهم معانيه المحكمة وألفاظه البليغة، ومخبراً لهم أنه لا اختلاف فيه ولا اضطراب، ولا تعارض لأنه تنزيل من حكيم حميد فهو حق من حق. ولهذا قال تعالى: (أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا) (سورة محمد: الآية 24). ثم قال: (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ) أي لو كان مفتعلاً مختلفاً، كما يقوله من يقول من جهلة المشركين والمنافقين في بواطنهم (لَوْجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا). أي اضطراباً وتضاداً كثيراً، أي وهذا سالم من الاختلاف، فهو من عند الله، كما قال تعالى مخبراً عن الراسخين في العلم حيث قالوا (أَمَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا) (سورة آل عمران: الآية 7). أي محكمه ومتشابهه حق، فلماذا ردوا المتشابه إلى المحكم فاهتدوا، والذين في قلوبهم زيغ ردوا المحكم إلى المتشابه فغوا، ولهذا مدح تعالى الراسخين وذم الزائعين"<sup>4</sup>

1 - تفسير الكشاف، (540/1).

2 - تفسير القرطبي، (290/5)، دار الشعب، القاهرة.

3 - تفسير البيضاوي، (225/2)، دار الفكر، بيروت.

4 - مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني، (416/1).

### خامسا: نتائج أقوال المفسرين:

والذي نستفيدة من التفاسير السابقة: أن الاختلاف هو إما في داخل القرآن، أو في الواقع الخارجي عنه، وعليه يمكن حصر الاختلاف - لو وجد - بالأمور الآتية:

- 1- اختلاف القرآن بعضه مع بعض.
- 2- اختلافه من حيث الفصاحة والبيان.
- 3- اختلافه من حيث التأثير والتأثر.
- 4- تناقضه من حيث الموضوعات.
- 5- تناقضه مع العلم الصحيح.
- 6- تناقضه مع الواقع.
- 7- تناقضه مع الحالة التي هو عليها من الكمال.
- 8- تناقضه مع فطرة الإنسان.
- 9- تناقضه مع سنن الكون والحياة.
- 10- تناقضه مع الشرائع السماوية السابقة.

ولما كان القرآن بريئا من كل الاختلافات والتناقضات السابقة مما أدرجناها أو لم ندرجها، علمنا علميا يقينيا لا يتطراً إليه أدنى شك أن هذا الكتاب من عند الله تعالى، وصدق الله العظيم إذ يقول: (قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً) (الفرقان:6)

### سادسا: دراسات السابقين:

دأب العلماء السابقون أمثال ابن قتيبة والباقلاني والخطابي والرماني وعبد القاهر الجرجاني والزمخشري والفخر الرازي وغيرهم - رحمهم الله تعالى وشكر سعيهم جميعا - على إثبات الإعجاز في كتبهم، ودفع كل شبهة حوله، ومنها معظم الشبهات السابقة، كما دأب المعاصرون أمثال الشعراوي والزرقاني وقطب ودراز وابن عاشور والمطعني وحسن عتر - رحمهم الله جميعا - في الإجابة عما استجد من شبه حول القرآن وإعجازه، فلا تجد شبهة إلا وقد أجاب عنها السلف أو الخلف أحسن جواب!

ولكن ما نفعه نحن هنا أننا انطلقنا من نفى الشبه إلى إثبات الإعجاز، وهو منهج قرآني، أشار إليه العلماء السابقون باقتضاب، ونحن هنا نرسمه ونبين معالمه.

### سابعا: حدود دراستنا

في هذا المبحث نحن نرشد إلى نظرية العكس في إثبات الإعجاز، ولكن لا نستطيع أن نشرحها بالتفصيل والتمام، لأن هذا موضعه دراسة تفصيلية موسوعية، وهو يستحق أكثر من رسالة دكتوراة في تخصص الإعجاز، إذ يمكن دراسة كل فقرة ضمن مبحث مستقل، أو كتاب كامل، ولكن نكتفي هنا بإشارات موجزة، تكون صوى في طريق العلم لمن أراد أن يسلكه، فنقول:

1- لا بد للمتكلم من غرض دنيوي يسعى إليه، ولذلك تكسب الشعراء بالشعر، والكهان بالكهانة، والأخبار والرهبان بتحريف الكتاب، أما القرآن فقد كان بريئا من هذا كله، فهو يعلن بوضوح: (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا)

(الفرقان:57). وكتاب لا يريد صاحبه به اجرا يدل على أن له غاية أكبر من هذه الدنيا، وليس له ثمة مصلحة دنيوية رخيصة، قال تعالى: (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) (الفرقان:1).

2- لا بد لأي مؤلف من أن يقتبس العلم عن أستاذ أو أكثر، وأن يتأثر به في أسلوبه ومنهجه، ولم نعلم محمداً التمس العلم من أحد من البشر، زعموا أن رجلاً أعجمياً يعلم محمداً، وهذا زعم لا يستقيم والمنطق، فكيف يكون الأعجمي معلماً لمحمد قواعد الفصاحة والبيان، قال تعالى: (وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) (النحل:103).

قال ابن كثير: "أي فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن في فصاحته وبلاغته ومعانيه التامة الشاملة التي هي أكمل من معاني كل كتاب نزل على بني آدم، كيف يتعلم من رجل أعجمي؟ لا يقول هذا من له أدنى مسكة من العقل. قال محمد بن إسحاق بن يسار في السيرة: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما بلغني - كثيراً ما يجلس عند المروءة إلى مبيعة غلام نصراني يقال له جبر، عبد لبعض بني الحضرمي، فأنزل الله: (وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ). وكذا قال عبد الله بن كثير، وعن عكرمة وقتادة: كان اسمه يعيش. وقال ابن جرير: حدثني أحمد بن محمد الطوسي، حدثنا أبو عامر، حدثنا إبراهيم بن طهمان عن مسلم بن عبد الله الملائي، عن مجاهد، عن ابن عباس قال: كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يعلم قيناً بمكة، وكان اسمه بلعام، وكان أعجمي اللسان، وكان المشركون يرون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يدخل عليه ويخرج من عنده، فقالوا: إنما يعلمه بلعام، فأنزل الله هذه الآية<sup>1</sup>.

فطالما انتفى وجود معلم عربي لمحمد، وطالما انتفى وجود أثر لمعلم من البشر في أسلوب القرآن، فمن علم محمداً القرآن؟ والجواب في القرآن ذاته: (عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى) (النجم:5).

3- لا بد للإنسان من أن يكون شاعراً أو ناثراً، وليس بوسع إنسان أن يكون غير ذلك، وقد جاء القرآن بأسلوب جديد لا هو بشعر ولا بنثر، يقول الدكتور شوقي ضيف: (إن أي القرآن تباين كلام الإنس من فصاحتهم، كما تباين كلام الجن الذي كان ينطق به كهانهم، إنه ليس شعراً موزوناً مما كان يدور على ألسنة شعرائهم، ولا سجعا مقفى مما كان يدور على ألسنة كهانهم وغيرهم من خطبائهم، إنما هو نمط وحده، فصلت آياته بفواصل تطمئن عندها النفس، وتجد فيها وفي كل ما يتصل بها من ألفاظ روحا عذبة، إنه نمط باهر، بل هو نمط معجز ببيانه وبلاغته)<sup>2</sup>. وابتكار أسلوب جديد لم يعرفه البشر عبر التاريخ كله، يدل على أنه من عند الله.

4- لا يعدو أثر أي كاتب أو شاعر أن يكون محدوداً مهما كان كبيراً، ولكن أن يأتي كتاب يقلب الأمور، ويطمس كل ما سواه، ويؤثر في العرب والعجم، والصغير والكبير، والذكر والأنثى، والحر والعبد، تأثيراً ممتداً من لدن نزوله وإلى قيام الساعة؛ فهذا دليل

1 - مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني، (347/2).

2 - تاريخ الأدب العربي (2) العصر الإسلامي، ص (30)، دار المعارف، الطبعة 16.

قدرة إلهية!، وهذا ما حصل للقرآن، يقول الدكتور شوقي ضيف: (وهذا الأسلوب البالغ الروعة الذي ليس له سابقة ولا لاحقة في العربية هو الذي أقام عمود الأدب العربي منذ ظهوره، فعلى هديه أخذ الخطباء والكتاب والشعراء يصوغون آثارهم الأدبية، مهتدين بديباجته الكريمة، وحسن مخارج الحروف فيه، ودقة الكلمات في مواضعها، بحيث تحيط بمعناها، وبحيث تجلي عن مغزاها، مع الرصانة والحلاوة، وكان العرب - ولا يزالون - يتحفظونه، فهو معجمهم اللغوي والأدبي، الذي ساروا على هداه، مهما اختلفت أقطارهم أو تباعدت أمصارهم وأعصارهم)<sup>1</sup>

5- قد يغلط الأديب، وقد يتناقض الشاعر مع نفسه، أو مع الواقع، أو مع التاريخ، ووقعت من فحول الشعراء أخطاء كثيرة تتبعها المرزباني في الموشح حيث قال: (وأودعت هذا الكتاب ما سهل وجوده، وأمكن جمعه، وقرب متناوله، من ذكر عيوب الشعراء التي نبه عليها أهل العلم، وأوضحوا الغلط فيها)<sup>2</sup>، وليس في القرآن كله خطأ واحد أو تناقض واحد، وليس بوسع إنسان أن يأتي بكتاب لا يقبل التغيير والتبديل والتصحيح، وهذا يعني أنه من لدن خالق البشر.

6- يحتاج الأديب إلى التغيير والتبديل مدة بعد أخرى، وربما ساعة بعد أخرى، كما ذكر القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني في رسالته إلى العماد الأصفهاني (معتذرا عن كلام استدركه عليه: إنه قد وقع لي شيء وما أدري أوقع لك أم لا وها أنا أخبرك به، وذلك أنني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابا في يومه إلا قال في غده: لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر)<sup>3</sup>... فهذا شأن البشر... والقرآن كتاب خالد ثابت لم يتغير ولم يتبدل، وليس بوسع بشر صناعة كتاب مثله.

7- يتفاوت أسلوب الكاتب في الموضوع الواحد، ومن موضوع إلى آخر، صعوداً وهبوطاً، بحسب أهمية الموضوع، والحالة النفسية لصاحبه، وغرض الكاتب، وقدرته الأدبية... والقرآن طبقة واحدة من البلاغة العليا، وليس هذا بوسع بشر.

8- لا يكاد يخلو كتاب تقريبا - ولا سيما قديماً - من إهداء إلى ملك من الملوك، أو وجيه من الوجهاء، يلتمس فيه الكاتب عوناً على صروف الزمان، والقرآن ليس فيه التجاء إلى ملك من ملوك الأرض، بل التجاؤه الوحيد إلى ملك السماء!.

9- ليس بوسع كاتب أن يكتب في الدين والتاريخ والمجتمع والأسرة وكافة شئون الحياة، لأن كل موضوع يحتاج إلى أسلوب خاص به، والقرآن تناول هذا كله.

1 - نفسه، ص (34).

2 - الموشح، تحقيق علي محمد البجاوي، ص (15)، دار الفكر العربي، القاهرة.

3 - أبجد العلوم، للفتوح، تحقيق عبد الجبار زكار، ص (71)، دار الكتب العلمية، بيروت، 1978م.

10- ليس بوسع كاتب أن يتنبأ بشئون المستقبل، قال زهير<sup>1</sup>:

وأعلم ما في اليوم والأمس قبله

ولكنني عن علم ما في غدٍ عمي

وعليه فلو جاء كتاب حافل بالنبوءات القريبة والبعيدة، وتحققت تلك النبوءات، علمنا أن هذا لم يحدث صدفة، وأن صاحب الكتاب على صلة بعالم الغيب، فإما أن يكون إلهاً إذا صدق في كل النبوءات، أو نبياً، أو كاهناً، أو ساحراً.

فأما الأنبياء فهم لا يعلمون الغيب، إلا بقدر ما يطلعهم الله عليه، وصدقهم تأكيد لرسالتهم.

وأما أهل الكهانة والسحر، فهم يعتمدون على الجن، ويمزجون أخبارهم بالكذب، فيصدقون ببعضها، ويكذبون في أكثرها، ويلبسون على الناس بمزج الكذب مع الصدق.

فإذا امتنع أن يكون صاحب أخبار الغيب نبياً، أو كاهناً، أو ساحراً، كما في الحالة القرآنية، فإنه لم يبق إلا الله!، وهذا هو الاحتمال الوحيد الذي يقبله العقل بشأن القرآن، فأخبار الغيب فيه من لدن رب العالمين!.

11- ليس بوسع بشر أن يتحدث عن الماضي السحيق بلا علم، وإذا تكلم ربما مزج حديثه بالخرافة والأساطير، وانكشف جهله وضلاله، وقد تناول القرآن ماضي البشرية كله، ابتداء من خلق آدم، ومروراً بسلسلة ذهبية من الأنبياء الكرام وجهادهم لأهل الضلال من أقوامهم، وكان كلامه حقاً، فهذا يدل على أنه من لدن خالق البشر.

12- الفنون التي دار عليها الشعر العربي سبعة، هي: المديح والهجاء والنسيب والرثاء والصفات والحكمة والزهد، وأكثر الأغراض دوراناً المديح والهجاء، والقرآن الكريم دار في معظمه على أغراض جديدة، مثل الإيمان والكفر والعبادات والمعاملات، والغيب والشهادة، والهجرة والحرب، وتعزية النفاق وفضح المنافقين، وجدال أهل الكتاب بالتي هي أحسن، أما أغراض الشعر فحوّرها في طريق آخر يخدم الدين والعقيدة الجديدة، فالمديح كان للعمل الصالح وأهله، والهجاء لعمل السوء وأهله، والرثاء للشهداء، والغزل لم يقف عليه القرآن، والصفات كانت في معظمها للجنة والنار والقيامة، والحكمة القرآنية تختلف عن حكمة الجاهلية، وأما الزهد فقليل في الشعر العربي، بيد أن مضمونه كثير في القرآن، وعليه فالقرآن طرق موضوعات جديدة لم يطرقها الشعر العربي، فهو ليس من وادي الشعر، لا من حيث الشكل ولا المضمون، وطالما أنه أثر في العرب أكثر من تأثير الشعر مع إبداعهم للشعر وحبهم له، فهذا يدل على سر إلهي فيه.

<sup>1</sup> - شرح القصائد العشر، للتبريزي، تحقيق د. فخر الدين قباوة، ص (199).

13- في القرآن حديث عن خلق الإنسان والكون والحياة، مما أثبتته العلم المعاصر، وهو يندرج تحت مبحث الإعجاز العلمي، وليس بوسع كتاب أن يتناول أدق الحقائق العلمية في أمة أمية، وصاحبه رجل أمي، وأن لا يكون هنالك أية تناقض بين محتويات الكتاب وحقائق العلم إلا أن يكون هذا الكتاب من عند الله تعالى.

14- كثيراً ما يلجأ الشعراء والكتاب إلى رفعة أقوامهم ومدحهم والتفاخر بالعرق واللون والوطن، وهجو الآخرين، والحط من شأنهم، وليس في القرآن شيء من هذا ألينة، وفي هذا الصدد نذكر مارواه الجاحظ: "قال أبو عبيدة: كان الرجل من بني أنف الناقة إذا قيل له: ممن الرجل؟ قال: من بني فُريع. فما هو إلا أن قال الحطيئة:

قومٌ هم الأنفُ والأذنبُ غيرهمُ

ومن يُساوي بأنفِ الناقةِ الذنبا

وصار الرجل منهم إذا قيل له: ممن أنت؟ قال: من بني أنف الناقة"<sup>1</sup>.

يلاحظ كيف رفع بيت من الشعر هذه القبيلة، وكيف حط من شأن غيرها من القبائل، وهذا ديدن الشعراء والخطباء، وما أبعد القرآن عن مثل هذا!؟.

15- تفقد الكتابة قيمتها من عصر لآخر، ومن مكان لآخر، أو تتقلص قيمتها، فنحن الآن لا نروقنا أساليب الكتابة في العصر المملوكي والعثماني مثلاً، بل إن الأذواق لتتفاوت في العصر الواحد، ولا أدل على هذا من موقف نقاد زماننا من شعر الحداثة، فمنهم من يرفعه إلى الذروة، ومنهم من يخفضه إلى الحضيض، والأمر بالنسبة لأسلوب القرآن مختلف جداً، فالقرآن هو الكتاب الوحيد المتألئ في كل دهر، الساطع في كل مصر، لا يذهب بريقه، ولا يخبو جماله، فما هو إلا كما قال الشاعر:<sup>2</sup>

يزيدك وجهه حسناً

إذا ما زدته نظراً

16- لم نعهد كتاباً لأمة انتشر في بقية الأمم، وحفظه غير أهل لسانه عن ظهر قلب، ومنهم من لا يعرف من لغته حرفاً، إلا القرآن الكريم، فهو كتاب عالمي بامتياز، خالد أبد الدهر، فهو رسالة إلى البشرية كلها، قال تعالى: (وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ) (سورة القلم:

<sup>1</sup> - البيان والتبيين، (38/4).

<sup>2</sup> - لأبي نواس، انظر: مختارات البارودي، (210/4).

(الآية 52). وقال تعالى: (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا) (سورة الفرقان: الآية 1).

17- لم نعهد كتابا يقرأه الصغير والكبير، والذكر والأنثى، والعالم وغيره، والعربي والعجمي، ويتلذذون بتلاوته غير القرآن الكريم، قال تعالى: (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ) (سورة القمر: الآية 17).

18- لم نعهد كتاباً محفوظاً، لم يتغير أو يتبدل، أو يطرأ إليه التحريف والزيادة والنقصان غير القرآن الكريم، قال تعالى: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) (سورة الحجر: الآية 9).

19- لم نعهد كتابا جمع زبدة اللغة، وخالصة العلوم إلا القرآن الكريم، قال تعالى: ( وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (27) فُرَأْنَا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) (سورة الزمر: الآيتان 27-28). وبسبب البلاغة القرآنية المعجزة عجز العرب عن محاكاة القرآن أو المجيء بسورة من مثله، وفي هذا الصدد يقول الزمخشري: "ولم تظهر معجزتهم عن أن يأتوا بمثله بعد المراجعات المتطاولة، وهم أمراء الكلام، وزعماء الحوار، وهم الحراص على التساجل في اقتضاب الخطب، والمتهاكون على الاقتتان في القصيد والرجز، ولم يبلغ - أي القرآن - من الجزالة وحسن النظم المبالغ التي بزت بلاغة كل ناطق، وشقت غبار كل سابق، ولم يتجاوز الحد الخارج من قوى الفصحاء، ولم يقع وراء مطامح أعين البصراء، إلا لأنه ليس بكلام البشر، وأنه كلام خالق القوى والقدرة"<sup>1</sup>.

20- لم نعهد كتابا تناول أمور الدين والدنيا، وأمور الجنة والنار، وأمور الطهارة والنجاسة، والحرب والسلام، ولم يترك شيئاً إلا وذكره غير القرآن الكريم، قال تعالى: (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ) (سورة النحل: الآية 89).

21- لم نعهد كتابا أثر في الناس، وجعل أعداءه يقرون بجماله وعظمته، ومنهم من أسلم لسماع آيات منه غير القرآن الكريم، قال تعالى يصف تأثر بعض أهل الكتاب بسماع القرآن، وبكائهم لمجرد سماعه، وإيمانهم بالرسول صلى الله عليه وسلم عقب ذلك البكاء: (لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيَسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ، وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) (سورة المائدة: الآيتان 82-83).

22- يعرف الأسلوب بأنه: (طريقة يستعملها الكاتب في التعبير عن موقفه والإبانة عن شخصيته الأدبية المتميزة عن سواها، لا سيما في اختيار المفردات، وصياغة

<sup>1</sup> - تفسير الكشاف، (27/1).

العبارات، والتشابيه، والإيقاع... قال بوفون: الأسلوب هو الإنسان نفسه<sup>1</sup>. فإذا كان السلوب صورة عن صاحبه، فصاحب القرآن كما يتجلى من أسلوبه ليس له أية صفة إنسانية، فهو لا يأكل ولا يشرب ولا يتناسل، قال تعالى: (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ، مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ) (الذريات:56-58). وليس له مثل، قال تعالى: (فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرْكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) (الشورى:11). وهذا يعني بالضرورة أنه إله اللغة، وإله النبي، وإله الناس، وإله الكون، ذلك هو العزيز العليم.

23- لم نعهد كتابا أو كاتباً أو شاعراً أو خطيباً أو بليغاً إلا وعاب الناس عليه شيء أو أشياء، قال القاضي الجرجاني: (وقد تجد كثيراً من أصحابك ينتحل تفضيل ابن الرومي ويغلو في تقديمه، ونحن نستقرئ القصيدة من شعره، وهي تناهز المائة أو تربي أو تضعف، فلا تعثر فيها إلا بالبيت الذي يروق أو البيتين، ثم قد تنسلخ قصائد منه وهي واقفة تحت ظلها، جارية على رسلها، لا يحصل منها السامع إلا على عدد القوافي وانتظار الفراغ)<sup>2</sup>.  
والأمر مع القرآن الكريم مختلف، فهو بحر الجمال والجلال، وشمس المعالي والكمال، فهو الذي يحيي الأفكار وينير القلوب، لا تملأه الآذان، ولا تمجج الأذواق، وهذا يدل على أنه من لدن صاحب قدرة خارقة، وهو الله العزيز العليم.

24- وأخيراً وليس آخراً لا نعلم كتاباً ينطق بالحق، وجمع الخير والجمال والحكمة، ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إلا القرآن الكريم، وصدق الله تعالى في وصف كتابه حيث قال: (وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ، لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) (سورة فصلت: الأيتان 41-42).

إن كتاباً هذه أوصافه، لهو من عند الله، شاء أعداؤه أم رفضوا، قال تعالى: (قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا) (الاسراء:107).

فليس بوسع بشر صناعة كتاب كهذا القرآن، بل ليس في وسعهم جميعاً فعل ذلك، قال تعالى: (وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلُّمَّ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا) (الرعد: من الآية 31). ، فسبحان من أنزله، ولم يجعل له عوجاً.

**هذه هي نظرية العكس في إثبات الإعجاز، فقد قادنا وصف الكتاب إلى صاحبه وهو الله العلي الحكيم، وأما الطريقة السائدة فهي أنه معجز لأن فيه كذا وكذا، فعكسنا وقلنا لأن فيه كذا وكذا فهو**

1 - المعجم الأدبي، جبور عبد النور، ص (20)، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، 1984م.  
2 - الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد الجاوي، ص (54)، مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر.

معجز، ولأنه خلا من كذا وكذا فهو معجز، وهذه النظرية تعلمناها من منهج القرآن في الاستدلال، وتفصيل العناصر السابقة يحتاج إلى مجلدات، ولعل الله يهيئ من أهل العلم من يثري البحث في هذا الميدان العظيم، أو يفتح لنا من رحمته، ويهيئ لنا من سعة الوقت ودوعي البحث ما يجعلنا نواصل فيه، عليه التوكل، وإليه المآب.

### الخاتمة، نوجز فيها ما قدمناه، وأهم التوصيات.

إن مبحث: نظرية العكس في إثبات الإعجاز

يعد منهجا جديدا في دراسة الإعجاز، فلو كان هذا القرآن من عند غير الله، لاقتضى أن نجد فيه ما في كلام البشر من تناقض وتباين، وقصور وفتور وغير ذلك مما يعترى الأساليب البشرية... ولما كان القرآن خلو من ذلك كله، علمنا أن قائله هو خالق القوى والقدر، وأنه أنزله من فوق سبع سموات.

### وأهم التوصيات التي نوصي بها ما يلي:

ندعو في نهاية هذا البحث إلى ما يأتي:

- 1- تشجيع الدراسات التي تتناول الحديث عن الإعجاز
  - 2- التجديد في تلك الدراسات.
  - 3- نوصي بإقامة مراكز بحوث علمية متخصصة لهذا الغرض العظيم الذي به مناط إثبات النبوة إلى يوم الدين.
  - 4- ندعو إلى إنشاء كلية إعجاز القرآن في كل بلد إسلامي تتولى تعميق هذا التخصص ورعاية المهتمين فيه.
  - 5- وندعو الأمة إلى أن تتمسك بكتاب ربها ليعصمها من كيد الأهواء والفتن التي تعصف بها.
- وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

## المبحث الثالث:

## جوهرة الإعجاز المكاني بمكة المكرمة

## وخصائص البلد الأمين

معجزة المكان مكملة لمعجزة الزمان والرسالة والرسول - صلى الله عليه وسلم - .

## تمهيد

اختار الله تعالى لنبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - خير الأزمنة، يؤكد ذلك قوله - صلى الله عليه وسلم - (خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم...) <sup>1</sup>، واختار له أفضل الأمكنة قال تعالى: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ، فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَاللَّهُ عَلَى النَّاسِ حِجُّ النَّبِيِّ مِّنْ اسْتِطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) (سورة آل عمران: الآيتان 96-97)، وأنزل على نبيه محمد - صلى الله عليه وسلم - أحسن كتبه، قال تعالى: (اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِي تَفْشَعُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدًى لِّلَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فََمَا لَهُ مِنْ هَادٍ) (سورة الزمر: الآية 23)، وبعثه - صلى الله عليه وسلم - في خير أمم الأرض، قال تعالى: (كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) (سورة آل عمران: الآية 110)، فاجتمعت لدعوته كل خصائص الكمال والجمال، والتميز والإحسان في صورة مشرقة لم يعرف لها التاريخ ندًا.

ولما كانت مكة أم القرى، فقد اختار الله لها موقعاً مميزاً، فجعلها في قلب الجزيرة <sup>2</sup>، بعيدة عن جيوش الروم والفرس، حتى تبقى أمنة من الغزو والسلب، فلما أراد طاغية من الحبشة أن يهدم كعبتها، ولم يكن لأهلها طاقة في دفعه تدخلت السماء للذود عنها، وقد تعهد الله بحمايتها

1 - من حديث رواه الشيخان وأحمد والترمذي عن ابن مسعود، انظر: الجامع الصغير، (478/3).

2 - هذا المبحث في الأصل مقالة بعنوان: من خصائص البلد الأمين، نشرتها في مجلة منار الإسلام، عدد ذي الحجة (348)، 1424هـ.

بنفسه، قال تعالى: (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ) (الحج:25).

وقد سماها الله بأسماء كثيرة، فهي مكة وبكة والبلد الحرام والبلد الأمين وأم القرى، ولكل من هذه الأسماء دلالاته، والواجب على زائرها أن يحترم قدسيتها ولا يفرط بأمنها، ولا يعصد شجرها، ولا يقتل صيدها، فكل ما في الحرم فهو آمن.

### ولموقعها الذي اختاره الله تعالى خصائص متعددة، منها الآتي:

**أولاً: وجودها بين الجبال جعلها في مأمن من الزلازل ونحوها،** لأن الجبال أوتاد الأرض، وجعلها مهيبية تتناسب وجلال النبوة والوحي، وحماها من الرمال الجارفة التي قد تطمرها في ما لو كانت مكشوفة في الصحراء، فتمحى آثارها، ولا يعرف الناس سبيلاً إليها.

**ثانياً: إن مكة قريبة من البحر،** فلا تبعد عن جدة أكثر من ثمانين كيلو متراً، وهذا يسهل الوصول إليها عبر البر والبحر، قال تعالى: (أَجَلٌ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحَرَّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرماً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ) (المائدة:96). ولو كانت مكة في أي موقع آخر بعيد عن البحر لتعذر الوصول إليها إلا عن طريق الإبل، وهذا فيه مشقة على الناس وتعريضهم للخطر نظراً لندرة المياه في الجزيرة، وعدم توفر أسباب الأمن فيها قبل الإسلام.

**ثالثاً: موقعها المتميز في منتصف الطريق بين الشام واليمن أتاح لها لعب دور اقتصادي وتجاري بين الشعوب،** فأدت خدمة للإنسانية عبر تجسير العلاقات الاقتصادية والتجارية بين اليمن الذي تصب فيه البضائع الإفريقية والآسيوية وبين الشام المحكومة من قبل الروم، كما كانت جسراً بين نجد وشرق الجزيرة من جهة وإفريقيا من جهة ثانية.

**رابعاً: بسبب موقعها الاستراتيجي كان هنالك استقرار اجتماعي وديني وسياسي واقتصادي بمكة،** فهياً الله لسكانها خير قبيلة في الأرض، وقريش منسوبة إما إلى نوع من السمك كما ذكر ابن عباس رضي الله عنهما، أو إلى القرش، فقد ربحوا وكدسوا الأموال من تجارتهم، وأيا كانت النسبة فهي تدل على الثروة السمكية الغذائية، أو على الثروة المعدنية المتداولة في الأسواق، وفي الحاليتين كان هنالك استقرار اقتصادي، هياهم لاستقبال الإسلام، فلا يمكن لجائع أن يستقبل رسالة أو يقوم بدين، لأن الجوع كافر، وفي وصايا عمر لعماله (حكام الأقاليم) قال لهم: (ولا تجيعوهم - يقصد الرعية - فتكفروهم). وأما كون قريش خير قبيلة في الأرض، ففي الحديث النبوي ما يؤكد ذلك، فعن عمرو بن دينار عن عبدالله بن عمر - رضي الله عنهما - قال: "بينما نحن جلوسٌ بفناء

رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم - إذ مرّت امرأةٌ فقال رجلٌ من القوم: هذه ابنةُ محمد، فقال أبو سفيان: إنّ مثلَ محمد في بني هاشم مثلُ الرّيحانة في وسط الثّنن، فانطلقتِ المرأةُ فأخبرتِ النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - فخرَج النبيُّ - صَلَّى الله عليه وسلّم - يُعرَف الغضبُ في وجهه، فقال: ((ما بالُ أقوالِ تَبَلُغني عن أقوامٍ! إنّ الله - تبارك وتعالى - خَلَقَ السمواتِ فاختارَ العُلُيا فأسكنها مَنْ شاءَ مِنْ خَلْقِه، ثم خَلَقَ الخَلْقَ فاختارَ مِنْ الخَلْقِ بني آدم، واختارَ مِنْ بني آدم العَرَبَ، واختارَ مِنْ العَرَبِ مُضَرَ، واختارَ مِنْ مُضَرَ قريشاً، واختارَ مِنْ قريشِ بني هاشم، فأنا مِنْ بني هاشمِ مِنْ خيارِ إلى خيارِ، فمَنْ أحبَّ العَرَبَ فبِحُبِّي أحبَّهم، ومَنْ أبغضَ العَرَبَ فببُغْضِي أبغضَهم))؛ رواه الحاكم في المستدرک.<sup>1</sup>

وبعد الإسلام معلوم فضلهم، وأما في الجاهلية فكانت حكومتهم قائمة على الشورى في دار الندوة، وكان لديهم حلف الفضول لنصرة المظلوم، وسُموا جيران الله لجوارهم بيته، وكانوا يخدمون الحجيج مجاناً، وتمتعوا بالفصاحة والبلاغة ومكارم الأخلاق، ولو أقمنا موازنة بين قريش وأية قبيلة أخرى في العالم قبل الإسلام سنجد أن قريشاً تتميز عليها، وصدق الله العظيم إذ يقول: (لإيلاف قريش)

وما أحسن ما قيل في هذا الصدد:

(ذهبت قريش بالمكارم والعلل)

من كان منتسباً لها حقاً علا

ما في القبائل مثلها لا.. ألف لا

أكرم بها .. فم حياها بين الملا

يا بلدة قد شمع فيها وانجلي

نور النبي محمد بين الألى

لولا قريش كنت قفراً كالفلا

لكن ترابك من غلام قد غلا

إني لأعشق مكة ذات الخلا

فترابها لحليتنا أحلى حلى

وأموت حياً في قريش والولا

<sup>1</sup> - رابط الحديث: <http://www.alukah.net/sharia/0/42557/#ixzz3MbKHRxoP>

وأقول أهلاً ثم أهلاً .. يا هلا  
 أكرم بمكة للعقيدة مؤنلا  
 فيها قريش ليس يبليها البلى  
 وأصالة القرشي ليست تُبتلى  
 هيهات أن تفنى وأن تتبدلا  
 كالسيف منجرذا وليس مُهلها  
 كالليث يحيا للعدا لا للكلا

خامساً : جو مكة حار في نصف العام ومعتدل في نصفه الآخر، وهذا الجو يتناسب مع ملابس الإحرام، ولو كانت بلداً بارداً لتعذر ذلك، وملابس الإحرام تجسد خلاصة العبودية لله، والانعقاد من الدنيا وزخرفها، والتهيؤ للأخرة بلبس الأكفان، قال الشاعر:

لما لبستُ من الإحرام أبيضها  
 ثوبا تذكرت أكفاني وأخرتي  
 فبيضنُ يا إله الكون أوجهنا  
 إذا الطغاة إلى النيران كُجبت  
 وسهلنُ لجنان الخلد رحلتنا  
 واختم لنا ربنا بحسن خاتمة  
 وأعل للدين يا رباه رايتـه  
 واقصم عدا أمتي بشر قاصمة  
 واحفظ لنا ربنا أم القرى أبداً  
 من شرّ حاسدها وشر طاغية

سادساً: جعلها الله في واد غير ذي زرع، حتى يقصدها الحاج مخلصاً لله تعالى، ولو كانت ذات حدائق لاختلط القصد عند بعضهم بالسياحة، وقد أراد الله من الحاج أن يتجرد له، فأمره بخلع ملابسه ولبس الإحرام، وحرمة من أطيب اللذات، وهما: الطيب والنساء، فكيف يريده متجرداً له،

ثم يقيم له الحدائق الغناء، والأنهار العذبة، والطبيعة الفاتنة التي ستلهيه عن ذكر الله، ولذلك ساعد الله عباده بأن جعلها بواد غير ذي زرع لكي لا يشغل أنظارهم وأفئدتهم سحر الطبيعة الغناء، فيكون القصد خالصاً لوجهه الكريم.

**والإخلاص لله تعالى مطلوب في كل الأعمال والأحوال،** ومن ذلك في شعيرة الحج، ولا بد أن يصحب الإخلاص صواب العمل، ومن صوابه في رحلة الحج أن يكون الحج من مالٍ حلالٍ، وقد جسد هذا المعنى أبو الشمقمق فقال:<sup>1</sup>

إذا حجبتَ بمالٍ أصله دنسٌ

فما حجبتَ ولكنْ حجتَ العيرُ

ما يقبل الله إلا كلَّ طيبةٍ

ما كل من حجَّ بيت الله مبرور

**سابعاً: ومكة بعيدة عن مراكز الحضارة في بلاد فارس والروم، وأهلها أميون، وكان بعض العرب يدفعون الضرائب للأمم الأخرى اتقاء لشرها، فكيف يعقل أن تخرج شريعة ذات قوانين تعلم الناس قواعد الحضارة والتعايش السلمي من قلب الصحراء؟ إنها النبوة ولا احتمال غير هذا، وخروج الشيء من غير موضعه المعتاد أظهر لقدرة الله تعالى، ودليل على أن معجزة ما قد حصلت، وقد أقر بهذا هرقل عظيم الروم في حديثه مع أبي سفيان، وذكر بأن محمداً هو نبي آخر الزمان، وهذا من فضل الله على أهلها والعرب، قال تعالى يتحدث عن النقلة النوعية للعرب بفضل الإسلام: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (الجمعة:2).**

**ثامناً: وإذا كانت مكة في بلد غير ذي زرع، فهذا قد يقتضي جوع أهلها، ولكن أنى يجوعوا وقد دعا لهم إبراهيم عليه السلام بالرزق، قال تعالى: (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمْتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ) (البقرة:126)، وهذا الدعاء معجزة باقية متحققة إلى يوم القيامة، والبلد الفقير لا تكاد تجد فيه ما يسد الرمق، ولكن الله هياً لأهلها أسباب الرزق والتجارة، فلا تعدم شيئاً إلا وجدته بمكة، أليس هذا دليلاً على فضل الله ورعايته لأهلها؟**

**تاسعاً: وأما ماء زمزم فهو الشفاء لكل داء بإذن الله تعالى، وهو أمر مجرب، قال الشاعر:**

<sup>1</sup> - المستطرف، للأبشيهي، (21/1)، مكتبة الحياة.

يا من يعاني ... همه الأسقام  
وتذيقه مرَّ الأسي الأيسام  
اهرع لزمزم فارتشف من بيرها  
تلقي المنى .. وكأنك الضرغام  
والله قد جعل الشفاء بمائها  
فتحققت من فضله الأحلام

وبقاؤه حتى يومنا هذا دليل على الكرم الإلهي الذي لا ينفد، ويندر أن تجد بئراً في الصحراء لا تنضب عبر آلاف السنين مع شرب الألوف منها.

**عاشراً: وأثبت العلم الحديث أن مكة مركز للأرض، ولما كانت مركزاً استحققت أن تكون قبلة لأهلها أيضاً، وقد نشرت مجلة العلم والإيمان الليبية مقالات عدة بهذا الخصوص<sup>1</sup>.**

فطوبى لأمة هذه بعض مزايا قبلتها، وطوبى لمن سكن بلدة هذه بعض خصائصها، وطوبى لمن زارها حاجاً أو معتمراً يطلب عفو الله وغفرانه إلى يوم الدين.

والخلاصة أن مكة المكرمة خصها الله تعالى بخصائص عدة، وموقع جغرافي مميز، فمن ذلك وجودها بين الجبال جعلها في مأمن من الزلازل ونحوها، وكون مكة قريبة من البحر، فلا تبعد عن جدة أكثر من ثمانين كيلو متراً، وهذا يسهل الوصول إليها عبر البر والبحر، وهي مدينة أدت خدمة للإنسانية في ربطها للأنشطة الاقتصادية بين الشام واليمن بسبب توسط موقعها، وقد استوطنتها خير القبائل قريش، ومناخ مكة حار في نصف العام ومعتدل في نصفه الآخر، وهذا الجو يتناسب مع ملابس الإحرام، وجعلها الله في واد غير ذي زرع، حتى يقصدها الحاج مخلصاً لله تعالى، ومكة بعيدة عن مراكز الحضارة في بلاد فارس والروم، وأهلها أميون، فكيف يعقل أن تخرج شريعة ذات قوانين تعلم الناس قواعد الحضارة والتعايش السلمي من قلب الصحراء؟ إنها النبوة ولا احتمال غير هذا، وإذا كانت مكة في بلد غير ذي زرع، فهذا قد يقتضي جوع أهلها، ولكن أنى يجوعوا وقد دعا لهم إبراهيم عليه السلام بالرزق، وأما ماء زمزم فهو الشفاء لكل داء بإذن الله تعالى، وهو أمر مجرب، وأخيراً فقد أثبت العلم الحديث أن مكة مركز للأرض، ولما كانت مركزاً استحققت أن تكون قبلة لأهلها أيضاً، وهذا من فضل الله على العالمين.

<sup>1</sup> -انظر أيضاً: قضية الإعجاز العلمي للقرآن الكريم وضوابط التعامل معها، د. زغلول النجار، ص (180)، دار نهضة مصر، ط2، 2006م.



## المبحث الرابع:

المجرات تشهد بعظمة الخالق  
صور من الإعجاز العلمي

## مقدمة

السماء من أعظم آيات الله تعالى!، لفتنا الله إلى بعض ما فيها من آثار حكمته وبديع قدرته، مما يشهد له بالوحدانية، ولنبيه - صلى الله عليه وسلم - بالرسالة.

ومن أعظم آياتها: الشمس والقمر اللذان يملآن الأرض ضياء ونورا في الليل والنهار، قال تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (سورة فصلت: الآية 37)).

ومن آياتها أيضاً: هذه النجوم التي تسبح في مسارات محددة في السماء، قال تعالى: (فَلَا أُفْسِدُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ، وَإِنَّهُ لَفَسَّمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ) (سورة الواقعة: الآيتان 75-76). وأعداد النجوم هائلة، إذ "يدلنا علم الفلك على أن عدد نجوم السماء مثل عدد ذرات الرمال الموجودة على سواحل البحار في الدنيا كلها، منها ما هو أكبر بقليل من الأرض ولكن أكثرها كبير جداً حتى يمكن أن نضع في واحد منها ملايين النجوم في مثل حجم الأرض التي نعيش عليها ولنسوف يبقى فيه مع ذلك مكان خال!"<sup>1</sup>

ومن آياتها أيضاً هذه الكواكب الساطعة، قال تعالى: (إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ (سورة الصافات: الآية 6)).

وفي الحديث عن المجرات سوف نستعرض بعض صور الإعجاز العلمي التي تتعلق بآيات الله في السماء، وذلك فيما يتعلق بمواقع النجوم، وتوسع الكون.

## أ- المجموعة الشمسية

نعيش - نحن البشر - على هذه الأرض التي تنتمي للمجموعة الشمسية<sup>2</sup>، والأرض والمجموعة الشمسية المؤلفّة من الشمس وما يدور حولها من كواكب تنتمي إلى المجرة، والكواكب التي تدور حول الشمس تسعة رئيسية، وتقسّم إلى مجموعتين: المجموعة الأولى: الكواكب الداخلية وهي: عطارد والزهرة والأرض والمريخ، وتتميز بأنها صغيرة الحجم ومؤلفة بشكل رئيسي من الصخر والحديد، والمجموعة الثانية: الكواكب الخارجية،

1 - من كتاب الإسلام يتحدى.

2 - هذا المبحث في الأصل مقالة نشرتها في مجلة منار الإسلام.

وهي: المشتري وزحل وأورانوس ونبتون وبلوتون) وتتميز بأنها كبيرة الحجم ومؤلفة بشكل رئيسي من الهيدروجين والهليوم والجليد.

ب - من خصائص المجموعة الشمسية

تدور كواكب المجموعة الشمسية حول الشمس، وتدور حولها الأقمار، "وأقرب حركة منا هي حركة القمر التي تبعد عنا (240.000) ميلا ، وهو يدور حول الأرض ويكمل دورته في مدة تسعة وعشرين يوما ونصف يوم. وكذلك تبعد أرضنا هذه عن الشمس (93.000.000) ميلا وهي تدور في محورها بسرعة ألف ميل في الساعة في دائرة (190.000.000) ميلا وتستكمل هذه الدائرة مرة واحدة في سنة كاملة. وكذلك توجد تسعة كواكب مع الأرض وكلها تدور حول الشمس بسرعة فائقة. وأبعد هذه الكواكب السيار (بلوتو) الذي يدور في دائرة (7.500.000.000) ميلا حول الشمس، وحول هذه الكواكب يدور واحد وثلاثون قمرا أخرى، وتوجد غير هذه الكواكب حلقة من ثلاثين ألفا من (النجوم) وآلاف من النجوم ذوات الأذنان ، وشهب لا حصر لها ، وكلها تدور وفي وسطها ذلك السيار العملاق (الشمس) وقطرها (865.000) ميلا وهي أكبر من الأرض (1.200.000) مرة! ثم إن هذه الشمس ليست بثابتة أو واقفة في مكان ما وإنما هي بدورها مع كل هذه السيارات والنجوم تدور في النظام الرائع بسرعة (600.000) ميلا في الساعة"<sup>1</sup>.

ت - دوران الأرض حول الشمس

تعتبر "حركة الأرض حول الشمس منضبطة تمام الانضباط بحيث لا يمكن أن يحدث أدنى تغير في سرعة دورانها حتى بعد مرور قرن من الزمان. وهذا القمر الذي يتبع في حركته الأرض يدور في فلك مقرر ومنضبط مع تفاوت يسير جدا ، يتكرر بعد كل ثمانية عشر عاما ونصف عام بدقة فائقة ، وتلك هي حال جميع الأجرام السماوية"<sup>2</sup>.

### ث- المجرة galaxy

نود أن نقدم تعريفا للمجرة بإيجاز لننتعرف على عظمة الخالق المبدع الكبير، فهذه الكلمة جمعها مجرات، وكانت تدل على سكة التبانة، أما حديثا فتستخدم للدلالة أيضا على المجموعات النجومية الأخرى، وكلمة المجرة معرفة تعني سكة التبانة أيضا.

والمجرة تحتوي على ملايين النجوم والكواكب، حيث "يدلنا علم الفلك على أن عدد نجوم السماء مثل عدد ذرات الرمال الموجودة على سواحل البحار في الدنيا كلها ، منها ما هو أكبر

1 - من كتاب الإسلام يتحدى.

2 - من كتاب الإسلام يتحدى.

بقليل من الأضواء أكثرها كبير جدا حتى يمكن أن نضع في واحد منها ملايين النجوم في مثل حجم الأرض التي نعيش عليها وسوف يبقى فيه مع ذلك مكان خال!<sup>1</sup>، وهناك أعداد كبيرة من المجرات كما سنذكر بعد قليل، وهذا كله في السماء الدنيا، التي قال الله عنها: (وَلَقَدْ رَئَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ) (سورة الملك: الآية 5). فما أعظم هذا الكون العظيم!، الذي يشهد بعظمة الخالق العظيم.

### ج - مجرتنا

سماها بطليموس درب اللبانة، وتسميتنا بالعربية العامية درب التبانة، وهي للدلالة على هذا النظام الخارجي المضيء في الفضاء، وهذا المنظر بالغ في الجمال، وهو غني بالنجوم المرصعة له، ولا سيما في بعض المناطق كمنطقة نعيم، ومنطقة الدجاجة، ومنطقة العقرب الرامي. وهي مجموعة نجمية تنتمي إليها المجموعة الشمسية ومعها الأرض وحوالي 100 بليون نجم آخر، وكذلك كميات كبيرة من مادة ما بين النجوم. ومن النجوم ما هو منفرد أو مزدوج، وما هو عديد، كما أن النجوم تكون كذلك حشودا نجمية، جميع هذه الأجسام تكون ما يشبه قرصا له نواة مركزية تزيد فيها كثافة النجوم عن مناطق الحافة.

### ح - موقع الشمس في المجرة

تتواجد الشمس وما يتبعها من الكواكب داخل مجرة سكة التبانة بالقرب من مستوى التماثل أو مستوى المجرة، ولكن إلى الخارج بعيدا عن النواة، وترى جميع النجوم من الأرض مسقطا على الكرة السماوية، الشيء الذي يتسبب في ظاهرة سكة التبانة الضوئية المعروفة.

### خ - حركة الشمس داخل المجرة

تقوم الشمس بحركة ظاهرية تنشأ من دوران الأرض حول محورها من ناحية وفي مدارها على هيئة قطع ناقص حول الشمس من ناحية أخرى ( الحركة المدارية ) بالإضافة إلى ذلك فإن الشمس تقوم بحركة حقيقية في مجموعة سكة التبانة، وتتكون الحركة الحقيقية من جزئين: حركة بالنسبة للنجوم الثابتة القريبة وحركة دوران بالنسبة لمركز مجرة سكة التبانة.

فبالنسبة للحركة الأولى تتحرك الشمس بالنسبة للنجوم الثابتة القريبة بسرعة 19,4 كم/ث وبذلك فإنها تقطع في العام ضعف قطر مدار الأرض، واتجاه أو هدف هذه الحركة مستقر الشمس وهو موجود في كوكبة الجاثي.

<sup>1</sup> - من كتاب الإسلام يتحدى.

وأما الحركة الثانية فتشارك الشمس مع النجوم القريبة في الدوران حول مركز المجرة، وفي ذلك تبلغ سرعتها 250 كم/ث وتصنع دورة كاملة حول المركز في 250 مليون سنة، وبسبب قوة كبر جاذبية الشمس فإن المجموعة الشمسية تتماسك مع بعضها وتشارك في هذه الحركة.

#### د - دوران الشمس

تدور الكرة الشمسية حول نفسها أيضا، أي إنها تدور حول محور يصل بين قطبيها وعموديا على محور الدوران يوجد مستوى الاستواء الشمسي، الذي يميل على مستوى الاستواء الأرضي بحوالي 7,15° ويحدث دوران الشمس حول نفسها في نفس اتجاه دوران الأرض وفي نفس اتجاه حركتها في مدارها حول الشمس، وهو يوافق حركة الإلكترونات حول البروتونات في الذرة والجميع بعكس عقارب الساعة، مما يدل على وحدة النظام في الخلق ووحدة الخالق سبحانه وتعالى، وجدير بالذكر أن طواف المسلمين حول الكعبة هو بعكس عقارب الساعة وبذلك اتسقت حركة المؤمن مع حركة الأرض والأجرام السماوية والذرات التي تكونت منها مادة تلك الأجرام في تناسق عجيب يشهد بعظمة الخالق عز وجل.

#### ذ - حجم مجرتنا

كان من المعتقد في الماضي بأن مجرتنا ضخمة فوق العادة، إلا أن هذا الوهم قد تلاشى، صحيح أن حجمها فوق المعدل، لكن من الأكيد أن هناك أنظمة أخرى معروفة تفوقها حجما منها لولبية المرأة السلسلة.

#### ر - عدد المجرات

لا توجد أرقام دقيقة حول عدد المجرات، فهناك من يذهب إلى أن درب اللبانة واحدة من مئة مليار من المجرات المشابهة الواقعة في مجال رؤية التلسكوبات الكبيرة الحديثة.

وينقل الأستاذ وحيد خان عن بعض علماء الفلك إحصاءات أخرى، يقول: "وهناك آلاف من الأنظمة غير هذا النظام الشمسي، يتكون منها ذلكم النظام الذي نسميه (مجاميع النجوم)، أو المجرات، وكأنها جميعا طبق عظيم تدور عليه النجوم والكواكب منفردة ومجمعة، كما يدور الخدروف الذي يلعب به الأطفال.. ومجرات النجوم هذه تتحرك بدورها أيضا، والمجرة التي يقع فيها نظامنا الشمسي تدور على محورها بحيث تكمل (دورة واحدة) في (200.000.000) سنة ضوئية.

ويقدر علماء الفلك أن هذا الكون يتألف من خمسمائة مليون من مجاميع النجوم مضروبا هذا العدد في (500.000.000.000.000) من الملايين وفي كل مجموعة منها يوجد (مائة مليار) من النجوم، أو أكثر أو أقل ويقدر أن أقرب مجموعة من النجوم وهي التي نراها في الليل كخيوط بيضاء دقيقة تضم حيزا مداه ألف سنة ضوئية. ونحن - سكان الأرض - نبعد عن مركز هذه المجموعة بمقدار ثلاثين ألف سنة ضوئية، وهذه المجموعة جزء من مجموعة كبيرة تتألف من

سبع عشرة مجموعة، وقطر هذه المجموعة الكبيرة (ذات السبع عشرة) مليونان من السنينا الضوئية<sup>1</sup>.

وأياً كان عدد المجرات فهي أرقام فلكية تدل أولاً وآخراً على عظمة الله تعالى، وعلى سداجة الإنسان وضآلته أمام خلق السماوات والأرض، ومع هذا فهو يتمرد على منهج الله برغم ضعفه وضآلته!!، قال تعالى: (وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) (سورة الزمر: الآية 67).

### ز - العناقيد

تتجمع المجرات في كتل تسمى عادة عناقيد، ويحتوي بعضها على مئات الأعضاء، أما مجرتنا فهي عضو في أحد هذه الأنظمة المعروفة إجمالاً بالمجموعة المحلية.

### س - حركة المجرات ومواقع النجوم

من المسلم به إجمالاً أن الكون يتمدد، وأن جميع المجرات خارج المجموعة المحلية تتحسر مبتعدة بسرعات مختلفة، ولكن أعضاء المجموعات المحلية ذاتها لا تبتعد عن مجرتنا، والمجرات كلها تسبح في السماء، وربما تداخلت مجموعة من المجرات أو ما يطلق عليه اسم العناقيد مع مجموعة أخرى تسبح في السماء أيضاً، ثم تنسحب كل مجموعة بنجومها دون أن يحدث أي تخلخل في نظام العناقيد السماوية أو أي تصادم بين النجوم، مما يدل على أن مواقع النجوم من أكثر الأشياء دقة في نظام الكون، ولذلك أقسم الله سبحانه بمواقع النجوم فقال عز وجل: (فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ) وعقب على قسمه بقوله: (وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ) (الواقعة/75-76).

أمر آخر يحسن التنبيه إليه، وهو أن الضوء المنبعث من النجوم لا نراه مباشرة، بل يحتاج إلى وقت ربما يمتد إلى عشرات السنين الضوئية ليصلنا أو أكثر أو أقل بحسب بعد النجم عن أرضنا، فحين نرى الضوء يكون النجم قد غادر موقعه إلى موقع آخر، وعليه فنحن لا نرى النجوم، وإنما نرى مواقعها، فمن يدرك هذه المعلومة في عصر الوحي غير الله الذي خلق السماوات والأرض!.

### ش - سعة الكون وتمدده

الكون الذي نعيش فيه واسع جداً، وهو بالإضافة إلى ذلك يتوسع ويتمدد باستمرار، هذا ما أكده العلم الحديث، إذ "إن كوننا هذا فسيح جداً، ولكي نفهمه نتصور طائرة خيالية تسير بسرعة (186.000) ميلاً في الثانية الواحدة، وأنهذه الطائرة الخيالية تطوف بنا حول الكون الموجود الآن. إن هذه الرحلة الخيالية سوف تستغرق (1000.000.000) سنة، يضاف إلى ذلك

<sup>1</sup> - من كتاب الإسلام يتحدى.

أن هذا الكون ليس بمتجمد، وإنما هو يتسكك لحظة حتى إنه بعد (1.300.000.000) سنة تصير هذه المسافات الكونية ضعفين ! ! وهكذا لن تستطيع هذه الطائرة الخارقة في سرعتها الخيالية أن تكمل دورانها حول هذا الكون أبداً ، وإنما سوف تظل تواصل رحلتها في نطاق هذا التوسع الدائم في الكون.

عندما تكون السماء صافية نستطيع أن نرى بالعين المجردة خمسة آلاف من النجوم، ولكن هذا العدد يتضاعف إلى أكثر من (2.000.000) من النجوم حيث نستعمل تلسكوبا عاديا. وأقوى تلسكوب في العالم هو الذي يوجد في مرصد (ماونت بالومار) في الولايات المتحدة الأمريكية، ويستطيع أن يشاهد بلايين من النجوم.

إن الفضاء الكوني فسيح جدا ، تتحرك فيه كواكب لا حصر لها بسرعة خارقة، بعضها يواصل رحلتها وحده، ومنها أزواج تسير مثنى مثنى، ومنها ما يتحرك في شكل مجموعات. ولو أنك لاحظت ضوء الشمس الذي يدخل غرفتك من الشباك فسترى أن هناك ذرات كثيرة من الغبار تتحرك وتسير في الهواء، فلو استطعت أن تتخيل هذا في شكل أعظم لأمكنك أن تحظى من الفهم بشيء عن السيارات والكواكب في الكون، مع الفرق الهائل المتمثل في أن ذرات الغبار تتحرك ويتصادم بعضها مع بعض، ولكن الكواكب مع كثرتها يواصل كل واحد منها سفره على بعد عظيم يفصله عن الكواكب الأخرى. ومثلها مثل بواخر عديدة تمشي في أعالي البحار متباعدة حتى إن إحداها لا تعرف شيئا عن الأخرى. إن هذا الكون يتألف من مجموعات كثيرة من الكواكب والنجوم، تسمى (مجاميع النجوم) وكلها تتحرك دائما".<sup>1</sup>

وقد أشار القرآن إلى ذلك قبل أن يعرف الناس هذه الحقيقة، قال تعالى في هذا الصدد: (وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) (الذاريات/47)، فكل هذه المجرات التي تحتوي على النجوم التي تتبعها الكواكب، والكواكب التي تتبعها الأقمار هي بمثابة مصابيح للسماء الدنيا، وقد خلق الله سبع سماوات طباقا، قال تعالى على لسان نوح عليه السلام: (أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا، وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا) (سورة نوح: الآيتان 15-16). ونسبة كل سماء إلى الأخرى كحلقة في فلاة، ومن فوقها الكرسي الذي وسع السماوات والأرض، ومن فوقه العرش، والله بكل شيء محيط، وعالم العرش لا يعلمه إلا الله، وفيه كنوز، وحوله قناديل معلقة تأوي إليها أرواح الشهداء، ولا يعلم عدد هذه القناديل إلا الله، وذكر بعضهم أن السماوات والأرض كلها في قنديل واحد معلق تحت العرش، ويحمل العرش ثمانية صفوف من الملائكة لا يعلم عددهم إلا الله، يقول النبي عليه السلام في وصف أحد الملائكة من حملة العرش: (أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش، أن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة سنة) رواه أبو داود<sup>2</sup>. فلنعرف حجمنا نحن أبناء آدم، ولنعرف أن الكوكب الذي نعيش عليه يكاد يكون لا حجم له في هذا الكون إذا ما قيس بغيره!، يقول النبي عليه السلام: (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء!) رواه الترمذي<sup>3</sup>.

**فلنتواضع لله في عصر العلم والمعرفة، ولتدفعنا العلوم إلى الإخبات للخالق العظيم، فنحن بالرغم من كل ما توصلنا إليه لم نؤت من العلم إلا قليلا.**

1 - من كتاب الإسلام يتحدى.

2 - الجامع الصغير، (1/458). وقال المناوي في فيض القدير: (ورواه الطبراني في الأوسط).

3 - الجامع الصغير، (5/328). وقال المناوي في فيض القدير: (ورواه ابن ماجه أيضاً... ورواه عنه الحاكم).

## المبحث الخامس:

كروية الأرض حقيقة علمية أشار إليها القرآن الكريم،  
وأكدها العلماء المسلمون في بحوثهم الجغرافية

من الحقائق الجغرافية الثابتة: كروية الأرض، وهو أمر لم تكن العرب تعرفه أو تقول به، وليس هناك أية إشارة في تراث العرب قبل الإسلام تشير إلى هذا الأمر، وقد جاء في القرآن الكريم ما يدل - بصورة غير مباشرة - على أن الأرض كرة، وقد صرح علماء المسلمين في تفسيرهم لأي القرآن بذلك، مما يعكس تناغماً وانسجاماً بين معارف الوحي وحقائق العلم.

أولاً: دعوة الإسلام للتفكير والبحث

إن من مزايا القرآن الكريم دعوته إلى التفكير في خلق السماوات والأرض<sup>1</sup>، لاكتشاف السنن الكونية ومعرفة الحقائق العلمية التي تقود العقل البشري إلى معرفة الخالق المبدع العظيم لهذا الكون، وقد نعت الله عباده المؤمنين بأنهم: (...وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) ويقودهم هذا التفكير إلى الإقرار بأن وراء هذا التنظيم الدقيق للكون غاية وهدف: (رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ) (سورة آل عمران، الآية 191).

والهدف من هذا كما هو معلوم هو موافقة السلوك الإنساني للإرادة الإلهية، والاستجابة لنداء الخالق المبدع وحده لا شريك له، الذي تلهج إليه ألسن المؤمنين بأن يجنبهم من العذاب الخالد، ويرزقهم السعادة الأبدية.

ثانياً: دور علماء المسلمين في اكتشاف المعرفة

وقد قام العلماء المسلمون بدورهم الإيجابي في هذا الإطار، فتفكروا في خلق السماوات والأرض، وأسهموا في تطوير علم الفلك وعلم الجغرافيا وغيرهما من العلوم، رغم صعوبة البحث وقلة الأدوات في العصور القديمة. وقد وضعوا تصورا لشكل الأرض والسماوات ينسجم ومعطيات العلم الحديث، مما يعد سبقاً لهم في هذا الميدان، وهذه حقيقة لا مرأى فيها. والحقيقة الأخرى هي أن العلماء المسلمين في بحوثهم هذه دفعوا أي شبهة في تناقض العقل مع الدين، فما أثبتته علماء الكون من حقائق ينسجم مع نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، وهذا يدل على أن مصدر الدين والمعرفة هو واحد؛ وهو الله عز وجل.

1 - أصل هذا البحث نشر بعنوان كروية الأرض حقيقة علمية، في مجلة عالم الفلك التي صدرت بأبو ظبي، العدد الخامس، شباط (فبراير) 2000 م.

### ثالثاً: شهادة العلماء الغربيين على نزاهة البحث العلمي عند المسلمين

لقد أقر المنصفون من الباحثين الغربيين بأن الإسلام دين العلم والمعرفة، وأن البحث العلمي له مرتبته في الدين الحنيف، من ذلك ما ذكرته زيغريد هونكة في هذا الصدد مشيدة بموقف الإسلام من العلم، وهو: "استعداد النبي بالوحي، وعبر الهداية الدينية الخاصة والعالمية، لا لقبول المعرفة البشرية العقلانية فقط، بل والحث عليها، حتى إن مداد طالب العلم ارتفع إلى درجة التقديس، وأصبح بمثابة دماء الشهداء، هذا بدلاً من حشر المؤمنين في حيز عقائدي ضيق بعيداً عن المتنفس كما فعلت المسيحية"<sup>1</sup>.

وفي الإطار ذاته يقول الأستاذ موريس بوكاي: "علينا أن نعترف بأن العلماء قد لاقوا مصاعب جمة من السلطات الدينية لبعض الأديان، ففي الوسط المسيحي وعبر قرون كثيرة بادرت سلطات مسئولة ودون الاعتماد على أي نصوص حقيقية للكتب المقدسة بمعارضة تطور العلوم، اتخذت هذه السلطات ضد العلماء الذين كانوا يحاولون تطوير العلوم الإجراءات التي نعرفها، تلك التي دفعت بعض العلماء إلى المنفى تلافياً للموت حرقاً، أو إلى طلب المغفرة بتعديل مواقفهم وبالتماس العفو... أما في الإسلام فعموماً كان الموقف إزاء العلم مختلفاً، إذ ليس هناك أوضح من ذلك الحديث الشهير للنبي - صلى الله عليه وسلم - الذي يقول: (اطلب العلم ولو في الصين). أو ذلك الحديث الذي يقول: (إن طلب العلم فريضة على كل مسلم وكل مسلمة). هناك أمر رئيسي: القرآن كما سنرى فيما بعد في هذا الجزء من الكتاب إلى جانب أنه يدعو إلى المواظبة على الاشتغال بالعلم، فإنه يحتوي أيضاً على تأملات عديدة خاصة بالظواهر الطبيعية، وبتفاصيل توضيحية تتفق تماماً مع معطيات العلم الحديث، وليس هناك ما يعادل ذلك في التوراة والإنجيل"<sup>2</sup>.

### رابعاً: كروية الأرض عند علماء المسلمين

هذا أحد الموضوعات التي تظهر واقعية علماء المسلمين وإقرارهم بما يقتضيه العقل، فلقد أكد العلماء المسلمون أن الأرض كرة، ووافقوا ما قاله العقل والمنطق في هذا الصدد، وفسروا الآيات القرآنية بما يوافق الحقائق العلمية، من ذلك:

أ- ما ذكره الرازي في تفسير قوله تعالى: (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا) (سورة النازعات، الآية 30). مشيراً إلى كروية الأرض: "كانت الأرض أولاً كالكرة المجتمعمة، ثم إن الله تعالى مدها وبسطها، وليس معنى (دحاها) مجرد البسط، بل المراد أنه بسطها بسطاً مهياً لنبات الأقوات، يدل عليه قوله: (أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا) (سورة النازعات، الآية 31) والجسم العظيم يكون ظاهره كالسطح المستوي"<sup>3</sup>.

1 - العقيدة والمعرفة، ص (117).

2 - دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، ص (140). دار المعارف، الطبعة الرابعة، 1977م.

3 - صفوة التفاسير، للصابوني، (515/3).

ب - ويقول ياقوت الحموي بعد أن نقل آراء العلماء في صفة الأرض: "وأصلح ما رأيت في ذلك، وأسدّه في رأيي، ما حكاه محمد بن أحمد الخوارزمي، قال: الأرض في وسط السماء، والوسط هو السفلى بالحقيقة، والأرض مدورة بالكلية، مخرسة بالجزئية من جهة الجبال البارزة، والوهجات الغائرة، ولا يخرجها ذلك من الكرية"<sup>1</sup>.

ويبين ياقوت أن الأرض مقسومة قسمين بواسطة خط الاستواء، حيث يقول: "وقال أبو الريحان - أي البيروني - : وسط معدل النهار يقطع الأرض بنصفين، على دائرة تسمى خط الاستواء، فيكون أحد نصفها شمالياً، والآخر جنوبياً"<sup>2</sup>.

ت - فإذا انتقلنا إلى الإمام ابن تيمية وجدنا له عناية عظيمة بوضع الأرض وصورة الأفلاك، ففي البداية يقرر أن الأفلاك مستديرة، وأن الفلاسفة أصابوا في استدارة الأفلاك، وأخطأ من خالفهم من المتكلمين<sup>3</sup>، وينص ابن تيمية على كروية الأرض فيقول: "أعلم أن الأرض قد اتفقوا على أنها كروية الشكل، وهي في الماء المحيط بأكثرها؛ إذ اليابس السدس وزيادة بقليل، والماء - أيضاً - مقبب من كل جانب للأرض، والماء الذي فوقها بينه وبين السماء كما بيننا وبينها مما يلي رؤوسنا، وليس تحت وجه الأرض إلا وسطها ونهاية التحت المركز؛ فلا يكون لنا جهة بينة إلا جهتان: العلو والسفل، وإنما تختلف الجهات باختلاف الإنسان؛ فعلو الأرض وجهها من كل جانب، وأسفلها ما تحت وجهها - ونهاية المركز - هو الذي يسمى محط الأثقال، فمن وجه الأرض والماء من كل جهة إلى المركز يكونهبطاً، ومنه إلى وجهها صعوداً، وإذا كانت السماء الدنيا فوق الأرض محيطية بها فالثانية كروية، وكذا الباقي. والكرسي فوق الأفلاك كلها، والعرش فوق الكرسي، ونسبة الأفلاك وما فيها بالنسبة إلى الكرسي كحلقة في فلاة، والجملة بالنسبة إلى العرش كحلقة في فلاة .

والأفلاك مستديرة بالكتاب والسنة والإجماع، فإن لفظ [الفلك] يدل على الاستدارة، ومنه قوله تعالى: (وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) (يس:40)؛ قال ابن عباس: في فلكة كفلكة المغزل، ومنه قولهم: تَفَلَّكَ نُدَي الجارية: إذا استدار. وأهل الهيئة والحساب متفقون على ذلك"<sup>4</sup>.

ث - ويثبت ابن تيمية - بالعقل وحده - أنه ليس أحد على سطح الكرة الأرضية فوق أحد، بمعنى أن الذي هو في النصف الشمالي ليس تحت الذي يكون في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية، ولا العكس أيضاً، يقول: "وليس أحد جانبي الفلك تحت الآخر، ولا القطب الشمالي تحت الجنوبي، ولا بالعكس.

وإن كان الشمالي هو الظاهر لنا فوق الأرض وارتفاعه بحسب بعد الناس عن خط الاستواء، فما كان بعده عن خط الاستواء ثلاثين درجة مثلاً كان ارتفاع القطب عنده ثلاثين درجة، وهو الذي يسمى عرض البلد، فكما أن جوانب الأرض المحيطة بها، وجوانب الفلك المستديرة، ليس بعضها

1 - معجم البلدان، (17/1)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1399هـ/1979م.

2 - معجم البلدان، (18/1).

3 - مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي (334-335). (مصورة عن الطبعة الأولى).

4 - مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي (150/5).

فوق بعض، ولا تحته، فكذاك من يكون على الأرض منالحيوان أوالنبات أوالأثقال، لا يقال: إنه تحت أولئك، وإنما هذا خيال تخيلهاالإنسان، وهو تحت إضافي؛ كما لو كانت نملة تمشي تحت سقف؛ فالسقف فوقها، وإن كانترجلاها تحاذيه، وكذاك من علق منكوساً فإنه تحت السماء، وإن كانت رجلاه تلي السماء، وكذاك يتوهم الإنسان إذا كان في أحد جانبي الأرض، أو الفلك، أن الجانب الآخر تحته، وهذا أمر لا يتنازع فيه اثنان، ممن يقول: إن الأفلاك مستديرة. واستدارة الأفلاك - كما أنه قول أهل الهيئة والحساب - فهو الذيعليه علماء المسلمين، كما ذكره أبو الحسن بن المنادي، وأبو محمد بن حزم، وأبو الفرجبن الجوزي وغيرهم أنه متفق عليه بين علماء المسلمين، وقد قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) (الأنبياء: 33)، قال ابن عباس: فلكة مثل فلكةالمغزل. والفلك في اللغة: هو المستدير، ومنه قولهم: تفلك ثدي الجارية إذا استدار، وكل من يعلم أن الأفلاك مستديرة يعلم أن المحيط هو العالي على المركز من كل جانب، ومن توهم أن من يكون في الفلك من ناحية يكون تحته من في الفلك منالناحية الأخرى في نفس الأمر، فهو متوهم عندهم.

وإذا كان الأمر كذلك، فإذا قدر أن العرش مستدير محيط بالمخلوقات كانهو أعلاها، وسقفها - وهو فوقها - مطلقاً، فلا يتوجه إليه، وإلى ما فوقه الإنسان إلا من العلو، لا من جهاته الباقية أصلاً<sup>1</sup>.

ج - والأمر بالنسبة للكواكب كالأمر بالنسبة لمن يكون في شمال أو جنوب الكرة الأرضية، فليس أحد منها تحتنا، والآخر فوقنا، بل جميعها فوقنا في السماء، يقول ابن تيمية: "والكواكب التي في السماء - وإن كان بعضها محاذياً لرؤوسنا، وبعضها فيالمنصف الآخر من الفلك - فليس شيء منها تحت شيء، بل كلها فوقنا في السماء"<sup>2</sup>.

ح - ويستشهد ابن تيمية فيما ذهب إليه من تصور حول هيئة الأرض والكواكب والنجوم من حولها برأي لأحد أصحاب الإمام أحمد، يقول: "وقال الإمام أبو الحسين أحمد بن جعفر بن المنادي - من أعيان العلماء المشهورين بمعرفة الآثار والتصانيف الكبار في فنون العلوم الدينية من الطبقة الثانية من أصحاب أحمد -: لا خلاف بين العلماء أن السماء على مثال الكرة، وأنها تدور بجميع ما فيها من الكواكب كدورة الكرة على قطبين ثابتين، غير متحركين: أحدهما في ناحية الشمال، والآخر في ناحية الجنوب. قال: ويدل على ذلك أن الكواكبجميعها تدور من المشرق تقع قليلاً على ترتيب واحد في حركاتها، ومقادير أجزائها إلى أنتنوسط السماء، ثم تنحدر على ذلك الترتيب، كأنها ثابتة في كرة تديرها جميعها دوراً واحداً. قال: وكذاك أجمعوا على أن الأرض بجميع حركاتها من البر والبحر مثلالكرة. قال: ويدل عليه أن الشمس والقمر والكواكب لا يوجد طلوعها وغروبها علىجميع من في نواحي الأرض في وقت واحد، بل على المشرق قبل المغرب. قال: فكرة الأرض مثبتة في وسط كرة السماء، كالنقطة في الدائرة، يدل على ذلك أن جرم

1 - مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي (566/6).

2 - مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي (197/25).

كل كوكب يرى في جميع نواحي السماء على قدر واحد، فيدل ذلك على بعد ما بين السماء والأرض من جميع الجهات بقدر واحد، فاضطرار أن تكون الأرض وسط السماء<sup>1</sup>.

خ - ويستخدم ابن تيمية هذا التصور العقلاني لشكل الكون وكروية الأرض؛ وسيلة من أجل تفسير بعض النصوص الدينية، بحيث يتلاقى صحيح المعقول مع صحيح المنقول، فيقول: "وقد يظن بعض الناس أن ما جاءت به الآثار النبوية من أن العرش سقفاً لجنّة، وأن الله على عرشه، مع ما دلت عليه من أن الأفلاك مستديرة متناقض، أو مقتضأن يكون الله تحت بعض خلقه - كما احتج بعض الجهمية على إنكار أن يكون الله فوق العرش باستدارة الأفلاك - وأن ذلك مستلزم كون الرب أسفل، وهذا من غلطهم في تصور الأمر، ومن علم أن الأفلاك مستديرة، وأن المحيط الذي هو السقف في أعلى عليين، وأن المركز الذي هو باطن ذلك وجوفه، وهو قعر الأرض، هو [سجين] و[أسفل سافلين] علم من مقابلة الله بين أعلى عليين، وبين سجين، مع أن المقابلة إنما تكون في الظاهريين العلو والسفل، أو بين السعة والضيق؛ وذلك لأن العلو مستلزم للسعة، والضيق مستلزم للسفل، وعلم أن السماء فوق الأرض مطلقاً، لا يتصور أن تكون تحتها قط - وإن كانت مستديرة محيطة - وكذلك كلما علا كان أرفع وأشمل"<sup>2</sup>.

#### خامساً: تأويل صحيح المنقول بما يوافق صحيح المعقول

وهذا التصور لوضع الأرض وهيئة الكون من حولها متفق عليه عند علماء المسلمين كما ذكر ابن تيمية، فالأرض كرة ولا ريب، ولذلك أوّل العلماء قوله تعالى: (وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ) (سورة الغاشية: الآية 20). والذي يقتضي من حيث الظاهر أن الأرض مسطحة كما تبدو للعيان، وهذا هو سر الإعجاز في خلقها، فهي تبدو مسطحة مع أنها كرة في حقيقتها، وفي هذا الصدد قال المفسر الألوسي مبيناً معنى الآية وأنه يتوافق مع القول بكروية الأرض: "سفحاً بتوطئة وتمهيد وتسوية وتوطيد، حسبما يقتضيه صلاح أمور أهلها، ولا ينافي ذلك القول بأنها قريبة من الكرة الحقيقية لمكان عظمها"<sup>3</sup>.

#### سادساً: خاتمة

هكذا نجد أن المعرفة الصحيحة تتوافق مع الدين الحنيف، وأن علماء الدين كانوا يقرون ويعترفون بما يثبت العقل ويقتضيه المنطق، مما جعل المعرفة العلمية بالكون تقطع أشواطاً كبيرة في ظل الحضارة الإسلامية المجيدة، التي اتحد فيها العلم والإيمان معاً في أخيلة العلماء وواقع الحياة!

1 - مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي (196-195/25).

2 - مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي (196/25).

3 - روح المعاني، (146/10)، دار الفكر، بيروت، (1398هـ/1978م).

## ضوابط هامة في دراسة إعجاز القرآن الكريم

## تمهيد:

لما كانت دراسة الإعجاز من أهم الأمور التي يثبت بها صدق الوحي وتأكيد ربانية الرسالة، فقد كثرت دراسات الباحثين في هذا الصدد، وذلك بدوافع علمية أو عاطفية، يراد منها الذب عن معجزة المصطفى - صلى الله عليه وسلم -، وقد اختلط الغث بالسمين، وتعددت المناهج وتداخلت، مما يقتضي تبيان بعض الضوابط في هذا الصدد، لكي يقوم الباحث الموضوعي والداعية إلى الله وهما مزودان بمنطق علمي صحيح، لا بالعواطف الهوجاء التي قد تضر أكثر مما تنفع!

## أولاً: ضوابط عامة للتعامل مع النص الديني

كثيراً ما يساء فهم النصوص الدينية، ومنها الحديث: (لقد جننكم بالذبح!!)<sup>1</sup>، حيث يقع سوء الفهم والخلط من طرفين الأول وهو المؤمن بالنص بعيداً عن ملابساته ومقارنته بالنصوص الأخرى، ومن قبل الرافضين للنص ممن يقفون في مواجهة مع الدين، ويستغلون مثل هذا النص للهجوم على الدين وأنه لا يؤمن بالرأي الآخر... إلخ.

وهذا الحديث في فحواه من باب التهريب والتحذير لقريش حتى يؤمنوا، ففي ظل الصراع الدموي والقمع والعنف الذي واجهت به قريش رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان لا بد له أن يحذرهم وينذرهم، بأنهم سيجدون الهلاك إن عاجلاً أو آجلاً إذاكفروا بما جاء به.

لذلك لا بد من آلية أو منهج علمي لفهم النص، ومن خصوصيات هذا المنهج:

أ- وحدة النصوص، وذلك بأن تدرس كل مجموعة النصوص ذات الموضوع الواحد على حدة، وننظر إلى مجموع العلاقات فيما بينها، ثم ننظر في علاقاتها مع النصوص الأخرى، وحدود وعمق تلك العلاقات بما يتفق مع مقاصد الشريعة.

ولا شك أن اجتزاء النصوص الدينية وعدم النظر إليها كوحدة متكاملة يسبب أكبر مشكلة في فهم تلك النصوص، فالتشريع الإسلامي يشمل الدين والدنيا والحرب والسلام، فقراءة النصوص التي تنظم قواعد الحرب وآدابها، بمعزل عن النصوص التي تنظم حياة السلام؛ قد يوقع في الخلط وسوء الفهم.

<sup>1</sup> - السيرة النبوية لابن هشام، قدم لها طه عبد الرؤوف سعد، (33/2).

ب- لا بد من فهم الظروف التي أحاطت بالنصوص، فهناك ما يسمى أسباب النزول، ومعرفتها ضرورية جدا لفهم ملابسات نزول النص.

ت- معرفة اللغة العربية وإجادتها، فقراءة النص الديني بلغته الأصلية تزيل كثير من اللبس والغموض عنه، فهناك العام الذي يراد منه الخاص، وبعبارة الخاص الذي يراد منه العام، وهناك الترادف والمشتراك والمبهم وغير ذلك، ومعرفة قواعد البلاغة العربية مهمة جدا لفهم القرآن الكريم، ولا بد من الإحاطة بالمجاز والكنائية، وذلك لئلا نقع في الفهم الشكلي الذي يبتعد عن المضمون والهدف.

ث- لا بد من فهم فلسفة الحياة، فالحياة فيها السلم وفيها الحرب، ولا بد للدين الحق من أن ينظم قواعد الحياة في الحالتين، ولا يترك شؤون الحرب ليدبرها الناس بأنفسهم، فيكون ديننا ناقصا لا يصلح لواقع الحياة، وتنظيم الدين لقواعد الحرب والسلام كان بقصد الحفاظ على النوع الإنساني وتقليل أظافر الوحشية والعدوان لدى النفوس المريضة.

ج- معرفة السيرة النبوية وأحداث التاريخ، وتفسير أحداثه من زاوية موضوعية بعيدا عن التعصب بكافة أشكاله.

ح- لا بد من معرفة البيئة العربية التي ولد فيها الإسلام، فمعرفة البيئة العربية تساعد على فهم الجو العام الذي أحاط بالدعوة، وملاءمة تلك النصوص لحالة العرب الاجتماعية والبيئية بشكل عام، واتساع مفهومها لتلائم الإنسان حيث كان.

خ- الموضوعية التي تقتضي هجر الأسباب النفسية من حقد وكراهية، وهي أسباب قلما ينجو منها إنسان

ثانياً: شروط خاصة للتعامل مع تفسير كتاب الله عز وجل

قبل الخوض في البحث لابد من التفريق بين مصطلحي التفسير والتأويل، وقد عرض لذلك العلماء، قال الراغب: "الفسر: إظهار المعنى المعقول... والتفسير في المبالغة كالفسر،

والتفسير قد يقال فيما يختص بمفردات الألفاظ وغريبها، وفيما يختص بالتأويل، ولهذا يقال: تفسير الرؤيا وتأويلها<sup>1</sup>.

وأما التأويل، فقد عرفه الراغب في قوله: "التأويل من الأول، أي الرجوع إلى الأصل، ومنه المونل للموضع الذي يُرجع إليه، وذلك هو رد الشيء إلى الغاية المرادة منه علما أو فعلا"<sup>2</sup> والناس اليوم لا يكادون يفرقون بين المصطلحين وكأنهما شيء واحد!

وسوف نعرض هنا العلوم التي ينبغي على المفسر أن يلم بها، وصلة التفسير بالإعجاز، وآداب المفسر

### أ- علوم التفسير

ولا بد لمفسر القرآن من علوم يبرع بها ويتعاطاها، وقد ذكر السيوطي خمسة عشر علما للتفسير، وهي الآتية:

- 1- اللغة، 2- النحو، 3- الصرف، 4- الاشتقاق، 5- علم المعاني، 6- علم البيان، 7- علم البديع، 8- علم القراءات، 9- علم أصول الدين، 10- أصول الفقه، 11- أسباب النزول والقصاص، 12- النسخ والمنسوخ، 13- الفقه، 14- الأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم، 15- علم الموهبة<sup>3</sup>.

وفي العصر الحديث اشترط العلماء شروطا جديدة للمفسر منها ما ذكره السيد محمد رشيد رضا وهي: علم أحوال البشر، والعلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن<sup>4</sup>

ولو تأملنا في هذه العلوم وجدنا أن نصفها تقريبا يدور حول اللغة وعلومها، وهذا يؤكد على أهمية العربية في فهم القرآن وتفسيره، فهي مفتاح القرآن بلا ريب، ولذلك جعل كثير من فقهاء المسلمين تعلم العربية فرضا على المسلمين، ومنهم الإمام ابن تيمية حيث قال: "...وأیضا فإن نفس اللغة العربية من الدين، ومعرفتها فرض واجب، فإن فهم الكتاب والسنة فرض، ولا يفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب"<sup>5</sup>.

### ب - قضية الإعجاز وصلتها بالتفسير .

1 - المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد سيد كيلاني، مادة ( فسر )، دار المعرفة، بيروت.  
2 - المصدر السابق، مادة ( أول ).  
3 - انظر: الإتقان في علوم القرآن، (231/2-232).  
4 - انظر: تفسير المنار، (20/1-21)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1972م.  
5 - اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، تحقيق عصام حريستاني وزميله، ص (242).

لعل أهم قضية كانت تشغل علماء الأمة عبر العصور هي إعجاز القرآن، فالقرآن معجز بنظمه، ومفرداته، ومعانيه، وجمله، وهو معجز بأدائه، وترتيب حروفه، ونبراتها، ونغماتها، وجرسها، وهو معجز بتشريعها، وأخباره، وتأثيره، وغير ذلك... وقد كان العلماء عند ما يتناولون القرآن بالبحث والدراسة يحاولون أن يعرفوا أسرار الإعجاز، أو دلالاته، وكتبوا في ذلك كثيراً، واستمرت الكتابة حتى العصر الحديث. والقضية الأولى في إعجاز القرآن هي في لغته وبيانه، قال الإمام الخطابي: "واعلم أن القرآن إنما صار معجزاً لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف متضمناً أصح المعاني"<sup>1</sup>

وقد أسهمت قضية إعجاز القرآن بتنشيط عملية التأويل للنص القرآني عبر العصور، واحتلت مكاناً هاماً في تفسير الزمخشري ومن تلاه من المفسرين حتى يومنا هذا<sup>2</sup>.

### ت- آداب المفسر

لا بد للمفسر من جملة آداب منها:

- 1- طهارة القلب وإخلاص النية.
  - 2- طهارة البدن والجوارح
  - 3- حسن الالتزام بكتاب الله تعالى.
  - 4- احترام جهود العلماء قبله.
  - 5- أن يعرض رأيه بتواضع يليق بأهل العلم.
  - 6- في الآيات التي تحتمل وجوهاً يستخدم ألفاظ تفيد الاحتمال أو الرجحان، مثل: ربما، ولعل، والأجدر، وقد يكون المراد كذا... ولا يقطع بوجه واحد ويفرض باقي الوجوه.
  - 7- أن يستعين بأهل العلم المعاصرين له فيما يشكل عليه.
  - 8- حبذا أن يتوجه إلى الله بالدعاء عندما تعسر عليه مشكلة.
  - 9- أن يراجع ما كتبه مرات عديدة، ويعرضه على أهل الاختصاص، قبل أن ينشر تفسيره بين الناس.
  - 10- أن يستعين بوسائل التكنولوجيا المعاصرة، وبالرسومات أو المخططات التي تساعد القارئ على فهم المراد، من دون أن يتعالى على القارئ، بل يستخدم عبارات مهذبة.
- هذه بعض الآداب ننصح بها وهي خليقة بطلاب العلم جميعاً، وفي مقدمتهم أهل التفسير.

### ثالثاً: ضوابط في استخدام مصطلح الإعجاز

#### أ- الإعجاز البياني هو الأصل

فهو شامل لكل سورة ولكل آية ولكل حرف من كتاب الله تعالى، وهو المعول عليه في تحدي العرب، لأنهم أرباب صناعة البيان، وأما الإعجاز الغيبي أو التشريعي أو العلمي فهو في الآيات التي تنص عليه، وليس شاملاً كالإعجاز البياني، ونحن نستفيد من جميع وجوه

1 - ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، (رسالة الخطابي) تحقيق محمد خلف الله وزميله، ص (27).  
2 - انظر كتاب: (فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر) لنعيم الحمصي.

الإعجاز في إثبات صدق الرسالة، ولكن لا بد من ترتيب هذه الوجوه بحسب أهميتها، والإعجاز البياني له الصدارة دائماً.

#### ب- هناك إعجاز خاص بشريحة إنسانية معينة

قد تكون بعض المعلومات غائبة عن العرب في عصر الرسالة، ولكنها معروفة لدى أهل الكتاب والأمم الأخرى، من ذلك أخبار الأنبياء السابقين كقصة يوسف عليه السلام، فعدم معرفة العرب بها، ومجيؤها بالقرآن يعتبر معجزاً، وأما أهل الكتاب فهم يعرفون القصة، فهي معجزة بالنسبة لهم بما فيها من تفاصيل دقيقة، وتصحيح لأمر كانت غائبة عنهم، وهي معجزة بالنسبة لهم أيضاً لأنها جاءت من رجل أمي لم يدرس على أحد، وليست معجزة من حيث أنه أخبرهم خبراً لم يدروا به من قبل، فهذا الوجه خاص بالعرب.

#### ت- إعجاز نسبي خاص به - صلى الله عليه وسلم -.

وذلك يتعلق ببعض خصوصيات الرسول - صلى الله عليه وسلم - مثل قوله تعالى: (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لَكِي لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا) (سورة الأحزاب، الآية 37) فهذا يكشف العالم الداخلي للنفس المحمدية، ولذلك قالت عائشة: "لو كتم محمد - صلى الله عليه وسلم - شيئاً مما أوحى إليه من كتاب الله تعالى لكتم (وتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ)"<sup>1</sup>.

ومن هذا الباب توجيهات الرسول - صلى الله عليه وسلم - بشأن كثير من القضايا الاجتماعية والإنسانية والطبية وغيرها، فقد يوافق بعض ذلك ما لدى الأمم الأخرى التي لديها علوم وتجارب ليست لدى العرب، فإذا ذكرت لهم ما قاله النبي - صلى الله عليه وسلم - في أمر ما يوافق ما عندهم لم يكن هذا معجزاً لديهم، وإنما يكون معجزاً من باب أن رجلاً أمياً أرشد إليه دون سابق بحث ودراسة، فليس ثمة طريق توصله إلى هذا العلم إلا الوحي، وهذا هو الإعجاز.

#### ث- إعجاز خاص بسبب نقص المعرفة الإنسانية في عصر الوحي

وذلك كالإشارة إلى نقص لأكسجين في طبقات الجو العليا، قال تعالى: (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعْدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ) (سورة الأنعام: الآية 125) فلو قال باحث - اليوم - : إن الأكسجين ينقص في طبقات الجو العليا لم يكن قوله معجزاً، ولكن أن تأتي آية وتشير إلى هذا الأمر قبل (1450) سنة، فهذه معلومة معجزة، لأن أهل زمان الوحي لم يكونوا يعرفون هذه المعلومة.

#### ج- إعجاز الخلق والقدرة غير إعجاز الكتاب

في القرآن الكريم أشار الله عز وجل إلى دلائل قدرته المعجزة في خلق الكون والموجودات جميعاً، وهذا نسميه إعجاز الخلق، مثل: (وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا، وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا، وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَاسًا، وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا) (سورة النبأ: الآيات 8-11). فقصة الزوجية في الخلق، والنوم للراحة، والستر في الليل، والانتشار في النهار لطلب الرزق: قضايا معروفة للمخاطبين، وقد أراد الله بذكرها أن يدل على قدرته ونعمه على عباده، وهي أمور معجزة في خلقها وتقديرها، وهذا يختلف عن الإعجاز العلمي في القرآن، لأن الإعجاز العلمي هو الإخبار عن

<sup>1</sup> - مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني، (983).

حقيقة علمية لم تكن معروفة في عصر الرسالة، وقد أثبتتها العلم التجريبي الآن، وكثير من الباحثين يخلطون بين إعجاز القدرة والإعجاز العلمي، وهذا قصور علمي في فهم المصطلحات العلمية وحسن استخدامها، وينبغي التحرز منه.

#### ح- من شروط الإعجاز العلمي المجيء بنظريات مبتكرة

ونعني بذلك أن يشير القرآن إلى حقيقة علمية غير مكتشفة في عصر الرسالة، ولذلك لا يعتبر حديثه عن نعم الله مثل العسل في الإعجاز العلمي، قال تعالى: (يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ) (سورة النحل: الآية 69). فالعرب والعجم يعرفون فضل العسل وقدراته العلاجية من قديم الدهر.

وكذلك الحديث عن لحم السمك الطري، واستخراج الحلى من البحر، وجريان السفن فيه، كل هذا من آثار قدرة الله، وليس إعجازاً علمياً، قال تعالى: (وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِيَبْتَلُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (سورة النحل: الآية 14).

ونحو ذلك: استخراج اللؤلؤ من البحار، وسير السفن فيه، قال تعالى: (يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ، فَبِأَيِّ آيَةٍ رَبِّكُمْ تَكْفُرُونَ، وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ) (سورة الرحمن: الآيات 22-24)... فهذا وأضرابه ليس من الإعجاز العلمي في شيء، لأن هذه أشياء كان الناس يعرفونها في عصر الرسالة، ويمارسونها في حياتهم من أقدم الدهور.

#### خ- الإعجاز في السنة جزئي وليس شاملاً

في السنة إعجاز تشريعي وإنباء بالغيوب وإعجاز علمي، ولكنها ليست معجزة بيانياً، ولا متحدى بها، والإعجاز قائم في بعض الأحاديث وليس في جميعها، ولذلك ينبغي أن نقول إعجاز في السنة، وليس إعجاز السنة، اللهم إلا أن نقول إعجاز السنة من باب إطلاق العام وإرادة الخاص، أي بعض أحاديث السنة فيها إعجاز، وليست كلها معجزة، وذلك لتمييز ما فيها من الإعجاز عن القرآن الكريم، ونؤكد أن هنالك إعجازاً علمياً وغييبياً في السنة ولكن الإعجاز البياني مقصور على القرآن، والتحدي قائم بالقرآن فقط، ولعمري لو كان بيانه - صلى الله عليه وسلم - معجزاً لكان مثل القرآن، وهو ما لم يقله عليه الصلاة والسلام، ولم يدع هذا أحد من السلف، مع إقرارنا أنه عليه الصلاة والسلام أفصح من نطق بالضاد وأوتي جوامع الكلم، ولكن هذا لا يعني أن بيانه معجز مثل القرآن.

إن البيان النبوي أعظم من بيان البشر ودون بيان القرآن، ولكن لم يقل أحد إن البيان النبوي معجز، وكثير من المعاصرين يخلطون بين إعجاز القرآن والسنة، وكأنهما على قدر واحد من الإعجاز، وهذا سوء فهم للكتاب والسنة وقدر كل واحد منهما، وحسبنا الله ونعم الوكيل!.

#### رابعاً: بعض ضوابط الإعجاز العلمي

أ- الحقيقة العلمية هي التي يؤيدها الدين

على الباحث أن يكون على ثقة بكتاب الله عز وجل ابتداءً، وأن العلم تابع للقران والسنة، وإذا تناقضت النظرية العلمية مع الدين - مثل نظرية دارون - فالذي يسقط هو النظرية وليس الدين، فالدين وحي ثابت، والعلم حقائق ونظريات متجددة، وبعض ما يقوله العلماء اليوم قد يتراجعون عنه غداً.

#### ب- الالتزام بسياق النص

لا يحق لدارس أن يخرج معاني الكلمة في الكتاب والسنة عن المتعارف عليه بين أهل اللغة، ويعطي اللفظ القرآني معنى من عنده.

#### ت- التأكد من صحة الحديث النبوي

ينبغي التأكد من صحة الحديث النبوي الشريف الذي يوافق الحقيقة العلمية، إلا إذا توافقت الحقيقة العلمية مع الحديث الضعيف، فلا مانع من الأخذ به.

#### ث- أن يكون العمل مؤسسيا وليس فرديا

نحن في عصر العلم والبحث العلمي والمؤسسات العلمية، لذا ينبغي على الجامعات والمعاهد العلمية أن تقيم أقساماً ومؤسسات خاصة لدراسة الإعجاز في الكتاب والسنة، شأن الإعجاز في هذا الموضوع شأن أي ميدان علمي آخر تكون له فرق بحث علمية متخصصة، وحري بالكتاب والسنة أن يكون لهما من فرق البحث والعمل ما يضيء جوانب الإعجاز فيهما، وذلك خروجاً من الجهود الفردية التي غالباً ما تكون مكررة ويعتريها الأخطاء والنقص وعدم شمولية المنهج.

إن الجهود الفردية مشكورة، وقد سدت ثغرة في هذا الباب، ولكن حان الوقت بأن نبدأ فتح باب البحث المؤسسي، وذلك بما يتناسب مع قدسية كتاب الله تعالى وجلال الحديث النبوي الشريف.

اللهم وفقنا لما تحب وترضى، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

البحث التاسع:

مبادئ العملية الإعلامية في خطاب الهدد

## مقدمة:

كنت أحضر مؤتمراً دولياً حول الإعلام، وخلال إحدى المداخلات قال أحد المتحدثين الإعلاميين: الإعلام صناعة أوروبية. فاستغربت كلامه هذا، ولو أنه قال إن تطور وسائل الإعلام صناعة أوروبية لكان في هذا كلام، أما أن يجعل الإعلام كله صناعة أوروبية كصناعة الطائرات مثلاً فهذا موضع نقاش، وقد تذكرت قوله تعالى: (الرَّحْمَنُ، عَلَّمَ الْقُرْآنَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ) فالله سبحانه الذي منحنا القرآن منهاجاً لحياتنا، كان قد منحنا البيان من قبل وذلك، بعد عملية الخلق (عَلَّمَهُ الْبَيَانَ).

وعليه فالبيان هو سبيلنا لفهم كتب الله ومراده من خلقه، والتعرف عليه سبحانه، والقيام بحقوقه، ثم هو وسيلتنا للتعايش مع الآخر، وقد قدم الله تعالى تعليم القرآن على خلق الإنسان لأن الغايات والكمالات وإن تأخرت وجوداً فهي متقدمة رتبة. فالبيان وجد مع الإنسان مذ وجد، وليس كما يزعم أصحاب النظرية التطورية بأنه كان أبكماً وتعلم الأصوات من مظاهر الطبيعة كالرياح والرعد أو من محاكاة أصوات الحيوانات!.

والعرب أمة الكلام الرائع!، تمجد الإعلام، وتحثي بالشعراء والخطباء والبلغاء في جاهليتها وإسلامها، فكيف لنا أن نقول إن صناعة الإعلام وجدت في العصر الحديث، وكم تحدثت العرب عن حسن اختيار الرسل في آدابها وفن الخطاب، وكانوا يراعون أحوال الأقسام الذين يخاطبونهم، وقد اختار الرسول صلى الله عليه وسلم دحية الكلبي وكان أجمل الصحابة ليحمل رسالته إلى هرقل عظيم الروم وقد كان الروم يهتمون بالجمال!!

ثم عدت أتأمل كم في القرآن من مواقف إعلامية وقواعد تخاطبية غفل عنها كثير من الباحثين، فهناك حوار الرسل مع أقوامهم، وهناك الإعلام الفرعوني، والإعلام الملكي، والإعلام الإنساني، والإعلام الإيماني، وغير ذلك... وقد استوقفني من ذلك كله مواقف عدة، منها قصة الهدد مع سيدنا سليمان عليه السلام، فوجدت في خطاب الهدد قواعد هامة للعملية الإعلامية، وعليه كان هذا المقال للتنويه بها:

## القصة كما وردت في سورة النمل

((وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20) لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (21) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ (22) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (24) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (25) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (26) قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (27) اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلِّقْهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (28) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأَ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (29) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (30) أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (31) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُون (32) قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (33) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا

دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَآةَ أَهْلِهَا آذِنَةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (34) وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ  
بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (35))

### تأملات عامة في هذا المقطع:

- 1- **المسئولية:** ينبغي على كل ملك أو قائد تفقد أحوال رعيته وهو مسئول عن كل ما استرعاه الله تعالى من إنسان أو حيوان أو طبيعة أو بيئة ونحو ذلك، فالسلطان هو المسئول الأعلى للسلطات كلها التشريعية والتنفيذية والقضائية والإعلامية.
- 2- **الشفافية:** عندما لم ير سليمان الهدهد اتهم نفسه أولاً، فقال: (مَا لِي لَا أَرَى الْهُدْهَدَ) وهذا مبدأ في إحسان الظن بالرعية، فقد يكون المتهم بريئاً، وقد يزوغ بصر الإنسان فلا يرى الحقائق أمامه.
- 3- **المراجعة والتحقق:** بعد ذلك يكون الاحتمال الثاني (أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ) وذلك إذا تحقق أن تخلف الطرف الآخر عن الحضور قد تم.
- 4- **العقوبة العادلة وإمكانية العفو:** التخلف عن المهام والحضور في المملكة السلিমانية لا بد من تحمل تبعاته (لَأَعَذِّبَنَّكَ عَذَابًا شَدِيدًا) والتعذيب له صور عدة، أو يكون الحكم بالإعدام (أَوْ لَأَذْبَحَنَّكَ!) وهنا يقول السامع لعل للهدهد عذراً، أليس ثمة رحمة، فيأتي قول سليمان عليه السلام (أَوْ لِيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ) ليؤكد قبول الأعذار الشرعية واستثناء أصحابها من العقوبات، وهذا يعني أن المملكة السلیمانية قائمة على الحق والعدل والرحمة، فهو بعدما هدد وتوعد بالعذاب ثم بالذبح في حالة التخلف بلا عذر، عاد وذكر إمكانية العفو والرحمة عند مجيء البرهان.
- 5- **الأتيكيت في قواعد الاقتراب من الملوك:** عاد الهدهد فلم يقف قرب سليمان لأنه شبه مذنب، والاقتراب قد يُشعر بنوع من التحدي، ولم يقف بعيداً لأنه لم يذنب، فكان أولى شيء أن يقف على مسافة ما من سليمان ليست ببعيدة ولا قريبة جداً منه.
- 6- **الإيجابية:** نلاحظ الثقة السلیمانية بجنوده، حيث قبل بأن يرسل الهدهد في مهمة خاصة بعد غيابه في المرة الأولى.
- 7- **الواقعية:** وعلى الرغم من ثقة سليمان بالهدهد فقد أراد أن يتحقق من كلامه، فقال: (قَالَ سَتَنُنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ) فاقتحام الدول وشن الحروب لا يكون بدون أدلة دامغة، وبراهين ساطعة، وأما التقارير السرية فغير معترف بها أو غير كافية للإدانة في الدولة السلیمانية!
- 8- **الجنديّة:** نلاحظ الجنديّة التامة والطاعة الكاملة من الهدهد نحو سليمان، حيث حمل الخطاب السلیماني إلى ملكة سبأ مرة أخرى.
- 9- **حسن البداية وبراعة الاستهلال:** نلاحظ أن خطاب سليمان ابتدأ بالبسملة، وهي عنوان كل أمر نجح.
- 10- **الإيجاز:** نلاحظ أن الإيجاز كان سمة الرسالة السلیمانية، وهي أشبه بالبرقية في زماننا، وهكذا ينبغي أن يكون خطاب الملوك فيما بينهم.
- 11- **الإيحائية:** وتتجلى في خلو الخطاب السلیماني من التهديد والوعيد بشكل صريح، وهكذا ينبغي أن تكون اللغة الدبلوماسية العالية؛ إنها لغة نبي ملك!
- 12- **العقلانية:** وتتجلى بلجوء الملكة إلى مشاورة أهل الحل والعقد عندها في اتخاذ القرار، فالعقل يفرض الشورى.
- 13- **اللغة الدبلوماسية الناعمة في إرسال الهدية والاعتذار للحضرة السلیمانية**

## تأملات في المبادئ الإعلامية في كلام الهدهد:

- 1- **دقة التعبير في اللغة الرسمية** (أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحَظْ بِهِ)، يلاحظ أنه لم يقل له أنا أعلم منك، لأن العلم غير الإحاطة، فقد يحيط سليمان بالأرض كلها ما عدا شيء صغير منها (جزيرة في البحر مثلا) ولكن يحيط غيره بهذا الشيء الصغير دون أن يحيط علمه بما في الأرض كلها. بمعنى آخر قد يحيط سليمان بالأكثر ويحيط غيره بالأقل، فسليمان يكون أعلم ممن أحاط بالأقل وإن كان من أحاط بالأقل قد عرف شيئا لم يعرفه سليمان عليه السلام!
- 2- **الاستطلاع والانتشار في الأرض، نلحظه في قوله: (وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ) فمن واجب الإعلامي أن يكون مراسلا وعينا لقيادته الأمنية حيثما حل وارتحل.**
- 3- **نقل الحدث نلحظه في قوله: (وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ) فحين رأى حدثاً هاما قام بنقله، ولم يكتمه، وهذه مهمة الإعلامي الأولى وهي نقل الحدث الذي يراه.**
- 4- **المصداقية: المهم من النبأ هو الصدق الذي يطابق الواقع (وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَبِينِ) وإذا نقلت وكالات الأنباء أخباراً كاذبة تفقد مصداقيتها.**
- 5- **الإيقاعية: ونعني بها هنا: الجنس في قوله (مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ)، ومراعاة الإيقاع هو أحد العوامل المؤثرة في الخطاب الإعلامي سواء كان خطبة أو قصيدة أو نحو ذلك...**
- 6- **التوكيد، كما في قوله (إِنِّي وَجَدْتُ) واستخدام (إن) يغني عن تكرار الجملة مرتين، فيجب أن يكون الخطاب الإعلامي قويا متناسقا، وصاحبه يقف على أرضية صلبة!**
- 7- **الوصفية الاجتماعية: كما في قوله (إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ) فقد أفاد أربعة أشياء: أن الحاكم امرأة، والحكم ملكي، وهناك ازدهار حضاري في كافة نواحي الحياة (وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ) وللملكة عرش عظيم هائل. وواجب الإعلامي أن يعطي صورة متكاملة للحالة الاجتماعية في موقع الحدث، وأن لا يبتر الخبر عن ملابساته الاجتماعية والحضارية!**
- 8- **الوصفية العقدية (وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ) فهم قوم وثنيون مشركون يعبدون الشمس من دون الله (صابئة). وفي قوله: (مِنْ دُونِ اللَّهِ) إشعار بأن العبادة الحقة تكون لله وحده دون غيره من مظاهر الطبيعة الخارقة أو الأوثان الحجرية أو البشرية أو الجنية ونحو ذلك... فواجب الإعلامي أن يهتم بكافة نواحي الحياة، وصلب الحياة هو العقيدة، لا أن يهتم فقط بأسعار السلع الغذائية أو الأنشطة الاجتماعية والسياسية دون العقائد التي هي جوهر الناس في حياتهم. وذلك لأنها تشكل حياتهم الروحية التي تنبع منها كافة وجوه الأنشطة في جميع مجالات الحياة.**
- 9- **صناعة الحدث: (وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (24) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (25) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (26) بين سبب ضلالهم وهو ما سولته لهم نفوسهم وتزيين الشيطان لهم، ثم بين أنه يجب تقويمهم ودعوتهم إلى عبادة الله وحده، لأن الله وحده هو العالم المالك القادر المتصرف في السماوات والأرض، وكأنه في هذا يستحث سليمان عليه السلام أن يفعل شيئا ما بقصد تقويمهم وهدايتهم، فمثل هؤلاء لا ينبغي أن يُتركوا وشأنهم، بل يجب مساعدتهم للوصول للطريق المستقيم، وهذه رسالة الإعلام الحقيقية ليست في نقل الخبر أو الصورة، وإنما في التعليق عليها لكي نحدد مواقفنا تجاه ما نسمعه وما نراه، فلهذا هذا الهدهد!! كيف عرف مبادئ علم الإعلام قبل علماء زماننا بالآلاف السنين!؟**
- 10- **الحصافة الذهنية في التمييز بين حقائق الأشياء لا حظ قوله عن عرش بلقيس: (وَأَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ) والتكثير للتعظيم، ولاحظ قوله عن عرش الله تعالى كيف جاء معرفا**

وموصوفا مما يوحي بأنه هو العرش الحقيقي الذي ليس كمثلته عرش، وأن صاحبه هو الرب الذي ليس كمثلته شيء (رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ).  
 ولاحظ أيضاً: (يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) والخبء: المخبوء في العالم العلوي أو العالم السفلي، فالسماوات غيب بالنسبة لنا، والأرض شهادة، ولكن باطنها غيب، والخبء شيء مغيب، ولذلك يلاحظ الدقة في ذكر السماوات أولاً، لأن الخبء فيها هو غيب في غيب، وأما الأرض فهو غيب في شهادة، فابتدأ بغيب الغيب وهو الأعم ثم ذكر غيب الشهادة وهو دون الأول، فله ما أعذبه من كلام، وما أجمل حسنه من نظام؟!.

### خاتمة:

والخلاصة لقد تجلى في خطاب هذا الهدهد من الآيات البيّنات ما فيه عبرة، فمن أراد أن يبحث عن الخطاب الإعلامي فليبدأ من القرآن، فإنه كتاب جامع لعلوم الدنيا والآخرة، ولا يقولن ملحد أو مرتاب: كيف يعرف الهدهد فنون الكلام والإعلام وفصل الخطاب؟، فقد قال رب الأرباب: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) (الأنعام:38). وقال أيضاً: (يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) (الجمعة:1).

ولو أردنا استنباط ما في القرآن من كلام عن الإعلام فهو يحتاج رسائل علمية، فلنتشرع أقلام الباحثين من المؤمنين في هذا الميدان، والله ولي الأمر كله وهو عليه التكلان.

آمنتُ بالله العظيم، وبنبيه الكريم، وسجد وجهي للذي خلقه، وشق سمعه وبصره، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

## المصادر والمراجع

## أ - الكتب

- 1- أبجد العلوم، للفتوح، تحقيق عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية، بيروت، 1978م.
- 2- الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي، شركة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الرابعة، 1398هـ.
- 3- إحياء علوم الدين، للغزالي، علق عليه جمال محمود، ومحمد سيد، دار الفجر، القاهرة، الطبعة الأولى، 1420هـ/ 1999م.
- 4- الأذكار للنووي، مكتبة الغزالي، دمشق، الطبعة الثانية، 1405هـ/ 1985م.
- 5- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السعود العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- 6- الاستقامة، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الثانية، 1411هـ/ 1991م.
- 7- الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان.
- 8- أطلس العالم، مكتبة الصغار، بيروت.
- 9- إعجاز القرآن، للباقلاني، تحقيق السيد صقر، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة.
- 10- اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، ابن تيمية، تحقيق عصام حرسثاني ومحمد إبراهيم الزعلي، دار الجيل، بيروت، الطبعة الأولى، 1413/ 1993م.
- 11- الإيمان بالملائكة، عبد الله سراج الدين.
- 12- البداية والنهاية لابن كثير، مكتبة المعارف، بيروت، الطبعة الثانية، 1411هـ/ 1990م.
- 13- بهجة، موسوعة علمية مصورة، دار المختار، سويسرا.
- 14- البيان والتبيين، للجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بمصر، الطبعة الرابعة، 1395هـ/ 1975م.
- 15- تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثانية، 1394هـ/ 1974م.
- 16- تاريخ الأدب العربي (2) العصر الإسلامي، د. شوقي ضيف، دار المعارف، الطبعة 16.
- 17- تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي، للمباركفوري، ضبطه عبد الرحمن محمد عثمان، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، 1414هـ/ 1993م.
- 18- تفسير أبي السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- 19- تفسير البيضاوي، دار الفكر، بيروت.
- 20- تفسير الجلالين، للمحلي والسيوطي، مؤسسة الريان، بيروت، الطبعة الرابعة، 1428هـ/ 2007م.
- 21- التفسير الكبير للرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية، 1417هـ/ 1997م.
- 22- تفسير المنار، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1972م.
- 23- تلبيس إبليس، لابن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت.
- 24- التلخيص في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، شرح: عبد الرحمن البرقوق، دار الفكر

العربي.

- 25- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، (رسالة بيان إعجاز القرآن للخطابي) تحقيق محمد خلف الله، والدكتور محمد زغلول سلام، دار المعارف، الطبعة الثانية، 1387هـ/1968م.
- 26- الجامع الصغير، للسيوطي، نشر دار الفكر.
- 27- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، تصحيح أحمد عبد العليم البردوني، الطبعة الثانية. مطبعة دار الكتب المصرية، 1373هـ/1954م. واعتمدنا أيضاً طبعة دار الشعب، القاهرة.
- 28- حياة الحيوان الكبرى، للدميري، دار الفكر، بيروت.
- 29- الداء والدواء أو الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، لابن القيم، تحقيق عصام الدين الصبايطي، دار الحديث، القاهرة، 1422هـ/2001م.
- 30- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي، دار المعرفة، بيروت.
- 31- دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، موريس بوكاي، دار المعارف، الطبعة الرابعة، 1977م.
- 32- ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح العكبري، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري و عبد الحفيظ شلبي، دار الفكر.
- 33- ديوان الشافعي، صنعة د. أكرم قنبس، هيئة المعرفة والتنمية البشرية، دبي، الطبعة الأولى، 1430هـ/2009م.
- 34- ديوان المعاني، للعسكري، عالم الكتب.
- 35- ديوان نشيدنا، دار السلام، القاهرة، الطبعة الرابعة.
- 36- روح المعاني، للألوسي، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الرابعة، 1405هـ/1985م.
- 37- روح المعاني، للألوسي، دار الفكر، بيروت، 1398هـ/1978م.
- 38- الروض الأنف للسهيلي، دار الفكر، الطبعة الثانية.
- 39- الروض الأنف، للسهيلي، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، دار الفكر، بيروت، 1409هـ/1989م.
- 40- الروض المربع شرح زاد المستقنع مختصر المقنع، للبهوتي، دار الفكر، بيروت، الطبعة السادسة.
- 41- الرياضيات في القرآن الكريم، د. خليفة عبد السميع، الطبعة الأولى، مطبعة عابدين، القاهرة.
- 42- زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية، تحقيق شعيب الأرنؤوط و عبد القادر الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ومكتبة المنار، الكويت، ط16، 1408هـ/1988م.
- 43- السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، و عبد الحفيظ شلبي، دار الحكمة، دمشق. وطبعة مؤسسة علوم القرآن.
- 44- السيرة النبوية لابن هشام، دار الفكر، الطبعة الثانية.
- 45- السيرة النبوية، لابن هشام، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، دار الفكر، بيروت، 1409هـ/1989م.
- 46- شرح العقيدة الطحاوية، بتخريج الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثامنة، 1404هـ/1984م.
- 47- شرح القصائد العشر، للتبريزي، تحقيق د. فخر الدين قباوة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطبعة الرابعة، 1400هـ/1980م.
- 48- الشعر والشعراء، لابن قتيبة، دار صادر، بيروت، الطبعة الرابعة، 1412هـ/1991م.

- 49- صحيح ابن حبان، بترتيب ابن بلبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط، نشر مؤسسة الرسالة، الطبعة - الثالثة، 1418هـ/1998م، بيروت.
- 50- صحيح البخاري، ضبطه الدكتور مصطفى أديب البغا، مؤسسة علوم القرآن، ودار ابن كثير، دمشق، الطبعة الثالثة، 1407هـ / 1987م.
- 51- صحيح مسلم بشرح النووي، تحقيق الشيخ خليل مأمون الشياح، دار المعرفة، بيروت.
- 52- صفوة التفاسير، للصابوني، دار الصابوني، القاهرة، الطبعة التاسعة.
- 53- قصة الفلسفة، ول ديورانت.
- 54- العقيدة والمعرفة، زيغريد هونكة، ترجمة عمر لطفي سالم، دار قتيبة، الطبعة الأولى، 1407هـ/1987م.
- 55- العلم يدعو للإيمان، أ. كريسي موريسون، ترجمة محمود صالح الفلكي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.
- 56- فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، تحقيق محب الدين الخطيب، ومراجعة ابن باز، المكتبة السلفية، ط3، 1407هـ.
- 57- فكرة إعجاز القرآن منذ البعثة النبوية حتى عصرنا الحاضر، لنعيم الحمصي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، 1400هـ/1981م.
- 58- فن الشعر، أرسطو، تحقيق د. عبد الرحمن بدوي.
- 59- في ظلال القرآن، دار الشروق، الطبعة السابعة، بيروت، 1398هـ / 1978م. والطبعة التاسعة، 1400هـ/1980م.
- 60- فيض القدير شرح الجامع الصغير للمناوي، دار المعرفة، بيروت. وطبعة دار الفكر أيضاً.
- 61- فيض القدير شرح الجامع الصغير، للسيوطي، نشر دار الفكر.
- 62- القاموس المحيط، للفيروز آبادي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثالثة، 1407هـ/1987م.
- 63- قصص الأنبياء، لابن كثير، تحقيق سعيد اللحام، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1413هـ/1993م.
- 64- قضية الإعجاز العلمي للقرآن الكريم وضوابط التعامل معها، د. زغلول النجار، دار نهضة مصر، ط2، 2006م.
- 65- الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، موريس بوكاي، دار المعارف، الطبعة الرابعة، 1977م.
- 66- الكشاف، للزمخشري، صححه مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي، بيروت، 1406هـ/1986م.
- 67- لباب النقول في أسباب النزول، للسيوطي، مؤسسة الريان، بيروت، الطبعة الرابعة، 1428هـ/2007م. (مطبوع مع تفسير الجلالين).
- 68- لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1410هـ / 1990م.
- 69- مجموع فتاوى ابن تيمية، جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي. (مصورة عن الطبعة الأولى).
- 70- مختارات البارودي، مشروع المكتبة الجامعة، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، 1404هـ/1984م.
- 71- مختصر تفسير ابن كثير، للصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت، الطبعة السابعة، 1402هـ/1981م.

- 72- مختصر تفسير البغوي، د. عبد الله الزيد، دار السلام، الرياض.
- 73- مختصر صحيح مسلم للمنذري، بتحقيق الألباني، المكتبة الإسلامية، عمان، الطبعة الأولى، 1411هـ.
- 74- مرقة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للقاري، المكتبة الإمدادية، ملتان، باكستان، 1390هـ/1970م.
- 75- المستطرف، للأبشيهي، مكتبة الحياة.
- 76- مسند الإمام أحمد بن حنبل، دار صادر، بيروت. وطبعة دار الفكر العربي.
- 77- مشكاة المصابيح، للتبريزي، بتحقيق الألباني المكتب الإسلامي، دمشق، الطبعة الثالثة، 1405هـ/1985م.
- 78- مع الله في السماء، د. أحمد زكي.
- 79- معاهد التنصيص للعباسي، عالم الكتب، بيروت.
- 80- المعجم الأدبي، جبور عبد النور، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، 1984م.
- 81- معجم البلدان، لياقوت الحموي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1399هـ/1979م.
- 82- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي، نشر: أ. ي. ونسك، طبعة ليدن، 1943م.
- 83- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة الإسلامية، إستانبول، 1984م.
- 84- المعجم الوسيط، دار إحياء التراث الإسلامي، قطر.
- 85- المغني، لابن قدامة، دار الكتب العلمية، بيروت.
- 86- المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق محمد سيد الكيلاني، دار المعرفة، بيروت.
- 87- مقدمة ابن خلدون، تحقيق درويش الجويدي، المكتبة العصرية، صيدا، الطبعة الثانية، 1416هـ/1996م.
- 88- الموسوعة الفلكية، أ. فايجرت، هـ. تسمرمان، ترجمة أ. د. عبد القوي عياد، و أ. د. محمد جمال الدين الفندي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م.
- 89- الموشح، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة.
- 90- الوساطة بين المتنبي وخصومه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي بمصر.

#### ب - الدوريات

1. مجلة الاقتصاد الإسلامي، العدد (333). ذو الحجة 1429هـ، إصدار بنك دبي الإسلامي.
2. مجلة الحكمة، العدد (30). المنشور في محرم 1426، مانشستر، بريطانيا.

\* \* \*

رقم الصفحة	الموضوع
	الإهداء
	المقدمة
	البحث الأول: أكبر الكبائر: الشرك بالله تعالى! أنواعه - أسبابه - نتائجه - الوقاية منه. (دراسة قرآنية موضوعية).
	التمهيد
	الفصل الأول: أنواع الشرك وصوره
	المبحث الأول: نسبة الأقرباء لله تعالى
	المبحث الثاني: عبادة المظاهر الطبيعية والقوى الكونية
	المبحث الثالث: عبادة الطاغوت
	المبحث الرابع: الإلحاد في الأسماء والصفات والأفعال
	المبحث الخامس: التشريع بمعزل عن الشريعة
	الفصل الثاني: أسباب الشرك وبواعثه
	المبحث الأول: التخلف في منهجية التفكير وإعمال العقل
	المبحث الثاني: الموروث الثقافي والاجتماعي
	المبحث الثالث: أسباب نفسية وأخلاقية
	الفصل الثالث: آثار الشرك ونتائجه
	المبحث الأول: آثار الشرك الفكرية والمعرفية
	المبحث الثاني: الآثار النفسية
	المبحث الثالث: الآثار الدينية
	المبحث الرابع: الآثار الاجتماعية
	المبحث الخامس: الآثار الاقتصادية
	المبحث السادس: الآثار السياسية
	الفصل الرابع: الوقاية من الشرك بالله العظيم
	المبحث الأول: الاحتكام إلى العقل والفترة
	المبحث الثاني: إخلاص العبادة لله وحده
	المبحث الثالث: إثبات النفع والضرر والقدرة لله وحده
	المبحث الرابع: اجتناب الأعمال والأقوال التي تؤدي للشرك
	الخاتمة
	أولاً- موجز البحث:
	ثانياً: النتائج

ثالثاً: أهم التوصيات  
المصادر والمراجع

\* \* \*

### البحث الثاني: منهجية القرآن الكريم في التعامل مع آراء معارضية

مقدمة

الهدف من البحث

المبحث الأول: منهج القرآن في الحرية الفكرية

أولاً: تحرير الدين للعقل البشري

ثانياً: تصنيف الرأي الآخر وإدراك مسبباته

ثالثاً: دعوة الإسلام للحوار

رابعاً: آداب الحوار والمناقشة

المبحث الثاني: الرصد القرآني الشامل لمواقف الأقوام السابقين من

أنبيائهم عليهم السلام

أولاً: تسجيل أقوال المعارضين وشبهاتهم الفاسدة

ثانياً: رسم الشخصيات وتسجيل القرآن لمواقفها الدرامية

ثالثاً: تسجيل القرآن للأحوال النفسية

رابعاً: تسجيل القرآن للأحداث بين الأنبياء وأقوامهم

المبحث الثالث: الرصد القرآني الشامل لمواقف المعاندين والمشككين

بالدعوة في العهد النبوي

أولاً: تسجيل القرآن الكريم لأقوال خصوم الدعوة وشبهاتهم الفاسدة

ثانياً: رسم الشخصيات وتسجيل القرآن لمواقفها الدرامية

ثالثاً: تسجيل القرآن للأحوال النفسية

رابعاً: تسجيل القرآن لكافة ظروف الدعوة الجديدة وأحداثها

المبحث الرابع: منهجية القرآن في حوار خصومه، والرد على شبهاتهم

أولاً: طريقة التعامل مع آراء الخصوم والجاحدين

ثانياً: الأسس العامة للحجة القرآنية

المبحث الخامس: التحدي بالمعجزة القرآنية

أولاً: تعريف المعجزة وخصائصها

ثانياً: مراحل التحدي بالمعجزة القرآنية

ثالثاً: أسلوب القرآن

رابعاً: البشائر الغيبية للقرآن

خامساً: الأمثال القرآنية

سادساً: العلوم القرآنية

سابعاً: الإعجاز العلمي  
الخاتمة

\* \* \*

البحث الثالث: وسائل القرآن في حوار الآخر

مقدمة  
تمهيد

- 1- الاحتكام إلى العقل
- 2- الاحتكام إلى النفس
- 3- الاحتكام إلى الفطرة
- 4- الاحتكام إلى البيئة
- 5- الاحتكام إلى الكون ومظاهره
- 6- الاحتكام إلى التاريخ
- 7- الاحتكام إلى المستقبل
- 8- الاحتكام إلى أهل العلم والخبرة
- 9- الاحتكام إلى القيم الفاضلة
- 10- الاحتكام إلى المصلحة العامة
- 11- الاحتكام إلى خوارق العادات (المعجزات)
- 12- الاحتكام إلى المعجزة القرآنية
- 13- استخدام التشبيه
- 14- المذهب الكلامي
- 15- تسخير طاقات اللغة
- 16- طلب الدليل والبرهان
- 17- دحض شبهة الخصم
- 18- الاحتكام إلى القيم الجمالية
- 19- الاحتكام إلى السيرة النبوية
- 20- الاحتكام إلى المنهج التجريبي
- 21- الوعد والوعيد
- 22- الاحتكام إلى الله عز وجل

خاتمة

\* \* \*

البحث الرابع: أدبيات الجمال في الكتاب والسنة بعد غائب في منهاج  
الدعوة في العصر الحديث  
مقدمة

أولاً: تعريف الجمال

ثانياً: مواضع الجمال

ثالثا: فلسفة الجمال في الإسلام

رابعا: اللمسات الجمالية في أركان الإيمان

الركن الأول: الإيمان بالله

الركن الثاني: الإيمان بالملائكة

الركن الثالث: الإيمان بالكتب السماوية

الركن الرابع: الإيمان بالأنبياء والرسل عليهم السلام

الركن الخامس: اليوم الآخر

الركن السادس: الإيمان بالقدر

خامسا: اللمسات الجمالية في أركان الإسلام

سادسا: صور العناية بالجمال

الصورة الأولى: العناية بالجسد

الصورة الثانية: العناية بالأسماء

الصورة الثالثة: المرأة

الصورة الرابعة: الملابس

الصورة الخامسة: الصوت الجميل

الصورة السادسة: الكون والطبيعة

الصورة السابعة: عالم الحيوان

الصورة الثامنة: الفكر والبيان

الصورة التاسعة: الآداب العامة

الصورة العاشرة: الجوانب الروحية

الصورة الحادية عشرة: الحث على الجمال والدعاء به للمسلمين وغيرهم

الخاتمة

\* \* \*

**البحث الخامس: الأنبياء والرسل عليهم السلام ضحايا الظلم والعدوان!! (دراسة قرآنية)**

مقدمة

أولا: قصة الصراع بين الحق والباطل

ثانيا: احترام العقل الإنساني

ثالثا: الناس فريقان أو حزبان

رابعا: عقلية طاغية وتفكير عقيم

خامسا: رفض مطلق للحق

سادسا: إدانة ظالمة للإيمان والمؤمنين

سابعا: رفض التعايش السلمي

ثامنا: المسارعة في العدوان

تاسعا: شبهة وردّها

عاشرا: جذور العدوان

أحد عشر: ماذا يريد حزب الشيطان؟  
 اثنا عشر: الوصاية على الناس  
 ثلاثة عشر: صراع إلى يوم القيامة  
 أربعة عشر: الأنبياء والرسول عليهم السلام جميعا ضحايا العدوان  
 المبحث الأول: الحرب النفسية  
 أولا: احتكار الحقيقة  
 ثانيا: تزييف الحقائق  
 ثالثا: الإرهاب النفسي  
 رابعا: الترغيب والإغراء  
 خامسا: رفض الحقيقة  
 سادسا: تأثيرات نفسية مختلفة  
 المبحث الثاني: الحرب الإعلامية  
 أولا: انعكاس التصورات  
 ثانيا: ترويح التهم والأباطيل  
 ثالثا: اعتماد أساليب متعددة للتضليل الإعلامي  
 رابعا: حرب إعلامية شاملة  
 المبحث الثالث: الضغوط الاقتصادية  
 أولا: تبرير الفقر والتردي الاقتصادي  
 ثانيا: الانفاق ضد الحق  
 ثالثا: تبرير التنافس الحر المجرد من الأخلاق  
 رابعا: الحصار الاقتصادي  
 المبحث الرابع: ترويح جرائم الشرف والانحرافات الجنسية  
 أولا: التجارة بالشهوات وإشاعتها  
 ثانيا: رمي المحصنات  
 ثالثا: محاولة الاغتصاب الجنسي  
 المبحث الخامس: التصفية المادية الشاملة للوجود الديني  
 أولا: هدم دور العبادة  
 ثانيا: التصفية الجسدية  
 ثالثا: الإبادة الجماعية  
 الخاتمة

\* \* \*

### المبحث السادس: معركة القرآن مع الجمود والتخلف

مقدمة

منهج البحث

تمهيد

أولا: حقيقة الإسلام

ثانيا: الإسلام دين الحضارة الشاملة

ثالثا: محاور حرب القرآن على الجمود والتخلف

رابعا: التخلف الذي تعيشه البشرية في العصر الحديث

خامسا: ماذا يريد القرآن من البشر

المبحث الأول: التخلف الفكري والعقدي  
 أولاً: التخلف في معرفة الذات الإلهية العظمى  
 الصورة الأولى: وهي الشرك بالله تعالى  
 الصورة الثانية: الإلحاد بأسماء الله وصفاته وأفعاله  
 الصورة الثالثة: الإلحاد بالذات العلية  
 ثانياً: التخلف في معرفة الملائكة عليهم السلام  
 ثالثاً: التخلف في الموقف من الكتب السماوية  
 رابعاً: التخلف في الموقف من الرسل وأتباعهم  
 خامساً: التخلف في الموقف من اليوم الآخر.  
 سادساً: التخلف فهم القدر وحركة الحياة  
 سابعاً: التخلف في منهجية التفكير وإعمال العقل

المبحث الثاني: التخلف الاجتماعي  
 أولاً: النزاعات القبلية والطائفية  
 ثانياً: توسع الطبقات المسحوقة في المجتمع  
 ثالثاً: التخلف في دور المرأة ووظيفتها الاجتماعية  
 رابعاً: التخلف في الخطاب الإعلامي  
 خامساً: التخلف الأخلاقي والقيمي

أ- أمهات الجرائم

ب - التشبث بالقيم والتقاليد البالية

ج - شيوع القيم الاجتماعية الفاسدة

د - اقتراف الأثام والموبقات

المبحث الثالث: التخلف الاقتصادي

أولاً: التنافس الحر بمعزل عن الأخلاق

ثانياً: المال هدف بحد ذاته

ثالثاً: عدم رعاية حقوق الأمة في المال

رابعاً: رفض القيم الإنسانية والضوابط الشرعية  
 خامساً: عدم تطوير البيئة واستثمار خيرات الأرض

المبحث الرابع: التخلف السياسي

أولاً: التنديد بالقيم السياسية الفاسدة

أ- الظلم

ب - الطغيان

ج - التكذيب  
 د - العلو والتكبر  
 هـ - الإسراف  
 و - التضليل  
 ز - البطانة الفاسدة  
 ح - الهواجس والرعب  
 ط - الخروج على قوانين الفطرة  
 ثانيا: التنديد بسياسة الطائفية  
 ثالثا: رفض الآخر وتصفيته  
 رابعا: الاستبداد السياسي  
 خامسا: التشريع حق لله تعالى  
 سادسا: التنديد بالفساد الارستقراطي

الخاتمة

\* \* \*

### البحث السابع: القيم الحضارية العليافي الدعوة الإسلامية

مقدمة:

الأمة الإسلامية أمة الحضارة  
 تميز الحضارة الإسلامية  
 دعوة إلى البناء الحضاري من جديد  
 مساوئ الإلحاد والإباحية  
 وحدة الدين والعلم  
 الإسلام دين حضارة المستقبل

القيم الحضارية في الإسلام  
 القيمة الأولى: العدالة  
 القيمة الثانية: الرحمة  
 القيمة الثالثة: التكافل الاجتماعي  
 القيمة الرابعة: الحرية  
 القيمة الخامسة: العلم  
 القيمة السادسة: العمل والإنتاج  
 القيمة السابعة: المحافظة على الوقت  
 القيمة الثامنة: المساواة وسيادة القانون  
 القيمة التاسعة: الشورى ومقاومة الاستبداد  
 القيمة العاشرة: العمران  
 القيمة الحادية عشرة: حقوق المرأة  
 القيمة الثانية عشرة: السلام

خاتمة

\* \* \*

**البحث الثامن: دراسات في الإعجاز الخالد**  
المقدمة

المبحث الأول: الإعجاز الحضاري في القرآن الكريم

المبحث الثاني: نظرية العكس في إثبات الإعجاز

المبحث الثالث: جوهرة الإعجاز المكاني بمكة المكرمة وخصائص البلد الأمين معجزة المكان مكملة لمعجزة الزمان والرسالة والرسول صلى الله عليه وسلم .

المبحث الرابع: المعجزات تشهد بعظمة الخالق، صور من الإعجاز العلمي

المبحث الخامس: كروية الأرض حقيقة علمية أشار إليها القرآن الكريم، وأكدها العلماء المسلمون في بحوثهم الجغرافية

المبحث السادس: ضوابط هامة في دراسة إعجاز القرآن الكريم

\* \* \*

**البحث التاسع: مبادئ العملية الإعلامية في خطاب الهدد**

\* \* \*

المصادر والمراجع